المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

التعريب
في القرن الأول الهجري



تأليف وترجمة
محمد الشرقاوي

1062

هذا الكتاب يبحث فى كيفية تعريب الأمصار الإسلامية فى القرن الأول الهجرى، فى محاولة لتفسير ظهور اللهجات العربية الحديثة وتبايناتها وتشابهاتها واختلافها جميعًا مع اللغة العربية قبل الفتوحات العربية. وهى تعد أول دراسة تحاول أن تدرس هذه الفترة فى تاريخ اللغة العربية، كما تحاول أن ترسم التاريخ الاجتماعى اللغوى للأمصار الإسلامية وقت الفتوحات وتأثير حالة التحول اللغوى الجماعى من اللغات المحلية إلى العربية على بنية اللغة العربية وتطور اللهجات.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى

التعريب فى القرن الأول الهجرى

المشروع القومى للترجمة

التعريب فى القرن الأول الهجرى

تأليف وترجمة : محمد الشرقاوى

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٧

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٦٢
- التعريب فى القرن الأول الهجرى
- محمد الشرقاوى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Arabicization

A Case of Second Language acquisition

by : Muhammad Al - Sharkawi

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الشرقاوى ، محمد

التعريب فى القرن الأول الهجرى/تأليف وترجمة : محمد الشرقاوى -
ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ .

٣٥٦ ص ، ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة ؛ العدد ١٠٦٢)

١ - الترجمة العربية .

(أ) العنـوان ٤١٨,٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢١٢٠٠

الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 073 - 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتـــويات

تصدير المترجم 9

الفـــصل الأول : موضوع الكتاب 15

الفـصل الثـانى : تطوير العربية 21

الفـصل الثـالث : الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام 55

الفـصل الرابع : العربية بعد الفتوحات 101

الفصل الخامس : العربية لغة أجنبية 183

الفصل السادس : الظروف الاجتماعية السكانية للتعريب 197

الفصل السـابع : التعلم الحر للغة الأجنبية وحديث الأجانب 239

الفصل الثـامن : أنماط حديث الأجانب فى العربية 309

الخـــاتمة 335

المـراجـع 339

إهـــداء

إلى مروة وكريم

زوجتي وابني اللذين ضحيا

بوقتهما لهذا المجهود المتواضع

تصـــدير

يعدُّ تطور اللغة العربيـة فى ثلاث مراحل من تاريخـها مرتبطًا ارتباطًا شرطيا بالهجرة والانتقال، فيستطيع القارئ أن يدرك أهمية الهجرة فى صناعة ما يمكن أن نسميه مفهوم اللغة العربية؛ ففى القرن الأول الهجرى كانت الفتوحات العربية التى مهدت للعرب فى شمال أفريقيا والعراق والشام، فنشأت اللهجات العربية التى نعرفها الآن فى تلك الأمصار بشكليها الحضرى والريفى. كما أن هجرات العرب إلى آسيا فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة قد أسهمت فى نشوء ما يمكن أن نسميه بالجزر اللغوية العربية خارج حدود الإقليم اللغوى العربى، تلك الجزر فى أفغانستان وأوزبكستان. أما القرن التاسع عشر فقد شهد نوعًا آخر من الهجرات العربية؛ كانت الهجرات هذه المرة لشرق أفريقيا فى المرحلة الاستعمارية، فنشأت أنماط من العربية فى تلك الأماكن يمكن أن نسميها الهجين اللغوى العربى.

سنسهب فى الحديث عن تلك التقسيمات داخل الكتاب ولكن يكفى أن نعرف الآن أن العربية بفضل الهجرات عبر التاريخ أصبحت مفهومًا لغويا مركبًا، ليس فقط من لهجات وفصحى، بل يحتوى على أنماط متفاوتة. يحاول هذا الكتاب أن يركز على الهجرة العربية الأولى وتأثيرها فى تطور العربية كما نفهمها. ولكن هذا التركيز لا يعنى أننا سنغفل المراحل الأخرى من تلك الهجرات، بل نستخدمها على سبيل المقارنة. ليلاحظ القارئ الكريم أن الكتاب سيعتمد طريقة مقطعية فى التركيز على مادة الدراسة.

ليس موضوع تطور العربية فى حد ذاته مادة بحثية جديدة، بل سبق أن درسها علماء كبار فى علوم العربية منهم فُك سنة ١٩٥١ فى كتابه "العربية"، تميَّز هذا الكتاب

صفتان أساسيتان: الأولى أنه كتاب يرصد تطور بعض العناصر اللغوية العامة كالتصريف الإعرابى من مرحلة ما قبل الفتح إلى المراحل التاريخية العربية الإسلامية المتأخرة، ويعتمد فى تقسيم مراحله تلك على تقسيمات الأدباء والمؤرخين الأدبيين العرب القدماء. فتجده يتكلم عن العصر الأموى والعصر العباسى وعصر الدويلات دون أن يتوافق هذا التقسيم مع سمات لغوية مميزة لكل مرحلة يتكلم عنها. أما الصفة الثانية المهمة فى كتاب "العربية" فهى أنه يتعامل فقط مع الأداء اللغوى الخاص بفصحى القرآن الكريم والشعر العربى. يتوصل فُك فى هذا البحث إلى ظاهرة سيؤكدها كورينتى فى السبعينيات فى مقالات ثلاث، وهى أن العرب فقدوا سليقتهم اللغوية وحسهم الفطرى للتصريف الإعرابى كأحد أوضح رموز الفصحى القرآنية، وجاء هذا الفقد مبكرًا جدا بعد الفتوحات العربية مباشرة.

الميزة الأساسية فى كتاب فُك هى أنه يرصد تطورًا فى استخدام ظاهرة بعينها وهى التصريف الإعرابى. وهو أمر حسن إن لم يكن مفيدًا فى رصد الوضع اللغوى العام فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتح ولا فى الأمصار بعده. حاول فرستيغ فى عام ١٩٨٤ أن يفسر ما رآه انهيارًا للعربية القديمة التى كانت تشبه عربية القرآن من وجهة نظره. يتصور فرستيغ أن هناك انتقالاً حادا وسريعًا من عربية تشبه عربية القرآن فيها تصريف إعرابى سليم وكامل قبل الفتح عند كل العرب لعربية تشبه عربية لهجاتنا المعاصرة بدون تصريف إعرابى وبلهجات خالية من المثنى وجموع المؤنث بعد الفتح، والسبب فى ذلك فى تصور فرستيغ هو أن العربية فى الأمصار المفتوحة تعرضت لعملية تهجين لغوى واسعة من قِبَل غير العرب إبان تعلمهم للعربية بشكل سريع وغير منظم.

لكن لأسباب كثيرة سنسهب فى تفصيلها داخل الكتاب انتقد الباحثون نظرية فرستيغ معتمدين على تبريرات لغوية تركيبية واجتماعية سكانية، ولكن أبرز أوجه النقد لتلك النظرية هو أنها لا تتعامل مع التطور اللغوى العربى فى اللهجات الحضرية بشكل كامل. فالتبرير الذى يقدمه فرستيغ أولاً : لا يعكسه واقع اللهجات العربية الآن من حيث كونها متشابهة مع الفصحى فى الكثير من المواقع، كما أنها لا تعكس أى أثر من آثار التهجين اللغوى. ثانيًا : أثبتت الدراسات الحديثة فى التهجين اللغوى أن التهجين

عملية وليس مرحلة تطورية، أى أنه حتى لو حدث تهجين فليس لهذا التهجين أن يستقر بالضرورة فيصبح لغة جديدة نطلق عليها هجينًا لغويا. يعتقد الكثير من الباحثين الآن، وأنا واحد منهم، أن التهجين اللغوى عملية من ضمن العمليات الأولى فى تعلم اللغة الثانية.

ولكن نظرية فرستيغ فى شكلها الأصلى، على الرغم من معايبها النظرية، فإنها النظرية الوحيدة التى طرحت حتى الآن لتطور اللهجات العربية الحضرية الحديثة، أزعم هنا أننى أتصور أن التهجين اللغوى لا بد أنه حدث فى أوساط البصرة والكوفة والفسطاط والرملة والرباط والقيروان وغيرها، ولكنه حدث كطور من أطوار التعلم فى ظل بيئة لغوية شكل العرب فيها الغالبية من السكان.

نحن بحاجة كبيرة لنظريات فى تطور العربية عمومًا وأنماط خاصة منها خصوصًا، تعتمد تلك النظريات على علوم اللغة الحديثة من تعلم لغة ثانية وعلم لغة اجتماعى وعلوم التواصل أيضا. وأزعم هنا أن العربية تقدم لنا حالة فريدة من التطور اللغوى، إن درست بشكل كافٍ وبعناية كبيرة، ستفيدنا كثيرًا فى تطور علوم اللغة عمومًا.

محمد الشرقاوى

الفصل الأول

موضوع الكتاب

يحاول هذا الكتاب إلقاء الضوء على آليات التعريب التى أدت لتعريب الأمصار الإسلامية عمومًا ومصر خصوصًا فى المرحلة الأولى من الفتوحات العربية. الفرضية الأساسية فى هذا الكتاب أن عملية التحول اللغو الواسعة والتى تبدو كما لو كانت جماعية من اللغات المحلية للعربية فى تلك البلاد إنما هى عملية تعلم للغة أجنبية[1] . من أهم العناصر فى توجيه عملية التعلم تلك هو المدخل اللغوى القابل للتعلم، والذى قدمه ابن اللغة العربى للمتعلم الأجنبى، الذى هو المصرى أو الشامى أو الليبى فى ذلك الوقت.

أدى العديد من الأسباب التاريخية إلى غياب عملية تعليم منظمة للغة العربية لأبناء اللغات الأخرى فى تلك المرحلة فى الأمصار المفتوحة، وفى ظروف كتلك يصبح نوع المدخل اللغوى المطروح للتعلم وكميته ونسبة إتاحته من أهم العناصر فى عملية تعلم لغة أجنبية غير منظمة. فى حالات تعلم اللغة بشكل غير منظم يكون المدخل اللغوى من قبل ابن اللغة الهدف معدلاً[2] . كما تحدد بعض العناصر السكانية الاجتماعية التاريخية نوعية هذا المدخل بشكل كبير. وكانت الظروف الاجتماعية والتاريخية والسكانية فى الأمصار المفتوحة ولمدة عقود قليلة من الفتح تقضى بأن يقدم العرب لغير العرب مدخلاً

(١) انظر كتاب كليف هولز من صفحة ٢٠ إلى ٢٥ .

(٢) انظر كلين ١٩٨٦ وانظر كذلك الفصل الرابع من هذا الكتاب . وللحصول على تلخيص وافٍ للموضوع عمومًا انظر إليس ١٩٩٦ .

لغويا عربيا معدلاً، الغرض من هذا التعديل اللغوى وظيفى، فهو يسهل التواصل بين أبناء اللغة الهدف وهى العربية والجماعات اللغوية الأخرى التى لا تتكلم تلك اللغة. ولذلك فمن الممكن أن نفترض أن اللهجات العربية الحضرية الحديثة إنما نتجت جزئيا على الأقل من هذا التعديل اللغوى. ويعنى هذا أن الفروق بين اللهجات العربية الجاهلية القديمة فى شبه الجزيرة العربية واللهجات العربية الحضرية الحديثة إنما ترجع لتلك العملية ولهذا المدخل اللغوى المعدل.

فى نفس عملية التعلم تلك يكون للمتعلم أهمية كبيرة فى تشكيل المنتج النهائى، أى اللهجة العربية فى حالتنا نحن هنا. ولكننى لن أتعمق فى هذا الكتاب فى دور المتعلم فى عملية الاكتساب اللغوى لأسباب عملية تخص حجم الكتاب والحاجة إلى التركيز على عنصر واحد. من الصحيح أن عملية التعلم قد تبين لنا الكثير فى كيفية تطور اللهجات العربية الحضرية الحديثة، ولكن دور المدخل اللغوى سابق على دور المتعلم.

أسترسل فى فرضيتى وأقول: لما كان المدخل اللغوى متأثرًا ببعض العناصر الاجتماعية والتاريخية والسكانية فإن الفرق بين لهجات شبه الجزيرة العربية مهما كان شكلها واللهجات العربية الحديثة إنما هو عمل هذه الظروف. أدت الأسباب الاجتماعية والتاريخية نفسها إلى أن يقوم ابن اللغة العربية نفسه بعملية تعديل المدخل اللغوى تلك، ولذلك لم تؤد هذه العملية لإعادة تركيب اللغة العربية بشكل كامل، لأن الظروف مكنت من وجود عدد كافٍ من أبناء اللغة للتواصل، وكمية كافية من المدخل اللغوى العربى الصحيح.

النموذج الذى سنتعامل معه فى هذا الكتاب محدود بالقرنين الأول والثانى الهجريين من الناحية الزمانية، وبالأمصار التى سأعرفها هناك بالمعسكرات العربية الحربية التى تطورت فى مراحل لاحقة لتكون مدنًا كاملةً كالفسطاط والبصرة والكوفة والقيروان والرباط. فى تلك الأماكن فى تلك الفترة كان من الممكن أن يظهر المدخل اللغوى المعدل، كما كان تعلم العربية من خلال هذا المدخل ممكنًا ومحببًا لغير العرب بسبب الامتيازات التى كان يوفرها، والتواصل الذى كان يسمح للعرب ولغير العرب بقضاء احتياجاتهم

المعيشية معًا. وكان العرب لا غير العرب الأكثرية الغالبة فى تلك الأماكن التى بناها العرب معسكرات لهم.

ولكن هذا النموذج لا يستطيع أن يفسر انتشار العربية فى إفريقيا غربًا وجنوبًا من السودان فى شكل لهجات عربية كاملة أو لغات اتصال.

١ - تأثير العناصر السكانية الاجتماعية على تطور اللغة العربية :

منذ بداية الثلث الأول من القرن السابع وحتى النصف الثانى من القرن العشرين استطاعت العربية أن تتطور بثلاثة اتجاهات مختلفة[٣]، والسبب فى تلك المناحى المختلفة فى التطور هو الظروف الاجتماعية والسكانية والتاريخية التى وجدت العربية فيها. تطورت العربية أول ما تطورت على شكل لهجات كاملة، وهى لهجات المنطقة العربية وشمال إفريقيا الحضرية والريفية كما نعرفها الآن. أما التطور الثانى فقد ظهر فى شكل أنماط لغة أقلية. وكان التطور الثالث والأخير فى شكل أنماط هجين لغوى عربى قام فى القرن التاسع عشر فى جنوب السودان وكينيا وأوغندا.

فى حالة الهجين اللغوى كان هناك تنوع كبير فى العنصر السكانى واللغوى فى جنوب السودان التى كان العرب فيها أقلية استخدمت لغتها فقط لغة تواصل مشتركة بين الجماعات العرقية واللغوية المتباينة فى تلك المناطق. وكان العرب أقلية على الرغم من أنهم كانوا أقلية رفيعة المستوى راقية التنظيم. ولما كانت حاجة التواصل اليومى ماسة ولما كان العرب أقلية ومدخلهم اللغوى قليلاً على قلتهم فقد تم تهجين العربية من قبل غير العرب للتمكن من استخدامها أو قدرٍ منها على الأقل[٤] .

---

(٣) للحصول على منظور عام لتطور العربية عبر التاريخ انظر كتاب فرستيغ ١٩٩٧ .

(٤) للحصول على منظور عام لتطور أنماط تهجين اللغة العربية فى جنوب السودان وشرق إفريقيا انظر مقال أوِنز فى عام ١٩٩٦ .

عندما تطورت العربية فى شكل لغة تواصل أقلية فى بعض الأماكن(٥) وجد العرب أنفسهم وسط جماعات لغوية مختلفة وأجناس بشرية متباينة. ولم يكن العرب فى تلك المناطق جماعة لغوية متميزة ولم يكونوا أيضا أصحاب موقع أغلبية عددية، ولذلك لم تصبح العربية لغة التواصل البينى بين مختلف تلك الجماعات اللغوية، بل استعارت العربية من هذا الوسط اللغوى المتنوع بعض السمات النحوية والصرفية بسبب الضغط الكبير الذى تعرض له العرب من حاجات الاتصال بالجماعات الأخرى؛ فبدلاً من أن تسبب العربية تحولاً فى الاستخدام اللغوى من لغات متعددة للعربية كما حدث فى مصر والشام والعراق وشمال إفريقيا اضطرت العربية لأن تصبح جزءاً من التركيبة اللغوية للمنطقة وتشترك مع باقى لغات المنطقة فى سمات لغوية معينة على الرغم من أنها تختلف تاريخيا وعنصريا عن باقى تلك اللغات(٦) .

أما اللهجات الحضرية العربية الحديثة فقد نشأت فى أماكن استطاع العرب أن يثبتوا مكانتهم فيها كجماعة أغلبية سكانية، وذلك من خلال مظلة المدن التى أسسوها أنفسهم كالفسطاط والبصرة والكوفة. استطاعت تلك المدن رغم صغرها وحداثتها أن تجتذب أعداداً من المهاجرين من السكان الأصليين للبلاد المفتوحة والذين اضطروا بدورهم لتعلم العربية لأغراض غير تعليمية. وفى تلك الظروف قدم العرب الذين كانت لهم مصالحهم فى التواصل مع السكان الأصليين لهؤلاء المهاجرين مدخلا لغويا معدلا وقابلاً للتعلم. لقد ساعد توافر أبناء اللغة العربية بشكل جماعة غالبة، وكذلك ساعد توافر المدخل اللغوى العربى على قيام اللهجات الحضرية من هذا المدخل المعدل، وبدون أى إعادة بناء كبيرة للغة العربية الأصلية التى دخلت عملية التعلم تلك كما كان الحال مع الهجين اللغوى العربى، وبدون أى استعارة لتراكيب من اللغات الأصلية كما هو الحال فى الجزر اللغوية العربية فى أفغانستان وأوزبكستان وقبرص.

---

(٥) هذا هو حال العربية فى قبرص ومالطا وأسيا الوسطى . للحصول على فكرة عامة عن تلك الأنماط اللغوية العربية انظر كتاب فرستيغ ١٩٩٧ .

(٦) من بين أهم السمات التى تشترك فيها اللغة العربية فى أفغانستان والفارسية وباقى لغات المنطقة حلول الفعل أخيراً فى الجملة بحيث يكون ترتيب الكلمات فى الجملة كالتالى : اسم – مفعول به – فعل .

أما بالنسبة للهجن اللغوية العربية فقد كانت هناك رغبة من قبل جميع أطراف عملية التواصل اللغوى للوصول إلى لغة تواصل مشتركة تكون مختلفة عن كل لغات الجماعات الموجودة فى جنوب السودان حيث ولدت ذلك الهجين. ولذلك لم يكن هناك اختيار أحسن من لغة الوافد العربى الثرى القوى المحايد. ولكن لما كانت عمليات التواصل بين العرب وغير العرب فى تلك السياقات الاجتماعية محدودة نسبيا فقد كان المدخل اللغوى العربى غير متوفر بدرجة كافية تساعد على التعلم، وكذلك لم يكن العرب كأشخاص متوافرين بشكل كافٍ ليصلحوا أخطاء التعلم التى عادة ما تحدث فى عمليات تعلم اللغة الثانية بشكل طبيعى غير منظم. لقد كانت العربية فى تلك السياقات السكانية الاجتماعية لغة تواصل بين جماعات لغوية وعرقية مختلفة لا تشترك فى لغة تواصل واحدة. وفى الوقت نفسه كانت أعداد العرب قليلة فى المعسكرات والمخيمات التى نشأت فيها الهجن اللغوية فى جنوب السودان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر[٧] . أما فى حالات الجزر اللغوية العربية فقد كان العرب أقلية ولم تكن لهم قوة اقتصادية مؤثرة ولم يغيروا التركيبة السكانية فى الأقاليم التى هاجروا إليها، ولذلك لم يكن هناك دافع لتعلم العربية، بل كان هناك دافع عند العرب لتعلم اللغات المحيطة بهم لأغراض التواصل مع الجماعات اللغوية والعرقية التى يتعاملون معها. أما بالنسبة للهجات العربية التى نعرفها الآن فى العراق والشام وشمال إفريقيا فإن الظروف كانت مختلفة، فقد كان هناك دافع لتعلم العربية من قبل السكان الأصليين من جهة ودافع عند العرب لتسهيل عملية التعلم تلك من جهة أخرى.

٢ - هذا الكتاب :

أفترض فى هذا الكتاب أن عملية تعلم اللغة الثانية بشكل طبيعى وغير منظم وفى الحالات التى يكون ابن اللغة الهدف فيها مستعدا للتواصل بدرجة استعداد المتعلم نفسها إنما هى عملية تمكن من ظهور المدخل اللغوى المعدل وتحفزه. هذا المدخل

---

(٧) للحصول على معلومات إضافية فيما يخص أعداد العرب فى المخيمات الموجودة فى جنوب السودان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر انظر مقال جوناثان أونز عام ١٩٩٦ .

اللغوى الذى يقدمه ابن اللغة الهدف للمتعلم ما هو إلا نمط لغوى نسميه نمط حديث الأجانب. من أهم سمات هذا النمط من المدخل اللغوى التركيبية: التبسيط والتعميم والتنظيم لكل مستويات التحليل اللغوى الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. سنتعمق فى تناول هذا الموضوع من خلال دراستنا لأنواع العربية التى كانت مستخدمة فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتوحات وظهور الإسلام. وسنخصص لهذا الموضوع فصلا كاملا وهو الفصل الثانى. أما الفصل الثالث فسنناقش فيه التطورات التى ظهرت على أنواع العربية بعد الفتوحات العربية فى الأمصار والتنوع فى استخدام العربية كنسق لغوى متكامل.

وسأقدم فى الفصلين السادس والسابع تفسيرًا للتطورات اللغوية التى حدثت فى اللغة العربية ونشوء اللهجات الحضرية، وسأبرر لغويا وتاريخيا انتشارها. سأقدم فى الفصل السادس صورة سكانية تاريخية للبلاد المفتوحة إبان الفتوحات وبعدها بقليل، وسأركز فى هذا السياق على العوامل التى أظنها سهلت عملية التعريب. سألقى الضوء فى هذا الفصل على ثلاثة عوامل مهمة هى: بناء المدن العربية المبكرة كالفسطاط والبصرة والكوفة، وأنماط الهجرات العربية للأمصار عموما ولتلك المدن بشكل خاص، وطرق التواصل بين العرب وغير العرب فى تلك المجتمعات الجديدة وكثافته. أما فى الفصل السابع فسيكون التركيز على السمات العامة لتعلم اللغة الثانية بشكل طبيعى غير منظم وكذلك على أهمية المدخل اللغوى فى تحديد مصير عملية التعلم ومدى إعادة تركيب اللغة الهدف فيها. ثم أركز على نمط حديث الأجانب كنمط لتقديم المدخل اللغوى وأبين سماته العامة.

أما الفصل الثامن والأخير فسيتناول قائمة بسمات أنماط حديث الأجانب فى اللغة العربية واتجاهاته العامة، وسأبين أن نتيجة استخدام هذا النمط لتقديم مدخل لغوى للأجانب يسهل تراكيب العربية ويبسطها ولكنه فى الوقت نفسه لا يؤدى بها لعملية إعادة تركيب كاملة كما هو الحال فى الهجن اللغوية العربية، كما أنه لا يؤدى لعمليات اقتباس لغوى كثيفة كما هو الحال فى الجزر اللغوية العربية فى آسيا. هذا التقارب البنيوى بين سمات حديث الأجانب واللغة الهدف الأصلية هو السبب فى أن اللهجات العربية لم تتطور بشكل يبعدها تركيبيا عن قواعد العربية القديمة قبل الفتح، ولا عن

قواعد ما أصبحنا نعرفه بالعربية الفصحى. وفى نهاية هذا الفصل أقارن بين اللهجات العربية والهجن اللغوية العربية والجزر اللغوية من الناحية التركيبية، سأحاول أن أبين من خلال المقارنة أن الاختلاف فى الظروف الاجتماعية والسكانية فى تطور تلك الأنماط من العربية هو الذى أدى بشكل مباشر وغير مباشر إلى الاختلاف فى طرق تطور تلك الأنماط المختلفة.

٣ - بعض المصطلحات المستخدمة :

أستخدم المصطلحات التالية فى هذا الكتاب بمعانى خاصة تستوجب التفسير المسبق :

المدخل اللغوى هو أول مصطلح أختاره للتفسير. نعنى بالمدخل اللغوى هنا اللغة التى يتلقاها متعلم اللغة ويتعامل معها عقليا ويستخدمها فى عملية التعلم. ويكون المدخل اللغوى عبارة عن حديث ابن لغة أو مادة مقروءة أو مسموعة أو كل ما من شأنه أن يستخدم فى التعلم كمادة خام.

العربية القديمة هو المصطلح الثانى. سأستخدم العربية القديمة فى هذا الكتاب للتعبير عن الأنماط اللغوية المستخدمة فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتح من لهجات حضرية وبدوية ومن عربية القرآن والشعر الجاهلى. يتجنب هذا المصطلح الاختلافات الجغرافية والاجتماعية والوظيفية التى قد تكون موجودة فى عربية تلك الفترة المبكرة والتى لا نعرف عنها الكثير، ويتجنب هذا الاستخدام أيضا المسائل الخلافية بين علماء العربية بخصوص الوضع اللغوى الاجتماعى فى تلك الفترة[٨] . وأخيراً، يتجنب هذا المصطلح الجدل الدائر فى أوساط الباحثين عن ماهية عربية الشعر الجاهلى والقرآن الكريم من حيث كونها لغة استخدام يومى من عدمه. الدافع وراء هذا الحرص فى استخدام المصطلح عدم وجود معايير لغوية ثابتة ومتفق عليها فى التفريق بين اللهجات وعربية القرآن واللهجات الحضرية والبدوية، أى أنه ليس هناك أطلس لغوى عربى لتلك الفترة.

---

(٨) للمزيد عن النظريات المختلفة حول الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام انظر كلاً من زويتلر ١٩٧٨ وفرستيغ ١٩٩٧ .

المصطلح الثالث الذى أستخدمه فى هذا الكتاب هو مصطلح **العربية الجديدة**. وهو مصطلح يشير إلى الأنماط الجديدة من العربية التى ظهرت فى الأمصار المفتوحة وخاصة فى المناطق الحضرية منها بعد الفتح. ولا يعبر هذا المصطلح عن اللهجات البدوية العربية فى الأمصار المفتوحة وخاصة مصر والشام والعراق، ولا عن العربية الفصحى التى بدأت تتشكل قواعدها المدونة فى القرن الثانى بعد الفتوحات. يغطى هذا المصطلح فروقًا تركيبية كبيرة قد تكون موجودة فى الأنماط الحضرية من العربية بعد الفتح، ولكننا لا نملك عنها أدلة لغوية كافية لوصفها وتصنيفها. وكذلك يغطى المصطلح الأنماط المرحلية التى قد يكون متعلمو العربية فى تلك المراحل قد أنتجوها والهجن اللغوية أو أنماط التواصل التى قد تكون قد ظهرت كأدوات تواصل مبكرة جدا بين العرب وغير العرب باستخدام اللغة العربية.

المصطلح الرابع الذى أستخدمه هنا هو مصطلح **العربية الفصحى**. نستخدم هذا المصطلح للتعبير عن النمط الذى ظهر بشكل واع فى التركيبة اللغوية العربية من عملية التقعيد والتأصيل لعربية القرآن الكريم والشعر الجاهلى، والتى استمرت مراحلها الأولى فى القرون الثلاثة الأولى من الفتح العربى.

أما **العربية الوسطى** فهو آخر مصطلح أودّ التعريف به فى هذا السياق التاريخى. وهو مصطلح استخدم للتعبير عن المحاولات التى قام بها العرب وغير العرب للتقرب من قواعد الفصحى ومحاكاتها فى محاولة منهم لتوخى أكبر قدر ممكن من الصحة اللغوية. وهو مصطلح يعبر عن مستويات متباينة من التقارب بين النمط المنتج فعلا وقواعد العربية الفصحى. استخدم هذا المصطلح فى الكتاب على خلفية من الازدواجية اللغوية، فأنا أفترض أن العربية الجديدة هى النمط الذى استخدمه العرب وغير العرب على حد سواء فى عمليات التواصل اللفظى اليومى والحياتى كافة. بينما اختصت العربية الفصحى بعد الفتوحات العربية بالإنتاج الفنى والتواصل المكتوب وكذلك كانت محاولات العرب وغيرهم والتى نسميها العربية الوسيطة[٩] .

---

(٩) للحصول على مناقشة أكبر لهذا الموضوع ارجع إلى كتاب فرستيغ ١٩٩٧ .

الفصل الثانى

تطور العربية

١ - مقدمة :

الغرض الأساسى من هذا الفصل دراسة الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتوحات. من خلال كتب النحويين العرب نعرف الكثير عن النمط اللغوى الذى قرض العرب به شعرهم والذى نزل به القرآن الكريم، ولكن معلوماتنا شحيحة حول ما إذا كانت هناك لهجات عربية قبل الإسلام أو لا، وإذا كانت هناك لهجات عربية فما العلاقة اللغوية والوظيفية بين تلك اللهجات وعربية الشعر الجاهلى والقرآن الكريم؟

السؤال هنا هو : هل كان فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتوحات العربية نمط عربى واحد مستخدم فى كل مناطق شبه الجزيرة العربية ولكل الوظائف اللغوية القائمة وقتها أو لا؟ وفى حال كانت الإجابة بالنفى وكانت هناك لهجات، فهل كانت تلك اللهجات مختلفة عن العربية الفصحى تركيبيا ووظيفيا بشكل كبير أو لا؟ وما وظيفة العربية الفصحى قبل نزول القرآن الكريم غير الشعر العربى؟ ستساعدنا الإجابة عن تلك الأسئلة فى عملية إلقاء الضوء على دور كل من العرب وغير العرب فى عملية تعلم العربية باعتبارها لغة ثانية، أى فى عملية التحول اللغوى الواسع من لغات محلية مختلفة لعربية فى الأمصار المفتوحة. كما أن توفير قدر من الإجابة يعنى خطوة أفضل على طريق التعرف على كيفية ظهور وتطور اللهجات العربية الحضرية فى الأمصار المفتوحة التى كانت بدورها أصول اللهجات العربية الحديثة التى نراها الآن.

الفرضية هنا كالتالي : لو كان الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وضع نمط لغوى واحد يستخدم فى مختلف الأماكن لكل الوظائف اللغوية؛ فإن الفروق بين العربية القديمة، التى تمثل لها هنا بالعربية الفصحى واللهجات العربية الحديثة، يجب أن تعود لعملية تعلم العربية لغةً أجنبيةً فى الأمصار المفتوحة، وبالتالى يكون لغير العرب، أى المتعلمين، دور كبير فى عملية إعادة تدوير المدخل اللغوى، ويكونون هم المسئولين عن إعادة التركيب التى خضعت لها العربية بعد الفتح وليس قبله. ولكن إن افترضنا وجود لهجات قبل الفتوحات العربية لها طابع جغرافى أو حتى أنماط ذات طابع وظيفى، وإن افترضنا أن تلك اللهجات العربية القديمة تنعكس بشكل ما وبدرجة متفاوتة فى اللهجات العربية الحديثة؛ فإنه من الحتمى أن نفترض أن عملية تعلم العربية باعتبارها لغةً أجنبية فى الإمبراطورية العربية الإسلامية يجب أن تكون ثمرة جهود مشتركة بين العرب أبناء اللغة الهدف ومنتجى المدخل اللغوى العربى من ناحية وغير العرب المتعلمين الذين يتعاملون مع هذا المدخل اللغوى.

إذا فكرنا فى التصور الأول فإن أدلة صحته غير كافية لأننا نفتقر لأى إشارة صريحة من النحاة العرب فى الفترة المبكرة على أن العربية نمط واحد. وكذلك الحال بالنسبة للتصور الثانى فأدلة وجود اللهجات العربية قبل الإسلام موجودة ولكنها متناثرة وغير قاطعة، وفى الوقت نفسه ليس هناك ما يدل أو يجزم بوجود اختلاف وظيفى أو تخارج بين أنماط مختلفة تعيش معًا فى سياق لغوى واحد. علاوة على ذلك فالدراسات اللغوية التاريخية فى هذا المجال محدودة وغير كافية[1] ، والدراسات التى أجراها كثير من الباحثين الألمان على موضوعات فى هذا السياق كفيشر وجستراو وروتسو وغيرهم ليست دقيقة بشكل كافٍ ولا مقنعة.

يبدو أن الفهم الحالى لتاريخ علوم العربية وخاصة تاريخ النحو يدعم فرضية أن النحاة المبكرين حتى القرن الثالث الهجرى تصوروا أن العربية نمط واحد، وكان من ضمن ما تصور النحاة أيضا أن العربية الصافية الأصيلة إنما هى فى قلب الجزيرة

(١) دراسة أونز عام ١٩٩٨ عن التصريف الإعرابى دراسة استثنائية فى دقتها وتخصصها فى هذا المجال .

العربية فى نجد فشرقًا، وكلما كان العرب من ساكنى الحدود وأماكن التماس مع الشعوب غير العربية شمالاً وجنوبًا شاب الصفوة اللغوية عجمة وقلت العربية صفاءً وإتقانًا. وهذا قد يكون السبب فى الحيْد أحيانًا عن الصحة اللغوية الصارمة.

إنه من الثابت فى يقينى أن معيار تلك الصحة اللغوية وهذا الصفاء التركيبى المزعوم للعربية مسألة إشكالية فى تاريخ اللغة العربية فى حد ذاتها. لقد أضفى نزول القرآن بعربية الشعر الجاهلى عظمة دينية لا يمكن إغفالها، ومع تلك العظمة اكتسب هذا النمط اللغوى أشكالاً أخرى من الاحترام بسبب العصر الجديد الذى مكن له الإسلام، ألا وهو عصر الفتوحات العظيمة. بالنسبة للنحاة كان من النتائج المباشرة لتلك الفتوحات ظهور أنماط لغوية كلها عجمة وتصحيف، نشأت من محاولة الموالى الفاشلة تعلم العربية. ولما كان الحال كذلك فقد تعايشت الأنماط العربية البدوية الصحيحة والصافية مع أنماط العربية المولدة التى هجنها الموالى. وكان رد فعل العرب المباشر لتلك الظاهرة الجديدة ابتكار قواعد لغوية للأداء الصحيح، بنوها على نمط النموذج البدوى الذى أصبح بعد الفتح مثاليا (فرستيغ ١٩٩٧ ا : ١٠٢ وفرستيغ ١٩٩٧ب : ٣).

سأحاول فى هذا الفصل أن أبين أن هذا التصور الذى سردته توًا ليس بالضرورة صحيحًا ولا يمثل رأى النحاة فى القرون الأولى من الحضارة العربية الإسلامية فى الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبيل الفتح العربى وبعده مباشرة.

قدم باحثون كثيرون تصوراتهم ونظرياتهم عن الموقف اللغوى قبل الفتح فى شبه الجزيرة العربية وعن تطور العربية بعد الفتوحات؛ هذه النظريات إما أن تتبنى وجهة نظر النحاة نفسها التى سقناها توًا أو تتبنى وجهة نظر مغايرة تمامًا، وهى وجهة نظر العالم الألمانى فولرز التى قدمها فى كتاب شهير له عام ١٩٠٦ . تقوم وجهة نظر فولرز تلك على أن لغة القرآن الكريم باعتباره نصًا مقدسًا والتى هى بين أيدينا الآن إنما هى ترجمة من لهجة محلية كان النبى (ﷺ) يتكلمها. السمة الأساسية لذلك النمط اللغوى

المحلي هي غياب التصريف الإعرابي. تصور فولرز أنه كانت هناك فروق كبيرة بين اللهجة التي زعم أن النبي كان يتكلمها والعربية التي كان ينظم الشعراء بها شعرهم. تبنى بعض الباحثين الغربيين تلك النظرية بدرجات متفاوتة، ولكنها رفضت في شكلها الأساسي منذ فترة طويلة. وعلى الرغم من ذلك فإن هناك من الباحثين من يعتقد بشكل أقل حدة من تلك النظرية. سوف نتعرض لهذه النقطة فيما بعد، لأن فهمنا لتطور العربية بعد الفتوحات يعتمد كلية على فهمنا للوضع اللغوي في شبه الجزيرة العربية قبل الفتوحات.

إذا جاز لنا أن نقول إن غير العرب في محاولاتهم لتعلم العربية قد أنتجوا اللهجات الحضرية فإنه من الواجب علينا أن نجد معلومات لغوية عن الوضع اللغوي قبل الفتوحات، وأن نقارن التراكيب اللغوية من تلك الفترة بتراكيب العربية في مرحلة ما بعد الفتح. بالطريقة نفسها لو كان من الممكن أن نقول إن اللهجات العربية عمومًا واللهجات الحضرية بشكل خاص بعد الفتح قد نتجت عن تطورات لغوية كانت عاملة في اللغة العربية قبل الإسلام ولو بشكل محدود؛ فإنه من الواجب أن نجد في لهجات شبه الجزيرة سمات لغوية أو نزعات تتماثل مع السمات والنزعات التي نجدها في اللهجات الحضرية الموجودة في الأمصار الإسلامية وفي لهجاتها الحضرية على وجه الخصوص. فإن كان لنا على سبيل المثال أن ندعي أن الاختلاف بين المثنى في شكله الفصيح وأنماط المثنى الموجودة في اللهجات العربية المختلفة يرجع إلى تطورات بدأت تعمل في هذا النمط التركيبي قبل الفتوحات العربية؛ فإنه من اللازم والمنطقي أن نجد بدايات هذا التطور على الأقل في لهجات ما قبل الإسلام.

مشكلة المعلومات اللغوية في هذا الجزء من التاريخ العربي إذن مهمة جدا؛ فهي العنصر الفارق بين افتراضين، كلاهما يفتقر لعناصر لغوية تدعمه. فإذا كنا نشكو من قلة المعلومات اللغوية المتوفرة عن اللغة العربية بعد الفتوحات فإن الشكوى من غياب معلومات لغوية عن عربية شبه الجزيرة العربية أكبر وأكثر وضوحًا. علاوة على ذلك فإن أي معرفة لغوية لنا عن الوضع اللغوي في شبه الجزيرة العربية إنما نستقيها من كتب النحاة العرب الذين وصفوا تلك المعلومات وصنفوها بطرقهم الخاصة. سيعرف القارئ الكريم فيما بعد أنني أتصور أن النحاة كانت لهم نقاط تركيز خاصة على عناصر

معينة فى اللغة العربية، ولم يكن من ضمن اهتمامهم جمع مدونة لغوية كالتى يجمعها اللغويون المحدثون.

فى هذا الكتاب أتبنى تصورا يقضى بأنه كانت هناك لهجات عربية فى شبه الجزيرة قبل الإسلام، لهجات بمعناها الحديث. وأتصور أيضا أن تلك اللهجات كانت مختلفة عن عربية الشعر الجاهلى والقرآن الكريم تركيبيا ووظيفيا. سأثبت تصورى هذا أولاً، من خلال إثبات أن النحويين العرب ركزوا على عنصر واحد من المشهد اللغوى العربى المعقد، وهو عنصر عربية القرآن الكريم، لأنها محل دراستهم ومحط اهتمامهم. ثانيا، سأحاول أن أبين أنه من خلال كتب النحويين هؤلاء يمكن إيجاد نمط من التفاوت فى العناصر اللغوية والتنوع التركيبى يمكن تجميعه ووصفه وإعزاؤه لقبائل عربية بعينها. وثالثا وأخيراً، سأحاول أن أحدد الدور الوظيفى للهجات العربية القديمة فى مقابل عربية الشعر الجاهلى والقرآن الكريم وأبين حدود كل منهما وسلوكهما إزاء هذا التزامن.

٢ - النحويون ودراسة اللهجات :

لم يترك العرب فى الجاهلية لسوء الحظ لنا نصا مكتوبًا أو قصيدة شعر يصفون لنا فيها الوضع اللغوى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام. ولكن لما لم يكن هناك مثل تلك النصوص الكاشفة كان لزاما علينا أن نكتفى بالقرائن الموجودة فى كتب النحاة وبالاستنتاجات التى يمكن أن نخرج بها من دراسة نصوص الشعر الجاهلى والقرآن الكريم وما يؤكده علماء العربية ومؤلفو المعاجم.

يؤكد القرآن على حقيقة أن التنزيل كان بلسان عربى سليم[٢] . ويفهم كذلك من آيات القرآن ذات الصلة أن هذا اللسان العربى المبين إنما هو لسان العرب كلهم؛ وعلى ذلك فقد أصبح التصور أن اللغة التى نزل بها القرآن الكريم هى اللغة نفسها التى يتكلمها الشخص العادى فى شبه الجزيرة العربية فى كل وظائفه اللغوية اليومية.

(٢) انظر سورة النحل الآية ١٠٣ وسورة الشعراء الآية ١٩٥ .

وعلى ذلك فقد أصبح القرآن بعد نشوء الدولة العربية الإسلامية واستقرارها، وبعد نشوء النحو العربى كعلمٍ النموذجَ الكامل للعربية. بل إن الأكثر أهمية فى موضوعنا نحن هنا أن كل عشيرة وقبيلة بل كل شخص فرد فى شبه الجزيرة العربية أصبح مصدرا من مصادر هذا النموذج اللغوى، لأننا نفترض أنه كان يتكلم عربية تشابه أو تقترب من عربية النص القرآنى الكريم، ولذلك فكل عربى بدوى فى شبه الجزيرة العربية أصبح فصيحًا تؤخذ عنه العربية ولو نظريا.

ولما كان الحال كذلك فإن صفة النص القرآنى بالعربى المبين إنما هى صفة إشكالية لنظريتى فى تطور العربية؛ فهى صفة تتجاهل أى تقسيمات لغوية جغرافية أو اجتماعية قد تكون موجودة فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتح، وتنكر أى إمكانية لوجود ازدواجية لغوية فى تلك المرحلة. وكان من بين النتائج المباشرة لتلك الصفة أن النحويين فى بداية تدوين النحو وتأصيل طرق جمع مادته وأدوات تحليله وجدوا أنفسهم يتعاملون مع العربية بمستويين مختلفين ومتناقضين فى الوقت نفسه؛ من ناحية لم يكن النحويون يتصورون وجود أى فروق لهجاتية أو اجتماعية لغوية بين العرب فى نطقهم واستخدامهم للعربية، ومن ناحية أخرى بدأ النحويون يرون وجود بعض التراوح والاختلاف عن القواعد فى نصوص الشعر الجاهلى والقرآن الكريم نفسه. وهذا التراوح يشير إلى وجود اختلافات داخل أنساق النمط الواحد المزعوم.

يبدو أن العلماء العرب أنفسهم كالهمدانى فى القرن الرابع الهجرى كانوا على دراية بوجود اختلاف فى اللهجاب بين لهجات حمير مثلا وباقى لهجات العرب. يصف الهمدانى مثلاً العربية التى كانت مستخدمة فى قبائل حمير بأنها "لغة حمير" (انظر الجزيرة ص١٣٤). ومن بين السمات الخاصة فى لغة حمير كما يدعى الهمدانى وجود لاحقة على الفعل فى ضميرى المتكلم والمخاطب هى (ـك)، فتقول مثلاً "كتبكُ". من ذلك يتضح أن العلماء العرب كانوا على وعى بوجود فوارق لهجاتية، ولكن سطوة صفة تنزيل القرآن بالعربى المبين كانت تؤثر عليهم تأثيراً كبيراً فى توصيفهم للعربية.

ومع ذلك فإن التصور الشعبى عن لغة عرب شبه الجزيرة قبل الفتوحات سيطرت على عقلية العوام كما سيطرت على عقلية العلماء. بالنسبة للنحويين كانت عربية إنسان يمنى جيدة بدرجة جودة عربية قرشى نفسها أو شخص من كلب من الناحية النظرية، ولذلك فقد استخدم بعض النحاة المتأخرين أى قصيدة شعر عربية جاهلية من أى قبيلة كانت مصدرًا أساسيا وأوليا موثوقًا به من مصادر اللغة العربية. وفى الوقت نفسه كان العرب يتصورون أن العرب اليمنية كانوا مختلفين عرقيا عن عرب شمال اليمن شرقًا وغربًا، أى العرب العاربة. ومع ذلك كانت كل القصائد محل ثقة النحويين (فرستيغ ١٩٩٧ ا ص ٣٨).

يعتبر كثير من الباحثين المحدثين أن تصور النحاة العرب القدماء من بداية القرن الثانى أن العربية نمط لغوى واحد ليس فيه تنوع ولا تراوح، إنما هو تصور رومانسى غير واقعى. ولكن هل كان النحويون رومانسيين حقا ويتجاهلون واقعا لغويا معيشا فعلا؟ أو أنها قراءتنا لكتب هؤلاء النحويين هى التى قادتنا لهذه الفرضية ؟ سأحاول هنا أن أجيب عن هذا السؤال باعتبار حقيقة مهمة، هى كالتالى: على الرغم من الوصف الذى قدمه القرآن للغة العربية على أنها اللسان العربى المبين وعلى الرغم من تصور بعض النحاة وأهل اللغة العربية والأدب أن لغة الشعر الجاهلى ولغة القرآن الكريم هى لغة النبى (ﷺ) فإن النحويين أنفسهم اعتبروا - فى جمعهم لمادتهم اللغوية التى كانوا يتوخون الدقة فى انتقائها - أن عرب البادية مصدر لغوى سليم وأحسن من عرب الحضر مثلاً أو من عرب أطراف الجزيرة والتخوم. وكان سبب النحويين فى هذا التفضيل أن عرب البادية أقل تأثرًا بمن حول العرب من أمم تتكلم لغات أخرى غير العربية من عرب التخوم أو الحضر. ولذلك كان سيبويه يختار البدو ليكونوا حكامًا لغويين ومصادر للمادة اللغوية دون غيرهم (لافين ١٩٩٨ ص ٢٠٤).

ولكن ظهر بعد الإسلام عامل اجتماعى ليحيد معيار الصحة هذا عن مساره، هذا العامل هو الشرف الذى تمتعت قريش به بعد ظهور النبى فيها، إضافة إلى شرفها العربى

السابق. فقد زعم بعض أهل العربية أن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش(٣) . وكذلك كان الناس يعتقدون أن النبى (ﷺ) أحسن من تكلم العربية وأفصح العرب على الرغم من أنه ليس قحطانيا من العرب العاربة، ولذلك فقد أصبح الحجاز أفضل الأقاليم اللغوية لأسباب غير لغوية، بل اجتماعية سياسية.

أنا أتصور أن النحويين العرب أدركوا أن العربية كأى لغة أخرى، فيها تنوع وتراوح، والدليل على ذلك وجود فصل اصطلاحى بين "لسان" أى ما نعرفه الآن "اللغة" وبين "لغة" وهو ما نعرفه الآن بـ"اللهجة" (إبراهيم أنيس ١٩٥٢ ص١٦ و١٧ وانظر أيضا حسين نصار ١٩٨٨ ص ٥٨). صحيح أن النحويين أعطوا مصطلح "اللغة" معانى كثيرة، من بينها أحيانًا الكلام على عمومه أو الاستخدام العام وليس الاصطلاحى، ولكن المعنى الاصطلاحى هو معنى "اللهجة" (انظر رابين ١٩٥١ ص٩)(٤) . بل إن بعض النحويين قد حاول أن يوضح ماهية الفروق بين اللهجات فى القرن الرابع الهجرى، فقد حاول ابن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هجريا أن يسرد الفروق بين القبائل كالتالى: فروق فى أصوات اللين، وفروق فى إضافة صوت لين وسط مجموعة صوائط من عدمه، وفروق فى نطق الهمزة والإدغام وفروق فى التذكير والتأنيث؛ وفروق فى صيغ الجموع (انظر الصاحبى ص١٩). لقد اجتذبت فروق النطق وبنية الكلمات بين القبائل اهتمام النحويين من نهاية القرن الثانى الهجرى، وكان من أوائل من كتب فى لهجات القبائل يونس بن حبيب المتوفى عام ١٧٢ هجريا، وأبو عمر الشيبانى المتوفى عام ٢٠٦ هجريا، والذى كتب كتاب الجيم، حيث جمع الكلمات القديمة والبائدة التى ما تزال بعض قبائل العرب على أيامه تستخدمها.

---

(٣) انظر فتح البارى فى شرح صحيح البخارى، طبعة دار الريان للتراث، الحديث ٣٥٠٦ ، المجلد السادس صفحة ٦٢١ حيث أمر عثمان بن عفان كتاب الوحى أن يتبعوا لهجة قريش وطريقتها فى التدوين إذا ما طرأ اختلاف بينهم وبين زيد بن ثابت؛ حيث نزل القرآن بلهجة قريش .

(٤) يتصور بعض الباحثين أنه حتى عصر مبكر جدا، أى فى القرن الثانى الهجرى كان النحويون العرب يعرفون اللهجات ويدركون وجودها، يقول لافين (١٩٩٨ ص٢٠٥): إن سيبويه كان يدرك أن الأعراب الذين يمدونه بالمادة اللغوية يتكلمون هم أنفسهم لهجات مختلفة. ويقول أيضا إن سيبويه استخدم مصطلح "لغة" للتعبير عن الفروق اللهجاتية فى كتابه .

أما القرن الثالث الهجرى فقد شهد عدداً من علماء العربية الذين كتبوا عن لهجات قبائل العرب، من بين علماء العربية كان الفراء المتوفى عام ٢٠٧، وأبو عبيدة المتوفى عام ٢١٠، وأبو زيد الأنصارى المتوفى عام ٢١٥، بالإضافة إلى كتب اللهجات ظهرت فى تلك الفترة رسائل عما ورد فى القرآن الكريم من لهجات العرب. من بين أقدم من نسب إليهم الكتابة فى الموضوع كان ابن عباس الذى نسبت إليه رسالة بعنوان "كتاب اللغات فى القرآن"، يضع الكاتب فى هذه الرسالة كلمات اللهجات والكلمات الأجنبية فى مسرد طويل بحسب ترتيب ظهورها فى سور القرآن الكريم. لم يكن هذا هو الكتاب الوحيد فى هذا المجال، بل ظهرت كتب كثيرة فى الموضوع نفسه فى القرن الثالث (انظر حسين نصار ١٩٨٨ ص ٦١).

أتصور أن التناقض بين تصور النحاة عن نمط عربى واحد ليس فيه حيْد أو تنوع وإدراك وجود اختلافات لهجاتية، بل والكتابة عنها إنما هو تناقض ظاهرى فقط. فقد تصور علماء العربية أن النمط اللغوى الذى سمَّوه "كلام العرب" نمط واحد ينتجه مختلف العرب بطرق مختلفة. ولما كانت كل طرق إنتاج العربية تلك مفهومة وينتجها عرب أصلاء دون تأثير خارجى؛ فهى مصادر سليمة للاستقاء والتحليل اللغوى. وفى الوقت نفسه كان معيار الصحة اللغوية والنقاء فى التعبير والفصاحة هو القرب أو البعد عن نموذج الشعر الجاهلى والقرآن الكريم. لقد اختار العرب والنحويون منهم بصفة خاصة هذا المعيار؛ لأن العلماء ينظرون إلى عربية القرآن على أنها نموذج العربية المثالى والمعيارى(٥) .

على الرغم من أن النحويين عرفوا بوجود لغات كثيرة فى لسان واحد فإن اهتمامهم الأساسى كان القرآن ولغته دون غيرها من اللهجات التى يعتبرها العلماء ثانوية فى الدراسة بالمقارنة بالشعر الجاهلى والقرآن الكريم. ولذلك استبعد النحويون دراسة اللهجات العربية إلا إذا ظهرت كلماتها أو تراكيب منها فى القرآن الكريم.

---

(٥) معظم شواهد كتاب سيبويه من القرآن الكريم ومن الشعر الجاهلى. فقد عد الجرمى ألفًا وخمسين بيتًا من الشعر فى الكتاب (الخزانة المجلد الأول ص٨) .

وقد يبرر هذا قلة شواهد النحويين من كلام العرب بالمقارنة بشواهد الشعر والقرآن الكريم. ولذلك يمكن أن ننظر إلى الوضع اللغوى قبل الإسلام فى شبه الجزيرة العربية من منظور أفقى يبين وجود لهجات مختلفة للقبائل العربية، ويمكن أيضًا النظر لتلك المسألة من منظور رأسى يبين وجود فروق فى الفصاحة بين لغة القرآن الكريم وتلك اللهجات الأفقية. ولذلك اعتبر العرب فصاحة القرآن وحدة القياس والمعيار ولذلك كانت التحليلات لهذا النمط دون غيره ويقاس عليه ولا يقاس. ولذلك كلما اقتربت لهجة بعينها من النمط المعيارى فضلها النحويون، ولذلك فضل النحويون لهجات الأعراب ونجد وشرق الجزيرة العربية فيما عرف باسم تميم وأسد.

لو كان النحويون قد اهتموا باللهجات العربية التى تكلمها الناس فى وقتهم لاهتموا بتسجيل الاختلافات اللغوية والظواهر اللغوية بفصيل كبير وبكميات كبيرة من الأمثلة والشواهد، ولكنهم على العكس من ذلك ركزوا على النمط الذى كانوا يهتمون بدراسته؛ لأنه علم يساعدهم على فهم القرآن الكريم. فالعربية كانت للنحويين وسيلة ولم يكن التحليل اللغوى فى القرون المبكرة من الفتح العربى الإسلامى أداة لفهم القرآن الكريم وليس هدفا بحد ذاته(٦) . بالإضافة إلى ذلك فلو كان النحويون مهتمين باللهجات فى حد ذاتها لاستخدموا عربا أدلاءً لغويين بشكل أكبر من استخدام القرآن الكريم والشعر الجاهلى، ولاستخدموا أعرابا وعربًا حضريين ولم يقتصروا على بدو أقحاح من البادية. ولو كان استخدام الأعراب للدليل اللغوى وليس للتحكيم فقط لحاول النحويون استخدام لهجاتهم للقياس عليها ولاستقاء ظواهر كلامية معينة ولمقارنة طرق كلامهم بطرق كلام عرب آخرين، أى أن النحويين كان يلزمهم بناء مدونة لغوية كاملة لتحليلها لو كانت اللهجات محل اهتمامهم بشكل علمى(٧) .

---

(٦) انظر كتاب فرستيغ الصادر عام ١٩٩٣ وخاصة صفحات ٣٢-٣٦ و ٩٦-١٥٩ لمناقشة مستفيضة عن أصول مصطلح النحو العربى فى بدايات تفسير القرآن كعلم .

(٧) لا أتفق مع لافين ١٩٩٨ صفحة ٢٠٤-٢٤٣ على أن كلام العرب كان مصدرًا من مصادر سيبويه فى الوصف اللغوى، وكل تعليقات سيبويه أو إشاراته للأعراب مبهمة فى تصورى الخاص .

أفضل مثل على دور الأعراب فى المسألة اللغوية وجمع المادة هو الخلاف العلمى الذى طرأ بين سيبويه والكسائى الكوفى، وهو ما يعرف بالمسألة الزنبورية (انظر برناردز ١٩٩٣ ص١٧). القصة باختصار هى أن سيبويه والكسائى اختلفا أمام الرشيد فى بلاطه حول مسألة نظرية، وتوجب عليهما الاحتكام لأعرابى يفصل بينهما. ولما كان بباب الرشيد أعرابى فقد أدخل وحكم وفضل حكم الكسائى على حكم سيبويه.

لما كان القرآن الكريم أفصح كلام العرب والنموذج المعيارى، فإن فهم قواعده اللغوية عن طريق تحليلها أمر يوصل فى النهاية إلى إتقان العربية، ولذلك فقد قصر النحويون دراستهم على هذا النموذج لأنهم ليست لديهم حاجة لأنماط أخرى. ولذلك عندما جمع النحويون مادتهم اللغوية لم يكن عندهم اهتمام بمقارنتها بلهجات القبائل وطرائق كلام العرب؛ لأن تلك المقارنة حيد عن موضوع البحث (انظر الجندى ١٩٨٣ المجلد الأول ص١١٥). كما يقول رابين (١٩٥١ ص٦) فإن جمع مادة اللهجات للنحوى العربى كان عملاً جانبيا لا يفيده فى مهمته الأساسية وهى استقراء قواعد العربية الفصيحة.

هناك سبب آخر لعزوف النحويين عن تسجيل قواعد اللهجات المختلفة، وهو غياب فوارق كبيرة على المستوى الصرفى والنحوى بين اللهجات وبين اللهجات والنمط القرآنى والشعرى. لقد تصور العرب كما يقول ابن منظور (لسان العرب المجلد الثانى ص٧٧) أن كل من عاش على أرض شبه الجزيرة العربية وتكلم لغتهم فهو عربى سواء كان يمنيا أو غير ذلك. ربما يكون تصريح كهذا تعبيراً عن تساوى الأنماط المستخدمة فى الحديث اليومى فى شبه الجزيرة العربية. وكذلك يبرر هذا الرأى التعامل الليبرالى مع المفردات اللهجاتية المختلفة على أنها مترادفات عربية كلها ممكنة ومستخدمة دون التفريق بينها جغرافيا ولا زمانيا. ويبرر هذا الرأى أيضا ما وقر فى تصور النحويين المتأخرين من أن العرب كلهم مصادر مناسبة للمادة اللغوية. ولذلك عندما كان هناك عنصر لهجاتى فى أحد كتب النحو كان عادة ما يوصف بأنه من "لغة العرب" دون تحديد لهجته الخاصة.

ليس هذا التصور مقصوراً على علماء العربية والنحو فقط، بل امتد إلى المتخصصين فى علوم أخرى غير النحو ولكنها ذات صلة باللغة بشكل أو بآخر؛ ففى التفسير على سبيل المثال هناك مثل جيد، وهو مثل تفسير مقاتل، حيث فسر مقاتل فى أحد المواضع كلمة "غلام" بأنها كلمة تعنى فى كلام العرب الصبى الذى لم تنبت لحيته وشاربه بعد (فرستيغ ١٩٩٧ب ص ١٥).

من خلال الأمثلة التى يسوقها النحويون نستطيع أن نستنبط أنهم اعتبروا لهجات تميم وباقى قبائل العرب غير الحضرية أفصح من لهجات الحجاز وأكثر صحة منها، مع أن تلك الأخيرة كانت حميدة لخلوها من كل العناصر المنفرة كما يدعى بعض علماء العربية. أستمد استنباطى هذا من أن النحويين درجوا على إبراز العناصر اللغوية التى تخالف قياس قواعدهم الذى كان يحتم عليهم تفسير المفارقة التركيبية بين الأمثلة الدالة على قاعدة نحوية معينة والأمثلة التى تشذ عنها. على الرغم من غياب وجود أى إحصاءات رقمية للمقارنة بين المادة المأخوذة من الحجاز والمادة المأخوذة من نجد وشرق شبه الجزيرة العربية فى كتب النحويين والأمثلة الشاذة واجبة التفسير - فإن النظرة العابرة تبين أن نصيب الحجاز من الأمثلة الشاذة هو نصيب الأسد. ولذلك فليس هناك إشارات كثيرة للهجات نجد وشرق الجزيرة العربية بالمقارنة لإشارات الحجاز فى كتب النحو (فرستيغ ١٩٩٧ ص٣٩) وهو ما يبين قرب تلك اللهجات من عربية الشعر الجاهلى والقرآن الكريم.

فى حين كانت هذه حال النحويين تجاه اللهجات وكلماتها، فقد كان لعلماء المعاجم العرب اهتمام مباشر بكلمات اللهجات العربية فى حد ذاتها. ولكننا فى الحقيقة لا نعرف المعايير التى درس المعجميون على أساسها تلك الكلمات أو ضمنوها أعمالهم، إلا - ربما - أن تكون رغبتهم تضمين معاجمهم كل كلمات العربية دونما انتقاء. ولكن عالما كبيراً متأخراً مثل ابن منظور كان مشهوراً بتمنعه عن تضمين معجمه مفردات تنتمى للهجات عربية بعينها، بل إنه حذف المفردات اللهجاتية من شواهد قاموسه أو من اقتباساته من معاجم سابقة (رابين ١٩٥١ ص٨). يبدو أن هناك معايير شخصية أو تفضيلات خاصة لوضع مفردات وحذف مفردات من المعاجم، فقد كان ابن دريد مثلا

فى جمهرة اللغة مولعا بتضمين كلمات من لهجات خاصة وضمَّن كتابه كلمات يمنية أكثر مما ضمَّنه كلمات من لهجات أخرى. ومع ذلك فلم يضمِّن كتابه كلمات من لهجته الأم، ألا وهى لهجة الأزد.

أحب أن أشير هنا إلى أنه لا يجب أن يفهم من هذا الكلام أن علوم اللغة العربية تجاهلت كلية دراسة اللهجات أو التعامل معها، نعرف من مصادر عدة من بينها فهرست ابن النديم أن كثيراً من العلماء العرب كتبوا رسائل تحت اسم "كتاب اللغات" أو أسماء مشابهة له. ولكن لسوء الحظ لم تعش من تلك العناوين إلى يومنا هذا إلا القليل، ولا نعرف إن كانت تلك العناوين لكتب كاملة للهجات أو قوائم مفردات أو مجموعات من غريب المعجم. يشير ابن النديم فى الفهرست إلى العلماء العرب التالية أسماؤهم فيمن كتبوا فى اللهجات: يونس بن حبيب (الفهرست ص٤٢) وأبو عبيدة (الفهرست ص٥٤) والفراء (الفهرست ص٦٧)، وتشير بعض العناوين الموجودة فى الفهرست إلى حقيقة أن اللهجات لم تكن محل دراسة فى حد ذاتها ولكنها كانت مادة محل اهتمام بسبب وجودها فى القرآن الكريم. من بين هذه الكتب كتاب لغات القرآن لأبى زيد الأنصارى (انظر فلوجل ١٨٦٢ ص ٧٢). علاوة على ذلك هناك عناوين كتب لم ترد لنا منها نصوص.

هناك كتاب واحد باقٍ عن اللهجات العربية واسمه "رسالة فيما ورد فى القرآن من لغات القبائل"، وهو كتاب منسوب لأبى عبيد بن سلام الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى، استخدم كثير من النحاة المتأخرين هذا الكتاب وخاصة السيوطى الذى اقتبس منه كثيراً، بل إن نصاً مطابقًا هذه الرسالة موجود فى هوامش كتاب الإتقان. ولكن النص الموجود فى الإتقان يختلف تنظيميا فقط عن نص الرسالة الأصلى، ففى الإتقان تنظيم المفردات اللهجاتية يعتمد على تجميع كل ما ورد لقبيلة بعينها فى مسرد واحد، ولكن نص الرسالة منظم بحسب ما ورد فى سور القرآن الكريم (رابين ١٩٥١ ص٧). هناك فرق بين الرسالة والمعاجم؛ وهو أن الرسالة تنسب مفردات بعينها لقبائل لم تذكرها كتب المعاجم أبداً، فالمؤلف على سبيل المثال ينسب كلمات للغة جرهم البائدة والتى لم يبق من ذكر قريتها إلا خرائب وآثار على الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية بالقرب من مكة فى القرن الثانى الهجرى.

يزعم بعض الكتاب المحدثين أن سيبويه كان مهتما باللهجات العربية فى حد ذاتها اهتماما مباشرا، وأن الكتاب يعالج الكثير من السمات اللهجاتية والاختلافات التركيبية الموجودة فى اللغة العربية. ويزعمون كذلك أن بحثه فى تلك السمات مستفيض ومباشر ودقيق فى الوقت نفسه (لافين ١٩٩٨ ص٢٠٥-٢٠٦). أساس هذا التصور أن سيبويه استمد مادته الأساسية من كلام أعراب البادية، وأن القرآن الكريم، والشعر الجاهلى، ولهجات أعراب البادية مصادر ثلاثة متساوية للمادة اللغوية عند سيبويه. ويضيف لافين أن كتاب سيبويه أورد كلمة "عرب" ٦٧٠ مرة؛ ٣١٦ مرة منها فى معرض التعامل مع المسائل النحوية، و ٣٥٦ مرة فى معرض التعامل مع المسائل الصرفية فى المجلد الثانى. ويعلل لافين فرضيته تلك بأن سيبويه كان يتعامل مباشرة مع لهجات القبائل العربية باستخدام العبارات التى تواترت فى الكتاب من أمثال "فى جميع لغات العرب" و" فى لغات أهل الحجاز".

نعم، من الصحيح أن سيبويه استخدم الأعراب للحصول على معلومات لغوية، ومن الصحيح أيضًا أنه رفض أى تصور نحوى أو نظرية لم تتوافق مع ما يقوله العرب أو يستصحونه، ولكن ذلك كله لا يعنى أنه سجل لهجات العرب الفعلية وما يتكلمون به. استخدم سيبويه كلمة "عرب" فى سياق استخدام الأعراب للتحقق من نظرية نحوية معينة، ولكنه لم يستخدم هذه الكلمة لاستنباط قاعدة نحوية، علاوة على ذلك فمعظم شواهد الكتاب إما آيات من القرآن الكريم أو أبيات من الشعر العربى (انظر مقدمة عبد السلام هارون ١٩٨٢ لكتاب سيبويه). علاوة على ذلك فقد كان اهتمام سيبويه فى الكتاب هو توضيح تواتر قاعدة معينة توصل لها بقياسه العلمى فى لهجات العرب، وهذا يبين أنه لم يكن مهتما باللهجات فى حد ذاتها لأنها كانت اهتمامًا غريبا على سياق كتابه ولكنه كان مهتما بها لما تلقيه من ضوء على نص القرآن الكريم ولغته وقرب لهجات العرب منها.

يمثل زعم أن سيبويه سجل لهجات العرب اليومية من الناحية التاريخية دربًا من الخطأ، فلم يكن المناخ العلمى فى تلك المرحلة يشجع مثل هذا النوع من الدراسات.

فقد بدأت كتب لحن العامة تظهر فى تلك المرحلة وتستنكر طريقة حديث العوام وأخطاءهم فى استخدام العربية الفصيحة. أضف إلى ذلك أنه لو كان لقصة مسألة "أكلونى البراغيث" والمسألة الزنبورية قسط من الحقيقة التاريخية وأن ما وقع بينه وبين الكسائى من خلاف علمى حقيقى فإن سيبويه لم يكن يسجل اللهجات، وإلا فلماذا خطأه البدوى، لو ما نفينا تآمر البدوى على سيبويه؟.

ظهر التعامل مع اللهجات العربية بشكل أساسى فى كتب النحو فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، كان ابن مالك من أفضل أمثلة النحاة فى هذا الوقت وهو الذى كان مولعًا بدراسة اللهجات فى التسهيل. واستمر شراح ابن مالك على طريقته تلك وحفظوا لنا معلومات لغوية مهمة من كتب فقدت كلية (رابين ١٩٥١ ص٧-٨). كانت محاولات مثل تلك ظاهرة جديدة على النحو العربى قصد منها توضيح علم النحو فى ذلك الوقت بكل أنماط اللغة العربية. بالإضافة إلى ذلك يعكس حرص نحاة مثل ابن مالك على دراسة لهجات ما قبل الإسلام اهتماما كاملاً وإصراراً شديداً على دراسة أنماط ميتة أو ربما جاء بسبب نضوب الموضوعات الجديدة التى يمكن دراستها بعد أربعة قرون من البحث المستفيض فى نمط القرآن الكريم والشعر الجاهلى. ولو كان اهتمام ابن مالك ومن بعده ابن عقيل وشراح آخرون بلهجات العرب المعاصرة لهم لوجدنا فى كتبهم شواهد من تلك اللهجات المعاصرة.

يشير كل ما سبق إلى أن اللهجات العربية كانت موجودة فى وعى علماء العربية بقدر ما كانت واقعا عربيا لغويا، وأن النحاة لاحظوها. وعلى الرغم من أن كتب النحو لم تكن تهتم بتنوع الأنماط وتراوح التراكيب بين اللهجات فإن اختلاف اللهجات محسوس وواضح. على الرغم من أن الإشارة للهجات فى كتب النحو كانت عشوائية ومتناثرة، فقد كانت الفروق اللهجاتية أكبر مما عكسته تلك الكتب. سنبين فى القسم التالى من هذا الفصل ما يمكن أن نصفه معًا فى نسق واضح لنعكس صورة محدودة عن اللهجات تمكنا من جمعها من كتب النحو العربى.

٣ - اللهجات العربية قبل الإسلام :

قسم النحويون شبه جزيرة العرب ثلاثة مناطق تقريبية تقع في قسمين : القسم الأول اليمن وهو قسم منفصل عن شماله، سمى النحويون مجموع لهجات أهل اليمن بتسمية "لغة أهل اليمن". أما القسم الثاني والذى يضم باقى شبه الجزيرة العربية فينقسم لإقليمين : هما الحجاز الواقع فى غرب شبه الجزيرة العربية، وكان الإقليم الثانى تميم وهو ما يضم شرق الجزيرة العربية ونجد فى وسطها. معظم المناطق الحضرية فى شبه الجزيرة العربية كانت فى الغرب، أى فى الحجاز بمدنه مكة ويثرب وثقيف. أما الإقليم الثانى فقد كان يتكون أساساً من مجموعة قبائل بدوية فى معظم عشائرها. لقد أشرت سلفًا أن فصحى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم كانت تشترك مع لهجات شرق شبه الجزيرة العربية ونجد فى سمات أكثر من التى اشتركت فيها مع إقليم الحجاز، وسأحاول فى هذا القسم أن أناقش مجموعة من سمات لهجات غرب الجزيرة العربية، أى الحجاز وما فيه، فى مقابل لهجات شرق شبه الجزيرة والقرآن الكريم والشعر الجاهلى.

(أ) لهجة اليمن :

على الرغم من ندرة المعلومات اللهجاتية فى كتب النحو وتشتتها عمومًا فإن العربية اليمنية كانت أوفر اللهجات حظًا لما كانت تناله من اهتمام علماء القرنين الثالث والرابع الهجرى وخاصة من معجميين كبار مثل ابن دريد ونشوان (رابين ١٩٥١ ص٢٥)، وعلى الرغم من وجود عدد كبير من اللهجات العربية الجنوبية فى اليمن فإن اللهجات العربية لم تعكس تأثيراً كبيراً لهذه الأنماط الأجنبية إلا ربما فيما يتعلق ببعض عناصر المعجم التى يمكن أن نعتبرها مجرد اقتباس. انظر مثلاً كلمة "بعل" التى تعنى السيد أو الزوج، والفعل "رَخِم".

حمير أقصى جنوب اليمن وهى الإقليم الذى نشأت فيه الحضارة اليمنية القديمة والممالك العظيمة. اللهجة العربية التى كانت مستخدمة فى حمير تعكس اقتباسًا واسعًا

من العربية الجنوبية، وتعكس كذلك الاحتفاظ بعناصر نحوية عربية قديمة (رابين ١٩٥١ ص٤٢). فى أيام الهمدانى- وهو المرجع الأساسى فى لهجة اليمن - كانت فى الإقليم شرقى السرات لهجة عربية تشبه لهجات أعراب نجد، ويصفها الهمدانى بأنها لهجات فصيحة سليمة. تختلف تلك اللهجات عن لهجات السرات والمناطق الواقعة غربه، وهى لهجات وصفها الهمدانى بالمتوسطة. يدعى الهمدانى أن هذا الوصف يعنى أن تلك اللهجات كانت خليطا من العربية والحميرية (رابين ١٩٥١ ص٤٥). أما فى جنوب السرات والجبال المحيطة بصنعاء كانت اللهجات العربية متأثرة بالحميرية بشكل كبير. وفى الغرب كان هناك أنماط لغوية خليط بين العربية والحميرية، حيث كانت القرى الحضرية تتكلم الحميرية بشكل واسع، بينما كانت بعض اللهجات العربية الغربية الحجازية تسيطر على المناطق الواقعة خارج تلك القرى وخاصة عند البدو (رابين ١٩٥١ ص ٤٥). وعلى ذلك فقد كانت فى اليمن بجانب أعراب الشرق مجموعتان لغويتان أساسيتان: المجموعة الأولى مجموعة المزارعين الريفيين الذين تكلموا لهجات خليطًا بين الحميرية والعربية، والمجموعة الثانية مجموعة البدو الذين تكلموا لهجات عربية حجازية وهم من سكن الساحل الغربى لليمن.

على الرغم من أن اللهجات اليمنية عمومًا كانت متشابهة مع باقى لهجات العرب بشكل كبير - وخاصة مع عربية الحجاز - فإن العرب اعتبروها نمطا لغويا أعجميا غير مفهوم لهم بشكل كبير. هناك قصص كثيرة جدا فى تاريخ اللغة العربية تبين أن العرب لم يعتقدوا أن العربية التى استخدمتها حمير كانت عربية مثل باقى كلام العرب، فقد دارت قصة من القصص حول رسول عربى زار حمير فأمره كبير فيها أن يجلس قائلا له بصيغة الأمر "ثب" ففهم العربى تلك الكلمة بمعنى "اقفز" فقفز من فوق صخرة كبيرة فمات. وغالبًا ما كانت لهجة حمير توصف بأن فيها طمطمانية، كنوع من السخرية والتندر بعجمة تلك اللهجة.

أما إقليم شمال اليمن فقد كان يتكلم مجموعة من اللهجات المتشابهة جدا، ولكنها كانت مختلفة عن باقى لهجات اليمن فى الجنوب وعن لهجة هذيل والحجاز فى الشمال. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تلك اللهجات تحتوى على مجموعة كبيرة من التشابهات

مع المجموعتين اليمنية والحجازية. من بين قبائل العرب التى عاشت فى تلك المنطقة كانت كنانة، وحيرات، وخثعم، وهمدان، وعنبر، وزبيد، ومراد. وكل عنصر لغوى توصف به قبيلة من تلك القبائل يمكن تعميمه على باقيها أيضًا، فهى مجموعة متشابهة تشابهًا كبيرًا. ويزعم رابين أنه عندما يتكلم النحويون عن سمات أهل اليمن اللغوية، فإنهم يقصدون شمال اليمن ويتكلمون عن تلك القبائل بعينها (رابين ١٩٥١ ص٦٤).

السمات الصوتية :

• غياب الإمالة، ولكن الهمدانى يدعى أن بنى حرب وهى قبيلة بدوية فى شرقى اليمن تحقق الإمالة.

• تحقيق الهمزة، ولكن فى بعض الأحيان تقلب همزة الكلمة الأصلية واوًا، فيقول الشخص مثلاً "واتيت" بدلا من "آتيت". ويجدر بنا الذكر هنا أن هذا التحول الصوتى يحدث عندما تكون الهمزة الأصلية فى بداية الكلمة، وهذا القلب موجود حتى الآن فى بعض لهجات اليمن وحتى فى مصر.

• صوت الجيم العربية الفصيحة صوت مجهور حلقى فى لهجات اليمن.

السمات الصرفية :

• كانت نهاية الكلمات المؤنثة المفردة فى حالة الوصل معممة على نهايات الكلمات فى حالة الوقف.

• كانت بعض الكلمات تأخذ التنوين حتى فى حالات الوقف.

• أداة التعريف فى اللهجات اليمنية القديمة كانت "أم" وليست "أل"، ولم تكن تستجيب صوتيا للأصوات الشمسية والأصوات القمرية.

● علامة المثنى فى اليمن كانت لاحقة (انِ) التى ترد فى آخر الكلمة دون تصريف، وهذه السمة منتشرة فى لهجات عربية أخرى مثل ضبة فى شمال الربع الخالى وإن كانت اللهجات الأخرى تلحق اللاحقة بصوت لين قصير مختلف أو حتى تصرفها إعرابيا.

● فى شمال اليمن كانت أداة التعريف تدمج فى حرف الجر إن سبقها حرف جر، وخاصة مع "من" و "على".

● كانت هناك أداة وهى "أم" تستخدم فى بداية الجملة الفعلية قبل الفعل المضارع مباشرة، من بين أفضل الأمثلة على استخدام تلك الأداة الابتدائية هو ما ورد عند رابين (رابين ١٩٥١ ص٣٧) كالتالى: "أم نضرب إلهام".

● فى شمال اليمن وخاصة فى زفار كان اسم الإشارة للمذكر والمؤنث هو "ذى" التى كانت توضع بعد الاسم المشار إليه (رابين ١٩٥١ ص٧٥).

● الاسم الموصول كان "ذى" للمذكر والمؤنث دون تصريف إعرابى فى حضرموت وغربيها، أما فى باقى اليمن فكانت "الذى" دون تفرقة بين المذكر والمؤنث والجمع والمفرد.

● ينتهى الفعل الماضى فى المتكلم والمخاطب بلاحقة (ك) بدلا من (ت) المعروفة، فتقول مثلا: "كتبكُ".

(ب) لغة الأزد :

لم يذكر النحويون معلومات كثيرة عن لهجة الأزد، فعندما يستخدم النحويون شواهد من اللهجات اليمنية فإنهم يتجاهلون الأزد. المشكلة الأكبر هنا أن هناك قبيلتين باسم الأزد: واحدة فى عمان والأخرى فى شمال غربى اليمن. السمات اللغوية القليلة التى بين أيدينا لهذه القبيلة تبين اختلاف الأزد لغويا بشكل كبير عن باقى لهجات اليمن. انظر السمات التالية :

● الاحتفاظ بعلامة الإعراب فى حالات الوقف، فيقول الرجل مثلاً: "هذا زيدُ".

● الاحتفاظ بصوت الفتحة القصيرة فى تصريف الفعل المضارع.

(ج) لهجة هذيل :

تقع منطقة هذيل فى جنوب شرقى الحجاز وهى فى شمال خثعم وفى شمال شرقى الأزد وكنانة، بحسب موقع هذيل فهى قبيلة تقع على أطراف وسط شبه الجزيرة العربية وجنوب إقليم الحجاز، وهو ما يجعلها ضمن اللهجات الأقرب للفصحى؛ ولذلك كانت شهرتها الواسعة بالفصاحة والسلامة اللغوية. فعلى الرغم من أن هذيل لم تخرج لنا من فحول شعراء العرب الجاهليين أى واحد فإن لغتها كانت معيارية إلى حد كبير. على الرغم من ذلك فقد كانت لهجة هذيل تحتوى على بعض السمات الغربية، وقد كانت إقليماً لهجاتيا يجمع فى صفاته الغربية بين عربية اليمن وعربية الحجاز (رابين ١٩٥١ ص٧٩). فقد كانت بعض مفردات هذيل مشتركة مع مفردات كنانة مثل: "جدث" و"أواب" على سبيل المثال.

السمات الصوتية :

- إضافة أصوات لين قصيرة غير منبورة فى أواسط تجمعات الصوائت فى الكلمات.
- غياب تجانس أصوات اللين فى الكلمة الواحدة.
- تسهيل الهمزة.
- من المحتمل أن تكون هذيل قد قصرت أصوات اللين الطويلة فى أواخر الكلمات مثل الحجاز.
- تحويل الأصوات المركبة إلى أصوات لين طويلة: واو وياء.

السمات الصرفية :

- بعكس اليمن استخدمت هذيل الاسم الموصول "الذى" وجمعته على "الذون".
- فيما يخص التلتلة، يقال إن هذيل استخدمت التلتلة وعدمها فى الوقت نفسه.

ويقال مثل هذا التراوح على استخدام طيئ. ومن المعروف أن طيئ وهذيل إقليمان متوسطان، ولذلك كان هذا التراوح بين الطريقة الحجازية التى لا تستخدم التلتلة والطريقة الشرقية التى تستخدمها.

(د) لهجة الحجاز :

قلت سلفًا: إن السمات اللغوية للهجة الحجاز تظهر فى كتب النحويين أكثر من أى لهجة أخرى؛ ولذلك فهى أكثر اللغات حضورًا فيما يخص الشواهد النحوية وأوضحها لنا دراسة، على الرغم من أن إقليمها الجغرافى ليس واضحًا بالطريقة نفسها. كان الحجاز فيما قبل الإسلام هو المنطقة الواقعة بين تهامة فى الجنوب الغربى ونجد فى الشرق، أى أنه كان غرب الجزيرة العربية عموما. وكانت كذلك تضم بنى سليم وبنى هلال اللذين كانا يدخلان شرقا فى نجد. أما فى شمال الحجاز فقد كانت بالى، وكانت هذيل من الجنوب. وبعد ظهور الإسلام أصبحت تهامة جزءًا من الحجاز كما أصبحت بعض قبائل الجنوب الشرقى البدوية. يبدو أن النحويين تعاملوا مع الحجاز من خلال تصورهم عن هذا الإقليم بعد الإسلام. من خصائص الحجاز أن فيها المناطق الحضرية القليلة فى شبه الجزيرة العربية، مكة والمدينة وثقيف. استخدم النحويون كلمة "لغة أهل الحجاز" ليعبروا عن كل الاختلافات اللهجاتية فى هذا الإقليم وتنويعاتها. يدعى رابين أن الاختلافات اللهجاتية فى هذا الإقليم كانت كبيرة جدا فى المناطق الحضرية؛ لأن فى مكة والمدينة مثلا كان هناك مزيج من السكان الذين ينتمون لقبائل وأقاليم لهجاتية مختلفة قبيل الإسلام (رابين ١٩٥١ ص٩٥)(٨) .

السمات الصوتية :

- كان صوت العين ينطق همزة.
- استخدمت معظم لهجات الحجاز الشكل الكامل للكلمة دون تغيير أو مماثلة أو حذف، بينما كانت اللهجات الشرقية عمومًا تحذف صوت اللين القصير غير المنبور من وسط الكلمات.

(٨) لقد سكنت خزاعة اليمنية مكة قبل أن تسيطر عليها قريش كلية فى القرن الخامس الميلادى (انظر شوقى ضيف ١٩٦٠ ص٤٩). أما بخصوص المدينة، فقد كانت مسكونة قبل الأوس والخزرج اليمنية بمجموعة من عشائر يهود فلسطين (ضيف ١٩٦٠ ص٥٣) .

• غياب تجانس أصوات لين الكلمة الواحدة، وهو نوع من المماثلة كان من أبرز سمات اللهجات الشرقية الصوتية، وكذلك لم تؤثر نوعية الصوائت على نوعية أصوات اللين فى اللهجات الحجازية، بينما كان تأثير المماثلة واضحا فى اللهجات الشرقية.

• نزعت لهجات إقليم الحجاز لتقصير طــول أصوات اللــين الطويلة التى ترد فى أواخر الكلمات.

• تسهيل الهمزة، يبدو فى حقيقة الأمر أن هذا الفونيم كان فى حالة تغــير وتطور فى عموم الجهة الغربية من شبه الجزيرة العربية من طيئ شمالاً حتى حمير جنوبًا.

السمات الصرفية :

• لم تتغير أصوات اللين فى أواخر ضمائر وصل الغائب من الضم للكسر بعد أصوات لين تميل إلى الكسر كما هو معروف فى الفصحى واللهجات الشرقية التى كانت تقوم على المماثلة والتجانس الصوتى.

• استخدمت لهجات الحجاز الاسم الموصول "الذى" للمفرد المذكر بدلاً من "ذو" و"ذى" اليمنية. وفى الجمع المؤنث استخدمت لهجات الحجاز "اللائى" وهو الاسم الموصول نفسه الذى ربما يكون قد استخدم لجمع المذكر أيضا.

• ربما تكون اللهجات الحجازية قد استخدمت صيغة مثنى واحدة وثابتة فى كل الحالات الإعرابية من رفع، ونصب، وجر، وكانت لاحقة المثنى هى (انِ) (انظر مغنى اللبيب المجلد الأول ص٣٧).

• غياب التلتلة.

• كان الأمر من الفعل المضعف يصرف كما يصرف الفعل الصحيح.

السمات النحوية :

● كانت بعض الأسماء مؤنثة فى الحجاز، بينما كانت مذكرة فى تميم ونجد وبالتالى فى الفصحى، مثل: "تمر" و"شعير".

● الفعل فى الجملة الفعلية فى الحجاز كان يصرف بحسب الفاعل فيما يعرف بلغة "أكلونى البراغيث"، بينما كان الفعل فى الجملة الفعلية فى اللهجات الشرقية دائمًا فى المفرد المذكر أو المؤنث. كانت السمة نفسها موجودة فى طيئ وفى هذيل كما كانت موجودة فى ضبة فى إقليم نجد.

● بعد "أنْ" و "إنْ" المخففتين كان الاسم منصوبًا فى الحجاز، بينما تفقد كل أداة مخففة فعلها فى العربية الفصحى وفى اللهجات الشرقية.

● بعد "إنَّ" وأخواتها نصب أهل الحجاز الاسم والخبر جميعًا، انظر فى ذلك مناقشة ابن هشام (مغنى اللبيب الجزء الأول ص ٣٥).

● كذلك رفع أهل الحجاز اسم "كان" وخبرها جميعًا بينما ينصب الخبر فى العربية الفصحى واللهجات الشرقية.

● كان لأدوات النفى "ما" و"لا" و"إن" فى اللهجات الحجازية فعل "ليس" الحجازية نفسه حيث كانت ترفع الاسم وترفع الخبر، وهى فى ذلك تعتبر من أخوات "كان".

● استخدمت اللهجات الحجازية الفعل فى حالة الرفع بعد "أن" ولم تنصبه كما هو الحال فى الفصحى واللهجات الشرقية.

(هـ) لهجة طيىء :

كانت قبيلة طيئ تقع فى شمال إقليم نجد وهى جنوب صحراء النفود المشهورة، أى أنها فى شرق إقليم الحجاز. تشترك طيئ مع لهجات الشرق فى بعض السمات الصوتية، منها التلتلة. يقول رابين (١٩٥١ ص ٩٣): إن مثل تلك التشابهات تبين الدور الوسيط التى كانت لهجة تلك القبيلة تلعبه بين إقليمى الحجاز وغرب الجزيرة العربية

عـمومًا ولهـجـات نجد والمناطق الشـرقيـة. لم تكن أرض طيئ فى وقت ظهور الإسـلام أرضـها الأصلية، فمن المعروف عند العرب أنها قبيلة هـاجرت أصـلاً من شمال اليمن، ولذلك فهى تشترك مع قبائل تلك المنطقة فى بعض السمات اللهجاتية أيضًا. ولكن رابين (١٩٥١ ص٩٣) يدعى أن سبب تلك التشـابهات هو احتفـاظ قبائل شـمال اليمن وطيئ معا بسمات قديمة لمنطقة غرب الجزيرة العربية تنازلت عنها لهجات الحجاز وهذيل منذ زمن بعـيـد.

السمات الصوتية :

- إزاحة النبر عن المقطع الأخير فى الكلمة وحذف الصائت الأخير إن كان صوتًا أنفيا، أو جنبيا، أو تاء، أو ياء.
- لم يكن فى طيئ ظاهرة التـجانس الصـوتى لأصـوات اللين كمـا هو الحـال فى الحجاز، كما لم يكن هناك حذف لأصوات اللين فى أواخر الكلمـات.
- من الممكن أن يكون صـوت العين فى حالة تطور فى تلك اللـهجة، فهو ينتقل إلى الهمزة، وهـى سمة قريبة من الحجاز.
- لا نعرف أى شىء عن مصير الهمزة فى تلك اللهجة؛ لغياب أى معلومات أو شواهد.

السمات الصرفية :

- كانت ضـمـائر الوصل فى تلك اللـهـجة متشـابهة مـعـها فى اللـهجات الشـرقيـة والفصحى فيما يتعلق بحذف الصائت الأخير فى حالة الوقف.
- كان اسم الإشارة المفرد المؤنث هو "تا" وليس "هذه".
- كان الاسم الموصول هو "ذو" للمذكر والمؤنث وفى كل الحالات الإعرابية.
- فى نهاية صيغة جمع المؤنث السـالم تسقط التـاء الأخيرة، وهذا مـعتـاد بسـبب قاعدة حذف الصائت الأخير فى الكلمـات.

تعليقات عامة :

تبين القائمة السابقة من السمات اللهجاتية أن العناصر التى يمكن استقاؤها من كتب النحو العربى قليلة ومتناثرة ولا تشكل صورة كاملة للهجات العربية إن وجدت. ولكن على الرغم من ذلك فهناك سمتان واضحتان تمامًا: السمة الأولى وجود نزعة للتنوع اللغوى، والسمة الثانية ظهور فواصل توحى بتجميع مجموعات من اللهجات فى فريقين عامين. نلاحظ من القائمة على سبيل المثال وجود بعض السمات التى تجمع لهجات اليمن والحجاز فى مقابل اللهجات الشرقية التميمية والعربية الفصحى. على الصعيد الصوتى، سهلت معظم تلك اللهجات الغربية الهمزة باستثناء بعض لهجات اليمن فى مقابل تحقيقها فى اللهجات الشرقية. وكذلك لم يكن هناك إمالة أو تجانس فى أصوات اللين فى لهجات الحجاز واليمن، كذلك نزعت تلك اللهجات خاصة لهجات اليمن وهذيل لتحويل أصوات اللين الانزلاقية المركبة لأصوات لين طويلة هى الواو والياء والألف. أما فيما يتعلق بالمناحى الصرفية، فقد اشتركت لهجات الحجاز واليمن فى بعض النزعات وإن كانت تجلياتها تختلف من لهجة لأخرى، فقد حافظت كل اللهجات الغربية، على سبيل المثال، على المقطع الأخير من الكلمة عند الوقف دون تغيير يذكر باستثناء لهجة طيئ؛ فقد حافظت لهجات اليمن على تاء التأنيث المفتوحة ولم تحولها لهاء فى الوقف، كذلك احتفظت الكلمات بالتنوين فى الوقف. وكذلك الحال فى الأزد حيث لم تحذف اللهجة علامة الإعراب على أواخر الكلمات فى حالة الوقف، والظاهرة نفسها موجودة فى الحجاز.

بالإضافة إلى النزعات التى تجمع بين تلك اللهجات والسمات اللغوية المشتركة هناك بعض السمات والنزعات التى تفصل كلاً من تلك اللهجات عن الأخرى. من الناحية الصوتية على سبيل المثال، تحقق لهجات جنوب اليمن الهمزة على عكس باقى لهجات المنطقة والحجاز على وجه الخصوص. وكذلك اختلفت طريقة تعامل لهجات غرب الجزيرة العربية بالنسبة لصوت العين، فقد نطقته بعض لهجات اليمن بطريقة أقرب إلى السمة الأنفية. فى حين نطقت كل من الحجاز وطيئ هذا الصوت بشكل يقارب الهمزة مما يلغى سمته الحلقية الأساسية.

أما فى المجال الصرفى، فقد كانت هناك تراوحات كثيرة فيما يتعلق مثلا باسم الإشارة. وفى اليمن على سبيل المثال كان اسم الإشارة للجنسين هو "ذى" الذى كان يرد بعد الاسم المعرفة، بينما كان اسم الإشارة فى الحجاز يختلف عن ذلك ويرد قبل الاسم. الاسم الموصول نموذج آخر للاختلاف بين اللهجات اليمنية والحجازية. فى جنوب اليمن وغرب حضرموت كان الاسم الموصول "ذى" لكلا الجنسين أو العدد، بينما كان الاسم الموصول فى شمال اليمن هو "اللذى" ولكنه أيضا دون فرق فى الجنس أو العدد. أما هذيل فقد استخدمت "اللذى" لكل من الجنسين ولكنها فى الوقت نفسه استخدمت "اللذون" للجمع المذكر والمؤنث. أما الحجاز فقد استخدمت "الذى" للمفرد المذكر والمؤنث ولكنها استخدمت اسما موصولاً فى الجمع يفرق بين المذكر والمؤنث.

نستطيع إذن أن نقول: إنه على الرغم من غياب أى دليل مباشر وأطلس واضح للهجات العربية قبل الإسلام؛ فإن التنوع والتراوح فى بعض السمات اللغوية بين أقاليم معينة يوحى بوجود أنماط مما يوحى بدوره بوجود لهجات. فالسمات التى ذكرناها سلفًا لتلك اللهجات تبدو لنا وكأنها قمة جبل من الجليد جسمه تحت الماء لا نراه، يعنى هذا أن تلك السمات المعروضة سلفا موجودة فى كتب النحو العربى بصورة مشتتة وغير منظمة؛ لأن تلك الكتب لم تكن موجهة لهذا الغرض الوصفى اللهجاتى، بل هى كتب موجهة للعربية الفصحى. ولكن المنطق يقول: إن لهجة واحدة لا تستطيع أن تستخدم طريقتين للتعبير عن سمة لغوية واحدة؛ فمن الصعب مثلا أن نتخيل أن الحجاز قد استخدمت صوت العين الذى تستخدمه الفصحى وتستخدم فى الوقت نفسه صوت العين الذى ذكره لنا النحويون ووصفوه بأنه قريب من الهمزة وفقد سماته الحلقية. وكذلك من الصعب أن تكون اليمن قد استخدمت اسم الإشارة الموضوع بعد الاسم المعرف بأداة التعريف والذى لا ينصرف بحسب العدد والجنس ونظام اسم الإشارة الكامل الموجود فى الفصحى، إذ تستخدم الفصحى واللهجات الشرقية اسم إشارة يختلف فيه المذكر عن المؤنث ويختلف فيه المفرد، عن المثنى، وعن الجمع.

السؤال هنا إذاً هل كانت اللهجات العربية الموجودة فى تلك المنطقة مختلفة عن بعضها من الناحية التركيبية بشكل كبير؟ وهل كانت اللهجات مختلفة عن الفصحى بشكل كبير؟.

هذان سؤالان لا نرد عليهما الآن، بل نضيف لنزعات الاختلاف والتجميع تلك التى قدمناها سلفًا معلومات من متناثرات كتب النحو تبين وجود نزعات فى تلك التنوعات اللهجاتية تجاه التطور اللغوى. تبرز من بين تلك النزعات السمات الصوتية محل التطور بين شرق شبه الجزيرة العربية وغربها. على الرغم من أنه من الطبيعى أن تتطور كل اللغات (كرولى ١٩٩٢ ص٣٨) فإن التغيير الذى ربما حدث فعلا فى شبه جزيرة العرب قبل اختلاط العرب بغير العرب قد يكون دليلاً على أن تطور اللهجات العربية فى مقابل الفصحى الأكثر محافظة وثبوتا إنما راجع للفروق الأصيلة بين النمطين ولأسباب لهجاتية داخلية فى تلك اللهجات، وليس بسبب اختلاط العرب بغير العرب على سبيل المثال. ولذلك فلا يتحمل الموالى المسئولية الكاملة فى خلق ما سنعرفه فى الفصل التالى بحالة ما بعد الفتح من تنوع الأنماط اللغوية العربية من لهجات عربية بدوية، ولهجات حضرية ظهرت فى الأمصار المفتوحة، وعربية القرآن الكريم والشعر الجاهلى الفصحى. فى اليمن والحجاز وهذيل وطيئ ظهرت نزعة لتغيير الأصوات الحلقية، ففى اليمن مثلا تغيرت العين لهمزة، وحدث الشىء نفسه فى الحجاز وهذيل ولكننا فى الحقيقة لا نعرف ما إذا كان التطور فى استخدام الصوت فى الحجاز وهذيل له السياق الصوتى نفسه أم لا. ولكن العين أيضا تغيرت إلى صوت الحاء فى سعد بن بكر بالقرب من المدينة.

وكذلك طرأ على صوت الحاء تخفيف فى إقليم الحجاز وشمال اليمن وهذيل، وفقد الصوت تقريبًا معظم سماته الاحتكاكية الحلقية. كل الأمثلة الواردة لنا فى هذا الصدد من الحجاز تبين وجود شرط صوتى سياقى وهو وجود صوت اللين القصير المنخفض الأمامى (الفتحة) فى جوار الحاء لتفقد سماتها الاحتكاكية. أما بالنسبة لهذيل، فليس عندنا معلومات واضحة أو أمثلة دالة على وجود شرط صوتى معين.

فى المادة التى بين أيدينا هناك مثل واحد على التقوية وهو من اللهجة اليمنية. فقد تحول صوت الصات المجهور الاحتكاكى المعروف فى الفصحى بصوت الجيم إلى صوت مهموس حلقى نعرفه الآن بالجيم القاهرية.

هناك أيضًا بعض الدلالات على وجود ظاهرة إضافة أصوات اللين فى وسط مجموعة من الصوائط (انظر كمبل ١٩٩٨ ص٣٣ للمزيد من المعلومات عن تلك الظاهرة العامة فى كل اللغات). كانت تلك الظاهرة واضحة فى هذيل وفى الحجاز. من بين

الأمثلة الجيدة التى يمكن استخدامها هنا كلمة "ابِن" حيث تضاف الكسرة القصيرة لتفصل بين صوتى الباء والنون. تتجانس تلك الظاهرة عمومًا مع بعض الظواهر الصوتية الأخرى فى غرب شبه الجزيرة العربية والتى تتعلق بأصوات اللين خاصة، فهناك ظاهرة الاحتفاظ بأصوات اللين القصير غير المنبورة فى وسط الكلمات والفصل بين الصوت على حدود المقاطع فى نهاية مقطع وبداية آخر وغياب التجانس فى أصوات اللين. تحدث كل تلك العمليات فى حين تحذف اللهجات الشرقية من المقاطع أصوات اللين القصيرة غير المنبورة الأمامية والخلفية غير المنبورة، الكسرة القصيرة والضمة القصيرة.

وكذلك مرت أنصاف أصوات اللين بتغيرات صوتية بجوار أصوات لين أخرى. فقد حذفت هذيل ولهجات أخرى صوت الواو أو الياء إذا ما ورد بجوار صوت لين آخر، ويتبع عملية الحذف تلك إطالة تعويضية لصوت اللين القصير الأصلى فى الكلمة.

يتبين لنا من القائمة التى قدمناها فى القسم الماضى أن التغيرات اللغوية لم تقتصر على العناصر الصوتية فقط، بل تعدتها للعناصر الصرفية والنحوية أيضا. على المستوى النحوى هناك اختلافات واضحة بين لهجة الحجاز على وجه الخصوص، ولهجات غرب الجزيرة العربية على وجه العموم وقواعد العربية الفصحى. لما كانت لهجات شرق الجزيرة العربية أقرب للعربية الفصحى؛ فمن الممكن أن نتصور أنها أكثر محافظة من لهجات غرب الجزيرة العربية عمومًا والحجاز خصوصًا؛ لأن الفصحى واللهجات الشرقية تشتركان فى سمة تنوع أكبر من اللهجات الغربية وتوسع فى مجال التصريف والنحو. هناك بعض التطورات اللغوية على مستوى النحو حدثت فى الحجاز كان الغرض منها تقليص التصنيفات النحوية الصرفية والأنساق. كان من أهم التطورات ما يتعلق بموضوع العامل وتغيير عوامل بعض السمات النحوية الأساسية فى الجملة الاسمية.

فبحسب قواعد العربية الفصحى واللهجات الشرقية كان مبتدأ الجملة الاسمية بعد كان وأخواتها مرفوعًا بينما كان الخبر منصوبًا، أما لهجات الحجاز فقد رفعت

المبتدأ وخبره، والشيء نفسه يحدث مع جملة "إن" أو إحدى أخواتها. فقد كانت الفصحى تنصب المبتدأ وترفع الخبر بعدها، ولكن لهجة الحجاز نصبت المبتدأ والخبر معًا. وقد تأثرت الجملة الفعلية هى الأخرى بظاهرة تعميم علامات الإعراب تلك. فقد رفعت اللهجة الحجازية الفعل المضارع بعد "أن" ولم تنصبه كما هو الحال فى العربية الفصحى. وأخيراً تطابقت الأفعال فى الجمل الفعلية تصريفيا من حيث الجنس والعدد مع الفاعل فى اللهجة الحجازية بما يعرف بظاهرة "أكلونى البراغيث". وهذا عكس ما كانت تقضى به قواعد العربية الفصحى.

تبين المادة التى بين أيدينا أن لهجة اليمن كانت تمثل قبل الإسلام امتداداً لغويا وجغرافيا للهجة الحجاز بما أن الاختلافات التى كانت بين اللهجتين قليلة. ولكن يجب أن نلاحظ فى منطقة غرب الجزيرة العربية كانت هناك بعض القبائل التى تشترك فى بعض السمات اللغوية مع لهجات شرق الجزيرة العربية والعربية الفصحى. أوضح مثل قبيلة هذيل التى حققت الهمزة مثل قبائل شرق الجزيرة العربية والفصحى، وكذلك فقد حذفت تهامة أصوات اللين القصيرة غير المجهورة من أواسط الكلمات ومن بين المقاطع مثل لهجات شرق الجزيرة العربية.

٤ - حركة التطور اللغوى :

تشير بعض الدلائل إلى ماهية التطور اللغوى وخط سيره فى شبه الجزيرة العربية. تبين المادة التى بين أيدينا أن إقليم الحجاز منبع تلك التطورات. من الناحية الصوتية بدأت اللهجات الغربية فى التحرك تجاه نظام صوتى أكثر اتساقًا؛ فقد حذفت الأصوات المهموسة المفردة، أى التى ليس لها نظير مجهور، مثل الهمزة. وكذلك تحرك صوت العين من مكان نطقه إلى مكان آخر لإفراده فى النسق دون مثيل آخر. يبدو أن الهمزة سقطت من لهجة الحجاز فى كل البيئات الصوتية، ولكنها بقيت فى اليمن إلا فى بيئة جوار لصوت المد اللين الطويل. من بين النقاط الأخرى التى عملت فيها الحجاز على تصدير تطور لغوى كان نطق فونيم العين؛ فقد فَقَدَ الصوت صفاته الحلقية من

ناحية وانتقل ليقارب الهمزة فى نطقه، أما فى اليمن فقد كان التغيير الذى حدث لهذا الصوت مجرد تأثره بعنصر أنفى فى النطق. يشير هذان المثلان إلى أن التطورات قد تكون بدأت فى الحجاز شمالاً وانتقلت جنوبا إلى اليمن.

من الواضح أن التطور اللغوى الذى بدأ فى شمال غرب الجزيرة العربية وانتقل لجنوب غربها لم يؤثر على العناصر الصوتية فقط، بل امتد أيضا ليشمل السمات الصرفية للهجات المستخدمة فى تلك المنطقة الواسعة. كانت هناك نزعة عامة فى اللهجات الغربية الشمالية لاستخدام اسم موصول واحد فقط وتعميمه على كل الأعداد والجنسين. فقد استخدمت كل من الحجاز وهذيل "الذى" للمفرد المذكر والمؤنث على حد سواء. حدث التطور نفسه فى طيئ حيث استخدمت تلك اللهجة اسمًا موصولاً واحدًا فقط هو "ذو" مع المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع معًا. ولكن اليمن استخدمت اسمين موصولين هما "ذى" و"ذو". يعنى هذا أن النزعة كانت استخدام اسم موصول واحد فى كل اللهجات الشمالية الغربية، ولكن اليمن فى الجنوب الغربى استخدمت اثنين، ويشير هذا إلى أن التطور كان يسرى من الشمال إلى الجنوب.

أما فيما يتعلق بالمسألة النحوية فقد كانت الحجاز واليمن على قدم المساواة فى مسار التطور اللغوى؛ إذ كانت هناك مثلاً نزعة فى كل من الإقليمين لاستخدام علامة إعراب واحدة لمختلف مواقف الكلمات فى الجملة وتعميمها، وكذلك استخدمت كل من اللهجتين علامة تثنية واحدة للمرفوع، والمنصوب، والمجرور. وإن كان الوضع يختلف بالنسبة لدرجة التطور، فقد كان من الواضح أن لهجة الحجاز تستخدم علامة الرفع وهى الضمة مع كل جمل كان وأخواتها، وتستخدم النصب مع جمل إن وأخواتها. هذه الأمثلة ليست متاحة بقدر كافٍ فى اليمن لكى نحكم على مسار التطور فى هذه المسألة. ولكنه من الواضح فى كل اللهجات العربية الغربية يمنية كانت أو حجازية أن العامل لم يعد مؤثرًا بشكل قوى على معموله.

إذا ما نظرنا إلى لهجتى هذيل والأزد فسنلاحظ أنهما لم تشتركا فى عدد من عناصر التطور اللغوى الذى حدث؛ فقد احتفظت الأزد مثلا بعلامات الإعراب كاملة أى بوجود تصريف إعرابى يقارب العربية الفصحى ولهجات شرق الجزيرة العربية.

ولكن استخدام تصريف إعرابى كامل لا يعنى أن نظام العلامة الإعرابية كان بعيداً عن التطور، فهذا غير صحيح؛ إذ كانت الأزد تستخدم علامة الإعراب فى كل الكلمات وعممتها على الكلمات فى حالة الوقف، بينما كان من المفروض فى أصول العربية الفصحى أن تسقط العلامة من نطق الكلمة فى حالة الوقف.

على الرغم من أن تلك الصورة تبدو غامضة وغير كاملة، فإنها تبين اشتراك الحجاز ولهجات اليمن وما بينها فى توجهات معينة. بعض لهجات غرب الجزيرة العربية الأخرى تشترك مع هاتين اللهجتين فى سمات وتختلف عنها فى سمات أخرى تشترك فيها مع اللهجات الشرقية. التشابه اللغوى الكبير بين اليمن والحجاز مسألة فى نظرى طبيعية؛ بسبب عوامل التجارة المشتركة والصلات الاجتماعية الوثيقة. لقد انتعشت التجارة واستمرت بين الإقليمين منذ أن وقَّع الفرس والرومان اتفاقية سلام فى عام ٥٦١ ميلاديا. لقد تم غلق الطريق التجارى الشمالى بمقتضى هذه المعاهدة وأصبح التجار والقوافل مضطرين لاستخدام طريق التجارة الغربى الذى يسرى بين مكة واليمن (شهيد ١٩٨٨ ص١٨١). تحركت التجارة فى هذا الطريق بين المناطق الحضرية فى اليمن ومثيلاتها فى الحجاز، وعلى الطريق نفسه انتقلت السمات اللغوية. وبذلك يكون من الواضح أن التطورات اللغوية انتقلت من الحجاز إلى اليمن مع قوافل التجارة. إذا كانت تلك الفرضية صحيحة، فما الذى منع الأزد وطيئ وتهامة وفى بعض الأحيان هذيل من التأثر بتلك التطورات التجارية على الرغم من وقوعها على طريق التجارة بشكل أو بآخر؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال ألفت الانتباه إلى أن إبراهيم أنيس (١٩٥٢) قد أكد على اشتراك القبائل البدوية فى سمات لغوية خاصة بها تشترك معها فى تلك السمات العشائر البدوية من القبائل الحضرية؛ ولذلك فقد كان من الطبيعى من وجهة نظر الأستاذ إبراهيم أنيس أن تشترك لهجات طيئ وتهامة وهذيل والأزد فى بعض السمات اللغوية مع قبائل تميم وأسد مثلاً؛ لأنها كلها قبائل بدوية.

استطاع الأستاذ أنيس من خلال بحثه فى كتب النحو العربى أن يتبين أن بعض اللهجات العربية الغربية تتسم بسمة لغوية يضفيها النحويون أنفسهم على لهجة أخرى فى شرق الجزيرة العربية، وأن بعض اللهجات تتسم بصفتين لغويتين متباينتين فى

الوقت نفسه. ولكنه استطاع أن يفسر هذا التناقض الظاهر في المادة الموجودة في كتب النحو بأن وضع بعض السمات اللهجاتية للعناصر البدوية من قبيلة حضرية معينة وأن يضع بعض السمات الأخرى لعناصر حضرية من قبائل بدوية، واستطاع من خلال هذا التفسير أن يتوصل إلى أن اللهجات الحضرية لها سماتها التى تختلف عن اللهجات البدوية حتى ولو كان الاثنان ينتميان للقبيلة نفسها. الاختلافات الأساسية بين القبائل الحضرية والبدوية فى اللهجة إنما هى اختلافات صوتية. عدَّ إبراهيم أنيس (١٩٥٢ ص٩٠) الإمالة والتجانس فى أصوات اللين على أنهما من أبرز السمات الصوتية للهجات البدوية. ولذلك عندما يصف النحويون قبيلة هذيل بأنها تحقق الإمالة فيجب أن نفهم أن العشائر البدوية الهذلية هى التى تحقق الإمالة فى مقابل العشائر الحضرية، وغالبًا ما تكون تلك العشائر البدوية العشائر الشرقية المجاورة لنجد. وينطبق المنطق نفسه على كل اللهجات الحضرية فى غرب الجزيرة العربية، فكلها كان لها امتداد بدوى كما أن لها عشائر حضرية.

على الرغم من أن فكرة إعزاء سمات متناقضة لعشائر مختلفة من القبيلة نفسها والربط بين ذلك والعنصر الحضرى أو البدوى من القبيلة فكرة تحل مشكلة المادة المتناقضة ظاهريا، فإن مشكلة هذا الطرح تكمن فى غياب أى تفسير منطقى يقدمه أنيس لربط العنصر السكانى حضريا كان أو بدويا بسلوك لغوى معين، فلا يقدم لنا علة الربط. وحتى لو افترضنا أن هذه النظرية صحيحة فالمشكلة تكمن فى أننا لا نعرف بالضبط أى عشائر القبيلة كانت بدوية وأيها كانت حضرية. ولكن الأستاذ الجندى (١٩٨٣ ص٣٦-٣٨) يعتقد معتقد الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس نفسه فى الربط بين نمط حياة عشيرة معينة وسلوكها اللغوى. ولكنه يرفض تعميم أنيس الشديد بأن معظم سكان الحجاز كانوا من الحضر بينما كان معظم سكان شرق الجزيرة العربية من البدو. ويقول: إن الحدود بين أرض الحجاز وأرض تميم فى شرق الجزيرة العربية لم تكن محددة تحديدًا شديدًا وثابتًا، وإن القبائل أو العشائر البدوية كانت تنتقل بين الإقليمين بحرية لا يعوقها عائق، ولم تكن تلك العشائر بحاجة لتغيير هويتها ولا سماتها اللغوية.

ويضيف الأستاذ الجندى أن تميم وأسد وغيرهما مع كبار سكان شرق الجزيرة العربية لم تكن قبائل بل كانت تجمعات قبلية كبيرة تحتوى على مجموعة من القبائل والعشائر، بعضها بدوى وبعضها حضرى؛ ولذلك كان من الممكن أن تكون لها سمات لغوية كثيرة تشترك فى بعضها مع القبائل الحجازية وتتناقض فيما بينها فى بعض السمات الأساسية؛ ولذلك من الممكن أن تكون العناصر البدوية والحضرية قد تمتعت بسمات لغوية منفصلة ومختلفة فى تجمع قبلى واحد.

أتصور أنا شخصيا أن فكرة أنيس ومن بعده الجندى صحيحة، فهناك علاقة بين بعض السمات اللهجية لقبائل غرب الجزيرة العربية عمومًا والحجاز خصوصًا وبين بعض عوامل التحضر فى تلك المنطقة. من الطبيعى نظريا على الأقل أن تشترك المناطق الحضرية فيما بينها فى بعض عناصر التطور اللغوى وتتناقلها أسرع وأبسط مما قد يكون عليه الحال فى قبائل بدوية؛ ذلك لأن المناطق الحضرية تتمتع بإمكانية استقبال تطور لغوى معين عن طريق خط تواصل ثابت ومستمر بينها وبين مصدر التطور. وإذا كان ما قلته سلفًا صحيحًا وكانت العناصر اللهجاتية التى تفصل مجموعة اللهجات الغربية عن العربية الفصحى واللهجات الشرقية قد نبعت من الحجاز فى الشمال الغربى وسرت إلى اليمن فى الجنوب الغربى، فإن تلك العناصر المتطورة يجب أن تكون قد ظهرت فى مكان ما فى شمال غربى الجزيرة العربية. من الممكن أن تكون التطورات التى لحقت بنظام التصريف الإعرابى العربى قد بدأت فى المناطق النبطية فى القرن الأول الميلادى فى شمال غربى شبه الجزيرة العربية وانتقلت جنوبيًا مع خطوط التجارة التى استقرت من بعد الاتفاقيات الرومانية الفارسية التى أشرنا إليها سلفًا فى القسم الماضى. سأفصل هذا الموضوع لاحقًا، ولكن من الكافى الآن أن نقول إن القوافل التجارية بين بلاد الشام ومكة وتلك التى كانت بين مكة واليمن هى المسئولة عن حمل عناصر التطور اللغوى تلك على طول هذا الخط. وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن لقبائل ليست على طريق التجارة الثابت وليست محطات استراحة أو تبديل أن تتلقى تلك التطورات وتتفاعل معها.

إذا كان افتراضى هذا صحيحاً؛ فإن القبائل الغربية من حجاز ويمن وغيرهما كانت فى مرحلة بناء نمط عربى خاص يختلف بنيويا عن باقى اللهجات العربية البدوية، وبالتالى يختلف عن العربية الفصحى. على الرغم من أن المادة اللغوية المناسبة الموجودة فى كتب النحو قليلة ومتناثرة إلى حد كبير فإنه من الممكن أن نجمع أن اللهجات الحضرية كانت تتميز على المستوى الصوتى بتغيير ملامح نطق فونيم العين وتسهيل الهمزة فى كل البيئات الصوتية أو معظمها وغياب الإمالة والتجانس الصوتى. أما على المستوى الصرفى، فإن من أهم مميزات اللهجات الحضرية عن مثيلاتها البدوية اختصار التصنيفات الصرفية. وأخيراً على المستوى النحوى، تتميز اللهجات الحضرية بتعميم استخدام علامة الإعراب واختلاف عمل العامل فى تركيب الجملة الاسمية والفعلية.

مع الأسف ليست المادة اللغوية منظمة بشكل يسمح بالتوصل لأى نتائج ثابتة أو حتى التكهن بأثر مما تكهنت به الآن. ولكن المادة بشكلها الراهن تبين وجود تراوح وتباين فى سمات لغوية كثيرة من كل المستويات اللغوية. وهذا دليل على وجود بناء فيه لهجات مختلفة. وهناك بعض الإشارات إلى وجود عناصر تطور لغوى فى تلك المرحلة من تاريخ العربية، وأن تلك العناصر كانت تتحرك من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى، وقد أثرت تلك التطورات اللغوية على المناطق الحضرية لأسباب اجتماعية وتجارية كانت فى طور بناء لهجات عربية حضرية خاصة بها قبل ظهور الإسلام وفى مراحله الأولى[٩] .

---

(٩) لذلك يصبح من المفهوم أن النحاة العرب فى مراحل بناء النظرية النحوية المبكرة وطرق جمع المادة كلما أرادوا التثبت من صحة استدلال منطقى معين وصلوا إليه لجئوا لعربى بدوى لا تسكن قبيلته المناطق الحضرية أو التخوم مع الشام أو العراق؛ ذلك لأن تلك القبائل لم تتأثر بالتطورات اللغوية التى أثرت فى المناطق الحضرية فى الحجاز .

الفصل الثالث

الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

سأتحدث فى هذا الفصل عن التصورات القائمة عند الباحثين فى مجال تاريخ اللغة العربية عن الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة قبيل الفتوحات، وعن المستويات اللغوية إن كانت هناك مستويات، فى محاولة للبحث فى وظيفة الفصحى كما نعرفها وحدود دورها فى مقابل حدود دور الأنماط والتنوعات التى كشفنا عن ملامح من تراكيبها فى الفصل السابق.

١ - المستويات اللغوية فى الجزيرة العربية :

لقد سجل النحويون اللسان العربى المبين الذى نزل به القرآن وقرض به العرب شعرهم ودونوه وقعّدوه. وأزعم أنهم فى سياق عملهم هذا تجاهلوا اللهجات العربية التى ليس عندنا بها علم كبير. وبسبب اهتماماتهم المركزة تلك كان لهم موقف عدائى من اللهجات العربية الحضرية ولهجات التخوم، وموقف مؤيد للهجات البدوية المركزية؛ لأنها تشبه الوحدة المعيارية محل البحث وهى عربية القرآن الكريم. السؤال هنا فى الحقيقة هو : هل كانت هناك فروق تراتبية وسلّمية بين لهجة القرآن الكريم - العربية الفصحى - واللهجات العربية الأخرى حضرية كانت أو بدوية؟ أو هل كانت كل من تلك الأنماط مختلفة وظيفيا، أى هل كان لكل منها وظيفة لغوية اجتماعية خاصة بها لا تستخدم غيرها لأدائها؟

يختلف النحويون العرب وعلماء اللغة المحدثون فيما بينهم حول هذه النقطة، ويتحزبون لرأى من الرأيين. يصر النحويون وبعض علماء العربية الغربيون المحدثون من أمثال فيك (١٩٥٠) وسزجين (١٩٦٩) وفرستيغ (١٩٨٤) على أن كل اللهجات القبلية تتشابه مع العربية الفصحى إلا فى فروق صغيرة لا ترقى لأن تمثل اختلافًا حقيقيًا يرقى لمستوى فرق لهجاتى؛ ولذلك فإن هذا الرأى يزعم أن العرب لم يكونوا يشعرون بتلك الفروق فى استخدام لغتهم. ومن بين السمات التى اشترك فيها العرب جميعا نظام التصريف الإعرابى بعلاماته الإعرابية الكاملة. ولكن معظم علماء العربية المحدثين وخاصة فى الغرب يرفضون هذا التصور على طول الخط كما كانوا يرفضونه طول الوقت. وقدم الباحثون الغربيون فى هذا الصدد نظرياتهم البديلة، بدأ تيار الرد العكسى هذا فى عام ١٩٠٦ بالعالم الألمانى "فولرز" الذى قدم نظرية معاكسة تمامًا لتصور النحاة العرب. فرضية فولرز الأساسية أنه كان هناك فرق كبير بين اللهجات العربية التى كان النبى (ﷺ) وأصحابه يتكلمونها فى حياتهم اليومية – وهى التى سماها العامية – واللغة التى ورد بها لنا نص القرآن الكريم – وهى ما سماها لغة الكتابة. بحسب هذه النظرية كانت العامية تتميز عن الفصحى فى رأى فولرز بسمات صرفية نحوية وصوتية، منها تسهيل الهمزة وغياب التصريف الإعرابى بشكل كامل. وافترض فولرز (١٩٠٦ ص١٦٩) أن عرب الحجاز وباقى المنطقة الغربية من جزيرة العرب استخدموا علامات الإعراب حليات فى مستويات رفيعة من الخطاب، وليس فى الخطاب اليومى. وأضاف فولرز أن القرآن الكريم استلزم ترجمة من لغة العامية إلى لغة الكتابة الرفيعة الفصيحة؛ لكى يتقبله العرب نصا سماويا موحيًا وليس نصا بشريا مقروضا. أما المترجمون الذين قاموا بتلك الترجمة فهم من العارفين بسبل لغة الكتابة وليس النبى نفسه.

يرفض كثير من علماء العربية المحدثين معظم نظرية فولرز وتطرفها فى التفسير. ولكن نقطة فولرز الأساسية وهى الفرق بين العربية العامية والفصحى تظل حتى الآن عمودًا من أعمدة الدراسات العربية التاريخية ومسلمة من مسلمات معظم العلماء الغربيين على الأقل. ولكن هؤلاء العلماء أنفسهم يختلفون عن درجة الفرق بين النمطين اللغويين.

على الرغم من أن المادة اللغوية لا تعطينا إلا مجرد إشارات غير وافية على وجود اللهجات فإن معظم العلماء المحدثين مقتنعون بأن اللهجات العربية حق، بل وأطلقوا عليها تسمية لهجات ما قبل الإسلام، كما لو أنها كانت تختلف عن نمط يمكن تسميته جدلاً "بلهجات ما بعد الإسلام فى الجزيرة العربية". وكذلك يعتقد معظم الباحثين أن لهجات ما قبل الإسلام المزعومة تلك كانت تختلف عن فصحى القرآن الكريم والشعر الجاهلى أشد الاختلاف. السبب اللغوى الرئيسى فى تمايز النمط القرآنى الرفيع عن اللهجات استخدامه لنظام التصريف الإعرابى. وكان بروكلمان من أوائل علماء العربية الذين قدموا صورة من صور هذا الطرح عندما قال: إن العربية الفصحى التى سماها عربية الأدب كانت نمطا لغويا استخدمه الشعراء من أجل الشعراء وفهموه وحدهم دون غيرهم من عامة الناس (انظر هذا الكلام عند فلايش ١٩٤٧ ص١٠٠). أصحاب هذا التصور سموا العربية الفصحى المشترك الشعرى مبرزين فى تلك التسمية الوظيفة الأساسية لهذا النمط اللغوى قبل الإسلام.

يتصور بعض الباحثين أنه بما أن العربية الفصحى تتشابه مع لهجات نجد وشرق الجزيرة العربية عموماً أكثر مما تتشابه مع لهجات الحجاز والمنطقة الغربية؛ فإن أصل ذلك النمط اللغوى يجب أن يكون تلك المنطقة. يؤصل الباحثون هذا الزعم بقولهم: إن سبب هذا الأصل وتلك السمعة الحسنة لهذا النمط اللغوى هو أنه فى نجد - حيث يلتقى الشرق والغرب - قامت مملكة كندة وشكلت تلك المملكة ثقلاً سياسيا جاذباً لعموم العرب، وكانت طائفة الشعراء من بين من انجذب لتلك المنطقة وقرضوا شعرهم بالنمط اللغوى المستخدم فى تلك المنطقة والذى ظهر من خلال التقاء كل العرب من مختلف لهجات شبه الجزيرة العربية. ولكن عندما انتعشت مكة وباقى المدن فى غرب شبه الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن السادس أصبحت لغة كندة هذه مفضلة عند الطبقات التجارية الصاعدة فى مكة باعتبارها لغة شرف وعظمة. وكان المستخدمون الأساسيون لهذا النمط اللغوى هم الشعراء، ومعنى كلمة شعراء هو الأشخاص الذين يملكون المعرفة (زويتلر ١٩٧٨ ص١٠٩). تعنى تلك التسمية أن الشعراء وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون التعامل مع قواعد المشترك اللغوى المعقدة. ويفترض بعض

الباحثين أيضًا أن سر تلك التسمية يكمن فى تمكن الشعراء من استخدام نظام التصريف الإعرابى ليس أكثر.

فى تصورى، هذه فرضية غير ذات منطق، فلقد رأينا أن اللهجات العربية الغربية تستخدم نظام التصريف الإعرابى ولو كان هذا الاستخدام يختلف عن استخدام الفصحى واللهجات العربية الشرقية، ولذلك فالاعتماد على نظام التصريف الإعرابى وحده لا يبنى نظرية؛ فاللهجات الغربية، أو تلك الأنماط التى نسميها لهجات، تختلف فيما بينها فى أكثر من التصريف الإعرابى وكذلك تختلف فيما بينها فى استخدام نظام التصريف الإعرابى نفسه. وفى الواقع إما يكون فى نمط لغوى ما نظام تصريف إعرابى أو لا يكون، ولذلك فكون الحجاز تستخدم فتحة وضمة يعنى أنها تمتلك نظام تصريف إعرابى بغض النظر عن حالة تطوره الآنية.

على الرغم من أن معظم علماء العربية الغربيين يختلفون مع النحاة العرب فى كثير من التصورات والفرضيات فإن الطرفين يتفقان معًا فى تحميل فكرة التصريف الإعرابى أهمية كبيرة. يتصور الكثير من الباحثين أن التصريف الإعرابى هو السمة المميزة الوحيدة لنمط العربية الفصحى الرفيع عما يسمونه اللهجات العربية (انظر زويتلر ١٩٧٨ ص١١٦). يقول ابن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هجريا فى معرض وصفه عبقرية الشعراء: إن الشعراء الذين كانوا أمراء الكلام لم يخطئوا قط فى استخدامهم العلامة الإعرابية ولو أنهم ترخصوا فى بعض الأحيان من باب الضرورة الشعرية (انظر الصاحبى ص٢٧٥). ولذلك احتلت العلامة الإعرابية مكانة واسعة فى تصورات الباحثين الغربيين فى النصف الأول من القرن العشرين، فكان السؤال الأساسى فى تلك المرحلة هو : هل كانت العلامة الإعرابية خاصة بنمط العربية الفصحى أو أنها اشتركت فيها مع اللهجات الأخرى؟ وكان لهذا السؤال أهميته؛ لأن التصريف الإعرابى كان فى نظر الباحثين الفارق الوحيد بين الفصحى واللهجات المزعومة.

أثارت نظرية فولرز التى تكلمنا عنها سلفًا عاصفة كبيرة من الانتقادات، تصور جير (١٩٠٩ ص١٥) مثل فولرز أن لهجات العرب البدو كانت العربية الفصحى بشكلها الذى نعرفه الآن وبعلامات الإعراب، وكان دافعه الأساسى فى هذا التصور هو

أنه فى مجتمع متجانس بسيط بدائى مثل مجتمع البداوة يصعب تصور أن يختلف نمط الشعر عن نمط الحديث اليومى. ويزعم جير أن الطبقات العالية فى المجتمعات الحضرية فى الحجاز تبنت هذا النمط اللغوى الفصيح على أنه نمط رفيع ومحترم؛ لأنه يرمز إلى صلة تلك الطبقات بتراثها البدوى العريق وجذورها الأعرابية القديمة (جير ١٩٠٩ ص١٥-١٩). وبناءً على تلك الوحدة اللغوية المزعومة يختلف جير مع فولرز فى نظرية ترجمة القرآن من نمط عامى لنمط فصيح. فى رأى جير يجب أن يكون النبى – صلى الله عليه وسلم – قد كتب القرآن الكريم بالعربية الفصيحة الرفيعة من البداية؛ ذلك لأن الإنسان إذا أراد أن يؤثر فى الناس ويوصل لهم رسالة بهذا الحجم الضخم كالإسلام يجب أن يستخدم أرفع الأنماط اللغوية المتاحة (جير ١٩٠٩ ص١٨). يسمح طرح جير هذا بافتراض وجود فرق كبير بين نمط حديث الأعراب البدو والطبقات الحضرية الرفيعة من ناحية وعامة العرب فى تلك المناطق الحضرية من ناحية أخرى.

ليس لجير فى افتراضه هذا أى دليل لغوى على أن عرب الحجاز اختلفت طبقاتهم الاجتماعية، وعليه كان هناك عنصر لغوى اجتماعى يحتم تعميم نمط لغوى على طبقة اجتماعية، وليس فى كتب النحو العربى ما يدعم تلك الفكرة أو يشير لها حتى من بعيد. بالإضافة إلى ذلك، ما السبب المنطقى الذى يحول دون استخدام قبيلة عربية بدائية لنمط فنى غير نمط الحديث اليومى، ألم يثبت من العرض السريع لأنماط الاختلاف فى غرب الجزيرة العربية الذى قدمناه اختلاف بعض اللهجات البدوية فى الغرب عن الفصحى فى بعض السمات؟! ألم يكن لتلك القبائل وخاصة هذيل شعراء يعتد بعربيتهم، ولم يأخذ عليهم النحويون أخطاءً لغوية؟! كيف إذن بحسب نظرية جير يجتمع النقيضان؟! أضف أيضا إلى ذلك أن مجتمعات بدائية أخرى كاليونان كانت تتحدث أنماطًا تختلف عن النمط الذى استخدم فى نظم الأعمال الملحمية اليونانية المعروفة. هناك اعتراض أخير على تلك النظرية ألا وهو أنه كيف تستخدم طبقات حضرية رفيعة النمط العربى الشعرى البدوى دون نمط المناطق الحضرية التى كانت تعيش فيها؟! هذا تصور صعب التصديق.

بيَّن رابين (١٩٥١ ص٣-٤) فى معرض تفنيده لنظرية "ترجمة القرآن الكريم" أن العربية الفصحى التى نشأت فى نجد حيث يلتقى الشرق والغرب قد جمعت من كل اللهجات عناصر ودمجتها معًا. يعد انتشار النمط الشعرى هذا بحسب نظرية رابين فى مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية من خلال التجمعات والأسواق هو الدافع الحقيقى وراء ترسيخ دعائم ذلك النمط وسيط الشعر، ولذلك عندما بدأ إقليم الحجاز فى إنتاج شعره الخاص به اضطر إلى استخدام النمط الشعرى الذى تمت صياغته فى مكان آخر. ولما كانت بعض السمات اللغوية اللهجاتية تستعصى على التغيير فقد طوعت كل القبائل العربية النمط الفصيح لنظامها الصوتى بشكل من الأشكال، وبذلك أصبحت هناك فصحى حجازية تختلف اختلافا بسيطًا عن الفصحى الهذلية التى تختلف بدورها اختلافًا طفيفًا جدا عن استخدام منطقة نجد لهذا النمط الشعرى. وهذا بالضبط ما يحدث الآن فى استخدام الفصحى المعاصرة فى أيامنا هذه، فمن الممكن جدا أن نتعرف على الإقليم الجغرافى الذى ينحدر منه قارئ قرآنى معين أو شخص عادى يقرأ نصا من نصوص الفصحى قراءة جهرية، فنستطيع أن نخمن دون علم مسبق أن شخصًا ما مصرى أو سودانى أو مغربى دون أن نراه ولكن سماته الصوتية فى استخدام الفصحى هى التى تبين لنا ذلك.

ويكمل رابين فرضيته بالقول : إن اللهجات العربية المختلفة استخدمت سمات محلية قليلة كالمفردات غالبًا، وحافظت على وحدة هذا النمط الشعرى من خلال كثرة استخدامه فى الفعاليات والأماكن ورواية الشعر. وعندما نزل القرآن كان إلقاؤه مسموعًا بالتفريعة المحلية الحجازية للهجة النبى (ﷺ) من حيث العادات الصوتية الحجازية. يعنى هذا أن النص لم ينزل بصورة طبق الأصل من النمط الذى اعتمده النحويون فى مرحلة لاحقة لبناء نظرياتهم النحوية، من الناحية الصوتية على الأقل. ولكن القرآن فى الوقت نفسه لم ينزل بلهجة النبى (ﷺ) اليومية كذلك. ينكر رابين بهذا الطرح المنطقى وجود أى عملية ترجمة للنص القرآنى من قبل جماعة من المسلمين الأوائل دون إنكار وجود فرق بين عربية رفيعة وعامية مستخدمة بشكل يومى.

ولكن رابين نفسه (١٩٥٥ ص٢١ و ٢٢) يقول: إن الشعر الجاهلى والقرآن الكريم قد طرأ عليهما من بعض النحويين تغيير فى المراحل المبكرة من تقعيد النحو العربى. يسوق رابين مثل إضافة الهمزة على كتابة القرآن الكريم وبالتالى على نطقه ليمثل لتلك التغييرات. ولكن رابين يصر أن التغييرات التى طرأت تبقى محدودة بالعناصر الصوتية فقط وأن إضافة عنصر نحوى أو صرفى، وتغييره فى النص القرآنى كعنصر التصريف الإعرابى مثلا مسألة مستحيلة. يقول رابين (١٩٥٥ ص٢٦): إن فرضية أن العلامة الإعرابية قد أضيفت فى مرحلة لاحقة من التدوين للتفرقة بين النص القرآنى الشريف الرفيع واللهجات العامية أمر غير منطقى. كما أنه يتجاهل الاختلافات الأخرى بين اللهجات المزعومة والفصحى. يرى رابين أن التصريف الإعرابى أصيل فى النص القرآنى؛ لأنك لو أردت إضافة التصريف الإعرابى لنص بعد تدوينه يستوجب تغييراً كبيراً فى بنية صوائت الكلمات ونسيج المقاطع الصوتية. لقد نزل القرآن بعلامات الإعراب بالفصحى وكان النبى (ﷺ) واعياً بذلك؛ لأن العربية الفصحى كان لها وظيفة اجتماعية رفيعة (رابين ١٩٥٥ ص٢٧).

على الرغم من أن الكثير من الباحثين الغربيين رفضوا نظرية الترجمة فى شكلها المتطرف فإن آخرين قبلوها أو قبلوا منها عناصر معينة. فقد حاول كاله (١٩٤٨ ص١٦٣-١٨٢) أن يثبت صحة نظرية فولرز باستخدام بعض الأحاديث النبوية وبمقتطفات من قصة عن الفراء المتوفى عام ٢٠٧ هجريا. ففى معرض رده على مقولة نولدكه (١٩١٠) - : إنه لو كان القرآن نزل دون التصريف الإعرابى، ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه قد رتلوه، دون التصريف الإعرابى فإن النسخة غير المعربة من القرآن الكريم ما كانت لتختفى هكذا دون أثر ولو طفيف - يحاول أن يجد هذا الأثر الطفيف. يقول كاله: إن كلام نولدكه غير صحيح؛ لأنه كان يجهل بعض النصوص العربية القديمة المفيدة فى هذا السياق، يقول كاله: إن هناك بعض الأحاديث النبوية وقصة للنحوى الكوفى الفراء تحث الناس على ترتيل القرآن الكريم بعلامات الإعراب. ويستنتج من وجود تلك الأحاديث أن الناس لم يرتلوا القرآن فى تلك الفترة بعلامة الإعراب وأن الأمر كان كذلك منذ التنزيل. ويدعى كاله أن القراء هم الذين أدخلوا علامات الإعراب على النص القرآنى بعد أن تعلموا لغة الشعر من عرب البادية.

يرفض رابين (١٩٥٥ ص٢٥-٢٩) هذه الفكرة كلية ويقول: إن الأحاديث النبوية التى تعد الناس بثواب عظيم عند قراءة القرآن بعلامات إعراب كاملة أو حتى منقوصة إنما كانت موجهة للناس كافة ولم تكن موجهة للقراء بصفة خاصة. ويضيف أن تلك الأحاديث ربما لا تشير إلى اختفاء علامات الإعراب كلية أو جزئية بقدر ما تشير إلى الخطأ فى استخدامها؛ لأن الخطأ فى التصريف الإعرابى كان سمة عامة ليست عند العوام فقط، بل أيضا عند خاصة العرب. يزعم رابين (١٩٥٥ ص٢٦) أن عادة قراءة القرآن دون العلامة الإعرابية قد تكون راجعة إلى طريقة تدوين المصحف الشريف فى تلك الفترة، وهى طريقة تخلو من تسجيل أصوات اللين القصيرة وعلامات الإعراب. قراءة نصوص بتلك الطريقة كانت صعبة وبطيئة فى آن واحد؛ ولذلك جاء الحث على استخدام علامة الإعراب؛ لتحفيز الناس على النطق السليم رغم الصعوبة لتفادى الغموض والخطأ فى نص مقدس كهذا.

رفض معظم الباحثين فى النصف الثانى من القرن العشرين نظرية "الترجمة" بشكل كامل، إلا أنهم تصوروا وجود نمطين لغويين متزامنين فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. يقول زويتلر (١٩٧٨ ص١٢٨) - وهو من هاجم كلا من فولرز لنظرية الترجمة ونقاده جير ونولدكه لافتراض أن البدو كانوا يستخدمون العربية الفصحى لغة حديث يومية - يعقب بأن كل تلك الفرضيات لا تجد لها مبرراً مقنعًا من الحقائق اللغوية التى نعرفها عن تلك المرحلة. أثارت نظريات نولدكه ردود أفعال كثيرة ومنها رد فعل كاله الذى وصلنا فى ثلاث مقالات على مدى عشر سنوات (١٩٤٨ و ١٩٤٩ و ١٩٥٩). يتعامل كاله فى المقالات الثلاثة مع موضوع علامات الإعراب وعلاقتها بالنص القرآنى، فهو (١٩٤٨ و١٩٥٩) مقتنع أن اللغة العربية التى كان البدو يتكلمونها متماثلة مع لغة الشعر العربى الجاهلى والقرآن الكريم، وهو فى ذلك لا يختلف عن جير ونولدكه، ولكنه فى مقاله الثالث (١٩٤٩) يدعى - فى معرض تعامله مع موضوع اللهجات العربية والأنماط التى كانت مستخدمة فى الحجاز - أن القرآن كان يقرأ فى القرن الثانى الهجرى دون استخدام علامة الإعراب. ويبنى فرضيته تلك على مجموعة من الأحاديث الشريفة التى جمعها المالكى المتوفى عام ٤٣٨ هجريا فى كتاب يسمى "التمهيد فى

معرفة التجويد". وتحث تلك الأحاديث – كما أسلفنا – المسلم على استخدام التصريف الإعرابي والشكل في قراءة القرآن وعدم اللحن.

ينقسم كتاب المالكي هذا لقسمين: يقدم القسم الأول نصحًا مشدداً للمسلم أن يقرأ القرآن بسلامة لغوية عربية كاملة وبأسلوب جميل. أما القسم الثاني والأكثر أهمية لنا هنا فينقسم بدوره لفصول عشرة، يحتوي الفصل السادس منها على ١٢٠ مقولة تنصح الناس بقراءة القرآن باستخدام علامات الإعراب. تحتوي تلك الفصول العشرة عمومًا على ٣١ حديثا منسوبًا إلى النبي (ﷺ)، وستة وثلاثين قولا لأصحاب النبي (ﷺ). وعندما حلل كاله تلك المقولات خلص إلى نتيجة مفادها أن علامات الإعراب والتصريف الإعرابي عمومًا لم يكن موجوداً في لهجات العرب الحضرية قبل القرن الثاني الهجري.

على الرغم من أن كاله (١٩٤٩ ص٦٩) يعترف أن تلك الأحاديث ليست مذكورة في صحاح جمع الحديث الشريف كصحيح البخاري ومسلم فإنه يعتبرها صحيحة أو على أقل تقدير عناصر دالة على خلاصته. ويدلل على مشروعية استخدامها بأنها كانت معروفة لدى القراء. بما أن كاله يتصور أن الأعراب البدو كانوا يستخدمون العربية الفصحى وأن أبناء الحضر كانوا يستخدمون لهجات مختلفة لا تحمل علامات إعراب؛ فإنه يتصور أن العربية الفصحى التي درسها أهل النحو في القرون الأولى ظهرت نتيجة للشعر الجاهلي الذي هو لغة الأعراب البدو. ويستطرد أنه في مرحلة زمنية ما قبل القرن الثاني الهجري تم تطويع نص القرآن الكريم لأنساق أصوات اللين الموجودة في تلك الفصحى عن طريق خبراء واعين بما كانوا يفعلون ولهم في ذلك أهدافهم. ولذلك فقد كان الناس غير معتادين على قراءة القرآن بعلامات الإعراب الحادثة على النص، ولذلك أيضا تأتي كل تلك المقولات والأحاديث المزعومة لتنصح الناس بتبني تلك العادة الجديدة (كاله ١٩٤٩ ص٦٩).

يشبه تصور كاله تصور فولرز قبله إلا في جزئيتين: الأولى أن كاله يتحدث عن ترجمة للقرآن من نص عامي لنص فصيح عالي المكانة الاجتماعية، في حين أن نظرية

كاله لا تتكلم إلا عن تطويع بسيط لنسق صوتى يسمح بإضافة علامات الإعراب. الاختلاف الثانى: أن فولرز تصور أن المسلمين الأوائل هم من قام بتلك الترجمة لأنهم كانوا واعين برفعة مكانة الفصحى الاجتماعية. أما نظرية كاله فهى تعتمد على أن النحويين المتأخرين نسبيا هم من قام بهذا التطويع بعد أن طوروا أنساق الفصحى النظرية وقواعد النحو القياسية بناء على دراسة الشعر الجاهلى وتحليله.

أما رابين (١٩٥٥) فهو لا يعتقد صحة تلك النظرية، بل ويقول : إن الثواب الذى تعد به تلك الأحاديث النبوية المزعومة إنما يقصد به العامة دون الخاصة ممن يقرأ القرآن الكريم، ويضيف رابين أن كلمة "اللحن" وهى عكس كلمة "الإعراب" لا تعنى قراءة نص من النصوص دون استخدام التصريف الإعرابى، بل تعنى الاستخدام الخاطئ لنظام التصريف الإعرابى. لقد بينا فيما سلف فى معرض نقد رابين (١٩٥٥ ص ٢٦) لنظرية فولرز أن اختصار الفوارق بين الفصحى واللهجات القبلية فى علامات الإعراب وحدها أمر يبسط المسألة أكثر مما يجب؛ لأن الفروق بين لهجة مكة على سبيل المثال والعربية الفصحى أكثر من التصريف الأعرابى بكثير، فهناك اختلافات صوتية وصرفية كثيرة. يلح رابين (١٩٥٥ ص٢٧ و ٢٨) على أن القرآن الكريم نزل بالعربية الفصحى لما كانت تتمتع به بين العرب من مكانة وسعة انتشار وبعد للمحلية. ويضيف أنه كان من المعروف أن العربية الفصحى كانت لغة الكتابة فى ذلك المجتمع الشفاهى الأمى؛ إذ إن مجموعات السور القرآنية المكتوبة ومجموعات القصائد الشعرية المبكرة تبين أن العرب على الرغم من شفاهيتهم كانوا يعترفون بالكتابة وأن ثقافة صدر الإسلام كانت تلصق الكتابة بالعربية الفصحى لصقًا لازمًا. بالإضافة إلى ذلك إذا كانت المعاهدات المبكرة التى أبرمها النبى (ﷺ) والرسائل التى أرسلها للملوك والأمراء والتى تستخدمها كتب التاريخ العربى القديمة وكتب السير النبوية صحيحة؛ فإن هذا يعنى أن العربية الفصحى لم تكن رهن استخدام الشعراء العرب الجاهليين فقط، بل كانت لها وظائف أخرى. وفى رأى رابين أن هذا التفسير يبين سبب مباعدة الرسول ما بين نفسه وبين الشعراء على الرغم من أنه كان يستخدم أداتهم فى التعبير.

علامات الإعراب سمة مميزة للفصحى :

هناك نقطة واحدة لا يختلف عليها كل الباحثين فى مجال اللغة العربية وهى أن الفصحى كانت لغة رفيعة وتستخدم فى الوظائف اللغوية الرسمية، ومع ذلك فإن رابين يختلف عن معظم الباحثين فى هذا المجال عندما يقول: إن نمط القرآن الكريم لم يكن مستخدمًا لغة حياة يومية عند أى عربى بدويا كان أو حضريا. ويتفق زويتلر مع رابين فى تلك الخلاصة ويقول (زويتلر ١٩٧٨ ص١٣٠) :

> **حتى لو كانت الأحاديث التى يستشهد بها كاله راجعة فعلاً لأيام صدر الإسلام، فإنها ستكون دليلا إضافيا على أن اللغة التى كان النبى (ﷺ) يستخدمها كانت خالية من التصريف الإعرابى وليست دليلا على أن التصريف الإعرابى كان غائبا عن وحى الله عز وجل لنبيه عن طريق جبريل. على العكس فإن هذا الإلحاح الشديد وتلك النصيحة المتكررة - إن صحت تاريخيا - بقراءة القرآن بإعراب سليم يوضحان أن القارئ والإنسان العادى كان يضع نصب عينيه هدفا حقيقيا وواقعيا - ولو لم يكن سهل التحقيق - وهو أن يعيد إنتاج نموذج لغوى مثالى أصلى، وظاهرة لغوية متاحة مصدقة وهى الوحى الذى نزل على النبى (ﷺ) وليس إعادة إنتاج طريقة كلامه هو شخصيا. الكلام نفسه يصدق على الشعراء من وجهة نظر دراستنا هنا، ولذلك فإن أى خطأ لغوى أو مسألة لهجاتية معينة، أو سمة محلية ما قد ترد فى قراءتنا لنص القرآن الكريم، أو الشعر الجاهلى أو قراءة أى إنسان عادى فى تلك المرحلة المبكرة أو الآن ما هى إلا انعكاس؛ لأن الإنسان العادى كان يفتقد حرفية الشاعر اللغوية ووحى النبى وإلهامه.**

بما أن أهم وظيفة للعربية الفصحى بجانب القرآن الكريم كانت الشعر الجاهلى، وبما أننا باحثون لا نكاد نختلف حول تلك النقطة؛ فقد سماها الباحثون "المشترك الشعرى". إلا أن تلك التسمية لم ترض الكثير من الباحثين المحدثين وخاصة مجموعة الباحثين الغربيين الذين كانوا يتصورون أن اللغة التى كان العرب يتكلمونها فى حياتهم اليومية لم تكن الفصحى القرآنية الشعرية. يعترض رابين (١٩٥٥ ص٢٤) على تلك التسمية قائلا: إنها تسمية مضللة؛ لأنها تحمل تشابهات لفظية مع المشترك الشعرى الذى كانت جزر اليونان الكلاسيكية تتكلمه، فقد كان هذا المشترك لغة حديث يومى على أى حال بينما لم تكن الفصحى القرآنية كذلك، بل كانت أقرب شبها بيونانية هوميروس الشعرية الرفيعة. وقد توصل كل من فليش (١٩٤٧ ص ٩٧-١٠١) وبالشير (١٩٥٢ ص٧٩-٨٢) إلى الخلاصة نفسها حيث قالا: إن لغة نص القرآن الكريم لم تخضع لتعديل ولا لترجمة، وأن لغة مكة كانت بعيدة كل البعد عن الفصحى الشعرية القديمة، بل إن النص نزل كما هو. وكان التصريف الإعرابى لهؤلاء الباحثين وسيلة للفصل بين العربية الشعرية القرآنية الفصيحة واللهجات المحلية الجغرافية.

على الرغم من أن رابين وبلاشير وفليش اتفقوا جميعا على أن لغة القرآن والشعر لم تكن لغة حديث العرب اليومية فإن كلاً منهم كانت له وجهة نظره الخاصة فى مسألة نظام التصريف الإعرابى فى مرحلة ما قبل الإسلام. يقول فليش كما سبقه فى ذلك فولرز وجير: إن التصريف الإعرابى ليس سمة من سمات العربية الفصحى ولغة الشعر الجاهلى فحسب، بل هو أيضا سمة أساسية من سمات اللهجات البدوية القديمة، وهذه خاصية تختص بها لهجات العربية عن باقى اللغات واللهجات السامية الأخرى (١٩٤٧ ص١١٣). لم يحدد رابين موقفه من مسألة التصريف الإعرابى بشكل واضح، إلا أن المادة اللغوية الموجودة فى دراسته الشهيرة (١٩٥١) تبين أنه مهما كان من يستخدم نظام التصريف الإعرابى، فإن هذا النظام قد أصابه ضعف وطرأ عليه تطور لغوى يوحى بأنه كان فى طريقه إلى الزوال فى القرن الأول الهجرى (انظر رابين ١٩٥١ ص١٢ وص٥٦ و ٥٧). لا نستطيع أن نعتبر نتيجة رابين تلك متناقضة مع النتيجة التى قدمها فليش قبل ذلك بأربع سنوات؛ لأنه لم يدلِ بأى دلو فى إمكانية

استخدام الأعراب البدو فى لهجاتهم لنظام التصريف الإعرابى الكامل كما هو موجود فى الفصحى القرآنية. ولكن الباحثين على أى حال لا يعتبران مسألة التصريف الإعرابى مهمة فى موضوع وجود مستويات لغوية رأسية فى حالة العربية قبل الفتوحات.

عندما نشر الباحث الألمانى الكبير فوك عام (١٩٥٠) كتابه الشهير "العربية" بدأت مسألة العلاقة بين التصريف الإعرابى والفصحى القرآنية تأخذ منحًى مختلفا من وجهة نظر الباحثين فى تاريخ العربية. لم ينظر فوك لنظام التصريف الإعرابى فى هذا الكتاب على أنه مسألة فارقة بين اللهجات البدوية والحضرية والفصحى القرآنية، ولم ينظر إليه كذلك على أنه دلالة على وجود مستويات لغوية، بل إن فوك يقدم لنا ملاحظة موثقة ومفصلة بشكل كبير تبين أن السلوك اللغوى لنظام التصريف الإعرابى يوحى بأن العربية كانت فى حالة تطور تجاه العربية الجديدة. يدعى فوك أن غياب نظام التصريف الإعرابى من اللهجات العربية الحضرية والبدوية معا بعيد الفتوحات العربية هو السبب الحقيقى وراء تصور النحويين المتأخرين أن علامات الإعراب كانت الفارق الأبرز بين الفصحى القرآنية واللهجات العربية القديمة. ويضيف أن التصريف الإعرابى قد خلا من أى معنى صرفى فعال منتج من القرن الأول الهجرى وأصبح حلية شكلية يضيفها العرب لكلامهم لترقيته من حديث عامى بسيط لنمط يشبه شكليا فقط الفصحى القرآنية الرفيعة. ويخلص من ذلك إلى أن اختفاء علامات الإعراب من الحديث العربى عموما فى اللهجات واختلال استخدامه فى الفصحى كان الدلالة على بداية عصر العربية الوسيطة والعربية الجديدة، وليس على أن ظهور نمط العربية الجديدة السبب فى اختفاء التصريف الإعرابى أو تفريغه من محتواه (فوك ١٩٥٠ ص١٤ و ١٥). على الرغم من أن علامات الإعراب كانت حلية شكلية كما يقول فوك فإنها ظلت تستخدم فى لهجات الأعراب البدو قبل الإسلام وبعده. ولذلك أرسل صفوة العرب وكبراؤهم أبناءهم إلى البوادى لكى يتعلموا أنماط حديث البدو، والسبب نفسه هو الذى دفع علماء العرب إلى السفر إلى البادية. فعل العرب ذلك فى تصور فوك؛ لأن لغة البدو كانت مشابهة للغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم.

ينتقد كل من هانز فير (١٩٥٢ ص١٧٢-١٨٦) وسبيتالر (١٩٥٣ ص١٤٤-١٥٠) وروزنتال (١٩٥٣ ص٢٠٧-٢١١) فوك لتبنيه نظرية النمط الواحد وأن القبائل العربية كلها تكلمت نمط العربية الفصيحة نفسها للقرآن، ويدعون جميعا أن المادة اللغوية المتاحة والموثوق من صحتها فى الوقت نفسه لا تبرر تلك الخلاصة الحاسمة. وركز كل من فير وسبيتالر على أنه فى الفترة ما بين القرنين الأول والثالث الهجريين كانت هناك لغة مستقلة واضحة ثابتة من أهم ميزاتها وجود نظام تصريف إعرابى كامل وثابت. ويدعى الباحثان أن الشعراء والكهنة وقراء الطالع فقط هم من كانوا يستخدمون هذا النمط اللغوى المعروف. وقد نزل القرآن بذلك النمط اللغوى، فقد كان فى حد ذاته منطوقًا رفيعًا وغير اعتيادى استوجب نمطًا غير نمط حديث الحياة اليومية.

يدعى زويتلر أن المادة اللغوية التى يمكن جمعها من اللهجات العربية الحديثة وتحليلها تبين أن هناك تواصلا بين لهجات الجزيرة العربية قبل الإسلام وتلك اللهجات الحديثة مما يشير إلى أن تلك الأخيرة نبعت من اللهجات القديمة، وتمتد تلك التشابهات لمستويات لغوية عدة. من بين أهم تلك السمات المشتركة بين النمطين غياب نظام التصريف الإعرابى، ولذلك يتصور زويتلر (١٩٧٨ ص١٢٣-١٣٥) أنه لا داعى لتصور وجود حالة مختلفة فى أيام صدر الإسلام الأولى وفترة حياة النبى (ﷺ)[١] .

لا أتصور أن فوك اعتقد أن المناطق الحضرية فى الجزيرة العربية تكلمت اللهجات نفسها التى تكلمتها اللهجات البدوية، وبالتالى لم يكن ليتصور أن تلك اللهجات الحضرية تكلمت العربية الفصحى ولو باختلافات بسيطة. إضافة إلى ذلك لم يقل فوك عبارة صريحة تؤدى بنا لهذا التصور الذى قد يضلل القارئ عن الهدف الحقيقى للرصد الرائع الذى قدمه فى كتابه "العربية". تصور فوك الحقيقى - فى رأيى - رصد تطورات نظام التصريف الإعرابى وتطور استخدام النمط الفصيح من العربية، وتوضيح أن هذا النمط العربى كان فى حالة تطور وفى حالة زوال حتى ولو كان قد بدأ

(١) انظر أونز (١٩٩٨) لتفاصيل مهمة فى تطور النظام الإعرابى فى اللهجات العربية القديمة .

يكتسب رفعة بسبب القرآن الكريم والفتوحات العربية الإسلامية. ولكن النحو العربى فى مرحلة وضعه الأولى حافظ على هذا النمط موجودا مثلاً أعلى يحاول العرب وغيرهم الاحتذاء به والنجاح فى ذلك بأشكال متفاوتة.

على الرغم من الانتقادات الكبيرة التى وجهت أو قد توجه لنظرية فوك وطريقته البحثية فإن تفصيل فوك يوضح أن نظام التصريف الإعرابى قد تحول قبيل ظهور الإسلام ويعيده إلى نظام علامات رمزية سطحية لا تلعب أى دور نحوى أو صرفى أساسى إلا الحلية اللغوية التى تضفى رفعة على النمط اللغوى المحكى أيا كان وأيًا كانت علاقاته النحوية والصرفية مع الفصحى التى قعد لها النحويون بداية من القرن الثانى الهجرى.

يختلف تصور نولدكه عن تصور فوك؛ إذ يفترض أن اللهجات العربية فى صدر الإسلام والقرنين الأول والثانى كانت تمتلك علامات إعرابية على الأقل إن لم تكن تمتلك نظام تصريف أعرابى كامل، وقد بنى نولدكه تصوره هذا على أساس أن الأمهرية الحديثة وهى إحدى اللغات السامية تمتلك علامة إعراب تشبه الفتحة العربية، وتقوم بوظيفة علامة النصب نفسها على الاسم والفعل العربى. يرفض زويتلر تلك الفرضية كلية على أساس أن وجود مثل واحد ليس دليلا كافيا على وجود نظام التصريف الإعرابى فى اللهجات العربية المختلفة كلية عن الأمهرية تركيبيا وزمنيا (١٩٧٨ ص١٢١).

على الرغم من مصداقية تصور فوك أن نظام التصريف الإعرابى والعلامة الإعرابية نظام كان فى حالة تطور فى صدر الإسلام وقبيل ذلك فإن نولدكه كان يلفت انتباهنا إلى أن هذا النظام كان أصيلا فى لهجات عرب البادية؛ بسبب دقته فى نص القرآن الكريم (١٩١٠ ص٤)، ويضيف أن العلامة الإعرابية كانت قائمة فى اللهجات البدوية بشكل منتج، والدليل على ذلك وجود بقايا التنوين فى تلك اللهجات وخاصة لهجات نجد وشرقى شبه الجزيرة العربية الحديثة، وهذا فى رأى نولدكه دليل على وجود النظام فى اللهجات البدوية على الأقل فى مراحل مبكرة من تاريخ العربية.

ولكن زويتلر (١٩٧٨ ص١٢٢) يقول: إنه فيما يتعلق باللهجات البدوية العربية الحديثة، فمعظم المرات التى يظهر فيها التنوين ليست أمثلة من حديث عادى، بل هى من

منطوقات خاصة جدا كالأمثال الشعبية والشعر الشعبى البدوى، وهى كلها أنماط حديث رسمية نوعا ما. ويضيف زويتلر أن معظم مرات ظهور التنوين تنوين الفتح وليس غيره، أو تنوين الكسر وليس غيره، أى ليس هناك تحرك فى علامات الإعراب بناء على اختلاف مواقع الكلمات فى الجملة، ويضيف أن استخدام التنوين استخدام اختيارى وليس ضرورة لغوية صرفية. لولا معرفتنا بنظام التصريف الإعرابى فى الفصحى لما كان من الممكن بحال من الأحوال أن نتبين أن تلك السمات الاختيارية بقايا نظام تنوين عربى قديم.

يقدم فليش تصوراً مختلفاً عن الوضع اللغوى فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. يرفض فليش (١٩٦٤ ص٣٥ و ٣٦) تصور فوك عن توحد الفصحى واللهجات القبلية العربية، بل كانت الفصحى فى تصوره مجرد لغة فنية طورها الشعراء واستخدموها وحدهم دون غيرهم. ولكن هذا الاختلاف المبدئى مع فوك لم يمنع فليش من الاشتراك معه فى تصور أن كل اللهجات العربية اشتركت مع الفصحى فى نظام التصريف الإعرابى. يعتقد فليش (١٩٦٤ ص٤٢) أن كل القبائل العربية قبل الإسلام كانت تتكلم لهجات قبلية مختلفة لها سماتها المميزة الخاصة بها كما بينا سابقا فى هذا الفصل، ولكنها كلها تشترك فى سمات أخرى من بينها نظام التصريف الإعرابى. واعتقد فليش أن علامات الإعراب لم تكن بقايا نظام قديم حدث له تطور، وكذلك لم تكن علامات حلية شعرية استخدمتها طبقة معينة من الشعراء قبل الإسلام، بل كانت سمة حية فى كل اللهجات تنطق بشكل يومى. وهذا ما يبدو أن المادة اللغوية الموجودة فى كتب النحو تشير إليه، وهو ما سبق وقدمناه فى هذا الفصل. وعلى ذلك فالأطفال تعلموا نظام التصريف الإعرابى فى كل لهجة من اللهجات كما تعلموا باقى السمات الصرفية والنحوية فى لغتهم الأم.

وفى الوقت نفسه يعترف فليش أن نظام التصريف الإعرابى كان فى حالة تطور فى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولكن ذلك التطور لم يسبب تحولا كبيراً فى اللغة العربية فى ذلك الوقت. ولكنه يقول: إن استخدام العلامات الإعرابية ظل فى لهجات شبه جزيرة العرب لقرون بعد الإسلام على الرغم من التطور الذى طرأ عليه قبل

الإسلام. ولكى يدلل فليش على صحة تصوره يسوق (١٩٦٤ ص٤٣) شهادة للأزهرى اللغوى العربى المعروف الذى مات عام ٣٠٧ هجريا حيث قال: إنه سمع قبائل عرب شرق شبه الجزيرة العربية يتكلمون عربية فصحى سليمة تستخدم نظام التصريف الإعرابى إبان فترة اختطافه التى عاشها بينهم. يتسق هذا التصور مع المادة التى سقناها سلفًا من كتب النحويين حيث نعرف أن اللهجات قبل الإسلام استخدمت علامات الإعراب، وإن كان ذلك الاستخدام مختلفا عن العربية الفصحى.

يعتقد فليش كما كان فوك قبله يعتقد أن اختفاء علامات الإعراب بشكل كامل – كما تشهد بذلك البرديات العربية المبكرة وخاصة فى مصر – من اللهجات البدوية والحضرية على حد سواء حدث بسبب اتصال العرب بالشعوب التى لا تتكلم العربية بعد الفتوحات العربية وخاصة فى الأمصار المفتوحة. ويعتقد فليش أن العرب أسقطوا علامات الإعراب من حديثهم مع غير العرب بسبب خوفهم من أخطاء الاتصال اللغوى بينهم، وبذلك سقط نظام التصريف الإعرابى الذى قلنا سلفا إنه كان فى حالة تطور. ويضيف أن غير العرب تكلموا العربية دون علامات إعراب ليس لأن العرب فقدوا النظام كلية قبل الفتوحات؛ ولكن لأن العرب استخدموا فى حديثهم مع غير العرب الكلمات فى حالة الوقف حيث تسقط العلامة (انظر فليش ١٩٦٤ ص ٤٣ و ١٩٦١ ص٢٨٢ و ١٩٦٨ ص٣٠).

التصور الذى يقدمه فليش هنا يتسق نوعًا ما مع المادة اللغوية المتاحة بين أيدينا. ويبدى هذا الاعتقاد أن العربية الفصحى لم تصب بالتطور اللغوى نفسه الذى طرأ على التصريف الإعرابى وقلل من حمله الوظيفى كما سنبين لاحقا؛ لأن العربية الفصيحة لم تكن اللغة الكلامية اليومية لأحد، ولم تكن كذلك مستخدمة فى كل الوظائف اللغوية العادية مثل فصحانا المعاصرة مثلا، بل كان للتصريف الإعرابى وظيفة مهمة جدا فى الشعر العربى نسهب فى شرحها آنفا.

على أى حال يعتقد زويتلر (١٩٧٨ ص١٣٧) أنه من الصعب تصديق أن كل النمط العربى التحليلى الذى ظهر بعد الفتوحات العربية فى الأمصار الإسلامية قد نشأ من استخدام العرب للكلمات فى حالة الوقف الإعرابى فقط. لا يمكن تصديق أن استخدامًا

مثل هذا قد يقلب لغة من نمط توليدى لنمط تحليلى كامل. لو كانت اللهجات قد استخدمت فعلا نظام تصريف إعرابى فإن حالة الوقف حالة من أربع حالات هى النصب، والجر، والرفع. وظيفة علامات الوقف فى اللغة العربية كحالة فصل بين منطوقين يجعل من الصعب جدا على مستخدم استبطن نظام التصريف الإعرابى أن يعمم تلك الحالة على ثلاثة أخر. ولكن على الرغم من عدم معقولية هذا التصور فإن نظرية تعلم غير العرب للعربية باعتبارها كلمات منفصلة فى حالة الوقف الإعرابى قد وجدت لها صدى عند بلاو (١٩٦٥ ص٣) الذى يعتقد مثل فليش أن اللهجات العربية البدوية قد كانت تستخدم نظام التصريف الإعرابى بشكله الكامل السليم.

يقول بلاو (١٩٦١ ص ٢٢٥): إن اللهجات العربية البدوية فى مرحلة ما قبل الإسلام كانت توليدية فى طبيعتها الطيبولوجية؛ ولذلك كانت أقرب إلى العربية الفصحى الشعرية القرآنية من اللهجات العربية التحليلية الجديدة التى حدثت بعد الفتوحات العربية. وأشار فى مكان آخر إلى أن الفروق بين تلك اللهجات البدوية وبين الفصحى فروق جوهرية (١٩٦٥ ص٢)، ولكننا لا يجب أن نضخمها؛ لأنها فى نهاية الأمر لا ترقى إلى الفروق الطيبولوجية، فكلا النمطين كان قريبًا من الآخر فى كونهما نمطين توليديين أصيلين. لكى يبين بلاو وجهة نظره تلك ساق لنا حجة (١٩٦٥ ص٣) مفادها أن غياب الأخطاء من نص القرآن الكريم يبين أن اللهجة العربية التى كان الناس فى مكة المكرمة يتكلمونها قبيل الإسلام وبعيده لم تكن مختلفة بشكل كبير عن الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم. وقد مكن هذا التشابه التركيبى النبى (ﷺ) وبعد ذلك فريق نساخ القرآن الكريم والمجموعة التى عملت على جمعه فى مصحف واحد من تجنب ارتكاب أى خطأ فى القواعد إبان وضع النص فى شكل مكتوب.

ولكن زويتلر (١٩٧٨ ص١٣٨) لا تعجبه تلك الحجة إذ يتصور أنها لا تؤدى لأى نتيجة، ولا تبرهن على شىء. ويقول: إننا يجب أن لا ننسى أن الفريق الأول الذى تولى مهمة تسجيل الوحى نقل الآيات التى أملاها الرسول (ﷺ) بشكل دقيق وسليم بدرجة مذهلة. علاوة على ذلك فقد كانت عملية الجمع فى المرة الأولى إبان حكم أبى بكر خاضعة

لأقصى درجات التدقيق والمراقبة. إن كان لملحوظة غياب الأخطاء من النص القرآنى أى معنى فإن معناها أن الكتبة والجامعين الأوائل قاموا بعملهم على أحسن مستوى من الدقة سمحت به الظروف المادية المحيطة بالجمع. ويختتم زويتلر نقده بالقول: إنه من الصعب أن نجد فى نص مثل القرآن الكريم بعظمته ومكانته الرفيعة نمط الأخطاء اللغوية نفسها التى يبحث عنها بلاو.

ولكن الإنجاز الحقيقى لكل من بلاو وفليش أنهما تعاملا مع موضوع نظام التصريف الإعرابى على أنه سمة لغوية موجودة فى الفصحى واللهجات العربية القبلية المختلفة فى الوقت نفسه على الرغم من أن الفصحى واللهجات كانا نمطين مختلفين كلية، وأنا أوافق مع كل من نولدكه وفوك وبلاو وفليش على أن اللهجات العربية الحضرية والبدوية قبل الإسلام استخدمت نمطا من أنماط التصريف الإعرابى وعلامات الإعراب. ولكننى أختلف مع نولدكه وبلاو فى أن اللهجات العربية القديمة لم تكن مختلفة عن الفصحى القرآنية الشعرية، بل كانت مختلفة عنها وسأحاول أن أوضح هذا فيما بعد. ولكنه من الكافى الآن أن نقول: إن كل قبائل العرب تكلمت لهجات مختلفة كما بينا سلفا فى المادة، إلا أن كل تلك اللهجات كانت تمتلك نظام تصريف إعرابى تنتجه كل قبيلة بشكل خاص بها. لقد عرفنا من خلال كتب النحو أن كل القبائل تعاملت مع الوحدات المكونة للجملة بشكل مختلف من حيث إعطاء كل وحدة علامة إعرابية خاصة بها. فقد أعطت لهجات غرب الجزيرة العربية لاسم كان وخبرها علامة الرفع، بينما أوكلت اللهجات الشرقية علامة النصب لخبر كان، بالطريقة نفسها أوكلت لهجات الغرب لاسم إن وخبرها علامة النصب، بينما رفعت اللهجات الشرقية خبر إن. ومع ذلك فإن استخدام علامة الإعراب فى اللهجات العربية القديمة لا يعنى أنها كانت العلامات نفسها التى استخدمها نمط القرآن والشعر الجاهلى كما سنبين فيما يلى. فقد كان نظام التصريف الإعرابى مثله فى ذلك مثل سمات لهجاتية كثيرة فى حالة تطور، وربما كان فى طريقه للاندثار فى مرحلة ما قبل الإسلام.

حالة التصريف الإعرابى فى لهجات ما قبل الإسلام :

لما كانت خلاصتنا فى القسم السابق إلى أن اللهجات استعملت نظام تصريف إعرابى كما تبين المادة وأنه فى حالة تطور؛ فمن الممكن هنا أن نتعامل مع نظام التصريف الإعرابى على أنه مجرد مثل على نسق مهم من الأنساق الصرفية العربية، وباستعمال هذا المثل يمكن أن نخلص إلى أن العربية - وخاصة اللهجات منها - كانت فى حالة تطور قبل الفتح، ويبدو أن هذا التطور كان يسير باتجاه طيبولوجيا لغوية تحليلية كما هو نمط طيبولوجيا لهجات العربية الجديدة التى ظهرت بعد الفتح. وكانت حالة التطور تلك فى اللهجات العربية مخالفة كلية لحالة ثبات الأنساق الصرفية للعربية الفصحى على الأقل فى شكلها القرآنى الشعرى القديم. الفرضية فى هذا القسم كالتالى: كانت علامات الإعراب فى اللهجات نسقا صرفيا مخفضا بشكل كبير إن لم يكن منتهيا فى لهجات بعينها قبل الفتح على عكس ثبات النظام وكماله فى الفصحى، ولكن الفتوحات أدت لحالة من الاتصال اللغوى بشعوب غير عربية وتتكلم لغات لا تحمل أى أنساق صرفية مشابهة لنظام التصريف الإعرابى؛ مما أدى لانهيار هذا النظام كلية لأنه كان فى الأساس فى حالة تطور واهتزاز. سنبين مراحل هذا التطور ومساره فى هذا القسم.

من بين الدراسات المهمة فى هذا السياق الدراسة التى أجراها كورينتى (١٩٧١ ص٢٠-٥٠) على الحمل الوظيفى لنظام التصريف الإعرابى. لقد حاول كورينتى أن يتبين ما إذا كان لنظام التصريف الإعرابى أى حمل وظيفى باعتباره نظاماً توليديا كاملا حيا فى اللهجات العربية والفصحى والفصحى القرآنية القديمة. يتفق كورينتى مع بلاو وفليش على أن التصريف الإعرابى ربما كان سمة من سمات اللهجات العربية البدوية كما كان سمة من سمات الفصحى القرآنية. على الرغم من أن نظام التصريف الإعرابى كان فاعلا وناجحا فى القرآن والشعر الجاهلى فإنه كان هناك بعض الأنماط اللغوية العربية التى أهملت النظام ووجدت فى الأماكن نفسها التى وجدت فيها أنماط تستخدم العلامات الإعرابية. ويفترض كورينتى (١٩٧١ ص٢٠-٢٤) أن تلك

الحالة قد جعلت هناك حالتين من حالات التطور اللغوى فى سياق جغرافى واحد فى اللغة العربية. ولكن بما أن نمط العربية الذى استخدم التصريف الإعرابى كان نمطا توليديا يعتمد على العلامة الإعرابية فى تحديد العلاقات النحوية بين مكونات الجملة فكيف يمكن أن يستخدمه الناس نمط حديث تحليلى فى الوقت نفسه وفى المكان نفسه؟ يفترض كورينتى (١٩٧١ ص٢٥) أن الإجابة عن هذا السؤال والقدرة على تحليل هذا الوضع الغريب تكمن فى تحليل الحمل الوظيفى لنظام التصريف الإعرابى هذا باعتباره نسقًا صرفيا.

وأجرى كورينتى مسحًا لمجموعة من النصوص الشعرية والنثرية العربية من مختلف العصور؛ ليقوم بالتعرف على مدى الحمل الوظيفى لنظام التصريف الإعرابى هذا. وخلص إلى نتيجة أن الحمل الوظيفى لعلامات الإعراب الموجودة فى الفصحى القرآنية وبعض اللهجات العربية القديمة لم يكن كبيرًا، بل كان قليلا جدا لأن معانى تلك النصوص كان من الممكن استجلاؤها بوضوح كامل بالاستغناء عن العلامات باعتبارها نسقًا صرفيًا. وبذلك يمكن اعتبار تلك العلامات نسقًا ثانويا فى تلك الأنماط العربية المذكورة (١٩٧١ ص٢٥)، ولذلك كان من الطبيعى جدا للهجات العربية الجديدة أن تسقط النسق كله (١٩٧١ ص٤٠ و ٤١ و ٤٤ و ٤٥). ويخلص كورينتى (١٩٧١ ص٢٨) إلى أن:

> **الباحث مستعد لأن يقتنع بأن نمط القرآن والشعر الجاهلى وبعض اللهجات العربية القديمة التى استشهد بها النحويون العرب وبعض اللهجات الحضرية أيضا قد استخدمت نظام التصريف الإعرابى، ولكن من الناحية اللغوية لا تعنى تلك الحقيقة الصرفية أى شىء ذى بال إلا ربما الرفعة الاجتماعية التى ارتبطت شرطيا بهذا النسق. فالحمل الوظيفى لهذا النسق كان صفرًا فى أقدم النصوص التى قمنا بتحليلها؛ ذلك لأن معظم التراكيب العربية كانت تحليلية فى الأساس منذ تلك المرحلة، كما تبين نصوص العربية الوسيطة فى مرحلة لاحقة بشكل أكثر وضوحًا عندما تطورت خطة أخرى، وتخلت تمامًا عن**

نسق العلامات الإعرابية التى أصبحت بعد الإسلام فى حالة جمود أو "كسلانة" بشكل كامل، وبذلك لم يحل نمط لغوى محل نمط آخر، بل حلت أنساق محل أنساق فى داخل نمط عربى واحد منذ فترة طويلة. أما فيما يخص العربية الفصحى التى قامت فى القرون المتأخرة والتى اقتصرت وظيفتها اللغوية على الكتابة، والتى لم تكن مستخدمة لغة حديث قط، فقد أشار حدسنا الذى تؤكده الإحصائيات التى اعتمدنا عليها إلى أن النزعة التى بدأت قبيل الإسلام بالتحول تجاه نمط عربى تحليلى استمرت بعد ذلك. فقد كان الحمل الوظيفى لعلامات الإعراب فى النثر العربى الإسلامى صفرًا تقريبًا.

ويستمر كورينتى فى فرضيته وتفصيلها، فيقول: إنه كان من الطبيعى أن يسقط نسق علامات الإعراب بشكل كامل؛ لأنه كان نسقا صرفيا ثانويا غير ذى تأثير مباشر أو غير مباشر على الأداء اللغوى الوظيفى العربى (١٩٧١ ص٣٢). بل إن نسق العلامات الإعرابية لم يكن يسبب أى خلل فى التفاهم بين الجماعات اللغوية العربية التى لا تستخدمه والجماعات التى تستخدمه؛ لأنه لم يؤثر فى المعانى المتبادلة، بل إنه كان على وشك الإهمال. ولكن من الصعب أن نحدد بالضبط الفترة الزمنية التى سقط النسق فيها من الاستخدام اليومى فى اللهجات العربية.

ولكن بلاو (١٩٨٨ ص٢٦٠-٢٧٠) يبدى بعض التحفظات على نظرية كورينتى ويقول: إنه يعترض على استخدام الأخير لترتيب الكلمات باعتباره عنصرًا فارقًا فى الفصل بين الأنماط العربية التحليلية كاللهجات العربية الجديدة والعربية الوسيطة والأنماط العربية التوليدية كنمط عربية القرآن الكريم والشعر الجاهلى. يقول بلاو (١٩٨٨ ص٢٦١):
إنه على الرغم من أن اللغات التحليلية تفرق بين الوظائف النحوية للكلمات عن طريق موقعها فى الجملة وموقعها بالنسبة لعناصر أخرى فى الجملة نفسها - فإن أهمية ترتيب الكلمات ليست سمة تحليلية صرفة كما أن العكس ليس سمة توليدية صرفة؛ ولذلك لا

يمكن أن نتسرع فى تعميم أى حكم قاطع بأن لغة ما أو لهجة ما تحليلية؛ لأنها فقط تستخدم ترتيب الكلمات فى الجملة لتوضيح الوظيفة النحوية لأى عنصر من العناصر. فبعض اللغات التحليلية كالعبرية التى تستخدم علامة صرفية على المفعول به تمتلك نظام ترتيب كلمات حراً فى جملها ولا تلتزم ترتيبا معينا.

وكذلك يعترض بلاو (١٩٨٨ ص٢٦٢) على أطروحة كورينتى أن ضعف الحمل الوظيفى لنسق العلامات الإعرابية يؤدى لانهيارها بشكل كامل وحتمى. ويقول: إن ضعف الحمل الوظيفى سمة فى لغات كثيرة وفى أنساق صرفية كثيرة إلا أن هذا لا يبرر أن تكون تلك الأنساق ثانوية فتنهار وتهمل؛ ولذلك لا يمكن فى رأى بلاو استخدام هذه الحجة المنطقية لتبرير إهمال علامات الإعراب فى اللهجات العربية. ويضيف بلاو: إننا لا نستطيع أن نستنتج أى شىء عن مصير اللهجات من خلال موضوع علامات الإعراب فى الفصحى؛ لأن نظام التصريف الإعرابى فى اللغات السامية عموما نظام زائد وليس له حمل وظيفى يذكر.

يضيف بلاو (١٩٨٨ ص٢٦٤): إنه ليس من الحكمة أن نساوى بين العربية الفصحى القرآنية ونمط العربية الوسيطة باعتبارهما نمطين لغويين داخل إطار لغوى واحد؛ لأن العربية الوسيطة تمتلك تراكيب تحليلية خارج نسق علامات الإعراب أكثر من الفصحى التى تمتلك تراكيب لغوية توليدية أكثر من العربية الوسيطة بشكل عام. انظر مثلا إلى اختفاء أنساق الجمع المؤنث من الضمائر والأفعال والصفات فى اللهجات العربية وإحلال المذكر محلها (بلاو ١٩٦٦ ص٢٠٦)، والتأثير الكبير الذى حدث لنسق المثنى (بلاو ١٩٦٦ ص٢٠٩) وإضافة سابقة "لـ" إلى المفعول به المذكر المفرد المعرف فى بعض اللهجات الشامية (بلاو ١٩٦٦ ص٤١٣).

ويضيف بلاو (١٩٨٨ ص٢٦٨) أنه مقتنع تمام الاقتناع أن الحمل الوظيفى لنظام علامات الإعراب فى العربية قليل جدا كما خلص كورينتى، ومع ذلك فإن زيادة علامات الإعراب فى الفصحى لا يعنى اختفاء النظام بالضرورة فى اللهجات العامية؛ وخاصة لأن كل لغات العالم تحتفظ دائمًا بعناصر زائدة ليس لها وظيفة واضحة أو كبيرة. يعلق كورينتى على هذه النقطة الأخيرة (١٩٧٣ ص١٥٤-١٦٣) قائلا:

> إن المرء يجب أن ينظر لمسألة الأنساق الزائدة فى اللغات السامية وخاصة العربية بعين ناقدة أكثر، وخاصة مع كثرة تلك الأنساق، وعلى الرغم من الحرية العالية نسبيا فى ترتيب الكلمات فى اللهجات العربية يجب أن ننظر لمسألة التطور من العربية القديمة للعربية الوسيطة بنيويا وطيبولوجيا على أنها مسألة غير ذات أهمية كبيرة وخاصة فى ضوء الاكتشاف الذى نحن بصدده الآن من الفرق غير الواضح فى الحمل الوظيفى بين سمات النمطين العربيين الجديد والكلاسيكى. وفقط عندما نقوم بدراسة القيمة اللغوية الحقيقية لعلامات الإعراب على الاسم والفعل فى اللغة العربية، ونعترف بأن معظم حالات حرية ترتيب الكلمات فى الجملة تعكس أداءً عاليًا لضمير العائد، فإن العربية القديمة لن تعكس أى سمات لغوية يمكن أن تبرر التصور الحالى أنها نمط توليدى أكثر من العربية الوسيطة بكثير (١٩٧٣ ص١٦٠ و ١٦١).

بناء على ذلك فإن كورينتى يتصور أن العربية الشعرية وعربية القرآن كانت فى حقيقة الأمر نمطا يتحول من نمط توليدى لنمط تحليلى وأن نسق التصريف الإعرابى نظام صرفى فى حالة تطور لا أكثر ولا أقل.

بين ديم (١٩٧٣ ص٢٢٧-٢٣٧) فى معرض دراسته لمادة الأسماء العربية فى النقوش النبطية الآرامية أن مسألة انخفاض الحمل الوظيفى لنظام التصريف الإعرابى ربما كان مسألة قديمة استغرقت وقتًا طويلاً قبل ظهور الإسلام. المسألة التى تهمنا هنا فى الأسماء العربية المكتوبة بحروف نبطية أرامية هى أنها جميعها تنتهى برموز تدل على أصوات لين قصيرة، هى الضمة والفتحة والكسرة. تشبه تلك الرموز الصوتية علامات الإعراب كما وصلتنا فى العربية الفصحى. وأشار ديم فى تحليله إلى أن نسبة ٩٥ بالمائة من الأسماء البسيطة تنتهى برمز كتابى هو الواو ويدل على صوت لين قصير هو الضم. بينما تنتهى النسبة الباقية بياء أو لا تنتهى برمز يدل على صوت لين قصير أبدا. ولذلك نستطيع أن نقول: إن رمز الواو الدال على الضم هو الأصل فى تلك الأسماء.

وخلص (ديم ١٩٧٣ ص٢٣٥) فى تحليله إلى أن رمــز الواو هذا مــا هـو إلا عــلامــة الإعراب التى كانت مسموعة وما كانت مكتوبة لغياب ترميز لأصوات اللين القصيرة. ويدعى أيضـا أن تلك الرموز الصوتية سقطت من النطق ولكنها ظلت تكتب؛ لأن طرق الكتابة أكثر محافظة على طرائق الهجاء الأقدم. أى أن رمز الواو هذا رمز كتابى باق لعلامة صرفية صوتية قديمة زالت من النطق.

أما فى الأسماء المركبة والتى يكون لفظ الجلالة فيها جزءًا من الاسم، فإن بعضها كان ينتهى دون أى رمز صوتى خاص بينما كان المعظم ينتهى برمز يدل على صوت اليـاء التى يمكن اعتبارهـا صدى قديمـا لكسـرة علامـة الإعراب العربيـة التى كـانت تستخدم فى حالة الإضافة. أمـا فى الأسماء المركبة التى لم يكن فيها لفظ الجلالة ولم تكن تركيب إضافة، فقد كانت تنتهى غالبيتها برمز الواو الذى كنا نراه على الأسماء البسيطة، وفى بعض الأحيان القليلة كانت تلك الأسماء لا تنتهى برمز دال على صوت لين أصلا. بما أن الأسماء التى لا تحتوى على لفظ الجلالة أحدث تطورا وظهورا من الأسماء التى تحتوى على لفظ الجلالة؛ فقد أضـيـف الاســم البسيط الذى ينتـهـى برمز يدل على صوت لين قصير إلى الاسم الأول ليشكلا معا مركب إضافة دون تحويل الرمز الأخير من رمز يدل على الضم لرمز يدل على الكسر.

الخلاصة التى وصل إليها ديم فى هذا التحليل أن الأسماء البسيطة التى تنتهى برمز كتابى يدل على الواو والأسماء المركبة التى تحمل لفظ الجلالة وتنتهى برمز يدل على الياء كانت تنتمى إلى فترة كانت فيها العربية النبطية تستخدم علامات الإعراب. هذا يعنى أن هذه الواو وهذه الياء ما هى إلا علامات تدل على نسق إعرابى فيه على الأقل الضمة والكسرة للمرفوع والمجرور، ولكن فى وقت كتابة تلك الأسماء ونقشها على الأحجار النبطية كانت العربية النبطية قد فقدت نظـام التصريف الإعرابى فعلا. والدليل على ذلك طريقة كتابة الأسماء المركبة التى لا تحمل لفظ الجلالة وتحمل فى آخرها رمزا كتابيا يدل على الواو كأن تقول مثلا: "عبد عمرو". وجود الياء على آخر الأسماء المركبة التى تحمل لفظ الجلالة مثل: "عبد شمس" وحضور الواو على الأسماء المركبة مثل: "عبد عمرو" يبين أن نظـام التصريف الإعـرابى فى تلك النقــوش ما هو إلا بقية كتابية لنظام بائد (ديم ١٩٧٣ ص٢٣٥).

ويفترض ديم أيضا أن الأسماء التى وجدها فى تلك النقوش دون أى رموز تدل على واو أو ياء إنما تمثل الصورة الحقيقية التى كانت عليها اللغة فى وقت تسجيل تلك النقوش النبطية حيث لم تكن هناك علامات إعراب. أما فيما يخص انتشار هذا التطور اللغوى، فقد تصور ديم أنه لو كانت فرضيته صحيحة وأن علامات الإعراب قد اختفت فعلا من العربية النبطية فى القرن الأول قبل الميلاد، فإنه من الصعب أن نتصور أن مناطق الجزيرة العربية الداخلية التى كانت تحاذى المناطق النبطية منشأ التطور ظلت بمعزل عنه حتى القرن السابع الهجرى. بالإضافة إلى ذلك فإن الأهمية النسبية للعرب النبط حتى القرن السادس الميلادى كانت العنصر الاجتماعى غير اللغوى الذى مكن لهذا التطور اللغوى من الانتشار فى مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية. ولذلك كان من الطبيعى أن لا تفقد العربية الفصحى ذلك النظام؛ لأنها لم تكن لهجة جغرافية. وبغض النظر عن المسائل الوظيفية لنظام علامات الإعراب فى لغة الشعر فإنها لم تكن نمط حديث يخضع للمعايير الاجتماعية اللغوية التى تفرض موضات لغوية معينة على المتحدث وتمكن من التطور.

فى تصورى أنا أن كل أهمية النتيجة التى توصل إليها ديم هى فى تحديد موقع بداية التطور اللغوى وتوقيته التقريبى. لقد بدأ التحول تجاه عربية دون علامات إعراب فى منطقة حدودية، حيث كانت العربية لغة حديث يومية فقط. وهناك بعض المؤثرات اللغوية التى تشير إلى أن هذا التطور اللغوى قد انتشر من المناطق النبطية فى الشمال الغربى لشبه الجزيرة العربية لمنطقة الحجاز فاليمن، بسبب الاتصال اللغوى والاجتماعى الوثيق بين تلك المنطقة الحدودية ومناطق الداخل فى الجزيرة، وخاصة فى المنطقة الغربية من القرن الأول الميلادى حتى القرن السابع الميلادى، وربما يكون مسلك هذا التطور طريق التجارة المفتوح بين الحجاز فى الوسط وبلاد الشام واليمن شمالا وجنوبا والذى قامت عليه التجمعات الحضرية الوحيدة فى شبه الجزيرة العربية. ولما كانت الصلات بين المناطق النبطية والمنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية قليلة نوعا ما فقد بقيت تلك الأماكن بمعزل عن هذا التطور اللغوى. ولذلك اهتم العلماء العرب فى القرون الأولى من الحضارة العربية الإسلامية بتلك

المناطق باعتبارها مصادر أساسية لتجميع المادة اللغوية. الدليل على ذلك وجود فروق كبيرة بين العربية الفصحى واللهجات الحجازية فى استخدام علامات الإعراب أكبر من الفروق بين العربية الفصحى واللهجات الشرقية.

وهذا يعنى أن العربية قبل الإسلام كانت مركبا لغويا ولم تكن نمطًا واحدًا أو توزيعًا بسيطًا للأنماط اللغوية واللهجات، فقد كانت هناك قبائل شرقية بدوية تستخدم علامات إعراب كاملة، بينما كانت هناك مناطق وقبائل تستخدم بقايا نظام تصريف إعرابى قديم، وكانت أيضا قبائل تستخدم بطونها البدوية نظامًا سليمًا بينما تستخدم بطونها المتاخمة أنماطًا محدودة. ولذلك فإن مسألة اختفاء علامات الإعراب قبل الإسلام أو بعده تصبح غير ذات بال؛ لأن النظام كان فى طريقه للزوال أصلا فى القرن الهجرى الأول، وليس لغير العرب دور البطولة فى هذا التطور.

ومع ذلك فإن الكثير من الباحثين المحدثين لم يزالوا يتصورون أن نظام التصريف الإعرابى كان موجودًا فى اللهجات العربية البدوية منها والحضرية بشكل كامل حتى ظهور الإسلام والفتوحات العربية. كل حجتهم على ذلك تأتى من استقرائهم لما كتبه النحويون العرب مدحا فى الصحة اللغوية لعرب البادية. فتجد أن فوك ونولدكه مثلا يسلمان بتلك المقولات ويقبلانها دون تحليل باعتبارها مقولات سليمة وصحيحة. بينما على النقيض من ذلك تجد رابين (١٩٥١ ص١٨) يرى تلك المقولات على أنها مجرد أمثلة على الصورة الرومانسية لتقديس وتجميل الحياة العربية البدوية الأولى ومجتمع صدر الإسلام، وأنها تصدر من عقل يرى أن كل التغيرات اللغوية إنما كان سببها الأساسى الاحتكاك بأبناء اللغات الأخرى. ويضيف رابين (١٩٥١ ص٢٣) أننا يجب أن نتشكك فى تلك المقولات المادحة؛ لأن معظم مصادر النحاة – وإن كانوا بدوا – كانوا من رواة الشعر المعروفين الذين كانت مهمتهم الأساسية نقل العربية الشعرية وعربية القرآن من جيل لجيل. ولكن بلاشيه (١٩٥٠ ص٣٧– ٤٨)، الذى لا يختلف مع رابين حول كونهم رواة، يضيف أن بعض هؤلاء الذين استند النحويون إليهم فى استقاء معلوماتهم اللغوية كانوا أنفسهم شعراء معروفين.

أما بلاو (١٩٨٨ ص١٣٥-١٤٥) الذى لا يختلف مع رابين وبلاشيه عموما فى شكوكهما حول ماهية عمل مصادر النحاة العرب يأخذ تجاههم منحى أقل تطرفا عندما يقول: إن رابين يغالى فى تعميمه هذا. ويضيف أنه مع أن كل القصص التى توحى بأن أى أعرابى بدوى كان قادرا على الإفتاء فى صحة أى عنصر من عناصر العربية الفصحى من عدمه ليست صحيحة ولا يمكن الأخذ بها على علاتها فإن نمط الشعر العربى الكلاسيكى الذى كان سائدا فى البيئة البدوية فى تلك الفترة ربما يكون قد أسهم فى بناء سمعة الصحة اللغوية المتوفرة عند الأعراب البدو؛ ولذلك فقد حافظ الرواة على هذا التقليد الشعرى حيا وإن لم يكن يتجدد. وهناك سبب لغوى آخر لتلك السمعة الكبيرة ومكان للشعر البدوى الجاهلى باعتباره نمطًا من البقاء، وهو أن الفرق واضح ومسموع بين اللهجات العربية التحليلية الحضرية التى ظهرت أو انتشرت بعد الإسلام واللهجات العربية البدوية القديمة التى كانت توليدية فى طبيعتها وتستخدم التصريف الإعرابى أبرز سماتها المسموعة. ويختتم بلاو (١٩٨٨ ص١٣٩) بأن قال :

> لما كانت الهوة بين اللهجات العربية الوسيطة والعربية الفصحى كبيرة جدا؛ كان لزاما على أبناء اللهجات الحضرية والوسيطة أن يبذلوا جهداً مضاعفًا فى محاولة التقرب من الفصحى عند استخدامها. بينما كان الأمر بالنسبة للبدو مختلفا تماما فقد كانت لهجاتهم قريبة من الفصحى القديمة؛ ولذلك فقد كانت مهمتهم فى الكلام سهلة نسبيا، وكان أقلهم كفاءة يستطيع أن يتحدث دون ارتكاب أى أخطاء لغوية فى نمط العربية الفصحى. ولذلك كان من السهل جدا على أى راوٍ من بيئة بدوية أن يحفظ الشعر وينقله نقلا. إضافة إلى ذلك فإن أى بدوى يتكلم لهجته العادية كان يبدو - فى عين أى شخص حضرى يتكلم لهجة عربية وسيطة ويسكن قاع المجتمع الحضرى - مستخدمًا جيداً لنمط العربية الفصحى بما أنه يستخدم علامات الإعراب التى كانت وقتها أكثر سمات العربية الفصحى أيقونية.

وفى بيئة كهذه يبدو أمر انتشار قصص تمجد الفصاحة اللغوية للبدو أمرا مفهوما تمام الفهم. ويبدو من تلك القصص فى بعض الأحيان أن بعض هؤلاء العرب كانوا رواة شعر يشار إليهم عادة بعبارات مثل: "العرب الموثوق بهم".

على الرغم من منطقية هذا التصور فلم يكن كل الكتاب والباحثين العرب فى القرون الثلاثة الأولى من الحضارة العربية الإسلامية يشتركون فى هذا التصور العقلى نفسه عن الأعراب البدو. يذكر زويتلر (١٩٧٨ ص١٥٣ و ١٥٤) شهادة لابن سلام جاءت على لسان يونس بن حبيب المتوفى عام ١٨٢ هجريا يقول فيها: وإن التضمين[٢] كان خطأ شائعًا بين شعراء البادية من الأعراب، ولكنه كان شائعًا بين صغار شعرائهم عن كبارهم (انظر الموشح للمرزبانى، ص١٧). ويعلق زويتلر على أن ابن سلام ويونس معًا كانا يعتقدان أن أفحل شعراء عصرهما لم يملكوا المهارة الشعرية واللغوية ليحسنوا استخدام القافية المرسلة دون إقواء. ويخلص زويتلر من ذلك إلى أن شهادة ابن سلام توحى بأن الشعراء الأعراب لم يتمتعوا بمهارة فطرية سليمة للتعامل مع العربية الفصحى التوليدية التى تحتوى على نظام التصريف الإعرابى.

أما فيما يخص الناس العاديين من غير الشعراء، فإن زويتلر (١٩٧٨ ص١٥٤ و ١٥٥) يقتبس من نقائض أبى عبيدة المتوفى عام ٢١٠ هجريا بيتا شعريا لذؤيب يقول فيه :

جانيك من يجنى عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

يعلق أبو عبيدة على هذا البيت قائلا: إن بعض من جاء بعد ذؤيب قرأ "الصحاح مباركُ الجربِ" بضم "مبارك" وأضاف إليه "الجرب" بالكسرة الظاهرة على آخرها. هذه القراءة تسبب الإقواء كما يزعم أبو عبيدة. ويستمر أبو عبيدة فى شرح تصوره الذى يتفق فيه مع معلمه الأخفش الأكبر المتوفى عام ١٧٧ هجريا إذ يقول: إن الإنسان

---

(٢) هى ظاهرة شعرية سلبية تعنى نقل معنى بيت إلى بيت تال له .

البدوى العادى لم يكن قادراً على فهم مضمون ما قصد الشعر ولا يقدر على تفسيره. حدث فى هذا البيت إقواء؛ لأن الراوى الذى نقله ربما لم يتقن فهمه، وبالتالى فإن المعنى الذى كان يرمى ذؤيب له أن الجمل المريض قد يعدى السليم فى محل الاستراحة، ولكن عندما تبين الرواة أن ترتيب الكلمات فى الجملة لم يكن عاديا فقد فشلوا فى فهمه بشكله الصحيح وبالتالى أخطأوا نقله. وزادت حيرة الرواة عندما صادفوا كلمة "مبارك" لاستغرابهم شكلها التركيبى. (انظر النقائض ص١٠٢٦).

ويستخلص زويتلر من ذلك المثل أن صراحة ابن سلام وأبى عبيدة والظهور المتأخر للقصص التى كانت تمجد الأداء اللغوى للأعراب البدو، وفرضية أن معظم من أسهموا فى الدراسات النحوية منهم باعتبارهم أدلة وحكاما كانوا من رواة الشعر المدربين على أصول الشعر العربى الجاهلى هى كلها عناصر دالة على الوضع اللغوى لأعراب البوادى فى القرن الثانى الهجرى وربما قبله. ويستمر زويتلر فى تحليله إذ يقول: إن معظم الأعراب العاديين الذين لم تكن لهم صلة بالشعر ولا بتقنياته وفنونه كانوا يتكلمون نمطًا عربيًا مختلفًا تماماً عن نمط الشعر العربى التوليدى. ويختتم بقوله: إن كل تلك المعطيات تبين أن ادعاء تمسك أعراب البادية بنمط توليدى يستخدم التصريف الإعرابى حتى بعد الإسلام أمر لا يمكن القبول به لعدم منطقيته وغياب اتساقه مع الاستقراء اللغوى.

ويمكن القول على ذلك: إن الأعراب قبل ظهور الإسلام وانتشار الفتوحات مثلهم فى ذلك مثل المناطق الحضرية الغربية كانوا يتكلمون لهجات تختلف عن نمط العربية الفصحى الذى استخدم فى الشعر الجاهلى ونزل به القرآن الكريم. السمات اللهجاتية التى رصدناها سلفا فى هذا الفصل، والتراوح الذى تبينه تلك السمات تدل على وجود تنوع لهجاتى فى مرحلة ما قبل الفتوحات العربية وأن أنماط الحديث تلك كانت تختلف عن العربية الفصحى. هناك دليل آخر على الاختلاف يتضح أيضا من السمات نفسها ألا وهو وجود نزعة تظهر من مقارنة بعض السمات عند التنوعات اللهجاتية للتطور، بينما تعكس سمات العربية الفصحى قبل الفتوحات ثباتًا كبيرًا فى القواعد والأصوات والسمات الصرفية، وهذا ما يمكن أن نراه بشكل واضح فى كتب النحويين العرب، وأيضا فى النصوص الشعرية والموروثة ونص القرآن الكريم. من بين السمات التى

كانت محل تطور فى التنوعات اللهجاتية كان نظام التصريف الإعرابى الذى بين لنا ديم أنه كان فى حالة تدهور من القرن الأول الميلادى، ووضح كورينتى أنه كان فارغًا من الناحية الوظيفية فى القرن السابع الميلادى قبيل الفتوحات العربية وبعدها، ولكن لغة الشعر اعتمدت على نظام التصريف الإعــرابى اعتمــادًا كبيـرًا لفوائده العروضية. يدل هذا التباين فى استخدام نسق صرفى كنسق التصريف الإعرابى على أن اللغة العربية كانت فى حالة تطور وأن التطور كان يصيب هذا النسق بالذات، ولكن ذلك لا يعنى أن نسق علامات الإعراب قد اختفى من التنوعات اللهجاتية العربية الحضرية، أو البدوية قبيل الفتوحات.

أتفق مع زويتلر وكورينتى تمام الاتفاق أن التصريف الإعرابى كان زائدًا تمامًا ونسقا قديمًا بائدًا، ولكننى أختلف معهما كليــة عندما تصـورا ومن بعدهما أونز (١٩٩٨) أن العلامات الإعرابية لم تكن مستخدمة فى اللهجات. إن قائمة السمات اللهجاتية التى قدمتها فى هذا الفصل تبين وجود نظام تصريف إعرابى بشكل من الأشكال فى تلك اللهجات. من الممكن أن تكون لهجات شرقية معينة استخدمت نسقًا مقاربًا لنسق الفصحى وأقرب لها على الأقل من لهجات الشمال الغربى وغربى شبه الجزيرة العربية. أحب أن أوضح للقارئ أننى فى حين أفصل بين تنوع لهجاتى كان فى حالة تطور لغوى وقت الفتوحات ونمط عربى فصيح كان مستخدما فى الشعر العربى وتنزيل القرآن الكريم إلا أننى أترك مسألة المستويات اللغــوية بهذا الطرح مفتوحة ومحــل نقاش؛ ذلك لأن علامات الإعراب ليست سمة فارقة ولا يمكن استخدامها دالة لغوية على وجود مستويات رأسية للغة العربية فى تلك المرحــلة ؛ لأنها ببساطة موجــودة فى اللهجات كما كانت موجودة فى الفصحى.

يصبح سؤالنا الملح هنا إذن : ما هو التوزيع الوظيفى لكل من اللهجات العربية، والعربية الفصحى فى مرحلة ما قبل الفتوحات العربية وظهور الإسلام؟. يؤكد بعض الباحثين – وخاصة الباحثون الذين يعتقدون باختفاء التصريف الإعرابى من اللهجات العربية قبل الفتوحات – أن دور العربية الفصحى كان قاصرًا على المنطوقات الرسمية والسياقات اللغوية الدينية فقط. بالنسبة لهؤلاء الباحثين كان الثراء الصرفى والطبيعة

الغنية لمفردات العربية الفصيحة ومرونة قواعدها ميزة عظيمة تمكنها من أن تكون لغة فنيـة Kunstsprache من الطراز الأول، وليس من الممكن أن تكون لغـة حـديث يومى. الدليل الوحيد على ذلك أن كل النصوص التى تستخدم نظام التصريف الإعرابى والتى وردت إلينا من مرحلة الجاهلية وصدر الإسلام والتى يمكن الثقة بها كلها تنتمى لسياقات دينية أو شـعرية فنية. علاوة على ذلك فإن وجود نمطين متباينين فى وقت واحد، فى مكان واحد، وداخل جماعة لغوية واحدة نمط يستخدم التصريف الإعرابى ونمط لا يستخدمه بالطريقة نفسها – يشجع على التفكير فى هذا التوزيع الوظيفى بشكل جاد.

فى حين أتفق مع الكثير من هؤلاء الباحثين على وظيفة العربية الفصحى فى تلك المرحلة، أختلف معهم أشد الاختلاف فى أنها لا يمكن أن تكون لغة حديث يومى. الحقيقة كما أدعى أن العربية الفصحى لم تكن لغة حديث العرب، ولا أى جماعة لغوية منهم، ولكن هذا لا يعنى أنها لا يمكن أن تكون كذلك. ما هو السبب؟. ليس هناك فى أى لغة من لغات العالم ما يعوق استخدام نمط معين نمط حديث. وإن كان هذا الادعاء غير المؤسس من قبل بعض الباحثين الغربيين مبنيا على كثافة أنساق العربية الفصحى الصرفية وثرائها النحوى وعلامات الإعراب، فإن هناك لغات كثيرة فيها علامات إعراب وحالات إعرابية أكثر من اللغة العربية؛ فالبولندية مثلا فيها حالات إعرابية أكثر من العربية الفصحى فى أى مرحلة من مراحلها، بل إن تلك العلامات تختلف من اسم مفرد لاسم جمع.

٢ – العربية الفصحى لغة فنية :

يعتقد زويتلر (١٩٧٨ ص١٤٤) أن العلامات الإعرابية كما وردت فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم هى عنصر لغوى شاذ وشكل صرفى بائد فى اللغة العربية. ومع ذلك فإن زويتلر يقول: إن نظام التصريف الإعرابى كان موجودا فى النمط العربى الفصيح الذى كان النمط المستخدم فى الشعر العربى القديم باعتباره عنصراً لغويا مهمًا وحيويا وله وظائف كبيرة فى التعبير الشعرى، ذلك لسببين أساسيين هما كالتالى :

السبب الأول أن نظام التصريف الإعرابى كان موجودا فى عصر بناء أسس الشعر العربى الجاهلى الفنية وتقاليده العروضية. السبب الثانى وجود نظام التصريف الإعرابى فى الصيغ والكليشيهات والعبارات الموروثة التى استخدمها الشعراء العرب، إما نقلا تاما وإما بتغيير بسيط (زويتلر ١٩٧٨ ص١٤٥).

ليس زويتلر الباحث الوحيد الذى يرى علاقة قوية وطردية بين الشعر العربى الجاهلى ونظام التصريف الإعرابى، بل إن كورينتى (١٩٧١ ص٢٨) يشاركه هذا الرأى إذ يقول: إن الحمل الوظيفى الهائل لعلامات الإعراب فى الشعر الجاهلى العربى إنما يرجع للذوق الفنى العربى التقليدى. يفسر لنا كورينتى نظريته تلك بأن قال (١٩٧١ ص٢٩): إن الفرق الوحيد بين الشعر الجاهلى واللغة العربية الفصحى أن الشعر يتبع الأنماط القديمة والصيغ الموروثة بشكل كبير، وهذا يعنى أن الشعر الجاهلى لم يتأثر فى لغته وفى تراكيبها التى استخدمت موروثة عن عمد بأى من التطورات اللغوية التى طرأت على واقع اللغة العربية قبل الإسلام وبعيده وكان بذلك منعزلا بقدر كبير عن الأنماط المحكية.

بينما يتفق زويتلر مع كورينتى حول غياب التصريف الإعرابى من الأنماط المحكية والتنوعات اللهجاتية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين، فإنه يختلف معه حول وجود التصريف الإعرابى فى بعض تلك الأنماط، حيث يقول: إن التصريف الإعرابى فى تلك المرحلة كان قاصراً على العربية الفصحى التى كانت النمط الفنى اللغوى. بل ويدعى زويتلر بمنتهى القوة أن كل التنوعات المحكية كانت قد أهملت علامات الإعراب منذ قرون عدة قبل الإسلام. حسب رأيه فإن كل متحدثى العربية فى شبه الجزيرة أهملوا التصريف الإعرابى وإن كان معدل التطور اللغوى اختلف من موقع جغرافى لآخر. فمن الواضح أن أبناء المناطق الحضرية أهملوا علامات الإعراب قبل أعراب البادية. ولكن بما أن التطور اللغوى قد بدأ فى ما قبل المسيحية – كما يدعى ديم – فإنه من غير المعقول أن يكون هناك عربى فى القرن السادس أو السابع يستخدم هذا النظام البائد. والخلاصة أن التصريف الإعرابى كان موجودا فى لغة الشعر لأسباب فنية عروضية ولها صلة بالقافية من ناحية وأسباب تذوقية من ناحية أخرى، ولكن الشاعر نفسه الذى

استخدم التصريف الإعرابى فى شعره لم يكن بحاجة له فى استخدامه اليومى للعربية، ومن هنا يتبين أن هناك فصلاً بين العربية الفصحى ذات التصريف الإعرابى والأنماط المحكية على أساس وظيفى. يدعى زويتلر أنه فى سياق كهذا تصبح اللغة التى يستخدمها الشاعر لقرض الشعر لغة محافظة من الناحية التركيبية أكثر من اللغة التى يستخدمها فى حديثه اليومى. ويفسر لنا بارى (١٩٣٢ ص٦-٢٣ و١٩٧١ ص٣٣١-٣٢٣) الفروق بين لغة حديث الشاعر ولغته الفنية بأن الأخيرة تحتفظ بتراكيب نحوية، وصرفية، وعناصر دلالية زالت وبطلت فى لغة حديثه اليومى . ويدعى أيضا أنه عندما تتطور لغة حديث الشاعر اليومية يتطور معها كذلك معجم الشاعر الفنى، بشرط أن لا يؤثر هذا التطور على القوالب القديمة ولا على تشكيلتها العروضية، فهناك قوالب وعبارات مصكوكة لا يمكن تغيير بنيتها النحوية الصرفية العروضية، ولكن يمكن تغيير بنيتها المعجمية مادامت المفردات الجديدة تحل محل القديمة فى عملية إحلال ميكانيكية. أما إذا كان التطور الجديد شاذًا عن قوالب العبارات الموروثة العروضية ؛ فإن الشاعر يهمله، بل سيعيد إنتاج العبارات والصيغ القديمة مرات ومرات. ونتيجة ذلك السلوك أننا نجد فى اللغة الشعرية كلا من العناصر المعجمية القديمة المهملة والمفردات الحديثة التى قد تعنى الشىء نفسه من الناحية الدلالية. ولكن لغة الشعر الشفاهى عمومًا تنزع لأن تكون محافظة وتقليدية فى استخدام المركبات الموروثة والعبارات التى استخدمت سلفًا، وتبين توافقها مع النظام العروضى المتعارف عليه.

يتصور زويتلر (١٩٧٨ ص١٤٦) - كما أتصور أنا - أن هذا الطرح والتفسير الذى قدمه بارى على خلفية اليونانية الكلاسيكية القديمة واليونانية الشعرية إنما يتفق وحالة اللغة العربية تمام الاتفاق. كما أنه يتصور أن اللغة العربية الفصحى التى كانت تستخدم فى الشعر الجاهلى، والقرآن الكريم، والتى أنجبت بعد الإسلام على مدى القرون الثلاثة الأولى العربية الفصحى التى نعرفها الآن كانت لغة بائدة ومهملة من ناحية الحديث اليومى ولم تكن مستخدمة لغة حديث فى شبه الجزيرة العربية فى أى وقت من الأوقات. وأقدم أنساق تلك اللغة الصرفية هو نظام التصريف الإعرابى الذى ترسب من أقدم عصور نشوء اللغة العربية. حسب رأى زويتلر فقد حوت تلك اللغة القديمة الشفاهية الشعرية بعض التراكيب اللغوية التى كانت تنتمى إلى عصور أحدث

فى تطور العربية، علاوة على التراكيب والأنساق الصرفية التى وردت من عصور التكوين الأبكر، واستخدمتها فى الوقت نفسه لما لتلك اللغة من خاصية تجميعية للتراكيب والأنساق والمفردات بشرط اتساقها مع النظام العروضى والعبارات الموروثة اتساقا كاملا يسمح بالإحلال الذى أشرنا إليه سلفاً.

فى ضوء افتراضات كورينتى بتزامن نمطين والتعديلات التى قدمها زويتلر وأرائه هو أيضا، أستطيع أن أقدم قراءة مختلفة لتصور كورينتى. وأخلص إلى أن العربية الفصحى لم تكن لغة حديث، بل كانت لغة فنية فقط، خدمت بثرائها وتراكيبها الثابتة وعباراتها المصكوكة أغراض الشعراء فى مواقف الارتجال والنقل الشفاهى، كما أنها للأغراض الشفاهية نفسها، كانت هى لغة القرآن الكريم. من بين السمات التى تميز ذلك النمط عن التنوعات اللهجاتية فى مرحلة ما قبل الفتوحات أن نمط العربية الفصحى كان أكثر محافظة فى قبول التطورات اللغوية التى حلت بالعربية فى تلك المرحلة. على الرغم من التطور البطىء لهذا النمط فإنه كان يحتفظ بالسمات التركيبية والمعجمية الخاصة بكل المراحل التى مر بها، بينما كانت التنوعات اللهجاتية الأخرى تهمل بعض السمات الصرفية مثلا كما رأينا فى حالة نظام التصريف الإعرابى فى بداية العصر المسيحى.

كل ما سقناه سلفًا يوحى بأن العربية الفصحى قبل القرآن الكريم كانت لغة شعرية فقط، أتفق مع هذا الطرح، وسأحاول فى الفقرات القليلة القادمة أن أبين أن العربية الفصحى كانت لغة شعرية محدودة عن طريق الحديث عن وظيفتها التاريخية وطبيعتها التركيبية.

وظيفة العربية الفصحى قبل الإسلام :

نظرة عابرة على تراث الجاهلية كله تبين لنا أن جل الإنتاج الثقافى العربى فى تلك المرحلة كان من الشعر، ولكن هناك بعض التسجيلات التاريخية التى تداولها المؤرخون العرب دون تمحيص فى مصداقيتها التاريخية باعتبارها مجموعة كبيرة من الخطب الجاهلية، وخطب صدر الإسلام، والمقولات الملغزة التى ملأت كتب الأدب العربى المبكرة

وكان غالبيتها لكهّان أو لحكماء أو لمشاهير العرب، ولكن هذه المادة كانت متناثرة فى كتب التاريخ وذات طبيعة قصصية فى مجملها، ويمكننا الطعن فى تلك النصوص ومصداقيتها بسهولة شديدة؛ لأن طبيعتها النثرية تسمح بذلك. ولما كانت الفصاحة مسألة مسيسة ومهمة من الناحية الاجتماعية؛ فمن الممكن أن تكون تلك الخطب قد خضعت لنوع من التعديل بغرض التفصيح لمساندة قبيلة ما أو عروبة ما، أو حتى فكرة الفصاحة العظيمة للنبى (ﷺ). من أهم أمثلة تجمعات تلك النصوص فى المصادر العربية القديمة كان كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ الذى تبدو لى الخطب المقتبسة فيه معدلة بشكل كبير، حتى السمات اللغوية الحجازية المعروفة لم تظهر فى النصوص التى يزعم الكاتب أنها خطب لحجازيين.

أما الشعر، فليس من السهل إجراء تعديلات لغوية من أى نوع على تلك النصوص، وخاصة النصوص الجاهلية التى كانت تتمتع ببنية عروضية وبنية قافية متماسكة تمام التماسك. نعم، يستطيع راوٍ محترف أو حتى شاعر مقتدر أن ينحل قصيدة من القصائد، وفى حال كتلك تكون القصيدة المنحولة نسخة طبق الأصل من تراث ثابت، وبالتالى تحمل لنا السمات نفسها التى نصبو إليها من قصيدة جاهلية حقيقية باعتبارنا لغويين نبحث عن مادة لغوية. قد يكون الفرق بين المنحول والحقيقى فى مسألة الشعر مهما لأديب أو مؤرخ أدبى ولكن ليس للغوى، ولكن مسألة نحل الشعر الجاهلى فى حد ذاتها مسألة صعبة جدا لسببين: الأول أن نحل قصيدة واحدة أمر صعب من الناحية الفنية وإتقان العرب للعناصر الفنية الشفاهية الجاهلية فى الشعر ليس بدرجة استنساخ قصيدة فريدة، وهذا فى حقيقة الأمر ما أستطيع أن أفهمه من تحليل فوك لفقدان السليقة اللغوية الجاهلية عند عرب صدر الإسلام، وعرب الدولة الأموية. السبب الثانى توافر المادة نفسها تقريبا لدى أكثر من راوٍ فى أكثر من مكان وفى أزمان مختلفة. كما أن الشعر الجاهلى عندما ورد إلينا ورد من شعراء مختلفين من قبائل مختلفة، مما يبين أنه تراث كان شائعًا وعاما فى شبه الجزيرة العربية كلها ولم يكن مقصوراً على مكان واحد.

وصل الشعر الجاهلى إلى مرحلة التوثيق والتصنيف والتحقيق فى القرنين الأول والثانى، من خلال سلسلة مترابطة جدا من الإسنادات التى كان كل حلقة منها راوياً محترفًا معروفًا كما كان الشاعر معروفًا. وكانت مصلحة هؤلاء الرواة نقل مصدر فخر قبائلهم للأجيال اللاحقة بشكل سليم ممن أورثوهم هذا الشرف الرفيع. وليس لدينا - فى تصورى - أى مادة من العربية الفصحى وردت لنا من مرحلة ما قبل الإسلام يمكن الوثوق بها للغوى مثلى. من الممكن أن نفكر أن النحويين العرب، وخاصة فى القرون الثلاثة الأولى كانوا مهتمين بالشعر الجاهلى لأنه مادة يمكن استخدامها لتفسير القرآن الذى كان المبرر الأساسى لظهور النحو العربى فى مراحله المبكرة، ولذلك اهتم العرب عمومًا بالنصوص الشعرية دون غيرها من النصوص النثرية التى ربما تكون قد زادت من إهمال النحويين، وبالتالى ظهرت مفضليات وأعمال كالأغانى، وأعمال كالدواوين الكبيرة التى تمثل مصادر دراسة الأدب الجاهلى حتى اليوم.

أنا لا أستطيع أن أقبل تلك الفكرة، فهى كما يقول اللاتينيون حجة صامتة، فمعرفتنا بالنحاة العرب على عمومهم وسيبويه على وجه الخصوص تبين لنا أن هؤلاء العلماء كانت لهم دراية كبيرة جدا بما يجمعون من مادة، وأنهم كانوا فى حالة بحث دائم عن مادة لغوية لتحليل قواعدها واستخدامها لتفنيد قواعدهم المنطقية أو دعمها. ولذلك فلو كانت هناك مادة أخرى نثرية كانت أو غيرها لما تورع النحويون عن تقديمها وتحليلها، حتى ولو كان غرضهم الأساسى التعرف على لغة القرآن الكريم، وتحليل قواعدها. فما الذى يمنع أن تكون هناك منطوقات نثرية فصيحة فصاحة الشعر الجاهلى. ولكن السؤال الحقيقى هنا هو، لماذا لم يضمِّن النحاة العرب نصوص الخطب الجاهلية التى تعج بها مجلدات البيان والتبيين مثلا فى مادتهم اللغوية على الرغم من أنها فصيحة فصاحة الشعر الجاهلى؟ إما لأن علماء العربية لم يعرفوا بوجود تلك النصوص وهذا طبعًا مستحيل، وإما لأنهم لم يثقوا بإسناد تلك النصوص وصحتها التاريخية. وكذلك ليس من السهل أن نتصور أن البدو الأعراب الذين كان النحاة يثقون بعروبتهم وبسليقتهم اللغوية قد أهملوا عن عمد نصوصًا مثل تلك كان لها أن تزيد من رفعة موروثهم، وبالتالى من زيادة مكانتهم فى المجتمع العربى العروبى فى العصر الأموى والعباسى الأول على الأقل.

ولكن كانت هناك منذ بداية الحضارة العربية الإسلامية بعد الفتوحات صلة منطقية وطردية بين الشعر الجاهلى والقرآن الكريم من الناحية اللغوية. ولذلك أستطيع أن أزعم أن العربيـة الفصـحى كانت لغـة فنية فقط، هذا الزعم يظل قائما ما دامت النصوص النثرية الأخرى التى وردت فى كتب كالبيان والتبيين، والحيوان، وكتب السير لا تستقر فى وعينا مصداقيتها. يصبح هذا الزعم أوضح عندما نناقش طبيعة العربية الفصحى التى وردتنا من العصر الجاهلى عبر الشعر الجاهلى فى القسم التالى من هذا الفصل. ولكن الدليل غير اللغوى القاطع والوحيد فى صلة العربية الفصحى بالشعر وليس بغيره من الوظائف الاجتماعية اللغوية هو النعت الذى اتهم به أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر، لقد أسس عرب ما قبل الإسلام هذا الزعم على أساس الصلة اللغوية الواضحة بين الشعر الجاهلى والقرآن الكريم. ولما كان نص القرآن معجزا لهم لغويا ومعنويا، فقد كان أقرب زعم لهم أنه شعـر وبالتالى يكون صاحبه شاعراً. هذا بالطبع لو أخرجنا من حساباتنا الوحى الذى لم يؤمنوا به.

ولكن لا بد أن يكون العرب بسليقتـهم وبمعرفتـهم اللغوية، وخاصة فى مسـألة علامات الإعراب التى جزمت سلفا بحضورها فى التنوعات اللهجاتية التى كان العرب يتكلمونها. هذه السمات التركيبية كانت مشتركة بين الجنسين فقط. لا أزعم أن العرب قد لاحظوا تشابها فى الرسائل أو المحتوى الموجود فى كل من الجنسين: لأن نظرة بسيطة على نص القرآن الكريم تبين أن معانيه تختلف كلية عن مجموعة المعانى المحدودة عمداً والتى يدور حولها الشعر الجاهلى فى أغراضه القليلة. أستطيع أيضا أن أزعم أن أكثر المسائل الشكلية إلتى حرضت العرب على مثل هذا الاتهام هو مسألة التصريف الإعرابى، وهى أكثر السمات اللغوية وضوحا. ويبدو أن هذا الاتهام كان رائجًا لدرجة أنه استدعى دفاعًا قويا من القرآن الكريم فى سورة الطور الآية ٣٠ وسورة يس الآية ٦٩ التى تقول بجلاء إن النبى لم يتعلم الشعر؛ لأنه ليس مناسبًا لمن هو فى مكانته. الفرق الوحيد من الناحية الشكلية بين القرآن والشعر الجاهلى أن الأخير كان يستخدم الوقـف بترنم، بينما كان القـرآن يستخدم الوقف بالإسكان. ولكن فيما عدا ذلك كانت السمات الشكلية المتشابهة واضحـة لكل من كان معاصراً للنبى (ﷺ)..

فلو كانت هناك جماعات لغوية أخرى أو وظائف لغوية أخرى تستخدم هذا النمط اللغوى، لكان العرب قد نعتوا النبى (ﷺ) بالانتماء لها بدورها كما فعلوا مع الكهان والشعراء. ولما أصبح من المعروف أن القرآن تنزل بلسان عربى مبين أصبح الشعر الجاهلى فى صدر الإسلام هو المصدر الأساسى لهذا اللسان المبين تحليلا ودراسة؛ لأن الجنسين كانا يستخدمان النمط اللغوى نفسه وأن الشعر هو النموذج المثالى الذى يمكن أن يستخدم لغرض التحليل.

لما كان هناك غياب كامل لأى مادة نثرية مكتوبة فى العصر الجاهلى مما يمكننا من إصدار حكم كامل وصحيح بخصوص وظيفة العربية الفصحى خارج نطاق الشعر الجاهلى؛ أستطيع أن أزعم – ولو بشكل مؤقت – أن العربية الفصحى لم تكن لغة نثر عربى قط، علاوة على أنها لم تكن إلا لغة فنية كما قد أسلفنا. ولكن هذا الغياب لأى نثر مكتوب لا يتسق مع كل ما ورد فى السير النبوية المختلفة وكتب التاريخ المبكرة التى أوردت ذكر إرسال النبى (ﷺ) رسائل لملوك عرب وعجم فى بداية رسالته، والمعاهدات التى كتبها صلى الله عليه وسلم مع أعدائه وأحلافه. إن صحت تلك الأخبار – وهذا سؤال كبير – فما اللغة التى كانت مستخدمة للتواصل بين النبى (ﷺ) وهؤلاء الملوك من غير العرب؟ أعتقد أن الإجابة أنها ليست العربية الفصحى بالتأكيد؛ لأنها لو كانت قد استخدمت لكان النحويون أول من أوردها فى كتبهم ولوردت لنا فى شكل نصى فى كتب التاريخ والسير. بالإضافة إلى ذلك فكتّاب الرسائل الذين أوردت كتب السيرة ذكرهم لم تكن لأى منهم شهرة باعتباره شاعرا أو راويا للشعر الجاهلى. ويعنى هذا أن هؤلاء الكتاب ربما لم تكن لهم علاقة كبيرة أو أى علاقة مطلقا بالنمط الذى كان مستخدما فى الشعر.

نستثنى من هذا التعميم رجلين اثنين: هما على بن أبى طالب وزيد بن ثابت. أما فيما يخص عليا، فقد درجت كتب النحو وطبقات النحاة والكتب العامة كمؤلفات الجاحظ على أن تورد اسمه فى قصة أبى الأسود الدؤلى واختراع النحو العربى على أنه من أعطى أبا الأسود القواعد الأساسية التى اتبعها الأخير فى بناء النحو العربى باعتباره علمًا صاعدًا. وهو الشخص الذى كان مسئولا كما ورد فى سيرة ابن هشام عن كتابة صلح الحديبية. أما فيما يخص زيد بن ثابت، فقد كان شاعر الإسلام فى مرحلته الأولى.

ولكن ليس هناك أى إشارة له فى معرض ذكر أى كتابة لرسائل أو وثائق صلح أو حلف. ولكن أعظم دور له كان فى الجمع الأول للقرآن الكريم فى أول مصحف فى عهد أبى بكر الصديق. ولكن المصادر العربية المبكرة غير واضحة بشأن أى دور محتمل له فى تحرير مكاتبات أو نصوص أخرى، وهو ما يدعم تصورنا بأن العربية الفصحى لم تكن لغة النثر المكتوب لأن زيدا كان شاعرا، ولذلك كان خير من توكل له مهمة جمع القرآن الكريم الخطيرة، والتى كانت تحتاج رجلا ذا معرفة واسعة بنمط لغة القرآن التى هى لغة الشعر الجاهلى. ولكن ما معرفة زيد بن ثابت بنمط آخر قد يكون استخدم لغة للكتابة والمراسلة فى صدر الإسلام؟

لكن المثير فى الأمر أن معظم كتاب الوحى والكتبة الذين قاموا بعمليات التدوين والمراسلة للنبى (ﷺ) كانوا إما من الأجانب أو من عرب مكة على وجه الخصوص، ومن العشائر والقبائل المشهورة بالتجارة على وجه الخصوص. ومن الممكن أن تكون تلك الخلفية التجارية هى التى مكنتهم من الحصول ولو على خلفية تعليمية بسيطة تمكنهم من القراءة والكتابة (وات ١٩٧٠ ص٣٠). ولكن السؤال الذى يبقى : ما النمط اللغوى الذى كان مستخدما فى الكتابة؟ هل من الممكن أن يكون الكتبة قد استخدموا لهجاتهم المحلية فى تلك الكتابة؟ هذا احتمال وارد؛ لأن الغرض من تلك الكتابات كان وظيفيا وعمليا بحتا ولم يكن فنيا. إن كان لحروف المصحف المبكر أى دلالة فإن غياب الهمزة عن الكتابة يبين أن أهل الحجاز ومكة خصوصا كانوا على الأقل يكتبون كما يتكلمون بطريقتهم المحلية الخاصة، فلم تكن بهم حاجة لاختراع رمز كتابى لصوت الهمزة الذى لم يكن ضمن حصيلتهم الصوتية. ظهرت الحاجة لرمز الهمزة الكتابى عندما اضطر المكيون لاستخدام الصوت فى العربية الفصحى وكتب المصحف للعرب جميعًا بالعربية الفصحى التى كانت تحتوى على صوت الهمزة باعتباره فونيما مستقلا.

أكرر هنا مرة أخرى أن غياب أى نصوص قديمة أو دلالات فى كتب النحويين العرب الأوائل يمنعنا من تصدير أى نظرية بخصوص لغة المعاهدات والمراسلات تصدير الواثق العارف، ولكننا نستطيع فقط أن نصدر تخمينات مؤقتة، وهو ما نفعله فى مجال الدراسات العربية التاريخية. وتبقى حقيقة واحدة فقط وهى أن للعربية

الفصحى وظيفة واحدة مؤكدة هى الشعر العربى الجاهلى قبل الإسلام، وهو نفسه المادة التى استخدمها النحويون العرب فى تقعيد النحو فى القرنين الثانى والثالث للهجرة. ولذلك لن أشغل نفسى بمحاولة البحث عن وظائف لغوية أو اجتماعية محتملة للعربية الفصحى فى مرحلة ما قبل الفتوحات. ولكن عندى سؤال مهم : إن كانت العربية الفصحى لغة الشعر الفنية فقط قبل الإسلام، فماذا كان وضعها الاجتماعى اللغوى؟ هل كانت لغة محترمة رفيعة، أو أنها كانت مجرد لغة فن شفاهى تقليدى عربى وكفى؟

يجدر بنا هنا أن نحترس من الخلط بين الوضع الاجتماعى اللغوى الرفيع للعربية الفصحى قبل نزول القرآن وبعده. أصبحت الفصحى بعد الوحى اللسان العربى المبين، ولغة تنزيل القرآن الكريم، وبذلك لم تعد لغة فصيحة فحسب، بل أصبحت رفيعة رفعة التقديس. أما عن حال العربية قبل التنزيل فقد كانت لغة الشعر الجاهلى الذى وصفه العرب أنفسهم بأنه ديوان العرب الذى سجلوا فيه أيامهم، ومعاركهم، وتداخلاتهم الاجتماعية، وما يختلج بهم من عواطف. وكان لكل قبيلة شاعر يحمى شرفها ويتغنى بمجدها ورجالها والأجداد، أما القبيلة التى تعجز عن إنتاج شاعر فحل من هذا الطراز فقد كانت فى موضع حرج. يبين هذا الطرح البسيط أن الشعر الجاهلى كانت له مكانته فى قلوب العرب ونسيجهم الاجتماعى، من المنطقى - يدعى فرستيغ (١٩٩٧ ص٤٠)- أن يتم اختيار أفضل الأنماط اللغوية لتكون وسيلة تعبير الوحى والكتاب المقدس. ومن المنطقى أيضا أن تكون للعربية الفصحى سمعة حسنة واحترام بين العرب، ومن الممكن أن تكون تلك السمعة الحسنة نابعة من أنها لغة الأجداد. ولكننا أيضا يجب أن نتذكر أن الشعراء العرب ولغتهم الشعرية كانت ذات سمعة سيئة فى الوقت نفسه قبل الإسلام لما تمتع به الشعراء من قوة سحرية واتصال بالجن، وبالتالى كانوا يمتلكون قدرة عالية على الإيذاء. فقد وصف زهير بن أبى سلمى لغة شاعر غاضب على أنها لعنة (انظر ديوان زهير ١٨٣٣)(٣) .

(٣) للمزيد عن هذا الموضوع وسمات الشاعر الجاهلى السحرية انظر شوقى ضيف (١٩٦٠ ص١٩٦-١٩٩) .

طبيعة الشعر الجاهلى :

إذا التفتنا الآن إلى طبيعة لغة الشعر الجاهلى، فسنتبين منها أنها كانت مناسبة تماما لإنتاج فنى شفاهى أكثر من أى شىء آخر؛ فمن ناحية كانت العربية الفصحى تمتلك نظام قواعد أكثر تنوعا من اللهجات التى كانت قواعدها تتجه فى تلك المرحلة كما رأينا فى الفصل السابق للتبسيط. فقد كانت الأنماط النحوية والأنساق الصرفية فى الفصحى أكثر ثراء من اللهجات كما كانت تمتلك نظام تصريف إعرابى كامل وفاعل. إن التنوع الصرفى والثراء النحوى مفيدان فعلا للشاعر الذى يستطيع أن يستخدم كل تلك المادة لصياغة تراكيب مختلفة لتناسب البحور والقوافى العربية المحددة والثابتة. سأبين فى هذا الجزء من فصلنا كيف أن لغة الشعر تعكس نمطا فنيا شفاهيا يشى بتاريخ هذا النمط من العربية. فى معرض توضيحنا لنظرية الشفاهية فى الشعر الجاهلى سنلقى الضوء على ثلاث نقاط أساسية، كالتالى : البناء النمطى على المستوى المعجمى، وغياب الإقواء من القصائد الجاهلية على المستوى الفنى وهو أكبر دليل على شفاهية الشعر الجاهلى، والبناء المعنوى المحدد للقصيدة الجاهلية مما يعنى أن أغراض القصيدة العربية كانت محددة ومعروفة ويمكن توقعها قبل حتى أن تسمع. فليس من الممكن للشاعر الشفاهى أن يفكر فى الموضوع ويتدبر المفردات التى ينبغى استخدامها لتوصيل معناه المرجو فى سياق عروضى محدد فى لحظة قرض القصيدة (انظر لورد ١٩٦٥ ص١٤٤-١٤٧٩).

ولكننى لن أخوض فى النقاط الثلاث فى الوقت الحاضر؛ لأن المساحة لن تسمح لنا بذلك، ولن أدخل أيضا فى الصور ولا التركيب المعنوى، ولكننى سأركز على البناء النمطى المعجمى والنحوى فى القصيدة الجاهلية؛ لأبين للقارئ أن هذا النمط من العربية كان محدداً وظيفيا؛ ولأبين له أيضا أن النقلة من نمط فنى فى الجاهلية لنمط مقروء ومكتوب فى العصر الإسلامى نقلة تطور لغوى كبيرة سأوضحها فى الفصل التالى.

درس مونرو (١٩٧٢ ص ١-٥٣) السمات الشفاهية فى أول عشرة أبيات من أربع قصائد جاهلية كبيرة؛ درس معلقة امرئ القيس من الطويل، ودرس معلقة لبيد من

الكامل، ودرس ميمية زهير من الوافر، ودرس دالية النابغة من البسيط. على الرغم من أن هذه المادة صغيرة جدا ولا تسمح لنا بتحليل موسع للعناصر الشفاهية فى القصيدة الجاهلية فإنها مادة مناسبة من ناحية أخرى لأنها تقدم لنا أربع قصائد من البحور الأكثر انتشارا فى الشعر الجاهلى(٤) . استطاع مونرو من تلك المادة أن يتبين أن الشعر الجاهلى العربى عكس قدراً كبيرا للتراكيب والمفردات المكررة عالية التواتر والتى وردت فى القصائد فى شكل أنماط لفظية.

لقد لاحظ مونرو أن التكرار الحرفى للصيغ والأنماط اللفظية ظاهرة تكررت عند الشاعر نفسه، كما تكررت بين الشعراء الجاهلين؛ فتجد مثلا أن لبيدا كرر عبارة "لمن طللُ" مرات كثيرة كما كررها نفسها زهير مرتين. وكرر امرؤ القيس عبارة "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" مرتين، مرة منهما فى المعلقة ومرة فى قصيدة أخرى(٥) . فى بعض الأحيان يكون التكرار لكلمة واحدة أو كلمتين من العبارة كما هو الحال فى المثل التالى، فقد كرر كل من لبيد فى معلقته وامرئ القيس عبارة "عفت الديار"، واستخدمها امرؤ القيس فى قصيدة أخرى بتغيير الكلمة الأولى ليصبح المركب "تبكى الديار".

قد تحتوى العبارات والأبيات على صيغ تركيبية جامدة، أى مجموعة من الكلمات فى تركيب نحوى معين، وفى بحر محدد كتركيب إضافة مثلا أو إضافة متبوعة بصفة ما. وتجد أن الشاعر الجاهلى كان يغير الجذور، ولكنه يحتفظ بشكل الكلمات مشتقات كما هى دون تغيير ليستطيع بذلك استنباط عدد غير محدود من العبارات من ذات التركيب. خذ مثلا تركيب "عفت الديار" الذى استخدمه لبيد وامرؤ القيس، استخدم

---

(٤) يقول بيتسون (١٩٧٠ ص٣٠) وفليش (١٩٦٨ ص٤٧-٥٢): إن الكامل والطويل أكثر البحور العربية استخدامًا فى العصر الجاهلى من قبل الشعراء جميعا. كانت نسبة استخدام الطويل ١١.٥٠٪، بينما كانت نسبة استخدام الكامل ١٧, ٥٣٪ . وتبعهما فى الترتيب الوافر، ثم البسيط حيث كانت نسبتهما ٢٤, ٧٧٪ وكانت نسبة باقى البحور مجتمعة ٣٧,٦٪ .

(٥) للحصول على أمثلة أثر على النقل الحرفى والتكرار الحرفى وشبه الحرفى للعبارات فى الشعر الجاهلى انظر مونرو (١٩٧٢ ص١٥-١٧) .

زهير التركيب نفسه بلفظ آخر وهو "لعب الزمان"، واستخدمه النابغة فى "زعم الغداف" وفى "سقط النصيف"[٦] . فى بعض الأحيان يتم تكرار الكلمة نفسها ولكن فى بحر شعرى مختلف أو تركيب نحوى مختلف، كما أن هذا التكرار لا يبدو أنه محكوم بسياق لفظى خاص، إذ إن الكلمات المكررة تظهر فى بيئة معجمية غير مكررة. يسمى مونرو هذا التكرار بتكرار الألفاظ التقليدية (١٩٧٢ ص٢٣). فكلمة "اللوى" التى استخدمها امرؤ القيس مثلا فى معلقتــه فى بيتها الأول تكررت عنده فى غير مكان فى غير قصيدة، كما تكررت عند زهير مرتين مثلا، فى سياقين لفظيين مختلفين[٧] .

سنحاول هنا أن نبين نسبة التراكيب والعبارات الثابتة فى كل بحر من البحور، لإثبات الطبيعة التركيبية الصيغية للعربية الفصحى قبل تنزيل القرآن الكريم. حسب مونرو (١٩٧٢ ص٣٣) أن نسبة ٨٦ , ٨٩٪ لبحر الطويل، و ١٢ , ٨٢٪ لبحر الكامل كانت تراكيب صيغية جامدة. ولما كان هذان البحران أكثر البحور العربية انتشارا فى الشعر الجاهلى؛ فمن الممكن أن نفترض أن البحور الأخرى قد استخدمت بنى وتراكيب صيغية جامدة ومنقولة. فيما يخص امرأ القيس على سبيل المثال، فإن مقارنة بين

---

(٦) يمكن الاطلاع على قائمة طويلة من تلك التراكيب المكررة عند مونرو (١٩٧٢ ص٢٠-٢٣) .

(٧) لا يشترك كل الشعراء فى كل الصيغ اللفظية أو الصيغ التركيبية الجامدة، ولكن عوامل الزمن والعوامل الجغرافية تمكن الشاعر من اختيار ألفاظ أو تراكيب خاصة يشترك معه فيها الشعراء الأقرب زمانا منه من الشعراء الأبعد عنه زمانا. ولذلك فالشعراء الذين تفصلهم مسافة زمنية كبيرة وموقع قبلى بعيد يختلفون بعضهم عن البعض الآخر فى استخدام صيغ بعينها. ولذلك يمكن أن نجمع امرأ القيس وعلقمة معًا فى فريق يختلف عن فريق آخر يضم زهيرا والنابغة مثلاً؛ لأن الأخيرين كانا أقرب زمانا لبعضهما منهما لعلقمة (١٩٧٢ ص٢٥ و ٢٦). ولكن هناك عمومًا مجموعة خاصة جدا من الموضوعات التى تبدأ بها القصيدة الجاهلية عمومًا، كالنسيب والرحيل حيث يشترك كل الشعراء العرب فى استخدام الصيغ اللفظية الخاصة بها .

بالإضافة إلى ذلك يعتمد استخدام التراكيب والعبارات المكررة على نوع البحر المستخدم فى بناء قصيدة جاهلية معينة. فقد وضح لنا مونرو (١٩٧٢ ص٢٨ و ٢٩) أن هناك كلمات تتكرر فى بحور أكثر مما تتكرر فى بحور أخرى. يفسر لنا ذلك كثرة المترادفات التى استخدمها الشاعر الجاهلى الشفاهى فى بناء قصيدته والتى ورثتها العربية الفصحى بعد الفتوحات الإسلامية فيما بعد. انظر على سبيل المثال كلمة "طلل" ومرادفها الذى يتكون من التركيب الصوتى الداخلى نفسه "دمن"، تجد أن هاتين الكلمتين تستخدمان فى الوافر والطويل، بينما يستخدم الشاعر فى بحر الكامل كلمة "ديار" .

معلقته وباقى شعره من بحر الكامل، ومقارنة بينه وبين باقى الشعراء الجاهليين الكبار والصغار تبين أن نسبة ٨٦, ٨٩٪ من شعره صيغ جامدة منقولة، أغلبية تراكيبه المنقولة إما عبارات منقولة حرفيا أو كلمات فى عبارات. وتنطبق النتيجة نفسها على لبيد الذى عقدت مقارنة بين معلقته من الكامل وباقى شعره من البحر نفسه، وبينه وبين باقى شعراء الجاهلية كبارهم ومغموريهم، وأثبتت أن ١٢, ٨٢٪ من شعره صيغ منقولة إما نقلا حرفيا وإما كلمات فى عبارات. واتبعنا الطريقة نفسها مع زهير فى مقارنة شعره المقروض باستخدام بحر الوافر وتبين لنا أنه أكثر شعراء الجاهلية استخداماً للصيغ المنقولة والجامدة حيث بلغت نسبتها فى شعره ٥٩, ٩٢٪ من جملة التراكيب المستخدمة. أما القصائد التى كتبها النابغة الذبيانى باستخدام بحر البسيط فقد تحولت من نسبة تصل لأكثر من ٨٥٪ من التراكيب والصيغ المنقولة نقلا حرفيا.

فكر مونرو فيما إذا كانت الصيغ المنقولة التى استخدمها امرؤ القيس فى بحر الطويل فى قصائده تمثل حصيلة عامة عند كل الشعراء الجاهليين الذين استخدموا هذا البحر أم لا، فقد عقد مقارنة بين ٥٧٤ بيتا من هذا البحر، فوجد أن نسبة الصيغ الثابتة المتكررة تصل إلى ٣٣, ٢٤٪ . أما المقارنة بين البحر نفسه فى الشعر الجاهلى والبحر نفسه فى الشعر الإسلامى فقد بينت وجود تراكيب ثابتة منقولة نقلا حرفيا بنسبة تصل إلى ٢٢, ٩٪ من مجموع حوالى ٣٤٨ بيتًا جمعت من شعراء مختلفين فى العصر الإسلامى، منهم أبو نواس، والمتنبى، وابن زيدون، والبارودى. وتكررت الطريقة نفسها مع صيغ بحر الكامل المنقولة، وتوصل الباحث إلى أن نسبة التراكيب المنقولة فى الشعر الجاهلى تصل إلى ٢٥, ٣٠٪ من أصل ٣٢٥ بيتًا تم استخدامها فى المقارنة. أما المقارنة بين قصائد هذا البحر فى العصرين الجاهلى والإسلامى فقد توصلت إلى أن نسبة التراكيب المنقولة الثابتة تصل إلى ٨٨, ٩٪ من أصل ٢٩٩ بيتا جمعت من أبى نواس والمتنبى وابن زيدون وأحمد شوقى[٨] .

---

(٨) قدم زويتلر سنة ١٩٧٨ تحليلاً وافيًا وكاملاً لمعلقة امرئ القيس فقط، وله فى نسب النقل الحرفى على المستوى المعجمى وعلى المستوى النحوى رأى ونسب تختلف عن النسب التى قدمها مونرو رقميا، ولكنها لا تختلف عنها من حيث الدلالة .

أحب أن أختتم هذا الفصل بأن أقول : إنه بما أن العربية الفصحى لم تقدم لنا على مر التاريخ العربى قبل الإسلام أى دليل مكتوب، أو حتى قرينة لغوية على استخدامها فى أى وظيفة لغوية غير الوظائف الفنية التى نعرفها جيدا؛ فإن الوظيفة الوحيدة هى الشعر. ولكن فيما يخص أى زعم حول وجود رسائل أو نصوص معاهدات بالفصحى فى مرحلة ما قبل الفتوحات وصدر الإسلام فإن هذا غير معقول؛ لأن علماء العربية لو عرفوا بتلك النصوص ووثقوا بها لما ترددوا فى استخدامها فى تحليلاتهم النحوية واللغوية. ولذلك فعلى كل من يتصور أن نصوص تلك المعاهدات والخطب سليمة وأصيلة أن يبرر غياب تلك النصوص من كتّب النحو واللغة التى اعتمدت اعتمادا كبيرا على الشعر الجاهلى مصدراً أساسيا للمادة والتحليل. بالإضافة إلى ذلك فطبيعة العربية الفصحى فى الجاهلية كانت صيغية جامدة مما لا يشى بأنها كانت مستخدمة لأى أغراض أخرى، فلغة تمتلك قائمة مفردات طويلة جدا من المترادفات ولكن بحقول دلالية محدودة، وتراكيب قليلة، وتنوع صرفى كبير لا يمكن أن تكون صالحة فى شكلها هذا أو مستخدمة فعلا. إن كانت قد استخدمت باعتبارها لغة حديث يومى، أو إن كانت قد استخدمت كما تستخدم العربية الفصحى فى وقتنا الحاضر؛ لاتسعت مجالاتها النحوية والمعجمية ولاتسعت أغراض الشعر الجاهلى نتيجة لذلك. ولذلك فنحن نتصور أن التعبير الفنى دون الحياة اليومية كان غرض الفصحى فى تلك المرحلة من تاريخ اللغة العربية.

الفصل الرابع

العربية بعد الفتوحات

١ - مقدمة :

كان الإسلام عاملا أساسيا فى تطور اللغة العربية تركيبيا ووظيفيا، وكانت الفتوحات العربية أداة مهمة أيضا فى هذا التطور. لقد تطورت الوظائف اللغوية من ناحية وأصبحت أكثر تعقيدًا، ومن ناحية أخرى انتشرت العربية أفقيا بشكل لم يسبق له مثيل، مما مكنها من إنتاج أنماط لغوية مختلفة، سنتولى فى هذا الفصل شرحها بالتفصيل.

لقد أصبح للعرب بفضل القرآن نموذج لغوى مثالى يحتذى؛ فقد ظهر القرآن فى العقلية العربية أولا وفى عقلية المسلمين الجدد على أنه نص كتاب مقدس يدخل فى مجالات الصلاة، والتفسير، والتشريع، ولذلك فقد كان من الحتمى على كل مسلم يمارس دينه أن يتعرف على لغة القرآن بدرجة ما. وعلى عكس الشعر الجاهلى كان القرآن الكريم داخلا فى الحياة اليومية وله أهمية كبيرة فى تسيير شئونها، ولذلك كان نموذجًا متاحًا على المستوى اللغوى على الأقل، وكانت النتيجة المباشرة أن القرآن الكريم أدخل العربية الفصحى الكلاسيكية فى وعى ابن اللغة العربية باعتبارها نمطًا لغويًا مثالاً.

بالإضافة إلى ذلك مكنت الفتوحات العربية من التعامل مع نموذج العربية الفصحى الوليد فى الوعى العربى على أنها لغة رسمية ولغة عالمية للإمبراطورية الوليدة مترامية الأطراف. فى ذلك السياق دخل ملايين من غير العرب فى النظام السياسى الإدارى للدولة العربية وكان لزامًا عليهم أن يتواصلوا باستخدام تلك اللغة العربية المشتركة بين

جماعات غير العرب المختلفة لغويا وبين تلك الجماعات من ناحية والعرب من ناحية أخرى، وحدثت تلك التطورات كلها فى سياق مدن المعسكرات الجديدة التى لم تصبح فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى بعد مدنا عالمية بمعناها المعروف، والذى بدأ يتكرس من النصف الثانى للقرن الأول الهجرى. ولما كانت اللغة العربية قد أصبحت لغة التواصل فى البصرة، والكوفة، والفسطاط، وبعد ذلك القيروان، والرباط، ونقط ساحلية أخرى – فقد تعرضت للانتشار الواسع على مساحة جغرافية كبيرة، مما تسبب فى تنوع تركيبى لغوى كبير أصاب العربية على يد العرب وغير العرب على حد سواء. فظهرت أعظم نتائج الفتوحات العربية تأثيراً من ناحية اللغة العربية، وهى ظهور اللهجات العربية الحضرية التى مثلت البذرة التاريخية لظهور اللهجات العربية الريفية والحضرية الحديثة فى المنطقة العربية من الشام والعراق فى آسيا، إلى شمال إفريقيا والسودان وتشاد غربا، إلى نيجيريا والكميرون وسيراليون فى القارة الإفريقية.

لما كانت وتيرة التطورات اللغوية فى اللهجات العربية سريعة جدا وملحوظة حتى لغير المتخصصين، ولما كان العرب وغير العرب على حد سواء بعد الفتوحات عاجزين من ناحية السليقة اللغوية عن الإلمام بعربية النص القرآنى بشكل كامل؛ فقد لزم رد فعل قوى للحراك اللغوى فى تلك المرحلة من تكوين الإمبراطورية العربية وحضارتها. كان رد الفعل ظهور العربية الفصحى بشكلها الكلاسيكى الكامل بنهاية القرن الثانى الهجرى على يد طليعة من علماء النحو العربى. فبنهاية القرن الثانى أكمل سيبويه كتابا فى النحو، يحسبه علماء العربية قديما وحديثا قرآن النحو العربى وإن لم يكن قد نال تلك المكانة فى حياة مؤلفه، إلا أن أهمية كتاب سيبويه التاريخية تكمن فى توضيح أن النظرية النحوية العربية فى تلك المرحلة قد بلغت من الكمال مبلغ سيبويه.

لم يكن العرب يمتلكون ناصية العربية التى نزل بها القرآن الكريم ولا حتى النبلاء منهم، فقد ارتكب بنو أمية أنفسهم أخطاء لغوية واشتهر منهم أقوام بعجمة واضحة، كما اشتهر منهم الفصحاء. حتى الشعراء العرب فى القرن الثانى الذين كانوا فى الماضى أمراء الكلام وملاك التصريف الإعرابى ارتكبوا أيضا أخطاء لغوية يمكن التعرف عليها بوضوح فى شعرهم. هناك إشارات كثيرة فى كتب التراث العربى تبين

الأخطاء اللغوية الكبيرة التى كان بنو أمية يرتكبونها فى استخدام العربية الفصحى[١] . ولكن القرآن الكريم كان النموذج الأعلى الذى يجب الاقتداء به فى إنشاء النثر العربى المستحدث فى تلك المرحلة. ومع ذلك فإن التباين فى الإلمام بقواعد لغة القرآن الكريم (التى لم تكن اللغة الأم لأى عربى) مهدت لظهور أنماط مختلفة من العربية الفصحى التى قعد لها النحويون، تبتعد وتقترب عن النموذج المثالى بقدر معرفة الكاتب أو الشاعر أو الأديب. يزداد القصور فى الاستخدام وضوحاً وبروزاً عندما أصبحت الفصحى لغة مجالات الدولة المدنية فضلا عن كونها لغة القرآن. الأنماط التى ظهرت نتيجة التباين بين المعرفة بالفصحى وقواعدها الأصلية تسمى جميعا بالعربية الوسيطة. هذا النمط اللغوى ظهر فى نصوص عربية نثرية ظهرت لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية بعد الإسلام بداية من سنة عشرين للهجرة، حيث كانت نصوصاً تخضع لقواعد الفصحى، ولكنها لا تخلو من أخطاء أو عناصر عامية كما كان القرآن منها تقريبا خالياً.

فى الوقت نفسه الذى ظهرت فيه النصوص العربية النثرية والعربية الوسيطة لأول مرة حدثت ظاهرة لغوية منفصلة، وهى ظهور اللهجات العربية الحضرية، وهى مجموعة اللهجات التى شكلت الشق الحضرى مما اصطلح الباحثون الغربيون على تسميته بالعربية الجديدة. سأبين فى الفصول الثلاثة التالية أن تلك اللهجات الحضرية قد ظهرت نتيجة لعملية تعلم العربية باعتبارها لغة ثانية بشكل طبيعى وعشوائى أحيانا دون وجود عملية منظمة لتعليم العربية[٢] التى كانت عملية مشتركة كان طرفاها الأساسيان هما غير العرب برغبتهم الشديدة فى امتلاك وسيلة تواصل مع العرب فى الأمصار الإسلامية الجديدة كالبصرة، والكوفة، والفسطاط، والعرب الذين عدلوا لغتهم الأم بطريقة يسهلون بها التفاهم مع غيرهم.

---

(١) انظر الجاحظ فى البيان والتبيين، المجلد الأول ص٣٢، وانظر أيضا ابن قتيبة فى المعارف ص١١٨، وانظر أيضا المبرد فى الكامل ص٣٦٦، حيث تجد على ذلك أمثلة كثيرة. وللمزيد عن الأخطاء اللغوية للشعراء العرب فى العصر الأموى انظر التجميع الممتاز الذى قدمه فوك (١٩٥٠) فى الفصل الأول، حيث يرصد صورة العربية الفصحى فى صدر الإسلام والدولة العربية الأموية .

(٢) انظر الفصل الخامس لتعريف واضح لعملية تعلم اللغة الثانية بشكل طبيعى خارج الصف .

كانت تلك اللهجات العربية الحضرية مختلفة تمامًا عن عربية الشعر الجاهلى والقرآن الكريم التى استمدت الفصحى منها قواعدها الأساسية. من الناحية الوظيفية كانت تلك اللهجات تحتكر التواصل اليومى المباشر والكلامى بين العرب بعضهم بعضًا وبين غير العرب على حد سواء فى حين كانت الكتابة مجال العربية الوسيطة التى كانت الفصحى نموذجها المثالى. ولما كانت اللهجات العربية الجديدة غريبة على عربية القرآن الكريم فقد كان المسلمون حديثا فى حاجة دائمة لتفسير هذا النص المقدس لغويا، كما كانوا بحاجة لشرح معانيه ومحتواه الإيمانى. ولذلك فانا أتصور أن الازدواجية اللغوية لم تكن مسألة لغوية أو إشكالية حاضرة فى عقلية جميع العرب، أو من يستخدمون العربية فى الإمبراطورية العربية الوليدة، بل كانت موجودة بشكل واضح - فيما أتصور - فى عقلية من كانت لهم علاقة بالعمل الكتابى، أو فى النشاطات العلمية العربية أو الأدبية فى الأمصار بشكل خاص.

قلة اهتمام العرب بشكل رسمى على الأقل بتدريس لغتهم الأم لغير العرب والمستوى العالى للأمية بين العرب وغير العرب معًا، وقلة الوظائف اللغوية لعربية القرآن الكريم والشعر الجاهلى أدت إلى عزلها عن التركيبة اللغوية لكل فرد من أفراد الإمبراطورية العربية، حيث كانت العربية تلعب دورًا فى المجمع اللغوى، إذ كانت هناك مناطق ريفية وصحراوية بدوية فى الأمصار المفتوحة لم تدخلها العربية إلا فى مراحل تاريخية متأخرة جدا. وفى تلك الأماكن لم تكن العربية مؤثرة فى الوضع اللغوى الأحادى عمومًا، وحتى من كان لهم نشاط كتابى بشكل من الأشكال وكانوا عارفين بنمط العربية الفصحى لم يستطيعوا التخلص من آثار لهجاتهم العامية فى كتاباتهم التى حاولوا فيها توخى النموذج المثالى.

سأناقش فى هذا الفصل الوضع اللغوى فى الأمصار الإسلامية المفتوحة بعد الفتح، ولن أركز هنا على اللغات المحلية المحكية فى تلك المناطق قبل الفتح، بل سألمس هذا الموضوع فى الفصل التالى، ولكننى سأركز على تطورات العربية الرأسية على مستوى الأنماط، والأفقية على مستوى اللهجات. فى القسم التالى أقدم بعض التفاصيل المهمة عن العربية الوسيطة وأهمية فهمها فى استيعاب مدى اللهجات العربية

الحضرية الجديدة وشكلها وعلى فهم الوضع اللغوى الاجتماعى فى الأمصار بعد الفتح. سأقدم فى القسم الثالث من الفصل السمات اللغوية للهجات العربية الحضرية الجديدة، والنظريات التى ظهرت لتفسر ظهورها، كما سأتكلم عن دور تلك اللهجات فى تعريب الأمصار بشكل عام. سأحدد عرضى ومناقشتى لسمات العربية الوسيطة ونصوصها، ولسمات اللهجات العربية الحضرية الجديدة بالعناصر العربية الصرفية والتركيبية النحوية لأن تلك السمات هى الأوضح فى مستويات التحليل اللغوى من ناحية، ومن ناحية أخرى يسهل علينا أن نقارن السمات الصرفية والتركيبية للهجات العربية بسمات أنماط حديث الأجانب العربية العالمية فى الفصول التالية.

٢ - العربية الوسيطة :

أصبحت اللغة العربية وسيطًا كتابيا يستخدم فى التدوين بعد الفتوحات العربية وبناء الإمبراطورية فى شكلها الإدارى المبكر. أقدم الوثائق المكتوبة بالعربية كانت برديتين ترجعان إلى العام ٢٢ هجريا (انظر هوبكنز ١٩٨٤ المقدمة). لغة تلك النصوص هى العربية الوسيطة[٣] . إن نصوص العربية الوسيطة مجموعة من النصوص غير الأدبية مكتوبة بطريقة تحيد عن قواعد عربية القرآن كما وضعها النحاة وعرفت بالفصحى على الرغم من أن كتابها كانوا يتطلعون لنموذج الفصحى فى الكتابة (انظر فرستيغ ١٩٩٧/ ص١١٤). ولكننا فى الوقت نفسه لا نستطيع أن نزعم أن نصوص العربية الوسيطة مكتوبة باللهجات العامية؛ لأن التطلع لنموذج الفصحى فيها واضح. بعض تلك النصوص تبين أن كتابها كانوا على إلمام واسع بقواعد العربية الفصحى بشكل كبير، بينما تبين نصوص أخرى أن الكتاب افتقروا لمعرفة وظيفية بهذا النمط.

يمكن أن نقسم نصوص العربية الوسيطة لثلاثة تقسيمات أساسية كالتالى : نصوص عربية سليمة فيها بعض الخلط البسيط بالعاميات، يشمل هذا التقسيم الكثير

---

(٣) عدد الوثائق العربية المكتوبة بعربية وسيطة - وأخص بالذكر هنا المبكرة منها - كبير جدا، ولكن لا يمكن حصرها بشكل كامل، ولكن هوبكنز (١٩٨٤) يشير إلى أنها نحو ستة عشر ألف نص تقريبًا .

من الكتابات العلمية فى القرون الثلاثة الأولى من الحضارة العربية. التقسيم الثانى النصوص نصف الفصيحة. والتقسيم الثالث النصوص العامية التى تختلط بشىء من الفصحى (انظر بلاو ١٩٨١ ص٢٥). لذلك يجب أن نفهم ظاهرة العربية الوسيطة على أنها نوع من النصوص على منزلة غير ثابتة بين منزلتين، فمن ناحية هناك طرف الصحة اللغوية الفصيحة المثالية الذى تمثله العربية الفصحى كما وضعها النحاة فى القرنين الأول والثانى، والطرف الآخر اللهجات العربية الدارجة أو تأثيراتها النصية. فهى بذلك ليست نمطا تاريخيا زمنيا من أنماط العربية، فلا تستطيع مثلا أن تقول : إن العربية الوسيطة تطور لغوى تاريخى بين مرحلتى العربية الفصحى الكلاسيكية والفصحى المعاصرة التى نستخدمها فى هذا الكتاب مثلا. فنستطيع مثلا أن نتكلم عن نصوص عربية وسيطة معاصرة لنا الآن عندما يخفق كاتب من الكتاب فى المحافظة على قواعد العربية الفصحى المعاصرة كلها أو بعضها أو حتى قليل منها. بالإضافة إلى ذلك، فنصوص العربية الوسيطة ظاهرة لغوية وسيطة بين نموذج العربية الفصيحة واللهجات العامية، ولا يجب التعامل معها على أنها نمط مستقل من أنماط العربية؛ لأن الكتاب استمدوا قواعد تلك النصوص بشكل كبير من عربية القرآن الكريم والشعر الجاهلى، وكذلك السمات النحوية والصرفية فى تلك النصوص غير ثابتة دائماً. وهى نصوص متغيرة السمات لأنها تعتمد على المعرفة اللغوية للكتاب والقراء كما سنرى فيما يلى.

(أ) الحياد عن النموذج الفصيح :

أهم سمة تميز نصوص العربية الوسيطة عن باقى أنماط العربية هى حيادها المنظم عن قواعد عربية القرآن والشعر الجاهلى صرفيا، وتركيبيا، وصوتيا. هناك أيضا تراوح فى استخدام العناصر الصرفية والتركيبية، فتجد مثلا استخدام سمة نحوية أو صرفية معينة بطرق مختلفة، وبنسب صحة لغوية مختلفة من نص إلى نص ومن كاتب إلى كاتب ومن موقع إلى موقع آخر فى النص نفسه أحيانا؛ فقد يستخدم كاتب ما عنصراً سليماً فى سطر من نص، وبعد ذلك بسطور قليلة يستخدم العنصر نفسه بطريقة خاطئة.

وفى أحيان أخرى نعرف أن الكاتب ماهر فى قواعد العربية الفصحى، كما كان الحال مع موسى بن ميمون الفيلسوف والطبيب اليهودى المعروف. نعرف مدى تمكنه من العربية الفصحى من خلال نصوص كتبها بعربية فصيحة سليمة لا تكاد تشوبها عجمة، ولكننا نجد الكاتب نفسه يستخدم عربية وسيطة بأسلوب غير صحيح صرفيا أو نحويا فى نصوص أخرى.

الصحة الزائدة قسم من أقسام الحياد عن الصحة اللغوية فى نصوص العربية الوسيطة (بلاو ١٩٨١ ص٢٧ وفرستيغ ١٩٩٧ا ص١١٥). يحدث هذا النوع من الخطأ عندما يحاول كاتب نص ما فى معرض توخيه القواعد السليمة أن يتجنب ما يتصوره هو سمات اللهجة العربية التى يتكلمها. ولأن الكاتب لا يستطيع أن يستخدم العربية الفصحى بشكل سليم؛ فإن العنصر الذى ينتجه فى بعض الأحيان ليس العنصر الفصيح الذى يرمى إليه، ولا حتى العنصر اللهجاتى الذى يحاول التخلص منه. هذه العناصر الحائدة عن الصحة اللغوية تسمى فى مجموعها أخطاء الصحة الزائدة، وهى فى حد ذاتها تنقسم لنوعين : أخطاء الحذر الزائد وأخطاء النقص.

فى بعض الأحيان يخاف الكاتب من تداخل العامية فى لغة كتابته؛ ولذلك ينزع إلى استخدام عنصر من عناصر العربية الفصيحة لا يشبه العنصر نفسه فى لهجته العامية. وعلى الرغم من أن العنصر الذى يستخدمه عنصر فصيح سليم فإنه ليس مناسبًا فى هذا السياق الصرفى أو التركيبى الخاص. من بين أكثر الأمثلة وضوحًا استخدام الفعل المضارع المرفوع بثبوت النون بدلا من فعل مضارع مجزوم تحذف منه النون؛ لأن المضارع المجزوم بهذه الطريقة يشبه الفعل المضارع بشكله الوحيد فى اللهجة العامية التى يستخدمها الكاتب. فتجد مثلا أن الكاتب يستخدم "لم يكونون" بدلا من "لم يكونوا"؛ لأن الأخيرة تمثّل الشكل الموجود فى لهجته. هذا النوع من أخطاء الصحة الزائدة يسمى أخطاء الحذر الزائد. أما فى النوع الآخر من الأخطاء فإن العناصر الصرفية أو التركيبية الفصيحة تكون غير كاملة؛ فإذا كان الفعل المضارع الذى يقصد به فاعلان اثنان يأخذ شكل الجمع، فتجد الكاتب فى نص العربية الوسيطة يستخدم المثنى فى الفعل المضارع للمخاطب أو الغائب بشكل سليم؛ لأن الفاعل فى المثنى أيضا، ولكنه يستخدم شكلاً خاطئًا للمثنى.

كما كان الحال بالنسبة لأخطاء النقص، فإن أخطاء الحذر الزائد تتوفر فى العناصر الصرفية والتركيبية التى يكون لها أكثر من نهاية تختلف باختلاف الموقع الإعرابى والوظيفة النحوية؛ ذلك لأن اللهجات العامية لا تمتلك نظام تصريف إعرابى، ولا علامات إعرابية، ولا تغير نهايات بحسب مواقع فى الجملة. هذا يعنى أن أخطاء الصحة الزائدة تحدث فى المناطق الصرفية والتركيبية التى تختلف اللهجات فيها عن الفصحى. وتعكس كل من أخطاء النقص وأخطاء الحذر حقيقة مهمة لنا هنا، وهى أن الكاتب يعرف أن هناك فرقًا تركيبيا بين لهجته المحلية العامية والعربية الفصحى فى سمات معينة، ولكنه فى الوقت نفسه لا يعرف الشكل الذى يجب أن يستخدمه أو أنه لا يعرف أين يستخدم شكلا ما دون غيره. ولكن فى حالة أخطاء النقص يعرف الكاتب أن هناك فرقا، لكنه لا يعرف كيف يتعامل معه.

بجانب تميز نصوص العربية الوسيطة بأخطاء الصحة الزائدة، هناك سمة أخرى وهى وجود بعض السمات التى لا يمكن تفسيرها. واحد من أكثر الأمثلة وضوحا يرد لنا من نص من نصوص القرن الثالث الهجرى، وهو تعميم اسم الإشارة للمفرد المذكر "هذا" على جمع المؤنث وغير العاقل أيضًا. علاوة على ذلك تجد فى نصوص من المرحلة نفسها استخدام اسم الإشارة للمفرد المؤنث "هذه" مع الأسماء المذكرة فى المفرد والجمع منتشراً انتشاراً كبيراً (انظر هوبكنز ١٩٨٤ ص٦٥). بالإضافة إلى الأخطاء الصريحة هناك نزعة عامة فى نصوص العربية الوسيطة لاستخدام العناصر العامية نقلا؛ فقد كانت بعض نصوص العربية الوسيطة فى القرن الثانى تكتب ضمير المفرد الغائب المذكر "هوا" كما كانت تكتب ضمير المتكلم المفرد المؤنث "إنتى". علاوة على ذلك انتشر فى نصوص القرن الثالث الهجرى كتابة الفعل الماضى فى المفرد المؤنث من ضمير المتكلم بياء طويلة، فتجد مثلا "كنتى" (هوبكنز ١٩٨٤ ص٧٠).

إذا كنت محقًا فى فرضيتى أن الإلمام بالعربية الفصحى وبالقراءة والكتابة كان قاصراً على فئة محدودة جدا من العرب؛ فإنه يصبح من الطبيعى لمن يكتب ويحاول استخدام العربية الفصحى فى مجالات حياتية يومية عادية غير أدبية أو علمية أن يتعثر فى استخدام تراكيب الفصحى وتنوعها الصرفى. ولا يمكننا أن نحلل ظهور تلك المشاكل

اللغوية التى ترقى فى بعض النصوص لأن تكون ظواهر مضطردة ثابتة بأنها مجرد أخطاء من قبل الكتاب الذين كانوا عادة من غير العرب، كما لم يكونوا دائماً هم المؤلفين، وليس من الممكن فى كل مرة أن نعزو الأخطاء أو الحياد عن جادة الفصحى لافتقار الكاتب أو المؤلف لمعرفة وظيفية مناسبة بالفصحى. نعم، كثير من الكتبة وخاصة فى القرن الأول الهجرى لم يكونوا من العرب، ولذلك يصعب أن نتصور أنهم يتدخلون فى مادة الوثيقة المكتوبة، ولذلك لا يمكن أن نفكر فى اشتراكهم فى تشكيل البنية التركيبية للنص إلا ربما فيما يتعلق بالمسائل الكتابية أو اللهجاتية. ويحصرنا تصورنا المنطقى هذا فى أن يكون كاتب النص أو ممليه العربى هو الشخص الوحيد المسئول عن مادة النص وتركيبته الصرفية والنحوية، ولذلك فمن الممكن أن نتصور أن معرفته بقواعد الفصحى كانت قليلة، ينطبق هذا الطرح خاصة على النصوص الطويلة وغير القانونية، حيث لا يكون للعبارات المحفوظة وسابقة التجهيز دور كبير فى نقل المحتوى فى شكل لغوى.

ظهور أنماط الأخطاء التى تكلمنا عنها وخاصة أخطاء الصحة الزائدة ليس ثابتًا فى نصوص العربية الوسيطة، فلا يمكننا مثلا أن نعمم تصوراً بأن الكتّاب فى نصوص العربية الوسيطة يستخدمون الفعل المضارع المرفوع بثبوت النون مكان الفعل المضارع المجزوم بحذف النون. على الرغم من أن الاستخدام الثابت كان سمة من سمات بعض النصوص فإنه فى الغالب كان يتراوح مع عنصر آخر.

(ب) العربية الوسيطة علامة دالة على الهوية :

إذا ما جنبنا المحتوى النصى للعربية الفصحى؛ فإن أى نص مكتوب بعربية فصحى سليمة لا يبين أى شىء عن هوية الكاتب العرقية أو ديانته أو مكانته الاجتماعية. بل يبين فقط أن الكاتب ماهر فى استخدام العربية. ولكن نصوص العربية الوسيطة أمرها يختلف عن العربية الفصحى فى تلك النقطة تحديدا. من بعض النصوص نستطيع أن نعرف، أو على الأقل نستطيع أن نخمن ما إذا كان الكاتب عربيا أو غير عربى،

كما أننا نستطيع أن نتبين من بعض السمات اللغوية فى النص الجماعة المستهدفة بهذا النص بعينه، ومدى ما يتمتع به هذا النص من عمومية على جميع جاليات الإمبراطورية العربية الإسلامية أو أنه كان نصا خاصا بجالية بعينها. علاوة على ذلك فإن وضع هوية الكاتب والمستوى اللغوى للنص من حيث قربه أو بعده عن العربية الفصحى السليمة ومقدار عمومية النص معا يعطينا فكرة ولو ضبابية عن المستويات اللغوية والأنماط المختلفة التى كانت الجماعات المختلفة فى الإمبراطورية العربية تتكلمها كلغة حياة يومية، وكذلك تشير تلك المعلومات لمدى علاقة الجماعات اللغوية المختلفة بالفصحى، وبالتالى بالتواصل الكتابى والمعرفة بشكل عام فى تلك المرحلة المبكرة.

طورت العربية النثر فى فترة الفتوحات المبكرة، وقبل ظهور قواعد العربية الفصحى التى بينها النحويون فى نهاية القرن الثانى الهجرى تقريبا اضطر الكتاب العرب للجوء إلى كل ما تصوروا أنه عربى أصيل ليكون مصدر استقائهم للقواعد كالقرآن الكريم واللهجات العربية البدوية؛ وذلك ليتمكنوا من الوصول لأقصى مستوى ممكن من الصحة اللغوية الكتابية فى ظل غياب نظام القواعد. ولما كان القرآن الكريم قد نزل بنمط لغوى يختلف عن الأنماط التى تكلمها العرب جميعًا؛ فقد كانت كل محاولات تقليده تنتج الأخطاء غير المبررة وأخطاء الصحة الزائدة التى أوجزنا الحديث عنها سلفا. وعلى ذلك يمكننا أن نتصور أن النص عندما يكون قريبًا من الفصحى، وتكون الأخطاء فيه أقل والسمات الصرفية والنحوية متسقة مع سمات الفصحى كلما كان الكاتب والجماعة اللغوية المستهدفة من النص قريبة من الفصحى، وأكثر معرفة بها. وعندما يحتوى النص على أخطاء أكثر ويبتعد صرفيا، وتركيبيا، ومعجميا عن الفصحى يكون الكاتب والقارئ أقل معرفة بالعربية الفصحى، أو أقل قدرة على استخدامها من غيرهم من الجماعات اللغوية.

لما كان القرآن النموذج الوحيد الذى نعرفه فى المرحلة المبكرة من تاريخ العربية فى الأمصار الإسلامية؛ فإن الذين يعرفونه أكثر الأشخاص المعرضين لإنتاج نصوص فيها أخطاء صحة زائدة وأخطاء عادية أكثر من غيرهم؛ لأن تدريبهم على استخدام قواعد هذا النمط من العربية كان غير كاف فى أحسن الأحوال. وعلى ذلك فمن المفروض من الناحية النظرية أن يكون المسلمون وبالتالى العرب قد

كتبوا نصوصًا تحمل أخطاء صحة زائدة أكثر من النصوص التى قد يكون اليهود أو المسيحيون قد كتبوها فى القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية العربية، ذلك لأن المسيحيين واليهود لم يتعرضوا للقرآن ولا للغته بالدراسة أو حتى بشكل يومى مستمر كما كان العرب المسلمون يتعرضون له باعتباره نصا أساسيا فى حياتهم.

تعكس أخطاء الصحة الزائدة حقيقتين فى الوقت نفسه: الحقيقة الأولى أن النموذج اللغوى القرآنى أصبح طاغيا لدرجة أنه فرض نفسه نموذجا يقلد ولو لم يكن معروفًا بشكل كافٍ من الناحية الوظيفية، ولذلك كان العرب المسلمون أكثر استعداداً لارتكاب أخطاء لغوية فى محاولة تقليد النموذج من الطوائف التى لم تتعرض لسطوة تأثير النموذج اللغوى نفسه. فى بعض الأحيان كان مجرد التعرض لنموذج القرآن دون الإلمام به تجعل الكاتب يحاول استخدام بعض السمات الصرفية والتركيبية التى يعتقد أنها ليست من لهجته العامية، ولذلك نجد أن كثيرا من نصوص العربية الوسيطة تستخدم نهاية الفعل المضارع المرفوع بدلا من نهاية الفعل المضارع المجزوم فى ضمير المخاطب والغائب الجمع المذكر؛ لأن المضارع المجزوم يشبه النمط المتاح فى اللهجات العربية العامية، وبالتالى تدل المعرفة غير الكاملة بالتصريف الإعرابى للفعل العربى على أن ثبوت النون فى آخر الفعل المضارع هى الفصحى واستخدامها واجب. أما الحقيقة الثانية التى تبينها أخطاء الصحة الزائدة فهى أن قواعد العربية الفصحى لم تكن جزءًا من السليقة اللغوية للعرب فى أيام الفتوحات الأولى ولا بعد ذلك بقرون ثلاثة، وخاصة خارج الجزيرة العربية فى الأمصار. ولذلك فإن القواعد الفصيحة التى من الممكن أن يكون العوام قد استخدموها فى كتاباتهم إنما نتجت عن استنباطهم الشخصى من القرآن الكريم وتعرضهم له على مستوى يومى بشكل مستمر.

من ناحية أخرى أنتج المسيحيون واليهود فى معرض استخدامهم للعربية نصوصاً تحتوى على أخطاء أخرى غير أخطاء الصحة الزائدة. على الرغم من أن باحثين كثيرين (بلاو ١٩٨١ ص٢٤) يعتقدون أن نصوص العربية الوسيطة كانت تحاول الكتابة بالعربية الفصحى فإن تلك النصوص لا تبين أخطاء الصحة نفسها الزائدة النابعة من الحرص على النموذج على الرغم من عدم المعرفة الكاملة به، بل تبين استخداماً أكثر للعامية بشكل

حر من ناحية المفردات والتراكيب. أتفق مع فرستيغ (١٩٩٧ا ص١٢١) أن السبب فى ذلك أن المسيحيين واليهود لم يستخدموا القرآن نموذجا حضاريا، وبالتالى لغويا كما كان العرب يستخدمونه لأنه اللسان العربى المبين كما وصف هو نفسه، وبالتالى لم يحاولوا استخدام قواعده اللغوية رغبةً فى الفصاحة، وبالتالى يصبح غير العرب أكثر استعدادا لاستخدام اللهجات العامية فى الكتابة وخاصة المعجم والتركيبات النحوية، وقادرين على استخدام كلمات مستعارة من لغات أجنبية مثل اليونانية، والسريانية، والعبرية القديمة أكثر من العرب المسلمين. ولما كانت العربية الفصحى لغة القرآن غير مستخدمة لغة حديث يومية؛ فقد كان جميع الكتاب العرب وغير العرب يرتكبون أخطاء لغوية، ولكن درجة الحياد عن الصحة اللغوية كانت تعتمد على درجة التعرض للنموذج. وإذا افترضنا أن أغلبية المسيحيين واليهود فى الإمبراطورية العربية كانوا من أصول غير عربية، وإذا افترضنا كذلك أنهم غير متمرسين فى قواعد الحضارة العربية والشعر العربى؛ فإن معرفتهم باللغة العربية الفصحى تكون محدودة على أحسن تقدير، ولذلك فاستخدام العامية فى الكتابة يجب أن يكون السمة الغالبة على أخطاء نصوص العربية الوسيطة التى ينتجها المسيحيون واليهود أكثر من أخطاء الصحة الزائدة التى تنبع من معرفة ولو محدودة بقواعد الفصحى وينتجها العرب.

من الواضح أن كتاب بعض نصوص العربية الوسيطة الذين لا شك فى امتلاكهم ناصية العربية الفصحى امتلاكا كبيرا كانوا على يقين من أن جمهور قرائهم لا يدرك قواعد العربية بالشكل الكافى، يتضح ذلك من وجود فوارق كبيرة فى الصحة اللغوية والأسلوب فى نصين كتبهما الكاتب نفسه، فالنصوص التى قد يكتبها كاتب لقراء من الجالية اليهودية فقط أقل من ناحية استخدام قواعد الفصحى من النصوص التى قد يكتبها الكاتب نفسه، لمجموع قراء العربية من يهود وغير يهود. فعلى الرغم من أن داود بن أبراهام الذى نسب إليه كتاب "بيريق" يعرف قواعد العربية الفصحى أحسن معرفة فإن نص الكتاب يموج بالعناصر العامية والأخطاء اللغوية والكلمات المستعارة (انظر بلاو ١٩٨١ ص٢٧). فالكتابات التى ليس لها أن تخرج عن حدود الطائفة، والكتابات غير الرسمية، والرسائل الخاصة، والملحوظات، والكتابات الدينية المسيحية واليهودية كتبت بنصوص عربية وسيطة صريحة.

أما الكتابات العامة ككتب الفلسفـة، والطب، والكتـابات الرسمية فقد كتبها أصحابها من غير العرب بعـربية فصيحـة سليـمـة وصحيحـة. أفضـل مثـل عـلى ذلك كتـابات موسى بن ميمون الفلسفية التى كانت عربية فصيحة وسليمة من حيث القواعد (بلاو ١٩٨١ ص٢٥).

أما فيما يتعلق بالمسيحيين العرب فى فلسطين، وسوريا، والعراق فإن معرفتهم بالنموذج العربى الفصيح كانت مشابهة لمعرفة غير العرب بها على حد تقديرى. فإذا كان الشعر الجاهلى غير متاح للجميع، فإنهم كانوا يعيشون دون التعرض للنمط الفصيح فى القرآن الكريم أو الشعر الجاهلى، ولذلك يتشابهون كثيرا مع غير العرب.

نستطيع أيضا أن نجزم أن الطبقات الاجتماعية الاقتصادية الأدنى أنتجت نصوص العربية الوسيطة التى تحتوى على استخدامات عامية وأخطاء أكثر من الطبقات الأعلى. على الرغم من أن موسى بن ميمون قد رد على الرسائل التى كتبها له العوام بخطابات تموج بالعامية والحياد عن الصحة اللغوية، وهو عكس كتاباته الفلسفية العربية الفصيحة، فإن رسائل موسى بن ميمون تلك تحتوى على أخطاء وعناصر عامية أقل من الرسائل التى يوجهها العوام من الطبقات الدنيا إليه، بل إن موسى بن ميمون الذى كان عضواً بارزا فى الجالية اليهودية فى الإمبراطورية العربية كتب نصوصا تحمل عددا قليلا من سمات نصوص العربية الوسيطة، ليس فقط فى الكتابات الطبية والفلسفية الموجهة لجمهور عام، بل أيضا فى الكتابات الخاصة بالطائفة اليهودية وفكرها كما كان الحال فى الكتاب الذى كتبه عن هداية الروح الحائرة والكتاب الذى كتبه تعليقًا على الميشنة. مع أن هذه الكتابات الخاصة كانت موجهة للطائفة اليهودية بعينها إلا أنها كانت متجهة لصفوة اليهود بشكل خاص دون عامتهم الذين كانوا يستطيعون القراءة بالعربية الفصيحة، ومن المحتمل أن تكون أمثال تلك الكتابات أيضا مكتوبة بالحرف العربى فى الأصل ولم تكن مكتوبة بحرف عبرى كما هو الحال فى معظم الكتابات العربية اليهودية. ولم تقتصر الظاهرة على النصوص الرفيعة والعلمية فقط، بل امتدت إلى الكتابات الشخصية لصفوة الجاليات غير العربية، إذ كانت تحتوى على سمات عربية وسيطة أقل من السمات التى تحتوى عليها الكتابات الخاصة للطبقات الأدنى.

لا تبين نصوص العربية الوسيطة فقط غياب معرفة وظيفية بقواعد العربية الفصحى، ولكنها تبين أيضا أن الحروف العربية نفسها لم تكن معروفة أو على الأقل لم تكن مستخدمة فى طبقات اجتماعية واقتصادية معينة ولا عند طوائف غير العرب. يتضح هذا الطرح من كثرة النصوص العربية المكتوبة بحروف عبرية أو آرامية. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك كتب عربية كتبت أصلا بالخط العربى ولكنها نقلت للخط العبرى والآرامى، ومنها كتب الفلسفة والطب والهندسة. وحتى الكتب الدينية التى كتبت بالعربية نقلت للحروف العبرية والآرامية ومن بينها القرآن الكريم (انظر شتينشنيدر ١٩٠٠ ص٦٠٤ و١٨٩٤ ص٣٣٦ الموجود فى كتاب بلاو ١٩٨٨ ص٨٥-٩٦). وكذلك نقلت كتب مثل قصص كليلة ودمنة للحرف العبرى (انظر جوثيك ١٩٣٤ ص١٠٣). وكذلك عرف الخط العبرى بعض قصائد الشعر العربى الجاهلى والإسلامى (انظر بلاو ١٩٨٨ ص٨٥-٩٦).

ولكننا يجب أن نقول: إن النصوص العربية المكتوبة بالخط العبرى، أو اليونانى، أو السريانى لم تحتو على كمية كبيرة من نصوص الأدب العربى الرفيع، مما يوحى بأن المواطن اليهودى أو المسيحى فى تلك المرحلة المبكرة من الحضارة العربية كان غير قادر على استخدام اللغة العربية الفصحى التى تكتب بها تلك النصوص عادة، أو على الأقل لم يكونوا راغبين فى ذلك، بينما كانت لغة الكتب الفنية الهندسية أكثر وضوحا وتقبلا لتلك الجاليات. يبين نقل الكتب الهندسية والروحانيات وكتب القصص من الخط العربى إلى الخط العبرى أو الآرامى أو السريانى أو غيره أن الطبقات الدنيا من المجتمع العربى الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى وخاصة الطوائف غير العربية قد استخدمت اللغة العربية فى تناقل المعارف والمعلومات، ولكن الفصحى لم تكن ذلك النمط المستخدم لهذه الوظيفة، خاصة وأن الكتب التى ذكرناها كانت تميل بطبيعتها لمنحى وظيفى يستخدم العامية أو يتسامح فى استخدامها، وليس نمطًا فنيا يستخدم اللغة العربية الفصيحة بجمالياتها. فهل من الممكن أن يعرف الإنسان نمطا لغويا دون أن يعرف طريقة كتابته؟

سأنهى هذا القسم بتلخيص فكرته الأساسية، وهى أن الفتوحات العربية وسعت المجالات التى كانت العربية الفصحى تستخدم فيها؛ فكان القرآن الكريم النموذج

اللغوى المحتذى فى استخدام العربية الفصحى فى مجالات يومية وغير أدبية، ولكن بما أن معظم العرب وغير العرب لم يتقنوا قواعد هذا النمط اللغوى بشكل سليم؛ فقد حادوا عن الاستخدام الصحيح لقواعد هذا النمط وأنتجوا نصوصًا فيها أخطاء صحة زائدة وأخطاء عادية وميول لاستخدام العامية. والجماعات التى كانت أكثر تعرضًا للقرآن الكريم باعتباره نموذجا لغويا هى التى أنتجت نصوصا فيها أخطاء صحة زائدة أكثر من الميل للعامية؛ لأن تلك الجماعات كانت قادرة على إدراك الفروق بين اللهجات التى تتكلمها والنمط الفصيح وإن كان هذا الإدراك غير مكتمل. بالإضافة إلى ذلك فقد زودتهم سليقتهم اللغوية العربية بحساسية أكبر من غيرهم تجاه تلك الفروق، ولكن غير العرب بدورهم أنتجوا نصوصًا فيها ميل أكبر للعامية وأخطاء صريحة أكثر مما فيها من أخطاء صحة زائدة؛ لأن تلك الطوائف كانت أقل تعرضًا لنمط العربية الفصحى الذى يتعرض له العرب المسلمون بشكل يومى فى القرآن الكريم. ويبدو أيضا أن الطبقات الحضرية العالية فى المجتمع العربى الإسلامى كانت أكثر دراية بقواعد العربية الفصحى من الطبقات الأدنى فى المناطق الحضرية من الإمبراطورية العربية والتى كانت لا تستطيع حتى أن تستخدم الحروف العربية فى الكتابة.

٣ - السمات اللغوية لنصوص العربية الوسيطة :

تعكس نصوص العربية الوسيطة كلا من سمات اللهجات العربية الجديدة وسمات العربية الفصحى فى الوقت نفسه، بالإضافة إلى ذلك فمن خلال ما يبدو أنه محاولة واعية من الكتاب لترقية أسلوب كتابتهم ظهرت أخطاء الصحة الزائدة باعتبارها سمة مميزة وفريدة لهذا النوع من النصوص العربية التى تحمل أهمية تاريخية لغوية خاصة. تكون النصوص فى بعض الأحيان عامية بشكل كبير فى أسلوبها ويضاف إليها بعض السمات السطحية الفصيحة، وفى بعض الأحيان تكون نصوص العربية الوسيطة فصيحة تمام الفصاحة بإضافة بعض السمات العامية، أو الكلمات المستعارة، أو حتى الخط غير العربى فقط. السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: هل نصوص العربية الوسيطة تلك نوع من أنواع العربية الفصيحة التى يشوبها بعض الخطأ، أم أنها نصوص عامية أصلا

تحمل فى طياتها سمات فصيحة تزيد وتقل بحسب عوامل لغوية معرفية أو اجتماعية أو غيرها؟ سأحاول فى هذا القسم أن أبين بعض السمات اللغوية فى نصوص العربية الوسيطة لأقترح إجابة لهذا السؤال.

١ - هناك نزعة للتقرب من أنماط السلوك اللغوى للعربية الفصحى، تتجلى تلك النزعة فى الممارسات اللغوية التالية :

* تنزع نصوص العربية الوسيطة لاستخدام المبنى للمجهول كما تستخدمه العربية الفصحى، وليس كما تستخدمه اللهجات (هوبكنز ١٩٨٤ ص٧١) أكثر من استخدام صيغ انفعل وتفعل.

* على الرغم من النزوع للتخلى عن علامات الإعراب فإن التنوين حاضر بقوة فى نصوص العربية الوسيطة خاصة فى المفرد المذكر المنصوب. وتنوين الفتح حاضر بقوة فى تلك النصوص فى المفعول به، والمفعول المطلق، والظرف، وخبر كان، واسم إن (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٦٢).

* تنزع نصوص العربية الوسيطة أيضًا إلى مراعاة قواعد التطابق فى العربية الفصحى.

ولكن نقاط التوافق مع نصوص العربية الفصحى ليست ثابتة عموما وليست أيضا متكررة فى كل النصوص؛ فتجد مثلا أن تنوين الفتح فى بعض تلك النصوص يظهر فى أماكن يستحيل أن يظهر فيها حسب قواعد العربية الفصحى (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٧٤-١٧٦). وفيما يخص المطابقة، فإن نصوص العربية الوسيطة تنزع فى بعض الأحيان إلى أن تجعلها قاعدة غير ثابتة، خاصة إن كان الاسم الذى تتحدث عنه الجملة ذكر فى جمل سابقة ويتكرر فى شكل ضمير (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٤٦).

٢ - تحمل نصوص العربية الوسيطة تشابهات مع اللهجات المحكية أكثر من تشابهاتها مع العربية الفصحى، وفيما يلى أقدم بعض الأمثلة :

* أصبحت الأعداد بعد عشرة فى نصوص العربية الوسيطة أسماء مركبة لا تتعامل مع الأسماء التى بعدها من حيث الجنس والعلامة الإعرابية مثل العامية (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٨٨ و ١٩١).

* فقدت الأفعال المصرفة أصوات اللين الأخيرة على الفعل ونهايات الفعل الماضي والمضارع كما هو الحال فى اللهجات العامية (هوبكنز ١٩٨٤ ص٦٨ و ٦٩). وفقد الفعل المضارع كذلك صيغة المضارع المرفوع وعممت صيغة المضارع المنصوب (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٣٤).

* فى الفعل الماضى المصرف مع المخاطب المفرد المؤنث فقد الفعل صوت الكسرة القصير وعممت مكانه صوت الياء الطويل فى الفعل الماضى.

* فى نصوص العربية الوسيطة تحتفظ الأفعال التى تبدأ فى الفعل الماضى بواو مثل "وقف" بالواو فى المضارع لتكون "يوصل"، بينما يجب أن يحذف صوت الواو فى هذا النوع من الأفعال فى الفصحى. ليست هذه الظاهرة كثيرة فى النصوص ولكنها موجودة نوعا ما (هوبكنز ١٩٨٤ ص٨١).

* فى الفعل المجزوم وفعل الأمر فى نصوص العربية الوسيطة لا تحذف أصوات اللين الطويلة من وسط الأفعال ونهايتها (انظر هوبكنز ١٩٨٤ ص٨٣).

* فى الفعل المعتل الآخر لا يحذف صوت العلة فى حالة الجزم فى نصوص العربية الوسيطة (هوبكنز ١٩٨٤ ص٨٥).

* هناك نزعة فى نصوص العربية الوسيطة لاستخدام الفعل المضارع للتعبير عن الأمر (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٣٦).

* هناك اختلاف فى الجنس بين العربية الفصحى ونصوص العربية الوسيطة، وخاصة فى الأسماء المؤنثة التى لا تنتهى بتاء مربوطة، تحمل جنسًا مذكرًا عادة فى العربية الوسيطة (هوبكنز ١٩٨٤ ص٨٧).

* فى بعض الأحيان تتعامل نصوص العربية الوسيطة مع بعض الأسماء المذكرة فى الفصحى بتأنيثها (هوبكنز ١٩٨٤ ص٨٨).

* فى بعض الأحيان تضع نصوص العربية الوسيطة على الأسماء المؤنثة دون علامة فى الفصحى تاء مربوطة (هوبكنز ١٩٨٤ ص٩١).

* فى الأسماء والأفعال تعمم نصوص العربية الوسيطة جمع المذكر للمؤنث والمثنى المذكر للمؤنث أيضا (هوبكنز ١٩٨٤ ص٩٢).

* الاسم الموصول لا يختلف باختلاف الجنس والعدد فى نصوص العربية الوسيطة (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٤٠).

* من أوضح أوجه الشبه بين اللهجات العربية ونصوص العربية الوسيطة غياب علامات الإعراب من غالب المواقع الإعرابية إلا فى حالات العبارات المسكوكة المحفوظة (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٥٥).

* يمكن أن يسبق أكثر من مضاف واحد المضاف إليه فى نصوص العربية الوسيطة (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٧٧).

* يشير هوبكنز (١٩٨٤ ص٢٦٢) إلى حالة واحدة فى القرون الثلاثة الأولى من الفتوحات العربية، حيث ورد اسم الاستفهام فى نهاية الجملة بدلا من بدايتها كما هو الحال فى العربية الفصحى، وينطبق هذا الوضع على "ماذا".

٣ - هناك بعض السمات التى تختلف فيها نصوص العربية الوسيطة عن كل من العربية الفصحى واللهجات العربية. انظر الأمثلة التالية :

* قد توضع أداة التعريف على الصفة دون أن تكون موجودة على الاسم الموصوف (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٨٢).

* يمكن الفصل فى نصوص العربية الوسيطة بين المضاف والمضاف إليه بصفة (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٧٧).

* يذكر الضمير قبل الفعل المصرف بدون وجود سبب أسلوبى لهذا (هوبكنز ١٩٨٤ ص٢٠٦).

* ينزع ترتيب الكلمات لأن يكون ثابتا فى تلك النصوص (هوبكنز ١٩٨٤ ص٢٦٠).

٤ - تنزع نصوص العربية الوسيطة إلى تخفيض التصنيفات الصرفية والنحوية والتعميم، كما رأينا فى تعميم جمع المذكر فى الاسم والفعل على جمع المؤنث والمثنى المذكر والمؤنث. انظر الأمثلة التالية :

* غابت الأفعال فى المثنى المخاطب والمثنى الغائب من نصوص العربية الوسيطة وحل محلها جمع الغائبين. وعلى الرغم من أن تلك النصوص تحمل أحيانًا استخدامًا سليمًا للمثنى فى الفعل والاسم، وأحيانا تستخدم صيغًا تعبر عن أخطاء صحة زائدة فإن معظم استخدام الفعل فى المثنى المتكلم والغائب كان يميل للهجات العربية الجديدة.

* فى نصوص العربية الوسيطة لم يكن هناك صيغ جمع مؤنث مستقلة عن صيغ جمع المذكر، وكان معظم استخدام صيغ الجمع يعمم جمع المذكر على جمع المؤنث، ويعمم صيغة جمع المذكر المنصوب دون نون على كل الحالات الإعرابية (هوبكنز ١٩٨٤ ص٩٩).

* عممت أداة النفى "ما" على المضارع والماضى معًا فى نصوص العربية الوسيطة (هوبكنز ١٩٨٤ ص١٥٢).

* وكذلك تم تعميم ضمير الصلة "الذى" على الاسم المفرد والجمع المذكر والمؤنث دون مراعاة للحالة الإعرابية (هوبكنز ١٩٨٤ ص٢٤٠).

* كانت فى نصوص العربية الوسيطة نزعة لدمج التصنيفات الصرفية للأفعال، ففى الأفعال التى يكون عينها همزة اندمجت فى الأفعال التى يكون عينها واوا أو ياء (هوبكنز ١٩٨٤ ص٧٩).

* كذلك اندمجت الأفعال التى يكون لامها همزة فى الأفعال التى يكون لامها واوا أو ياء (هوبكنز ١٩٨٤ ص٨٠). وربما تكون اندماجات الأفعال التى يكون عينها أو لامها همزة مع أنواع أخرى من الأفعال نتيجة صرفية لظاهرة صوتية معروفة فى كل اللهجات العربية الجديدة، وخاصة الحضرية منها ألا وهى اختفاء الهمزة باعتباره فونيما مستقلاً فى تلك اللهجات بالمقارنة مع الفصحى التى احتفظت به ثابتًا.

نقاط الاتفاق بين العربية الفصحى والسمات الصرفية النحوية فى العربية الوسيطة قليلة وغير ثابتة عموما. فيمكن أن يظهر تنوين الفتح على سبيل المثال فى أماكن لا يجوز لها أن تظهر فيها فى قواعد العربية الفصحى السليمة، ولكن السمات المشتركة بين نصوص العربية الوسيطة واللهجات العربية الحديثة كثيرة بالمقارنة بالوضع السابق؛ ففى الأفعال فقد الفعل فى العربية الوسيطة الحالة الإعرابية، كما فقد المثنى فى المخاطب والغائب وفقد المؤنث الجمع فى الغائب والمخاطب أيضا. أما فيما يخص الاسم، فقد كان تغير جنس بعض الكلمات يتجه نوعا ما إلى العاميات. وفى أدوات الاستفهام ربما تكون العربية الوسيطة فى بعض نصوصها على الأقل قد اتجهت نحو اللهجات العربية الجديدة إذ لم تضع أداة الاستفهام فى بداية الجملة، كما هو الحال فى الفصحى، بل احتفظت به فى مكانه فى الجملة كما تفعل اللهجة العربية القاهرية الحديثة.

ولم يقتصر التشابه بين نصوص العربية الوسيطة واللهجات الحضرية على الكلمة المفردة، بل تخطاها لمستوى التراكيب أيضا إذ كان من الممكن فى العربية الوسيطة أن يكون هناك أكثر من مضاف إليه واحد بعد المضاف، وكذلك كان من الممكن أن يسبق المضاف إليه أكثر من مضاف واحد فى تركيب يعتبر ثابتًا ثباتًا شديداً فى العربية الفصحى. وربما يكون ترتيب الكلمات فى نصوص العربية الوسيطة مشابها فى ثباته لترتيب كلمات اللهجات العربية الجديدة. ولكننى أحب هنا أن أحذر القارئ الكريم من أن يعتبر تلك السمات التى قدمتها سلفًا سمات لغوية لنمط عربى يشبه أنماط اللهجات والعربية الفصحى وما إلى ذلك، العربية الوسيطة ليست نمطًا لغويا أو لهجاتيا مستقلا. ولكن السمات التى قدمتها فى هذا القسم ما هى إلا نزعات من الكتاب يفرضها مدى معرفتهم بالعربية الفصحى وقدرتهم على التخلص من سماتهم اللهجاتية.

نعم، من الصحيح أن أخطاء الصحة الزائدة يوحى بأن الكاتب كان يرمى إلى استخدام نموذج لغوى أرفع تقصر معرفته اللغوية عن امتلاك تراكيبه كاملة، ونعم، من الممكن أن يكون الكاتب قد تصور أن هذا النمط الذى يصبو لتقليده نموذج أحسن على المستوى الاجتماعى اللغوى، ولكن كل ذلك لا يعنى أن نقطة بداية كتابة النص كانت العربية الفصحى وكل أنماط الحياد تلك كانت أخطاء على أصل ثابت كما يدعى معظم الباحثين الغربيين (انظر بلاو ١٩٨٨ ص٦٤). فأنا أتصور أن كل ما يمكن أن نستدل

عليه من أخطاء الصحة اللغوية الزائدة هو أن هناك فرقًا كبيرًا بين نمط الحديث اليومى للعرب وغير العرب فى الأمصار المفتوحة، حيث ظهرت تلك النصوص ونمط آخر غائم ولكنه ضاغط. وكان هذا النمط محترما ورفيعا وإن لم يكن متاحًا بالشكل الكافى للتعلم والامتلاك. إن كان هذا النمط متاحًا لكل من الكتاب والأشخاص الذين يملون عليهم النصوص، فلماذا إذا تحدث أخطاء لغوية غير كتابية؟ أتصور أن التشابهات بين اللهجات العربية الجديدة ونصوص العربية الوسيطة تبين أن من يملى نصا كان ينطلق مما يعرف ويملك لغة أم ويحاول مع ذلك تجميل النص بسمات يتصور فصاحتها. إن كانت الخلاصات التى توصلت إليها فى الفصل السابق من أن لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلى فى مرحلة ما قبل الفتوحات لم تكن لغة حديث يومى متاحة لأبناء العربية، بل كانت لغة فنية فقط؛ فمن الصعب أن نتخيل أن العربية الفصحى قد أصبحت لغة كتابة عادية. يبدو هذا الطرح صحيحًا بشكل خاص فى القرن الأول بعد الفتوحات، حيث كانت محاولات استنباط قواعد العربية الفصحى من القرآن الكريم والشعر الجاهلى لم تؤت ثمارها بعد.

لذلك كان من الطبيعى أن تنتج الجاليات غير العربية فى الإمبراطورية الوليدة نصوصا مكتوبة بحرف غير عربى، وتحتوى على أخطاء صحة زائدة أقل من النصوص التى يكتبها العرب فى الفترة نفسها، وتحتوى كذلك على سمات عامية أكثر ومفردات مقتبسة من لغات أجنبية أكثر من نصوص العرب. وكذلك من المنطقى أن تنتج الطبقات الدنيا من العرب أنفسهم نصوصًا انطلاقًا من لهجاتهم المحلية. وكانت أخطاء الصحة الزائدة نتيجة تعرض لتراكيب لغوية وبنيات دون تعلمها.

٣ - العربية الجديدة :

اللهجات العربية الجديدة هى الأنماط التى تظهر بعض سماتها أحيانا فى نصوص العربية الوسيطة والتى كان العرب وغير العرب يتكلمونها فى التجمعات الحضرية فى الأمصار بعد الفتوحات. العناصر غير الفصيحة فى نصوص العربية الوسيطة سمات تركيبية عامية تشبه بعض الأحيان سمات اللهجات العربية الحضرية الحديثة، ولذلك أعتبر أن تلك اللهجات العربية الحديثة المصدر الأساسى

لإعادة تركيب اللهجات العربية الجديدة التى ظهرت فى الأمصار بعد الفتوحات (فرستيغ ١٩٩٧أ ص٩٨). من المفروض أن تكون اللهجات العربية الجديدة قد تكون انتشرت فى كل من المدن التى كانت قائمة فى تلك الأمصار قبل الفتح كالإسكندرية، ودمشق، وحلب، والمدن الجديدة التى بناها العرب كالفسطاط، والبصرة، والكوفة، والقيروان. وقد كان ظهور هذه اللهجات الحضرية فى الأمصار العربية نتيجة الاتصال اللغوى بين العرب وغير العرب فى مناطق التماس فى تلك المناطق وعمليات التطويع التى أجراها كل من الفريقين على النمط اللغوى المتداول وهو العربية فى أثناء تعلم العربية لاستخدامها مع العرب بشكل وظيفى أو استعمالها لغة أم من قبل العرب.

السبب الذى دعانى لاستخدام اللهجات العربية الحضرية الحديثة فى إعادة تركيب اللهجات العربية الجديدة بعد الفتوحات هو التشابه الكبير بين هذه اللهجات، وتلك الأنماط التاريخية والامتداد التاريخى الحتمى. هناك مصدر آخر للعربية الجديدة وهو السمات اللهجاتية التى وردت لنا من القرن الأول من خلال نصوص العربية الوسيطة. لقد رأينا فى القسم السابق أن بعض السمات اللغوية حتى فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى تشبه اللهجات العربية الحديثة شبها كبيراً من الناحية التركيبية على الأقل. يجب أيضا أن نذكر هنا أن السمات اللهجاتية وطريقة أخطاء الصحة الزائدة الموجودة فى أقدم النصوص هى نفسها الموجودة فى أقربها زمنيا لنا (بلاو ١٩٨٨ ص٧٣). يمكن للقارئ الكريم أن يعود للنصوص التى ساقها فيولت (١٩٠٢) لكى يلاحظ تشابه السمات مع العربية الحديثة منذ القرن الأول الهجرى.

يبين هذا التشابه أن اللهجات العربية الجديدة ربما تكون قد تكونت واستقرت فى مرحلة مبكرة جدا من الفتوحات العربية. ولما كان الاتصال السكانى وبالتالى الاتصال اللغوى بين العرب وغير العرب فى الأمصار المفتوحة قليلا نسبيا فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى؛ فإن فرصة تكوين اللهجات العربية الجديدة زمنيا قبل ظهور نصوص تعكس سمات لهجاتية منها قليلة بشكل ملحوظ، وقد يشير هذا بالتالى إلى أن تلك اللهجات لم تكن جديدة كل الجدة فى عصر الفتوحات، بل ربما كانت مستخدمة قبلها فى شبه الجزيرة العربية، أو على الأقل كانت فى طريقها للتكوين كما أشرنا سلفًا

فى الفصل السابق. فغياب علامات الإعراب على الرغم من حملها الوظيفى المحدود قبل الفتوحات أمر نحوى صرفى يحتاج لتغييرات كبيرة على كل مستويات التحليل اللغوى فى العربية. وليس من الممكن فى تصورى أن تكون تلك اللهجات قد تخلت عن التصريف الإعرابى والمثنى وجموع المؤنث مثلا كما تعكس نصوص العربية الوسيطة فى فترة أعوام قليلة دون حدوث تغير درامى فى تركيب مجموعة الأنماط العربية.

كما أشرنا سلفًا فإن سمات العربية الجديدة يمكن أن تظهر فى نصوص البرديات من القرن الثامن الميلادى. البرديات نصوص كتبت لأغراض مدنية بلغة عربية تنزع لأن تكون فصيحة مع وجود حيادات معينة أشرنا لها فى القسم السابق. تبين هذه السمات أن اللهجات العربية الجديدة كانت مستخدمة من قبل العرب فى وقت مبكر من الفتوحات؛ من بين أهم السمات العربية الجديدة سمة جمع المذكر، حيث عممت صيغة الجمع المنصوب على صيغة الجمع المرفوع. أثرت الظاهرة نفسها على المثنى أيضا، ففى الأفعال مثلا حل المنصوب محل المرفوع فى الفترة المبكرة نفسها. أما المثنى باعتباره تصنيفا نحويا فقد اختفى وحل المرفوع المذكر محله فى نصوص العربية الوسيطة، وبالتالى فى نصوص العربية الجديدة (بلاو ١٩٨٨ ص٧٩).

هذا ما نستطيع أن نستنتجه من مقارنة لغوية بين نصوص العربية الوسيطة واللهجات العربية الحديثة، وهو مفيد جدا. ولكن هناك مصدر آخر للتعرف على سمات العربية الجديدة بعد الفتوحات وهو مصدر قليل التوارد وضحل المعلومات اللغوية، ولكنه شهادة عصر، هذا المصدر هو شهادات بعض الكتاب العرب فى نوادر جمعوها لاستخدام اللغة العربية فى المناطق الحضرية فى القرنين الأول والثانى من الفتوحات الحربية بغرض التندر، ولكنها تحمل لنا نفعا كبيرا؛ إذ تدلل على مدى إعادة التركيب لأنماط العربية بشكل فعلى، وليس على انعكاسات السليقة اللغوية على نصوص فصيحة مكتوبة.

يعكس نوعان من الكتابة الاهتمام باللهجات العربية الجديدة فى الأمصار بعد الفتح : كتب الرحالة الجغرافيين وكتب الميول العامة والموسوعية ككتب الجاحظ والنوادر.

كانت الفروق والتباينات بين أنماط العربية محط اهتمام الباحثين العرب الذين شكلت العربية بعضًا من اهتماماتهم، فنجد أن الجاحظ الذى توفى عام ٢٥٥ هجريا يقول : إن الناس فى الأمصار العربية المختلفة يتكلمون أنماطًا عربية مختلفة، ويعلل الجاحظ ذلك التباين بأن الأمصار التى تكلمت لهجات القبائل التى سكنتها قبل أن يرد عليها غير العرب تعلموا تلك اللهجات العربية، ولذلك تجد أن الكوفة مثلا تكلمت اللهجة التى كان العرب الذين سكنوها يتكلمونها قبل هجرتهم إليها. ويزعم الجاحظ أن هذا ينطبق أيضا على سائر المدن والأمصار التى أسسها العرب وهاجروا إليها بعد الفتوحات (انظر البيان والتبيين، المجلد الأول ص١٨). وتكلم الجاحظ أيضا عن الثروة المعجمية لكل نمط من أنماط العربية الجديدة، فقد قال: إنه بما أن الفرس سكنوا البصرة ومحيطها مع العرب، فقد كان فى نمط العربية المستخدم فى البصرة كلمات فارسية مثل "خيار" و "بزار" (فرستيغ ١٩٩٧ أ ص١٣٠).

علاوة على ذلك فقد جذبت الفروق الصوتية والمعجمية والتنوع بين أنماط العربية الجديدة فى هذين المجالين اهتمام الرحالة العرب الذين اهتموا بتسجيل قوائم السمات اللهجاتية المحلية فى كل إقليم زاروه وكتبوا عنه. من بين أهم أمثلة علماء الجغرافيا الرحالة من العرب الذين اهتموا بهذا الموضوع كان المقدسى المتوفى عام ٣٣٥ هجريا، فقد سجل قوائم طريفة بالاختلافات بين أنماط العربية فى الأقاليم الجغرافية المختلفة. ولكن الفروق اللهجاتية الجغرافية لم تكن وحدها هى التى شدت انتباه العلماء العرب، بل انجذب الكثير منهم أيضا إلى الأنماط اللغوية الاجتماعية العربية التى ميزت كل جماعة سكانية أو اجتماعية أو دينية فى محيط اللغة العربية. فقد ركز باحث كابن خلدون المتوفى عام ٧٥٧ هجريا على الفروق بين اللهجات الحضرية الجديدة واللهجات البدوية، وهو يعكس فى ذلك وجود اهتمام بين علماء العرب بالتوزيع الاجتماعى للهجات. ويعطينا ابن خلدون مثلا بصوت القاف الفصيح، حيث تنطقه معظم اللهجات العربية الحضرية صوتًا انفجاريا مهموسًا هو الهمزة، بينما تنطقه اللهجات العربية البدوية والعربية الفصيحة صوتا مجهورا (انظر مقدمة بن خلدون ص٥٥٧).

السمات اللغوية للعربية الجديدة :

بما أن سمات العربية الجديدة الموجودة فى نصوص العربية الوسيطة تعكس تشابهًا كبيرًا مع اللهجات العربية الحضرية الحديثة؛ فإنه من الممكن أن نمرر عبارة تعميمية جدا، ولكنها دالة فى الوقت نفسه وهى أن اللهجات العربية الجديدة أنماط لغوية تحليلية فى عمومها، وهو عكس العربية الفصحى وعربية القرآن الكريم والشعر الجاهلى التى كانت فى عمومها توليدية جدا، ولكننا يجب أن نكون حذرين بعض الشىء فيما يتعلق باستخدام تعبير الأنماط التحليلية، فاللهجات العربية الحضرية الحديثة وبالتالى اللهجات العربية الجديدة نظريا على الأقل تعكس سمات تحليلية فى الاسم أكثر مما تعكسه فى الفعل الذى يعكس سمات توليدية كثيرة. تعكس السمات التالية نزوع العربية الجديدة للتحول من نمط توليدى لنمط تحليلى. انظر ما يلى :

١ - اختفاء التصريف الإعرابى، كما هو واضح من نصوص العربية الوسيطة ومن اللهجات العربية الحديثة أن العربية الجديدة فقدت التصريف الإعرابى إلا فى حالات معينة يتبقى منها فى اللهجات الحديثة الحالات الجامدة فى التعبيرات وفى صيغ المفاعيل فى بعض الأحيان، وكعلامة تنكير فى بعض اللهجات الخليجية منها خاصة.

٢ - ثبات ترتيب الكلمات فى الجمل، يبدو هذا واضحًا بسبب اختفاء التصريف الإعرابى. فمن المهم تحديد مواقع الكلمات فى الجملة للتعرف على وظيفتها، وتبدو تلك السمة واضحة فى نصوص العربية الوسيطة.

٣ - استخدام صيغة إضافة لفظية(٤). اختفت من العربية الحديثة فى لهجاتها طريقة تركيب الإضافة الفصحى من معظم الوظائف اللغوية وليس من كلها، إذ أصبحت

---

(٤) تمتلك اللهجات العربية البدوية فى شبه الجزيرة العربية صيغة إضافة لفظية. يسمح لنا هذا أن نتصور أن هذا التطور اللغوى ليس سببه اللهجات العربية الجديدة. للمزيد عن هذا الموضوع انظر بروستاد (٢٠٠٠ ص٧٠-٨٨) .

الإضافة التقليدية تستخدم مع بعض أنواع الأسماء وتستخدم الإضافة اللفظية مع أنواع أخرى. ربما يشير اضطراب الإضافة فى نصوص العربية الوسيطة إلى احتمال اختلاف الإضافة فى القرون الثلاثة الأولى فى اللهجات عنها فى العربية الفصحى، وربما تكون اللهجات قد استخدمت إضافة لفظية من نوع ما بحيث تربط كلمة ما بين شقى الإضافة.

٤ – اختفاء صيغ الفعل المضارع فى اللهجات العربية الجديدة، عممت صيغة المجزوم على صيغتى المرفوع والمنصوب فى الفعل المضارع فى العربية الجديدة، ولذلك هناك صيغة واحدة فقط.

٥ – تم تعميم صيغة جمع المذكر على صيغة جمع المؤنث فى اللهجات العربية الجديدة فى الاسم والفعل.

٦ – تخفيض التقسيمات الصرفية: تتسم اللهجات العربية الحضرية الجديدة بتخفيض فى تصنيفاتها الصرفية، فنجد أن المؤنث فى الفعل والضمير اقتصر فقط فى تلك اللهجات على المفرد والمثنى المهتز أصلا، بينما حلت صيغة الجمع المذكر محل جمع المؤنث والمثنى فى الفعل والضمير فى الوقت نفسه.

٧ – اختفاء صيغة فَعُلَ من الفعل الماضى فى اللهجات العربية الجديدة.

٨ – اختفاء المبنى للمجهول: لا تستخدم اللهجات العربية الجديدة صيغة فُعِلَ ولكنها استعاضت عنها بأى من انفعل أو اتفعل.

٩ – اندماج نهايات الاسم المؤنث الثلاثة: اندمجت نهايات الاسم المؤنثة الألف المقصورة والتاء المربوطة والألف المدودة فى تاء مربوطة فى اللهجات العربية الجديدة.

١٠ – اختفاء الأفعال التى تنتهى بواو من اللهجات العربية الجديدة، حيث اندمجت فى الأفعال التى تنتهى بياء. يمثل هذا التطور مسألة درجة فقط؛ ذلك لأن الفعل المنتهى بواو محدود جدا فى العربية الفصحى، ولا تجده عادة إلا فى صيغة فَعَلَ.

إذا نظرنا إلى اللهجات، فستتبين أنها تشتبه مع لهجات العربية الحديثة ونصوص العربية الوسيطة فى بعض السمات التى تختلف جميعها عن سمات اللغة ألعربية الفصيحة. تبين القائمة القصيرة المقدمة أعلاه بعض تلك السمات كاختفاء التصريف الإعرابى من الاسم والفعل على حد سواء واختفاء المثنى. وفى بعض السمات الأخرى سارت اللهجات العربية الحديثة كافة فى اتجاه واحد، ولكن المنتج النهائى سمة تؤدى الغرض الواحد نفسه ولكنها شكلا تختلف. هناك مثلان فى القائمة السابقة على تلك الظاهرة: المثل الأول الإضافة اللفظية، فكل اللهجات طورت صيغة إضافة لفظية بعد أن حددت استخدام الإضافة العربية الفصيحة التقليدية التى كان اختلاف التعريف وعلامة الإعراب سمتيها الأساسيتين، ولكن كل لهجة عربية طورت إضافة لفظية تختلف عن اللهجات الأخرى. الصيغة اللفظية فى عربية القاهرة مثلا "بتاع" بينما طورت العامية السورية صيغة "تبع"، وطورت اللهجة العراقية فيما طورت صيغة "مال". المثل الثانى طريقة التعامل مع الفعل معتل الآخر، ففى اللهجة العربية السورية تتصرف الأفعال معتلة الآخر كالفعل الصحيح، فالفعل "رموا" فى تلك اللهجات ينطق مثل "كتبوا" (فرستيغ ١٩٩٧ا ص١٠٠). ولكن اللهجة العربية التى يستخدمها مسلمو بغداد مثلا تنطق الفعل "كِتبَوا" و "مِشيَوا".

بالإضافة إلى الملامح التى ذكرتها توا هناك نزعات تطور لغوى مستقلة لا نجدها فى القائمة السابقة. تختلف اللهجات العربية الحديثة بعضها عن البعض الآخر فى سمات لغوية معينة، طريقة صياغة الاستفهام على سبيل المثال تختلف بين كل اللهجات العربية والعربية الفصحى من ناحية ومجموعة اللهجات المصرية من ناحية أخرى، فاللهجات العربية تقدم أداة الاستفهام فى بداية الجملة بينما تتركها اللهجات المصرية فى موقعها الأصلى فى الجملة الخبرية.

٤ - نظريات تطور العربية الجديدة :

أما بخصوص السمات النحوية الصرفية التى تشترك فيها اللهجات العربية الحديثة كافة، فإن تفسيرها خضع لمجموعة من نظريات التطور اللغوى. على الرغم من أنه من المنطقى أن بعض الاختلافات السائدة بين اللهجات العربية الحديثة الآن ترجع إلى أن كل إقليم قد اكتسب لهجة القبيلة العربية أو مجموعة القبائل العربية التى سكنته، وفرضت سماتها اللغوية أو عربيتها على الجماعات متعددة اللغات التى سكنت الإقليم قبل العرب أو وفدت إليه بعدهم فإن هناك بعض السمات المشتركة بين كل اللهجات العربية على اختلاف أصولها اللهجاتية العربية واللغوية المحلية والتعريبية السكانية فى القرون الثلاثة الأولى الحرجة. اقترح مجموعة من العلماء الغربيين كتفسير لتلك التشابهات نظريات الدمج والنزوع العام والمزج اللغوى، وهى كلها نظريات عامة ظهرت فى علم اللغة التاريخى لتبرير ظهور تشابهات لغوية بين لهجات أو لغات مختلفة.

من بين النظريات التى طرحت لتفسير الوحدة العامة بين اللهجات العربية الحديثة والفهم المتبادل بين متحدثيها هو أنها جميعها نشأت من منبع لغوى واحد وهو لهجات العربية القديمة، فبعض الباحثين يدّعى أن اللهجات العربية قبل الفتوحات لم تكن مختلفة بعضها عن البعض الآخر بشكل ملحوظ؛ ولذلك كان مصدر اللهجات العربية الجديدة واحدًا موحدًا على وجه العموم إذا استثنينا فروقًا صوتية وصرفية قليلة (بلاو ١٩٨٨ ص٢٥). ويضيف بلاو أنه بعد الفتوحات ساعدت العربية الفصحى على التقريب بين اللهجات بعدما حدثت تطورات كثيرة بسبب تعلم اللغة العربية من قبل غير العرب، وتأثير اللغات المحلية الأصلية فى عقل المتعلمين مما باعد بين اللهجات العربية. تفترض تلك النظرية أن رفعة الشأن التى تمتعت بها العربية الفصحى بعد الإسلام بسبب القرآن الكريم قد مكنتها من توزيع بعض سماتها اللغوية على اللهجات العربية ومكنت تلك اللهجات من اقتباس سمات عامة معينة مكنتها جميعا من الاشتراك معا فى سمات محورية واحدة.

تصورى أن فرضية "العربية الفصحى قد لعبت دورًا فى تشكيل مصدر واحد للهجات العربية الجديدة وبنيتها التركيبية فى عصر التكوين المبكر" هى مغالطة تاريخية.

أول دليل عملى على وجود نظرية نحوية عربية لها شكل واضح كان فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى، وعلى ذلك فإنه من الصعب أن نتصور أن النحو العربى قد أثر ولو بشكل محدود على استخدام العربية فى تلك المرحلة، حيث كانت العربية الجديدة مستخدمة فعلا فى الأمصار. من المفروض أيضا أن نلاحظ أن العربية الفصحى كانت نمطا لغويا معروفًا بشكل كبير لدى من يقومون على دراستها أو دراسة الشعر العربى أو القرآن الكريم فقط، ولذلك من الصعب أن يكون تأثير العربية الفصحى قد انتشر بين جماعات مستخدمى العربية الجديدة بأى عمق، حيث كان معظم متكلميها من غير العرب الأميين وغير المسلمين الذين لم يمثل القرآن الكريم لهم نموذجًا تقعيديا ضاغطًا. علاوة على ذلك فقد كان من شأن غياب أى نظام تعليم منظم أن يعيق عملية انتشار سمات العربية الفصحى بشكل واسع فى ظل غياب وسائل الاتصال والتواصل الحديثة التى نعرفها الآن.

وحتى نصوص العربية الوسيطة التى كان من المفروض أن تكتب بالعربية الفصحى كانت تستخدم سمات عامية كثيرة، ونصوص العربية الوسيطة التى كتبت فى أوج مرحلة تقعيد العربية الفصحى فى القرن الثالث تموج بسمات اللهجات العربية الجديدة نفسها فى طياتها بمعدلات توافرها نفسها فى النصوص الأقدم والأحدث على حد سواء. ولا يمكن اعتبار النمط العربى الفصيح على ذلك عنصر توحيد بين أنماط العربية الجديدة فى مراحل التكوين المبكرة أو قل فى القرون الثلاثة الأولى من الحضارة العربية على الأقل. سنشرح فيما بعد أن العربية الفصحى كان لها أطوار تطور مختلفة عن العربية الجديدة، ولعبت وظائف لغوية وتواصلية واجتماعية تختلف عن الأدوار التى لعبتها العربية الجديدة فى تلك القرون الأولى.

أتفق مع بلاو كل الاتفاق بخصوص أصل عربى قديم واحد كمصدر للهجات العربية الجديدة، وأتفق أيضا معه فى أن هذا الأصل كان مسئولا ولو جزئيا عن التطور المتسق والموحد فى اللهجات العربية الجديدة. ولكن هناك بعض السمات البنيوية فى اللهجات الجديدة لم تكن موجودة فى العربية الفصحى ولا تفسر نظرية الأصل العربى القديم الواحد، هذه السمات خاصة فى ظل غياب مركز ثقل لغوى واحد يمكن اعتباره مسئولا

عن توزيع تراكيب مفضلة ومحترمة منه لمناطق لهجاتية ومستويات لغوية أخرى وأقل منه فى القرنين الأول والثانى الهجريين على الأقل. يمكن تفسير بعض السمات التى طورتها العربية الجديدة تفسيرا مقبولا وإرجاعها لعملية نزوع عام (بلاو ١٩٨٨ ص٢٥ وبلاو ١٩٦٩ ص٣٨-٤٤ وبلاو ١٩٦٥ ص١٢). وباستخدام النزوع العام فى تفسير بعض السمات اللهجاتية يمكن تبرير حقيقة أن بعض اللهجات طورت سمات لغوية واحدة بشكل مستقل دون التأثير أو النقل أو حتى الأصل المشترك، ويعتقد الباحثون الذين يؤمنون بنظرية النزوع العام أن تلك التطورات التى أدت إلى السمات نفسها ما هى إلا استمرار لتطورات بدأت فعلا قبل الفتوحات العربية، وعندما انتقل العرب إلى مناطق شتى من المنطقة العربية بعد الفتوحات كانت فى سلوكهم اللغوى بذرة التطور فعلا. من أفضل الأمثلة على التأثيرات الصوتية لنظرية النزوع العام اختفاء فونيم الهمزة فونيما مستقلاً من اللهجات العربية الحديثة كافة؛ فبعض اللهجات العربية القديمة قبل الفتح كانت قد تحللت من الهمزة باعتباره فونيما مستقلا وأصبح صوت الهمزة فيها صورة صوتية لأصوات أخرى كالعين مثلا، بينما حققت لهجات أخرى الهمزة باعتبارها فونيما وحققتها أيضا الفصحى، ولكن اللهجات العربية الجديدة خارج شبه الجزيرة العربية تركتها كلية.

ويعتبر اختفاء التصريف الإعرابى وعلامات الإعراب مثلا آخر على ظاهرة النزوع العام، حيث إن هذا النسق الصرفى كان فى مرحلة تطور قبل الفتوحات (انظر أونز ١٩٩٨)، وسقط كلية بعد الفتوحات من اللهجات العربية الجديدة. لقد أشرت فى الفصلين السابقين إلى أن نظام التصريف الإعرابى كان نقطة اختلاف بين اللهجات العربية القديمة قبل الفتوحات، فقد كانت بعض اللهجات تحتفظ بنظام تصريف إعرابى كامل كما كان الحال مع لهجات شرق الجزيرة العربية، بينما استخدمت بعض اللهجات نظاماً أقل دقة بالمقارنة بالعربية الفصحى وخاصة فى غرب الجزيرة العربية، وربما تكون بعض اللهجات العربية قد تحللت من النظام كلية كما كان الحال مع اللهجات العربية النبطية، ولما ظهرت العربية الجديدة فى المناطق الحضرية خارج شبه الجزيرة العربية مال الميزان ناحية التخلى عن النظام الذى كان حمله الوظيفى منخفضاً أصلاً، وحدث ذلك خاصة فى إيكولوجيا غياب التصريف الإعرابى باعتباره نسقا صرفيا فى كل اللهجات المحلية التى انتشرت العربية فى مجالاتها وبين شعوبها.

عملية التعريب الطويلة لم تكن السبب فى اختفاء التصريف الإعرابى كما يدعى بعض الباحثين المحدثين والنحويين العرب على حد سواء، ولكنه كان نتيجة مباشرة لضعفه فى مرحلة ما قبل الفتوحات. فقد تم تعريب الأمصار الإسلامية والمناطق الحضرية منها خاصة على يد مجموعة من القبائل العربية التى فقدت التصريف الإعرابى فعلا فى وقت الفتوحات، أو كان النظام قليل الفاعلية فى سليقتهم اللغوية على أقل تقدير. وفى مراحل متأخرة من التعريب انتشرت فى المناطق الحضرية أنماط العربية الجديدة التى لا تحمل أى أثر فعلى للتصريف الإعرابى. ويمكن قول الكلام نفسه ولو بشكل عام على انتشار نسق أصوات خال من الهمزة فى العربية الجديدة، ولذلك فمسألة النزوع العام لا تقدم تفسيراً لعلة انتشار تلك السمات كالتى ناقشناها توا. أنصار نظرية النزوع العام يدعون أن العربية فقدت المثنى والتصريف الإعرابى والهمزة وسمات أخرى كثيرة، كما حدث تماما فى اللغات السامية الأخرى. ولما حدث ذلك فى لغة سامية كان يجب أن يحدث فى عموم الساميات. وعلى ذلك فهم يعتبرون أن وحدة اللهجات العربية فى أمثال تلك السمات مسألة منطقية تتفق مع باقى اللغات السامية فى مقابل العربية الفصحى التى غالبًا ما ينعتونها بالقدم التركيبى، ولكن الاعتماد على نظرية النزوع العام فى العائلات اللغوية لتفسير تضامن اللهجات العربية فى مقابل العربية الفصحى لا يفسر كيف تطورت تلك السمات، ولا لماذا، ولا علة تطورها فى تلك المرحلة من تاريخ اللغة العربية بالتحديد.

نظرية النزوع العام علاوة على ذلك لا تفسر تطور اللهجات العربية فى طرق مختلفة فى بعض العناصر التركيبية؛ فإن افترضنا جدلا أن النزوع العام مسئول فى بعض الأحيان عن تشابهات لهجاتية من حيث التركيبات، فما تبرير اختلاف اللهجات فى بعض السمات المحورية مثل التركيز على نوع من نوعى الإضافة، ومعانى الفعل المضارع، وإمكانيات اسم الفاعل مثلا؟ والسؤال الذى قد يزيد الأمر تعقيدا ويبرر إهمال نظرية النزوع العام هو: ما تفسير تطور لهجات فى اتجاه واحد ولكن أشكال التطور تختلف فى لهجة عن أخرى؟ لذلك أى تفسير يقوم على تبرير العائلة اللغوية لا يحمل أى قوة تفسيرية (فرستيغ ١٩٩٧ ص١٠٣) ويبقى السؤال : ما علة تطور اللهجات فى أنساق متشابهة تشابهًا كبيراً فى مقابل العربية الفصحى؟

تصور بعض الباحثين أن السمات البنيوية المشتركة فى اللهجات العربية الحديثة إنما هى علة الاتصال اللغوى الذى كان قائمًا بين لهجات العربية الجديدة فى القرون الأولى من الفتح العربى (بلاو ١٩٨٨ ص٢٦). بحسب تلك النظرية نتجت السمات المشتركة من عملية انتشار بسيط لسمات تركيبية معينة من مركز ثقل لغوى معين فى القرنين أو القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح لمناطق أخرى كانت فى مراحل تعريب أو مستعدة من الناحية الاجتماعية اللغوية لتقبل سمات من مناطق أخرى. هذه الفكرة مقبولة نظريا ولكنها لها مشاكل تاريخية كبيرة. أول الاعتراضات أننا لا نعرف أى لهجة قوية ذات نفوذ استطاعت أن تنشر سماتها اللغوية الخاصة من المحيط الأطلنطى غربًا حتى الخليج العربى شرقًا. عملية الانتشار اللغوى مسألة ممكنة فى عصرنا الحديث فقط، حيث حققت وسائل الإعلام والإعلان والنشر تقدما مهولا، فقنوات الاتصال والتوصيل المختلفة تستطيع أن تنقل سمات لغوية من منطقة ما لمنطقة أخرى بعيدة بسرعة وبتركيز وبتكرار يمكن لعملية النشر، ولكن القرنين الأولين للفتح لم يشهدا تطوراً تقنيا شبيهًا ولو من بعيد، كذلك لم يكن هناك انتشار كبير للكتب المخطوطة على المستوى الأفقى الجغرافى أو على المستوى الطبقى الرأسى فى المجتمعات اللغوية التى كانت الأمية قاسما مشتركا فيها. لقد كان الكتاب بدوره وسيلة تواصل لقلة من المحظوظين الذين يملكون القدرة على القراءة.

ثانيًا: من الصعب جدا أن تقتبس لهجة من لهجة أخرى نزعة معينة فى اتجاه تطور لغوى معين، ولا تقتبس الشكل البنيوى الذى يعبر عن التطوير المقتبس، بل وتنتج اللهجة المقتبسة شكلا خاصا بها، وكذلك من الصعب اقتباس نسق صرفى كامل. فمن الصعب مثلا أن تقتبس لهجة من اللهجات نظام تصريف الأفعال الذى تخلص من المثنى فى المخاطب والغائب وجمع المؤنث من المخاطب والغائب من لهجة أخرى، وكذلك من الصعب اقتباس تركيب الإضافة التحليلية بكل سماته من لهجة أخرى. حتى لو كان للنشر أى تأثير فى الموقف اللغوى فى القرنين الأول والثانى من الفتوحات على مستوى التشابهات بين اللهجات فقد كان هذا التأثير فى نطاق محدود وفى سياقات اجتماعية لغوية معينة. علاوة على ذلك فإنها مهمة صعبة حقا على أى باحث أن يحدد موقع نشر

سمة تركيبية معينة وخط سيرها فى اللهجات العربية فضلا عن التاريخ الدقيق الذى انتشرت فيه سمة ما، هذه مهمة أسطورية فى سياق المعلومات اللغوية والتاريخية المتوفرة لنا عن القرنين الأول والثانى.

فى ظل غياب تقنيات الاتصال الموجودة الآن ووسائل الإعلام المعاصرة، فإن الطريقة الوحيدة التى يمكن فيها نشر سمة لغوية ما هى الهجرة أو الجوار بين اللهجات. وحتى لو كان للهجرة دور كبير وللجوار تأثير خطير فى التطور اللغوى العربى فى قرنى التكوين المبكرين، فإنه من الصعب أن يبرر التشابهات الكثيرة والمتشعبة بين اللهجات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. فحتى فى حالة أن تكون لهجة عربية ما مجاورة للهجة أخرى جغرافيا كما كان الحال مع كل اللهجات اليهودية الحضرية فى أقاليم عربية مختلفة، فإن نشر عناصر معجمية كان صعبا جدا فى القرون المبكرة من الحضارة العربية؛ ففى اللهجة اليهودية لتفيلات فى جنوب شرق المغرب يستخدم الجزر "ر أ ى" للنظر وليس الجذر "ش و ف" كما هو الحال فى اللهجات المسلمة المجاورة (هيث وبار أشير ١٩٨٢ ص٧٧). بالطريقة نفسها تحتفظ لهجة اليهود فى مدينة الجزائر بالفعل "رأى" للنظر فى مقابل "شاف" التى تستخدمها اللهجة العربية التى يتكلمها المسلمون فى المدينة نفسها (انظر كوهين ١٩١٢ ص٥٤).

وفى الشرق نجد أن بغداد مدينة مشهورة بلهجاتها الطائفية (كاى ١٩٨٩ ص٢١٣)(٥). لقد تعايشت فى بغداد لهجات حضرية يتكلمها مسلمون، وأخرى يتكلمها مسيحيون وثالثة يتكلمها يهود. فى اللهجات المسلمة والمسيحية مثلا يستخدم المتكلمون الفعل "شاف" فى مقابل "عاين" الذى تستخدمه اللهجات اليهودية (بلانك ١٩٦٤ ص١٦٤). ففى الحالات السابقة للهجات العربية اليهودية فى المغرب والجزائر وبغداد فشلت لهجات الأغلبية المسلمة الرفيعة فى نشر سمة بسيطة مثل مفرد "شاف" على لهجات أقلية يهودية تستخدم مفردات أخرى على الرغم من عنصر المجاورة المكانية والرفعة. ربما تكون مسألة التحديد الطبقى والطائفى للهجات العامل الذى قد يمنع انتشار

---

(٥) انظر بلانك ١٩٦٤ لوصف لهجات المدينة.

سمات تركيبية بين لهجات عربية حضرية مختلفة، فغياب وسائل الإعلام ومراكز ثقل لغوية ومحددات اجتماعية لغوية قوية يجعل من الصعب تصور أن يكون للنشر أى دور محورى فى عملية التقارب بين اللهجات الحضرية العربية الحديثة، ولكن المعوقات التى ذكرتها هنا لا تعنى أن النشر ظاهرة لغوية لم تحدث أبدا فى تاريخ العربية على الرغم من أن تتبع أثرها مسألة صعبة(٦) .

وعلى الرغم من كل الاعتراضات النظرية التى يمكن استخدامها لضحد وظيفة النشر اللغوى فى نقل السمات اللغوية من مراكز ثقل لغوية لأماكن مستعدة لتقبل تلك السمات – فإن تلك النظرية لم تمت بسهولة، بل ظلت تستلهم بعض القوة. فقد اقترح بعض الباحثين أن تكون مراكز الثقل اللغوية التى تتحدث النظرية عنها هى المعسكرات التى أنشأها الجنود العرب فى الأمصار فى بداية الأمر وتطورت لاحقًا لتكون مدنا كالبصرة، والكوفة، والفسطاط، والقيروان، والرباط، وغيرها . بحسب هذا التعديل من المفترض أن العرب الذين تجمعوا من قبائل مختلفة قد أنتجوا سمات لغوية مشتركة نقلت بعد ذلك بالتطور الطبيعى للتداخل الاجتماعى بين العرب وغير العرب إلى باقى الأمصار.

حاول فرجسون (١٩٥٩ ص٦١٦–٦٣٠) أن يبرر التشابهات الكبيرة بين اللهجات العربية الحديثة باعتبار أن لهجات العربية الجديدة قد تطورت من أصل واحد وهو مشترك لغوى تطور هو نفسه من تجمع قبائل عربية مختلفة تتحدث لهجات بدوية عربية قديمة مختلفة فى المعسكرات فى المرحلة المبكرة من الفتوحات العربية. فى تلك المعسكرات اختفت سمات مختلفة كثيرة جدا وظهرت سمات مشتركة أيضا عن طريق عمليات معقدة ودقيقة من الاقتراض اللغوى والتعديل. بحسب رأى فرجسون كانت اللهجات العربية القديمة مختلفة تركيبيا، ولكن تلك الاختلافات قلت نسبيا فى مرحلة الفتوحات بسبب المشترك اللغوى. ولما كان المشترك الناتج عن عمليات التواصل فى المخيمات والمعسكرات قد استخدم فيها حتى بعد أن أصبحت مدنا كبيرة فقد شكل

(٦) هناك بعض الإشارات التى تدل على أن أداة النفى ما_ش المستخدمة فى مصر وشمال إفريقيا قد وردت لمصر من الغرب عن طريق عملية نشر معقدة كما سأبين لاحقا فى هذا الفصل .

أصل اللهجات الحضرية العربية التى نعرفها الآن. فاللهجات العربية الحضرية فى العصر الحديث ربما تحتوى بعض السمات العربية القديمة الموروثة من القبائل المعربة قبل الفتح، ولكن السمات المشتركة أكثر بفضل الأصل المشترك. ويضيف فرجسون أن المشترك اللغوى فى القرنين الأول والثانى قد تعايش مع اللهجات العربية البدوية والعربية الفصحى فى تركيبة اجتماعية لغوية ووظيفية معقدة. من المفترض أن يكون التعريب بحسب تلك النظرية قد تم من خلال هذا المشترك، وأن أى اختلافات بين اللهجات العربية الحديثة لا بد وأن تكون قد نتجت عن تطورات أحادية منفردة قامت بها كل لهجة بحسب مسارها، أو بسبب عمليات اقتراض لغوية قد تكون حدثت بعد مرحلة التوزيع المبكرة أو النشر للمشترك اللغوى فى القرون الأولى من الفتح.

ويزعم فرجسون أن المشترك اللغوى العربى ربما يكون قد بدأ قبل الفتوحات، ولكن انتشاره وتوسعه وتطوره ليشكل نمطا عربيا كان فى تلك المرحلة. ولكن لا يمكن من خلال واقع المادة اللغوية المتاحة لنا حالياً أن نحدد نقطة زمنية بعينها لبداية نشر المشترك اللغوى، أو حتى لبداية تكوينه. وعلى الرغم من المشكلات النظرية المحيطة بتحديد نقطة بدايته أو مكان بدايته، أو حتى فكرته النظرية فى حد ذاتها، فإن المشترك اللغوى المسئول بحسب فرجسون عن ظهور بعض السمات المشتركة فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة والتى لا يمكن أن تكون قد ظهرت لأى سبب آخر. يعتبر غياب المثنى بشكله الصرفى الكامل فى الفصحى عن اللهجات العربية الحديثة من بين تلك السمات (فرجسون ١٩٥٩ ص٦٢٠)، وهناك سمتان فى سلوك اللهجات العربية الحضرية الحديثة تقنعان فرجسون أن هذا التطور لم يتم من مسألة نزوع عام للهجات العربية مثل باقى الساميات: السمة الأولى اختفاء المثنى من الأفعال والضمائر والصفات بدون أى أثر ولو كان جامدا. أما السمة الثانية فهى مطابقة الجمع التى تستخدم فى كل اللهجات مع الأسماء فى المثنى؛ ففى العربية الفصحى ولغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم عندما يكون هناك صفة أو ضمير أو فعل يشير إلى اسم مثنى سابق فإن هناك مطابقة لهذا الفعل أوالضمير أو تلك الصفة فى التثنية، أما إن كان الفعل أو الضمير أو الصفة تشير إلى اسم مجموع؛ فإنها تكون فى المفرد المؤنث إن كان هذا الاسم غير عاقل

أو فى الجمع إن كان الاسم عاقلا. ونتوقع أن يكون سلوك اللهجات العربية قريبا من هذا فى مسألة المثنى، ولكن اللهجات تحتم أن يكون الفعل أو الضمير أو الصفة فى الجمع بعد اسم مثنى حتى ولو كان الاسم لغير العاقل. يدعى فرجسون أن هاتين السمتين يؤكدان لنا أن ظاهرة المثنى فى اللهجات العربية الحديثة قد تطور من نمط لغوى مختلف عن العربية الفصحى واللهجات العربية القديمة.

من بين السمات الأخرى التى يعزوها فرجسون لنشوء اللهجات العربية الحضرية الحديثة لمشترك لغوى هو اختفاء الأفعال المعتلة التى تنتهى بواو باعتبارها تصنيفا صرفيا تحتيا مستقلا. من بين التصنيفات التحتية الخمسة للأفعال المعتلة هناك تصنيف يحتوى على واو فى الفعل المصرف فى الماضى، كأن تقول: "شكوت" والمضارع "يشكو"، هذا التصنيف اختفى من كل اللهجات الحضرية الحديثة. وهناك سمة أخرى تطورت فى كل اللهجات العربية بطريقة واحدة فى مقابل العربية الفصحى، وهى سمة تطور الفعل المضعف؛ ففى ضمير المتكلم وضمير المخاطب فى الفعل الماضى المضعف التصريف يشبه تصريف الفعل معتل الآخر بالياء. أما فى العربية الفصحى فإن التصريف يشبه تصريف الفعل الصحيح فى الماضى وخاصة مع ضمير المخاطب وضمير المتكلم.

من بين السمات المشتركة بين اللهجات التى يعزوها فرجسون للمشترك اللغوى هى جنس الأعداد الأساسية من ثلاثة إلى عشرة. فى العربية الفصحى هناك شكلان للرقم، الشكل الأول ينتهى بتاء مربوطة ويستخدم مع الأسماء المذكرة، والثانى لا ينتهى بتاء مربوطة ويستخدم مع الأسماء المؤنثة. أما فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة فإن شكل العدد الذى ينتهى بتاء مربوطة هو الشكل المستخدم مع العدد الذى لا يتبعه أى اسم. أما عندما يكون هناك اسم بعد العدد فإن العدد يستخدم بدون التاء المربوطة فى نهايته إلا فى حالات قليلة جداً كما هو الحال مع النقود والموازين والمقاييس. أما الأعداد فيما بين ١٣ و١٩ فى العربية الفصحى فهى مركبة من قسمين: القسم الأخير هو المقابل للعشرة وهو يتفق فى الجنس مع الاسم الذى يتبعه، أما القسم الأول فهو عدد من ثلاثة إلى عشرة يختلف فى الجنس مع الاسم الذى يتبع العدد. أما فى اللهجات العربية الحديثة فقد أصبح العدد من ١٣ إلى ١٩ اسماً واحداً مركباً دون أى

أثر لاختلاف الجنس أو اتفاقه مع الاسم الذى يليه. أما السمة الدقيقة جدا والمشتركة بين اللهجات العربية الحضرية الحديثة كافة – وهذا من المدهش – أن هناك تفخيما فى أصوات اللين الموجودة فى هذه الفئة من الأعداد، بل ويمتد التفخيم فى بعض الأحيان إلى العددين ١١ و١٢ ، فيشعر المتكلم فى كل اللهجات أن صوت تاء التأنيث الأصلية فى العدد قد تحول إلى طاء من تفخيم صوت اللين القصير الذى بعده.

هناك سمة أخرى مشتركة بين كل اللهجات العربية الحضرية الحديثة، وهى اختفاء الأسماء المؤنثة من صيغ المقارنة والتفضيل. ويعزو فرجسون هذا التطور إلى المشترك اللغوى؛ ففى العربية الفصحى هناك صيغة تفضيل هى أفعل ولها صيغة مؤنثة هى فُعلى، أما فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة فليس هنـاك أى ذكر لصيغة المؤنث ولو فى شكل جامد وتبقى فقط صيغة أفعل.

من بين السمات اللهجاتية الأخرى التى يعزوها فرجسون إلى المشترك اللغوى جمع الصفة التى على وزن فعيل، ففى العربية الفصحى جمع فعيل هو فِعال، أما اللهجات العربية الحديثة فتجمع فعيل على فُعَـال أو فِعَال. كل هذه السمات لا يمكن أن تتطور فى اللهجات العربية من غير أصل واحد، وليست الفصحى هذا الأصل بطبيعة الحال.

من بين التغييرات التى يرجعها فرجسون أيضا إلى المشـترك اللغوى المزعوم هو تغيير لاحقة النسبة العربية من ياء مشددة فى العربية الفصحى لصوت لين طويل فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة، على الرغم من أن تعامل اللهجات العربية المختلفة مع أصوات لين الفصحى وتقابلات الطويل مع القصير فيها يفصل بينها وبين بعضها، فإن كل اللهجات تمتلك القيمة الصوتية نفسها لمورفيم ياء النسبة. من المثير أن هذا التطور اللغوى قد حدث فى اللهجات العربية، بينما اختلاف القيم الصوتية للياء فى العربية الفصحى اختلاف شديد ووظيفى.

على المستوى المعجمى يعزو فرجسون وجود ثلاث مفردات وانتشارها فى كل اللهجات العربية الحضرية الحديثة للمشترك اللغوى وهى: "شاف"، و "جاب"، والاسم الموصول "إللى".

أما فيما يتعلق بـ"جاب"، فهو استخدام تعبر العربية الفصحى عنه باستخدام فعل من اثنين يعنيان الإتيان وهما: "أتى"، و"جاء" مع الباء باعتباره حرف جر. أما اللهجات العربية الحديثة فقد اختفى فيها استخدام "أتى" وبقى الفعل "جـا." بتطويعاته الصوتية بحسب اللهجات العربية. وفى كل اللهجات يتم التعبير عن الإحضار بدمج الفعل فى حرف الجر ليشكلا معا فعلاً جديداً وهو "جاب"، وهو فعل أجوف عادى جدا فى كل اللهجات حيث يكون فعله المضارع هو "يجيب"، ولكن العربية الفصحى لا تعكس أى ملمح أو أثر من آثار الدمج الصوتى.

أما بخصوص الفعل الثانى وهو فعل الرؤيا فهو فى الفصحى "يرى" حيث يكون فعلا معتل الآخر. أما الفعل الدال على المعنى فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة فهو "شاف"، على الرغم من وجود تنويعات "رأى" فى بعض اللهجات الحديثة مثل اللهجة المغربية التى تحتوى على فعل هو "رانى" الذى يعبر عن فعل الكينونة فى لغات هندوأوروبية مثلا. وهناك بعض الاشتقاقات المحدودة من الجذر نفسه كما هو الحال مع الفعل "ورا–يورى".

العنصر المعجمى الأخير من عناصر المشترك اللغوى المزعوم هو الاسم الموصول "إللى". الاسم الموصول فى العربية الفصحى "الذى"، وهو اسم يختلف فى الجنس والعدد والإعراب كما أنه يطابق الاسم الذى يدخل عليه. أما لهجات العربية القديمة فقد حوت تراوحات كثيرة فى استخدام هذا الاسم؛ إذ كانت بعض اللهجات تستخدم اسماً واحداً، بينما كانت لهجات أخرى تصرفه إعرابيا وكانت لهجات شرق شبه الجزيرة العربية تستخدمه بشكل يقترب من العربية الفصحى. وليس من الغريب على ذلك أن يختفى هذا التنوع الصرفى فى الاسم الموصول فى لهجات العربية الجديدة. ولكن حقيقة أنه تطور بالطريقة نفسها فيما عدا اختلافات صوتية محدودة فى كل اللهجات العربية الحضرية الحديثة لا يمكن أن يفسر إلا من خلال المشترك اللغوى.

بالإضافة إلى تفخيم صوت التاء فى الأعداد من ١٢ إلى ١٩ فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة، هناك تطور صوتى آخر لا يمكن – فى رأى فرجسون– إلا أن يكون

قد نتج من خلال مشترك لغوى ألا وهو التلتلة. وصف النحويون تلك السمة الصوتية العربية على أنها من مميزات بعض اللهجات الغربية الحديثة أحيانا ومن سمات شرق شبه الجزيرة العربية أحيانا أخرى، ولذلك من الطبيعى جدا أن تستمر تلك السمة فى اللهجات العربية الحديثة التى ورثتها من أصلها القديم. ولكن حقيقة الأمر أن بعض اللهجات العربية القديمة قبل الفتح لم تكن تحمل أى سمة تلتلة، ونتوقع أن تنعكس تلك السمة فى اللهجات العربية الحديثة أيضا. ولكن حقيقة الأمر أن كل اللهجات العربية الحضرية الحديثة تمتلك تلك السمة.

هناك مشكلتان نظريتان فى مسألة اعتبار المشترك اللغوى مصدرا أساسيا للمدخل اللغوى الذى استخدم فى عمليات تعريب الأمصار العربية فى القرنين الأول والثانى الهجريين: المشكلة الأولى مشكلة سكانية، بينما تتعلق المشكلة الثانية بالسمات اللغوية التى يستخدمها فرجسون لتدعيم نظريته. من المعترف به بين الباحثين كافة أن التعريب قد حدث فى بداية الأمر فى المعسكرات التى ابتناها العرب للجنود والتى تطورت لاحقا لمدن، وكانت بداية تلك المرحلة الطويلة من تاريخ العربية فى القرنين الأول والثانى. وفى تلك المناطق والقرون حدث الانتقال من العربية القديمة للعربية الجديدة، ولكن من الصعب أن تكون عملية اقتراض وتعديل معقدة جدا قد حدثت فى تلك المناطق فى ذلك الوقت وأدت لظهور مشترك لغوى لعدة أسباب. كان عمر فتح العراق كله نحو خمس سنوات وكان فتح مصر فى عشر سنوات فقط بالتقريب، أما سوريا فلم يكن فيها مخيمات بعد التخلى عن تعمير الجابية بسبب وباء عام الرمادة. وكما سأبين فى الفصل التالى فلم تكن جماعة سكان المخيمات فى وقت الفتح جماعة ثابتة أو حتى متجانسة، فقد كانت الجيوش فى فتح مستمر من معركة لأخرى، ومن فتح كانت جيوش تذهب وتقتطع لفتح آخر وكذلك كانت هناك وفود مستمرة من شبه الجزيرة العربية فى شكل إمدادات عسكرية أو أسر مهاجرة لتلحق بعزيز أو قريب فى المخيمات، ولذلك من الصعب أن يتطور عنصر لغوى وينتشر بين جماعات لهجاتية مختلفة فى مثل تلك الظروف السكانية المائعة.

وقد شجع نجاح الفتوحات مهاجرين أكثر وأكثر من شبه الجزيرة العربية للوفود للأمصار (الموسوى ١٩٨٢ ص٧١). فقد ورد عرب كثيرون من الصحراء فى شبه الجزيرة العربية بسماتهم اللهجاتية القديمة وخاصة إلى البصرة حيث قابلوا أقاربهم الذين لم يبتعدوا عن مواطنهم الأصلية ولهجاتهم ابتعاداً طويلاً، فقد كان الاتصال بشبه الجزيرة العربية مستمراً لم ينقطع، ومن الصعب فى تلك الحالات أن يتم تثبيت تطور لغوى فى شكل مشترك لغوى مركب جدا من سمات صوتية وصرفية ونحوية مبنية بعضها فوق البعض الآخر إن كان مثل هذا التطور قد حدث فى المقام الأول.

علاوة على ذلك فقد كانت الهجرات العربية لمدن الفتوحات من قبل عرب يتكلمون لهجة واحدة أو يتكلمون لهجات متشابهة جدا. خذ مدينة البصرة مثلا، فقد كانت معظم الهجرات العربية لها من مناطق تميم وبكر (الصياد ١٩٩٠ ص٤٧). وقد كانت تلك المناطق تتكلم أنماط عربية تشبه العربية الفصحى أكثر من غيرها وربما كان فيها أيضا نظام تصريف إعرابى سليم. ولا بد أن يكون الوضع متشابها إلى حد كبير فى المعسكرات والمخيمات الأخرى فى باقى الأمصار، فقد كانت من عادات المحاربين الفاتحين العرب أن يستدعوا عائلاتهم وأقرباءهم من قبائلهم فى شبه الجزيرة العربية؛ ليعيشوا معهم فى مهجرهم. وفى حالة كهذه حتى لو كانت هناك عمليات اقتراض وتعديل صرفى أدت إلى مشترك لغوى؛ فإن الاختلافات بين لهجات المخيم الواحد ستكون قليلة جدا، فلو كان عرب البصرة من تميم وبكر فلهجاتهم متشابهة والمهاجرون من تميم وبكر وليس هناك تنوع لهجاتى كبير. فى حالة كهذه ينتج مشترك لغوى يختلف عن المشترك اللغوى الذى قد ينتج فى الفسطاط مثلا إن يتكلم معظم فاتحى مصر فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى لهجات غربية ومعظمها يمنية. فمشترك الفسطاط يجب أن يكون مختلفًا عن مشترك البصرة، وهما بدورهما يختلفان عن مشترك الكوفة ودمشق. التركيبة السكانية للأمصار الإسلامية يملى حالة مشتركات متعددة وليس مشتركًا واحداً. فى ضوء تركيبة سكانية كالتى أشرنا إليها توا، والتى سنسهب فى الحديث عنها فى الفصل التالى، يصعب أن يوجد مشترك لغوى فى بداية الفتوحات. أما السمات اللغوية التى استخدمها فرجسون لتدعيم فكرته فهى سمات يجب أن تكون

قد نمت فى مكان واحد لتكون قد انتشرت منه، وإن كانت تلك السمات قد ظهرت فى مشتركات لغوية مختلفة فمردها جميعا لأصل واحد يجب أن يكون قد تكوّن قبل الفتح، ولكن فرجسون لم يتنبه لتلك الاستنتاجات.

لقد وجهت انتقادات كثيرة لفكرة المشترك اللغوى التى طرحها فرجسون، من بين تلك الانتقادات أن بعض الباحثين وخاصة ممن لهم اهتمام بالساميات عمومًا قد ادعوا أن بعض تلك السمات على الأقل نتاج عملية نزوع عام مرت بها الساميات عموما. يدعى بلاو (١٩٨٨ ص٢٧ و ٢٨) أن اختفاء المثنى من الفعل والضمير والصفة قد حدث فى كل اللغات السامية الأخرى، وبالتالى فهى ظاهرة نزوع عام حدثت فى اللهجات العربية منفصلة بما أنها حدثت فى ساميات أخرى. من بين السمات الأخرى التى يعزوها بلاو (١٩٨٨ ص٢٩) لتأثر النزوع العام اختفاء الفعل معتل الآخر الذى آخره واو من اللهجات العربية الحديثة. هذا التصريف التحتى من الأفعال المعتلة اختفى قبل ذلك من العبرية ومن الآرامية اللتين هما من أقرب الساميات للعربية.

لقد قلت سلفًا: إن النزوع العام ليس تعليلاً لظاهرة لغوية أو لتطور لغوى ما، ولكنه فقط إشارة إلى أن الظاهرة نفسها حدثت فى لغات أخرى. سأقترح فيما بعد أن تطورًا مثل ذلك الذى أشرنا إليه توا يجب أن يكون قد نتج عن عملية تغييرات تركيبية كبيرة حدثت فى بنية العربية دخلت على تركيبات كانت فى حالة تطور أصلا فى اللغة العربية وأنماطها القديمة.

هناك سمات لا يمكن أن نعزوها للمشترك اللغوى بأى ثقة كالتلتلة على سبيل المثال. فقد كانت هناك لهجات تستخدم التلتلة ولهجات لا تستخدمها فى العربية القديمة قبل الفتوحات العربية؛ ولذلك لا يمكن أن نعتبر تعميم التلتلة إلا ظاهرة متأخرة نتجت عن تعميم ما فى مرحلة متأخرة ربما وليس له علاقة بالمشترك إن وجد. وما الدليل على أن التلتلة عممت وقت الفتح. هناك باحثون ومن بينهم بلاو (١٩٨٨ ص٢٨) يعتقدون أن التلتلة فى الأسماء والصفات قد ظهرت نتيجة لعمليات تطور منفصلة وعمليات اقتراض لغوى معقدة فى قرون لاحقة على القرن الأول الهجرى. أما سقوط المؤنث فى صيغة

التفضيل فقد حدث بحسب رأى بلاو (١٩٨٨ ص٣١) من خلال خصوصية تلك الصيغة فى العربية الفصحى، وضعف استخدامها بشكل عام. ولذلك فمن الحتمى لتركيب ضعيف مثل هذا أن يسقط؛ لأن لهجات العربية الجديدة أسقطت الصيغ الضعيفة فى الفصحى ومن الممكن جدا أن يكون قد سقط فى كل لهجة حضرية على حدة. من جهة أخرى فإن صيغ المؤنث فى الألوان والأعداد أكثر استخداماً وبالتالى أكثر ثباتاً من صيغة التفضيل المؤنثة، وصيغ المؤنث فى الأعداد والألوان ما تزال مستخدمة فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة؛ لأنها صيغ طبيعية فى تركيبها بحسب رأى بلاو.

من ناحية أخرى فإن السمات المعجمية الثلاثة التى استخدمها فرجسون للدفاع عن نظريته "جاب" و"شاف" و"إللى" لا يمكن أن تنتج عن نظرية مشترك لغوى. بين كوهين (١٩٦٣ ص١٣٩-١٤١) أن "شاف" و"إللى" ليستا موجودتين فى كل اللهجات العربية الحضرية؛ ولذلك لا يمكن أن تكون قد نتجت عن طريق مشترك لغوى واحد على الأقل. وضح كل من كاى (١٩٨٩ ص٢١٢) وتلمودى (١٩٨٤ ص٥٠) أن لهجة سوسا فى تونس تستخدم الجذر "رأى" بدلا من "شاف"، وكذلك بين كوهين (١٩٧٥ ص١٠٦) أن لهجة يهود مدينة تونس تستخدم "رأى" بدلا من "شاف". بالإضافة إلى شمال إفريقيا فإن اللهجات العربية اليهودية الحضرية فى اليمن والعراق لا تستخدم الفعل "شاف" (كاى ١٩٨٩ ص٢١٢-٢١٥). أما اللهجات العربية التى انقطعت عن لهجات شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا فى العصور الوسطى مثل اللهجة العربية المالطية واللهجة العربية المارونية فى قبرص فلا تستخدم الفعل "شاف" مطلقا. ويشير كوان (١٩٦٦ ص٤١٦) إلى أن العربية المالطية تستخدم "رأى". وكذلك بين نيوتون (١٩٦٤ ص٤٥) أن العربية فى قبرص تستخدم "رأى" وليس "شاف". وهذا يعنى أن استخدام "شاف" فى شمال إفريقيا على الأقل لا يمكن أن يكون قد حدث قبل العام ١٢٩٠ ميلادياً، أى عندما انفصلت مالطا عن العالم العربى (كوان ١٩٦٦ ص٤١٧). ولذلك فإن انتشار مثل تلك السمات المعجمية العربية قد يكون راجعا لعمليات نشر ودمج واقتراض لغوى طبيعية؛ ولذلك فإن غياب سمات من لهجات شمال إفريقيا والعراق يجب أن يكون له تفسير عند أدعياء نظرية المشترك اللغوى.

الاقتراض اللغوى والاتصال اللغوى ليسا مسألة غريبة على أنماط العربية، من بين أفضل الأمثلة على تلك العمليات مورفيم النفى فى الفعل فى لهجات شمال إفريقيا ومصر وهو المورفيم المحيط "ما-ش". يبين اختفاء هذه السمة الصرفية من لهجات شبه الجزيرة العربية الحديثة ولهجات الشام كلها أن هذا المورفيم لا يمكن أن يكون قد انتشر فى اللهجات الحديثة من موروثات عربية قديمة جاءت من مشترك لغوى. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه السمة الصرفية يجب أن تكون قد تطورت فى لهجات شمال إفريقيا ومصر قبل الصلات القوية جدا بين مصر وبلاد الشام فى الدولتين المملوكية والأيوبية. ولما كانت اللهجات الشيعية فى بلاد الشام تستخدم أداة النفى "ما-ش" فإن هذا يعنى أن الفاطميين فى مصر قد استخدموا تلك السمة الصرفية قبل هجرتهم من مصر إلى بلاد الشام فى القرن العاشر الميلادى (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٧١)[٧]. ولذلك فمن الصعب فى أحيان كثيرة أن نحدد بدقة ما إذا كانت سمة لغوية معينة وخاصة السمات الصوتية والمعجمية قد تطورت من خلال مشترك لغوى، أو من خلال اتصال لغوى أو اقتراض.

بالإضافة إلى ذلك هناك فروق نحوية تركيبية قليلة جدا، فهناك على سبيل المثال تشابهات كبيرة جدا بين أنظمة الأفعال وتصريفاتها فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة كافة، واستخدام الأدوات والإشارات الزمنية واستخدامات اسم الفاعل (بروستاد ٢٠٠٠ ص١٦٦ و ١٦٧). هناك أيضا توازيات مثيرة للعجب بين اللهجات فى استخدام صيغ النفى، فكل اللهجات تمتلك ثلاثة مركبات للنفى، يختص الأول منها بنفى الفعل (بروستاد ٢٠٠٠ ص٢٨٤ و ٣٠١)، وهناك صيغة تركيبية أخرى لنفى الخبر فى الجملة الاسمية (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٠١-٣٠٦)، وهناك صيغة لنفى الجنس (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٠٦-٣١٣). علاوة على ذلك فإن كل اللهجات تتصرف بالطريقة نفسها فى استعمال تلك المركبات، وفى استبدال مركب منها بآخر. ويضاف إلى التشابهات بين

(٧) صدرت ترجمة عربية لكتاب بروستاد عن اللهجات العربية تحت عنوان "قواعد اللهجات العربية" عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر عام ٢٠٠٤ .

اللهجات تشابه الطيبولوجيا، فكل اللهجات تمتلك ترتيب كلمات واحدا فى بنية الجملة كما تمتلك أنواع الجمل الاسمية والفعلية نفسها. وقواعد استخدام نوعى الجمل فى اللهجات العربية تكاد تكون متماثلة (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٦٨)، وحتى عندما تستخدم اللهجات العربية أنواعا مختلفة من ترتيب الكلمات فى الجمل مثل أنواع الجمل التى تبدأ بمفعول به، والجمل التى تقدم الخبر على المبتدأ فإن سلوك اللهجات تجاه تلك الأنماط واحد وحملها الوظيفى قريب وحملها الدلالى متماثل. من الصعب أن نقبل فكرة أن تلك التشابهات النحوية والتركيبية الكبيرة بين اللهجات العربية الحديثة قد نتجت من خلال مشترك لغوى تأسس فى ظروف غير مواتية بالطريقة نفسها التى اقترحها فرجسون. بل إنه من الأقرب أن نفترض أن تكون تلك التشابهات نتاجا لأصل عربى قديم واحد تفرعت عنه اللهجات الحضرية الجديدة التى أورثت اللهجات العربية الحضرية الحديثة تلك السمات بشكل منفصل.

وإذا وسعنا منظورنا ليشمل محيط العربية فى لهجاتها الحديثة من المحيط إلى الخليج؛ لتبين لنا وجود أنماط متماثلة وصيغ تركيبية متماثلة وتطورات صرفية نحوية متماثلة فى مناطق منعزلة جغرافيا بعضها عن البعض الآخر. من الصعب تصور أن تكون أمثال تلك التراكيب أو الأنماط من نتاج اتصال لغوى أو تجاور، ولما لم تكن تلك التراكيب عامة بين اللهجات كلها؛ ليس من الممكن أن تكون قد تطورت من خلال مشترك لغوى قديم واحد. من أفضل الأمثلة على تلك التراكيب استخدام أداة التنكير المحددة "شى" التى تستخدمها اللهجة المغربية واللهجة السورية، بينما لا تستخدمها اللهجة المصرية ولا تستخدم أى انعكاس لها أو تنويعة عليها. وكذلك لا تستخدم لهجات الخليج العربى تلك الأداة بأى شكل من الأشكال. يجب أن يكون هذا التركيب قد طور فى اللهجتين السورية والمغربية، كل على حدة بشكل مستقل، أو ربما يكون قد ظهر من خلال أصل مشترك واحد لتلك اللهجات يختلف نوعًا ما عن الأصل الذى نشأت منه اللهجة المصرية من اللهجات العربية القديمة.

هناك بعض أدوات التعليم الاسمية الأخرى التى تشير إلى الأصل نفسه. من بين تلك الأدوات أداة الابتداء "واحد" وأسماء الإشارة (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٧٠ هامش ١)[٨]. وأوجه النقد التاريخية، والسكانية، واللغوية التى سقناها توا تتحدى نظرية فرجسون، ولكنها فى واقع الأمر لا تنفيها كلية[٩]، ولكن ظاهرة المشترك اللغوى قد تكون حدثت بأشكال عدة، ولكنها لم تنتج التركيبات، والعناصر الصرفية، والصوتية نفسها كما يتخيل فرجسون، ولكن المشترك العربى القديم يجب أن يكون الأغلب من بين تراكيب اللهجات العربية الجديدة واللهجات العربية الحديثة أيضا.

أعتقد بصحة المشترك اللغوى، ولكن بطريقة تختلف عن التى وصفها فرجسون. فبعد ظهور المدن العربية من أصل مخيمات ومعسكرات بسيطة وبعد انتهاء مرحلة الفتوحات الكبيرة بدأت الحياة فى تلك المدن تأخذ شكل الحياة المستديمة. ولما كان سكان كل مدينة من المدن قد جاءوا من مناطق لهجاتية عربية قديمة متقاربة نسبيا فى شبه الجزيرة العربية؛ فقد كانت لهجاتهم متجانسة نسبيا والفروق الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والنحوية بينهم لم تكن كبيرة. ولذلك فقد كان من السهل تعديل أى اختلافات بسيطة وتنويعات لغوية موجودة. فإن كان صحيحا أن قبائل معينة اشتركت فى فتوحات معينة، فهذه القبائل من المفروض أن تكون قد سكنت مدنا بعينها دون غيرها فاستخدمت لهجات تلك القبائل فى تعريب المناطق المحيطة بتلك المدن.

وهذا يعنى أن عرب البصرة مثلا كانوا ينتمون لمجموعة خاصة من اللهجات العربية تختلف عن مجموعة اللهجات التى يتكلمها العرب الذين اشتركوا فى فتح مصر، وأسسوا الفسطاط وسكنوها. إن صح هذا السيناريو فإن كل مدينة يجب أن تكون قد طورت مشتركها اللغوى الخاص بها. ولما كانت قواعد اللهجات العربية الحديثة وتركيباتها النحوية متشابهة إلى حد كبير؛ فإن الفروق بين المشتركات اللغوية المختلفة

(٨) للمزيد عن هذا الموضوع انظر كتاب بروستاد (٢٠٠٠) أو انظر ترجمته العربية.

(٩) للحصول على تلخيص لنظرية فرجسون انظر ميلار (١٩٨٦ ص٤٧-٧٤) أما نقد النظرية بالتفصيل فهو عند بلاو (١٩٦٥ ص١٢)، وبلوخ (١٩٦٧)، وكوهين (١٩٧٥ ص١١٥-١١٩).

إن وجدت فهى فروق صوتية أكثر من أى شىء آخر. ومع ذلك فإن كانت الفروق بين اللهجات قد سويت فى شكل مشتركات، فكيف لنا أن نفسر التشابهات بين اللهجات العربية الحديثة، والتى من المفترض أن تكون قد نشأت من مشتركات لغوية منفصلة، ومرت بمراحل تعلم وانتشار متباينة؟.

يدعى كوهين (١٩٧٠ ص١٠٥-١٢٥) فى نموذج معدل لنظرية المشترك اللغوى أن التشابه بين اللهجات العربية الحضرية الحديثة أمر راجع لعمليات دمج لغوى تاريخية. يعتقد كوهين أن الاختلافات بين لهجات القبائل العربية القديمة قد تمت تسويتها بشكل كبير فى المعسكرات، واستطاع كل إقليم من الأقاليم المفتوحة أن يطور لهجته الخاصة أو مجموعة لهجاته الخاصة لاحقا من أصل مشترك لغوى كان نتيجة عمليات الدمج والتسوية التى تمت فى تلك المعسكرات. يتيح لنا هذا التصور أن نعتقد أنه إن صح فإن اللهجات العربية الجديدة قد ظهرت من خلال مشترك لغوى بشكل مستقل فى كل إقليم من الأقاليم المفتوحة، وفى كل مصر على حدة من مشترك لغوى يختلف ولو قليلا عن أصل العربية القديمة التى جاء منه وبإضافة أى تأثير تحتى محتمل قد تكون اللغات المحلية قد فرضته على نمط العربية الجديدة الذى تعلمه مستخدموها والمتحولون عنها محليا كأى تأثيرات صوتية أو صرفية أو معجمية. وفى مرحلة لاحقة عندما أصبحت بعض الأمصار أقوى من بعضها الآخر، فقد استطاعت أن تنشر بعض سماتها اللغوية لمناطق أخرى فى عمليات نشر غير منظمة عمومًا. علاوة على ذلك فقد بدأت كل اللهجات دون اختلاف بينها فى اقتباس سمات من العربية الفصحى ومن لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلى.

النشر والاقتراض عاملان قد ساعدا بحسب كوهين فى تقريب اللهجات العربية الجديدة بعضها من البعض الآخر. من أهم الأمثلة على انتشار سمات لغوية بالاتصال المشترك بين اللهجات من خلال عملية النشر كان انتشار أداة النفى "ما-ش" فى كل من مصر وشمال إفريقيا. ولكن غياب تلك السمة النحوية الصرفية من اللهجات العربية المجاورة لمجموعة اللهجات المصرية يبين أن تلك السمة لم تنتشر بعد ذلك بمجرد التجاور اللهجاتى والاتصال، ولكن اشتراك اللهجات العربية الشيعية فى استخدام تلك

السمة فى إقليم الشام يدلل على أن تلك السمة كانت خاصة باللهجات العربية الشيعية فى المنطقة العربية. إن كان هذا الطرح صحيحًا؛ فإنه من الممكن أن نفترض أن تلك السمة قد تطورت فى شمال إفريقيا وانتقلت إلى مصر مع فتح الفاطمين لإقليم مصر. وعندما هاجر الشيعة والدروز من مصر بعد الفاطميين فقد استمرت تلك السمة فى لهجاتهم، وعلى ذلك فإن شمال إفريقيا فى مرحلة الفاطميين كان مركز ثقل لغوى انتشرت منه سمة أداة النفى "ما-ش" فى الجناح الغربى من العالم العربى، وأسهمت الهجرات وانتقال الشعوب بنقل تلك السمة لبلاد الشام لتصبح من سمات اللهجات الطائفية.

إذا كان الدمج مسئولا عن التقريب بين لهجات تطورت بشكل مستقل، فإن ذات الدمج مسئول عن العناصر الصرفية والصرفية النحوية فى مستويات التحليل اللغوى العربى والتى تظهر تشابهات كبيرة، ولكنه يجب أن أن يكون أيضا مسئولا عن السمات الصوتية فى تلك اللهجات. ولكننا إن نظرنا إلى اللهجات العربية الحضرية عموما لوجدنا أن هذا التصور ليس صحيحًا. إن اللهجات العربية الحضرية فى شمال إفريقيا على سبيل المثال تستخدم صوت القاف العربى الفصيح، بينما تستبدله لهجات مصر الحضرية بالهمزة. هناك فرق صوتى آخر يخص صور صوت الجيم الفصيح؛ تستخدم بعض اللهجات العربية الحضرية السورية الصوت نفسه وتختلف عنه بعض لهجات سوريا اختلافات بسيطة، بينما تستبدل مصر الجيم الاحتكاكية الفصيحة بصوت انفجارى مجهور هو الجيم القاهرية فى بعض اللهجات الحضرية المصرية.

وإن افترضنا جدلا أن الدمج كان مسئولا عن التقريب بين اللهجات العربية الحضرية فى المستويات اللغوية الأعلى من مستويات التحليل الصوتى، فكيف تستطيع نظرية الدمج أن تفسر ظهور سمات تركيبية أو صوتية فى مناطق متباعدة لم يحدث تاريخيا بينها اتصال، أو تجاور، أو هجرة بشكل ما دون أن تكون اللهجات المتوسطة بين الإقليمين تحمل من السمة نفسها ولو حتى صورة؟ تعتبر أداة النكرة المحددة فى اللهجتين السورية والمغربية مثلا مناسبًا؛ لأنها توجد فى كلا الإقليمين دون أن توجد فى اللهجات الوسيطة فى مصر التى كانت محطة وسيطة لسمة أخرى هى أداة النفى "ما-ش".

فإن كان الدمج مسئولا عن كل التشابهات بين اللهجات العربية الحديثة؛ فإن لهجة مصر الحضرية كان يجب أن تطور أداة نكرة محددة مثل "شي" أو على الأقل تطور الفكرة نفسها بتركيب لفظى مختلف.

تشير السمات التركيبية الواحدة التى تطورت بصيغ لفظية مختلفة فى كل اللهجات إلى أن الأفكار النحوية أو التراكيب كانت موجودة فى كل المدخلات اللغوية التى أسهمت فى عمليات التعريب فى كل الأقاليم العربية، ولكن اللهجات التى استخدمت تلك الأفكار النحوية الواحدة طورت صيغا لفظية متباينة فى عملية التعريب والتعلم التى استمرت قرونا. تقترح السمات التركيبية نفسها التى ارتدت زيا لفظيا مختلفا وجود أصل مشترك للهجات العربية الحضرية الحديثة يضمن بنية تركيبية صرفية موحدة بشكل كبير، ولكن اللهجات العربية الحضرية تطورت فى بعض سماتها بشكل مستقل يختلف فيه تطور كل لهجة عن الأخرى فى عناصر نحوية صرفية مهمة مثل سوابق الفعل المضارع ونظام الإضافة التحليلى. ولكن اللغة العربية باعتبارها مركبًا لغويا فى مرحلة ما من مراحل تطورها سمحت بأن تنتشر بعض السمات من إقليم لآخر كما كان الحال مع السمات المعجمية مثل "شاف"، ولكن الدمج فى مراحل متأخرة لم يسمح للعربية بالتخلص من فروق لهجاتية مثل السمات الفعلية والإضافة التحليلية.

أتفق مع كوهين (١٩٧٠) على ظهور مشتركات لغوية متعددة فى الأقاليم العربية ولو من الناحية التاريخية النظرية؛ فقد تأسست مدن صغيرة خارج شبه الجزيرة العربية فى مرحلة تكوين اللهجات العربية الجديدة حيث تطورت المشتركات اللغوية. إذا كانت تصوراتى التى سأقدمها فى الفصل القادم صحيحة، وكانت المراكز الحضرية الجديدة تحتوى على سكان عرب يتكلمون لهجات عربية قديمة متشابهة إلى حد كبير؛ فإن الفروق اللهجاتية يجب أن تكون صغيرة جدا والدمج بينها ونشر العناصر المشتركة أمرًا سهلاً نسبيا. وانتشرت المشتركات اللغوية العربية الجديدة من المراكز الحضرية إلى باقى الأقاليم. وبعد تلك المرحلة المبكرة ربما قد يكون الدمج حدث فى مراحل متعددة كما كان الحال فى أداة النفى المصرية التى وردت بالهجرة من شمال إفريقيا. وربما يكون التطور المتوازى قد حدث فى اللهجات العربية بشكل مستقل فى تلك

المراحل المتأخرة نفسها حيث أثمر نزعات تركيبية واحدة بصيغ لفظية مختلفة كما كان الحال مع الإضافة التحليلية "بتاع-تبع-مال-ديال" وأداة النكرة المحددة. ربما تكون المشتركات اللغوية والنزعات المتأخرة للتطور اللغوى مسئولة عن بعض التشابهات فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة شكلا ومضمونا أو مضمونا فقط.

ولكن نظرية المشتركات اللغوية المختلفة فى الأقاليم العربية لا تفسر الاختلافات بين اللهجات العربية الحضرية الحديثة. على الرغم من أن المستويات التركيبية العربية متشابهة تشابهًا كبيرًا فى كل اللهجات العربية الحضرية الحديثة فإن تلك اللهجات فى بعض الأحيان اتبعت طرقا متفردة فى التطور تميزها بعضها عن البعض الآخر. ففى اللهجات العربية السورية الحضرية على سبيل المثال هناك علامة عائدة للمفاعيل تعلم المفعول به والاسم الوارد بعد حرف جر عندما تكون تلك المفاعيل فى حالة تحديد عالية، وهذه الأداة هى "لِـ" وتوضع قبل الاسم. وتستخدم تلك الأداة لتعلم المفعول والاسم بعد حرف الجر عندما يكون الاسم المراد فى نهاية الجملة أو عندما ينقل لنهايتها (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٥٢). وظيفة تلك الأداة تحديد المفعول به المنقول من مكانه بشكل صرفى. هذه الطريقة النحوية الصرفية مستخدمة فى اللهجات السورية والشامية فقط، وهى تتناغم مع نزوع تلك اللهجات لتعليم الأسماء عالية التحديد عموما والاهتمام بها نحويا وصرفيا. من أفضل الأمثلة على هذا الاهتمام النحوى وجود أداة التنكير المحددة (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٧٠).

أما اللهجة العربية المغربية ففيها اسم موصول يشبه باقى الأسماء الموصولة فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة وهو "إلى"، وبجانبه هناك طريقة أخرى للوصل تتفرد بها تلك اللهجة دون غيرها من اللهجات الحديثة. فهناك فى تلك اللهجة اسم موصول هو "قاش" يستخدم مع الأسماء منخفضة التحديد من غير العاقل (بروستاد ٢٠٠٠ ص١٠٦-١٠٧)، ولا يتطلب استخدامه أى تحديد للموقع باستخدام ضمير عائد، وحتى فى الاستخدام العادى لجملة الصلة والاسم الموصول "إلى" فإن اللهجة المغربية الحضرية الحدينة نادرًا ما تستخدم ضمير العائد لتحديد مواقع الكلمات فى الجملة إلا فى حالات الجمل المنفية. مستويات التحليل الصرفية النحوية خاصة متراوحة ومتنوعة فى اللهجات

العربيـة الحضرية الحديثة، ففى اللهجـات الحضـرية السـورية الحديثة يصـبح الحمل الوظيفى لسابقة "بـِ" على الفعل المضارع أكبر من باقى اللهجات العربيـة الحضرية الحديثة، فهى تحمل وظيفة التعبير عن المستقبل كما هو الحال فى اللهجات الخليجية، وهى تعبر عن الحال كما هو فى اللهجات الحضرية المصرية. أمثال تلك التطورات الفريدة فى بعض اللهجات تحتاج إلى تفسير، وانفرادها يحتاج إلى نظرية تشرح لنا لماذا تطورت بهذا الشكل، وكيف لم تنتشر أو تسقط إن كانت اللهجات العربية ذات أصل واحد، وإن كانت مرت بمراحل تسوية ودمج تاريخية.

اقترح بعض الباحثين تفسيرا للاختلافات التركيبية والصوتية بين اللهجات العربية الحضرية الحديثة، وهو تأثير اللغات التحتية. اللغات التحتية هى اللغة أو مجموعة اللغات المحلية التى تكلمها غير العرب فى الأقاليم قبل استخدامهم العربية أو معه إن كان فى إقليم من الأقاليم تعدد لغوى. ويعنى هذا أن اللهجات العربية وقعت تحت تأثير اللغات المحلية المختلفة والتى اختفت بتغطية العربية لوظائفها اللغوية فى بعض السمات المتناثرة على مستويات مختلفة من التحليل اللغوى، وتختلف تلك التأثيرات عن التأثيرات التى خضعت لها لهجات أخرى تعرضت لتأثير لغات تحتية أخرى. فكانت الاختلافات تبعا لاختلاف اللغة التحتية. فلما كان المدخل اللغوى الجديد وهو العربية ليس متنوعًا تنوعًا كبيراً كما تبين اللهجات العربية الحديثة؛ فقد تطورت السمات اللغوية التى تختلف فى لهجة عن الأخرى بحسب تلك النظرية من خلال عمليات تعلم منفردة عندما استخدمت الشعوب المحلية العربية واستخدمها كل بطريقته الخاصة وحسب خلفيته اللغوية واللغوية الاجتماعية الخاصة.

تأثير اللغات الأصلية للشعوب المحلية فى المنطقة العربية ينقسم لشقين : هناك تأثير اللغات التحتية، وهناك تأثير اللغات الجانبية. نتحدث عن تأثير لغة جانبية عندما تكون تلك اللغة موجودة مع العربية جنبا إلى جنب وتؤثر عليها؛ لأنها ما تزال تستخدم فى بعض الوظائف اللغوية فى جماعة من الجماعات اللغوية الموجودة، هذا هو الحال فى الجماعات اللغوية الموجودة فى شمال إفريقيا، حيث تتعايش العربية مع اللهجات البربرية المختلفة فى تلك المنطقة والتى ماتزال تمثل اللغة الأم لبعض سكان

القبائل فى المغرب، والجزائر، وبعض مناطق تونس. يقدم فرستيغ (١٩٩٧ ص١٠٤) ثلاثة أمثلة على تأثير اللهجات البربرية على بعض اللهجات العربية فى الجزائر، فهناك نحو ١٥٠ كلمة تبدأ بسابقة همزة توضع قبل الاسم فى تلك اللهجة البربرية، وامتدت تلك السابقة لكلمات عربية مستخدمة فى تلك المنطقة مثل كلمة "أصدر" التى تعنى "صدر"، وتستخدم تلك السابقة الآن فى اللهجات العربية فى تلك المناطق لتقوم بوظيفة أداة التعريف العادية فهما لا يحلان معا فى الكلمة نفسها، فإما هذه وإما تلك، ولكن تلك السابقة اختيارية إلى حد كبير حيث يمكن أن تسمع الكلمة بدونها. المثل الثانى الذى يسوقه فرستيغ على تأثير لغة جانبية هو تغيير جنس بعض الكلمات، فكلمة "لحم" كلمة مؤنثة فى اللهجات العربية المستخدمة فى تلك المنطقة مع أنها مذكرة فى الفصحى؛ لأن اللهجات البربرية المستخدمة فى المنطقة تؤنث الكلمة التى تعنى اللحم. المثل الثالث التعامل مع بعض الكلمات على أنها جمع مع أنها فى العربية مفردة مثل كلمة "ماء" التى تستخدم مجموعة فى اللهجات البربرية.

هذا هو التأثير الجانبى، ولكننا فى واقع الأمر لا نعرف إن كانت تلك الأمثلة دليلا على عملية نقل فى التعلم من لغة إلى لغة، أو أنها عملية تصاحب التعدد اللغوى حيث تؤثر اللغات أو أغلبها على تراكيب بعضها البعض إذا ما تمّ الاتصال، ولذلك لا نعرف كنه الموقف اللغوى والتأثيرات إن زالت حالة التعدد اللغوى بزوال اللغة الجانبية فى تلك المناطق، ولكننا يجب أن ننتبه أيضا إلى أن تغيير جنس كلمة من الكلمات أو حتى تغيير وضع كلمة من مفرد لجمع أو العكس قد حدث فى لهجات عربية أخرى لم يكن لها أى اتصال باللهجات البربرية بشكل أو بآخر، ففى اللهجة المصرية مثلا كلمة "رأس" مؤنثة بينما تتصورها العربية الفصحى كلمة مذكرة، وكذلك الحال فى كثير من اللهجات السورية.

أما تأثير اللغة التحتية فهو تأثير لغة قد اختفت وانتهت وظائفها اللغوية أو الاجتماعية اللغوية من عقلية الجماعة اللغوية المتكلمة؛ ففى حالة اللغة العربية واللغة الآرامية فى سوريا فهى حالة يذهب باحثون كثيرون إلى وجود تأثير تحتى فيها؛ من بين التأثيرات المزعومة للآرامية على اللهجات العربية السورية النطق المهموس لصوت

القاف العربى ليصبح همزة، ولكن اشتراك لهجات عربية أخرى فى النطق نفسه للصوت نفسه مع غياب اللغة الآرامية عن الخلفية اللغوية لتلك اللهجات يضعف هذا التفسير إضعافًا كبيراً. من بين تأثيرات الآرامية المزعومة على العربية حذف أصوات اللين القصيرة، الكسرة، والضمة، وتغيير موقع نطق الأصوات الأسنانية إلى أصوات لثوية. تحويل موقع النطق من أسنانى إلى لثوى ظاهرة حدثت أيضا فى اللهجات العربية المصرية كلها وخاصة اللهجات الحضرية، وهناك لهجات أخرى غير اللهجة السورية تحذف أصوات اللين القصيرة من المقاطع العربية (فرستيغ ١٩٩٧ا ص١٠٣-١٠٥).

من الممكن جدا أن تكون لهجة عربية قد طورت سمة صوتية، أو صرفية، أو تركيبية خاصة بها دون اللهجات الأخرى بواقع تأثير تحتى أو جانبى، ولكن حدوث الظاهرة نفسها حتى لأسباب تطور لغوى أخرى فى لهجات مختلفة كانت لها لغات تحتية مختلفة يصعب على الباحث الموضوعى أن يصدق التفسير التحتى. فقد تكون الظاهرة نتيجة تأثير تحتى، وربما تكون نتيجة تطور منفصل متوازٍ، وربما أيضا تكون نتيجة لعملية نشر أو اقتراض فى مرحلة تاريخية لم ندركها حتى الآن. إذا كانت اللهجات المصرية مثلا قد فقدت الأصوات الأسنانية واستبدلتها بأصوات لثوية، وإذا كانت القبطية وهى اللغة التحتية تمتلك أصواتا لثوية فقط؛ فإن هذا مؤثر على إمكانية تأثير القبطية على المصريين فى حالة تعلمهم العربية، فلم يستطيعوا بواقع تأثير اللغة الأم أن ينطقوا الأصوات الأسنانية العربية الفصيحة فحولوها لأقرب نظير لها يعرفونه فى لغتهم الأم. ولكننا عندما نعرف أن اللهجات السورية مثلا وغيرها قد حولت الأصوات الأسنانية إلى أصوات لثوية فإن هذا التفسير يضعف كثيرا، وخاصة أن التحول حدث من سمة لغوية معرضة(١٠) لسمة اعتيادية، أى أن التحول طبيعى.

(١٠) السمات المعرضة هى السمات اللغوية المركبة والصعبة والتى يندر وجودها فى لغات كثيرة، وبالتالى يكون من الطبيعى فى حالات التطور اللغوى أن تتخلى اللغات عنها، وهذا طبعا من الناحية الطيبولوجية النظرية. من بين تلك السمات المعرضة فى الصرف العربى لواحق المثنى وجمع المؤنث فى الفعل والاسم .

الظواهر اللغوية المعرضة أكثر قابلية للتغيير والتطور من الظواهر اللغوية الاعتيادية، ولذلك فمن الممكن جدا أن يكون التحول من الأصوات الأسنانية إلى الأصوات اللثوية أمرًا طبيعيًا وقد يحدث دون تأثير تحتى أو جنبى. فى بعض الأحيان عندما يتم تقديم تطور لغوى جديد فى سياق لغوى معين يحدث أن يكون هناك استخدام النمط المتطور بالتوازى مع استخدام النمط القديم لفترة من الزمن فى الجماعة اللغوية نفسها. وفى حالة مثل هذه، التى قد نمثل لها بالتحول من الأصوات الأسنانية إلى الأصوات اللثوية، قد يكون دور اللغة التحتية أو الجانبية هو التحفيز على اختيار سمة من السمتين البديلتين، وغالبا ما يحدث ذلك فى إطار سياق تعلم لغة ثانية، فيكتسب الجيل المتعلم سمة واحدة من السمتين ويبطل استخدام السمة الأخرى فى الجماعة اللغوية. إذا لم تكن اللغة التحتية تمتلك البديل القديم؛ فإنه من الطبيعى أن يختار أبناء اللغة التحتية فى تعلمهم للغة الهدف البديل المتطور، فى حالة التحول من الأصوات الأسنانية إلى الأصوات اللثوية فإن القبطية والآرامية لم تكونا تمتلكان أصواتا أسنانية، ومن المنطقى لأبناء هاتين اللغتين أن يختاروا الأصوات الأسنانية، وعلى ذلك فمن الممكن أن يكون دور القبطية والآرامية باعتبارهما لغتين تحتيتين هو ترجيح كفة الميزان لصالح التطور اللغوى ليس غير. ولكن اللغة التحتية غالبا فى سياقات تعلم لغة كالتى سنتكلم عنها فى الفصل التالى لا تستطيع أن تنتج تطورًا لغويا ثابتًا.

يمكن قول الشىء نفسه بالنسبة للتصريف الإعرابى وعلامات الإعراب. ففى اللهجات العربية القديمة فى شبه الجزيرة العربية فقدت بعض اللهجات علامات الإعراب والتصريف الإعرابى، واحتفظت به لهجات أخرى بشكل من الأشكال، ولما كانت اللغات التحتية فى الأقاليم قد فقدت علامات الإعراب والتصريف الإعرابى (الآرامية مثلا) قبل الفتوحات العربية بفترة طويلة أو لم تمتلك نظامًا مشابهًا قط (القبطية والبربرية مثلا)؛ فإنه من المنطقى أن يستخدم المتعلمون للعربية فى إطار التحول اللغوى اللغة العربية دون العلامات الإعرابية أو التصريف الإعرابى إن كانوا قد تعرضوا للنظامين فى الوقت نفسه. لا أتصور أن هذا المثل الأخير منطقى بشكل كبير، ولكنه من الناحية اللغوية النظرية ومن ناحية نظريات تعلم اللغة الثانية مثل ممكن نظريا. ولكننى أتصور

أن نظام التصريف الإعرابى وليس نظام العلامات الإعرابية إما موجود فى نمط لغوى وإما غير موجود فيه، ولكن تأثير اللغات التحتية يجب أن يبقى محدودا من وجهة نظرى فى إطار مرحلة من مراحل تعلم العربية عند الفرد، وخاصة فى الجيل الأول من المتعلمين إن كان من الممكن تقسيم تعلم العربية فى القرنين الأول والثانى لأجيال. ولا يمكن نظريا على الأقل أن يكون للغات التحتية تأثيرها المستديم على اللهجات العربية الجديدة، والتى بدورها نقلته للهجات العربية الحضرية الحديثة.

سأتكلم فى الفقرات التالية بتفصيل محدود عن حالة درست كثيراً من حالات تأثير اللغة التحتية، وهى حالة تأثير القبطية على مجموعة اللهجات العربية المصرية وخاصة الحضرية منها. هدفى هنا توضيح الضعف النظرى لهذا النوع من التأثير فى سياق تاريخى لغوى.

تعتبر ظاهرة التأثير المزعوم للقبطية على اللهجات العربية المصرية مثلاً طيباً على حالة البحث فى هذا المجال فى اللغة العربية؛ فقد درس كثير من العلماء التأثير التحتى للقبطية دراسة عميقة إلا أن تلك الدراسة لم يكن لها نتائج إيجابية كثيرة فى غالب الأحيان[١١] . أما من ناحية التأثير الصوتى للقبطية على العربية المصرية فقد قدم الباحثون أطروحات عدة، فنجد أن بريتاريوس (١٩٠١ ص١٤٥) يقول: إن التحولات الصوتية التى تطرأ على أصوات اللين داخل المقاطع والمماثلة لأصوات اللين الأخرى وللصوائت هى من تأثير القبطية وسلوك أصوات اللين فيها. ولكن كون سلوك أصوات اللين نفسه موجودا فى اللهجات العربية الفلسطينية يضعف ذلك الزعم بشكل كبير. ووضع ليتمان (١٩٠٢ ص٦٨١) وبشاى (١٩٥٩ ص٦٣ و ٦٤ و١٩٦٠ ص٢٢٧) قائمة بسبعة تأثيرات صوتية أخرى للقبطية على العربية المصرية، وهذه الظواهر استخدام \p\ و \g\ و \ee\ و \oo\ فونيمات مستقلة، وإضعاف قوة صوت العين وغياب فحيح

(١١) على الرغم من سلبية النتائج العلمية فى هذا الصدد عموماً فإن باحثين كثيرين مثل بالفا (١٩٦٩ ص١٢٨) يتصورون أنه من المنطقى أن تؤثر القبطية فى العربية المصرية .

الأصوات الانفجارية المهموسة، وتغيير مكان نطق الأصوات الحنكية، وتغيير موقع نطق بعض الأصوات. السمات الثلاثة الأخيرة تؤدى لمجرد تغييرات فى صورة الصوت، أما السمات الأربعة الأولى فهى سمات فونيمية أساسية.

أما فيما يخص العناصر الأربعة الأولى التى سقتها فى الفقرة السابقة فقد بين بشاى (١٩٥٩ ص٦٤-٧٠) أنها ليست من تأثير القبطية التحتى فى شيء. ويدعى أن استخدام صوت \p\ فونيما مستقلا أمر حديث نتيجة التأثيرات الأوروبية لأن هذا الصوت يظهر فى كلمات حديثة مقترضة من اللغات الأوروبية (١٩٦٥ ص٦٥)، ويشير أيضا إلى أن صوت الجيم القاهرية لا يمكن أن يكون من تأثير القبطية؛ لأن هذا الصوت يظهر فى اللهجة البحيرية القبطية فقط صورة صوتية من صوت الكاف، وليس فونيما مستقلا (١٩٥٩ ص٦٥). وكذلك ينفى بشاى أن تكون عمليات إضعاف صوت العين أو استخدام أصوات المد الطويلة من تأثير القبطية على العربية المصرية؛ لأن تلك العمليات ظهرت حسب تطوره من عمليات تطور داخل اللغة العربية نفسها. ففى حالة صوت العين مثلا نجد أن الميوعة نفسها فى النطق حدثت فى الأكادية القديمة كما أنها حدثت فى العبرية الحديثة، علاوة على ذلك فقد كانت هناك مؤشرات على أن بعض اللهجات العربية القديمة قد استخدمت صوت عين ضعيف فُقدت خاصية الحلقية منه (بشاى ١٩٥٩ ص٦٧ و ٦٨).

أما من الناحية النحوية والناحية النحوية الصرفية فقد أثبت سبيتا (١٨٨٠) وجلتير (١٩٠٢ ص٢١٢-٢١٦) أن القبطية لم يكن لها أى تأثير على اللهجات العربية المصرية من الناحية التركيبية بأى حال من الأحوال. ولكن بشاى فى مجموعة من المقالات (١٩٥٩ ،و١٩٦٠ ،و١٩٦١ ،و ١٩٦٢ ،و١٩٦٤) يتبنى وجود تأثير قبطى على اللهجات العربية المصرية. وقدم الباحث خمسة تأثيرات محتملة للقبطية على العربية المصرية، وهى كالتالى: ترتيب الكلمات فى الاستفهام (بريتاريوس ١٩٠١ ص١٤٥)، واستخدام "ما" قبل المضارع للتعبير عن الأمر، واستخدام تركيب مكون من "أ" كسابقة متبوعة بضمير متبوع بفعل فى الماضى للتعبير عن الزمن الماضى واستخدام الصفة متبوعة

بحرف الجر "عن" للتعبير عن المقارنة، واستخدام أسماء الإشارة فى الجمل الاسمية (انظر ليتمان ١٩٠٢ ص٦٨١-٦٨٤).

يقول بشاى (١٩٦٢ ص٢٨٧): إن الأمر فى القبطية تتم صياغته باستخدام المضارع العادى، أما فى حالة الأفعال التى تدل على الجعل أو الإرغام فإن هناك سابقة "ما" توضع قبل الفعل المضارع ليشكل الأمر. ويقول: إن اللهجات العربية المصرية تعبر عن صيغة الأمر بالطريقة نفسها التى تستخدمها العربية الفصحى صرفيا، إلا أن هناك طريقة أخرى للتعبير عن الأمر باستخدام سابقة "ما" قبل الفعل المضارع، وهى طريقة ليست موجودة فى العربية الفصحى، ولا فى أى لهجة عربية أخرى. ويدعى بشاى أن باقى اللهجات العربية الحديثة لا تستخدم "ما" بالطريقة نفسها التى تستخدمها اللهجة المصرية فى "ما - تشرب" للتعبير عن الأمر أو الاقتراح. ولذلك فهذا الشكل النحوى الصرفى لصياغة الأمر يجب أن يكون مستعارا من اللغة التحتية وهى القبطية بسبب التشابه فى الشكل والمضمون النحوى، ولكن بالفا (١٩٦٩ ص١٣٠-١٣٤) يختلف مع بشاى فى هذه النقطة، فيقول: إن تلك الطريقة فى صياغة الأمر ليست موجودة فى أى لهجة عربية أخرى إلا أن هناك تركيبًا مقاربًا فى العربية الفصحى دون غيرها من الساميات، ويقول: إن سابقة "ما" ترد فى العربية الفصحى مسبوقة بهمزة الاستفهام ومتبوعة بالفعل المضارع لتعبر عن أمر أو طلب لطيف، علاوة على ذلك فإن اللهجة الفلسطينية يبدو أنها تمتلك تركيبًا مشابهًا (بالفا ١٩٦٩ ص١٣١).

يعتبر بشاى (١٩٦٢ ص٢٨٦) أن ترتيب الكلمات فى الجمل الاستفهامية من بين السمات التى تأثرت فيها العربية المصرية باللغة القبطية التحتية. إذا كانت الكلمة موضع الاستفهام مبتدأ الجملة أو خبرها فى القبطية؛ فإن أداة الاستفهام توضع فى بداية الجملة، كما هو الحال أيضا فى العربية الفصحى واللهجات العربية المصرية الحديثة. وعندما تكون الكلمة التى يرغب فى السؤال عنها ظرفا، فإن العربية الفصحى واللهجات العربية المصرية والقبطية معًا تضع أداة الاستفهام فى بداية الجملة، ولكن اللهجات المصرية تمتلك إمكانية أن تضع أداة الاستفهام فى تلك الحالة مكان الظرف محل الاستفهام الطبيعى فى الجملة الخبرية، ولكن عندما يكون الاستفهام

على المفعول به لفعل الجملة الرئيسى، فإن اللغة العربية الفصحى تقدم أداة الاستفهام إلى بداية الجملة، بينما يكون من الواجب فى اللهجات العربية المصرية والقبطية الإبقاء على أداة الاستفهام فى مكان الاسم المستفهم عنه.

أنا أقبل هذا التفسير من بشاى، وأسلم بإمكانية تأثر العربية المصرية فى تلك النقطة بالقبطية عن طريق عملية نقل تحدث بشكل طبيعى فى عمليات تعلم اللغة الثانية، هذا على الرغم من أن العربية الفصحى - ولو من الناحية النظرية على الأقل - تمتلك إمكانية أن تحتفظ للمفعول به المستفهم عنه بمكانه فى الجملة التقريرية، بالضبط مثل القبطية واللهجات العربية المصرية[١٢] .

أما ديم (١٩٧٩) فإنه يتصور أنه لكى نستطيع أن نعزو أى سمة من سمات اللهجات العربية الحديثة لتأثير تحتى يجب التأكد من شرطين تأكدًا تامًا: الشرط الأول أن السمة المذكورة يجب أن تكون موجودة فى اللهجة العربية الحديثة وفى اللغة التحتية معا بالطريقة نفسها، الشرط الثانى أنه حيثما لم تكن اللغة التحتية مستخدمة لغة حديث قبل حلول العربية محلها فإن السمة اللغوية المعنية تختفى (١٩٧٩ ص١٢-٨٠). يجعل الجمع بين هذين الشرطين من المستحيل التفكير فى أى عناصر مختلفة فيما بين اللهجات على أنها من أثر اللغات التحتية. فالنطق المهموس لصوت القاف، والتحول من الأصوات الأسنانية للأصوات اللثوية وربما ترتيب الكلمات فى الجمل الاستفهامية فى اللهجات العربية المصرية تحتاج فى ظل هذه المحددات النظرية لتفسير عام أكثر يضعها فى سياقاتها الصحيحة باعتبارها سمات لتطور لغوى أكثر شمولاً وعموماً.

ويقول ديم (١٩٧٩) : إنه لا يمكن الاعتراف بتأثير اللغة التحتية فى اللهجات العربية الحديثة إلا فى سمات قليلة جدا لا تشكل ظاهرة أسهمت فى تطور التنوع اللغوى العربى المعاصر كما نراه. من بين تلك السمات القليلة حذف صوت العلة القصير (الفتحة) من المقاطع المفتوحة غير المنبورة فى اللهجات اللبنانية التى من الممكن أن تكون

---

(١٢) للحصول على مزيد من الآراء ضد تصور بشاى عن تأثر العربية المصرية بالقبطية انظر جالتير (١٩٠٢)، وانظر أيضا أوليرى (١٩٣٤ ص٢٥٢). وبالنسبة للباحثين الذين يرفضون أى نقل من القبطية للعربية فى ترتيب الكلمات وخاصة فى ترتيب كلمات الجمل الاستفهامية انظر مونزل (١٩٥٠ ص٧٦٦-٧٧٦) .

قد تأثرت بالبناء الصوتى للغة الآرامية التحتية. هناك أيضا حالات تأثير تحتى فى اللهجات العربية اليمنية التى حملت من اللهجات العربية الجنوبية القديمة بعض التأثيرات التحتية الصوتية؛ ففى ضمير المخاطب والمتكلم هناك لاحقة تصريف الفعل الماضى "كـ" وليست "ـت" كما هو الحال فى باقى اللهجات العربية الحديثة والعربية الفصحى. تلك السمة موجودة فى الجبال الغربية حيث كانت اللغة الحميرية مستخدمة لفترة طويلة (فرستيغ ١٩٩٧ا ص١٠٧). بالإضافة إلى ذلك فصيغة الجمع "فعول" و"فَعَوِل" الغائبتين من كل اللهجات العربية الأخرى موجدتان فى العربية اليمنية والمهرية دون غيرهما. يمكن أن تكون الصيغتان مقتبستين من المهرية إلى اللهجات العربية اليمنية حتى قبل الإسلام. تانك الصيغتان موجودتان فى المناطق الجبلية الغربية حيث استقرت أول هجرات القبائل العربية القديمة.

حتى لو كان ترتيب الكلمات فى الجمل الاستفهامية فى اللهجات العربية المصرية - بالإضافة إلى حالات ديم الخمسة السابقة - فكرة صحيحة ومن التأثير التحتى للقبطية إلا أن كل تلك الحالات قليلة عددًا، وتعدّ هامشية من حيث الأهمية فى الأنساق الصرفية والنحوية الصرفية العربية. ليس هناك أى فروق نحوية أو نحوية صرفية كبيرة بين اللهجات العربية الحديثة يمكن ردها لتأثير تحتى على الرغم من اختلاف اللغات التحتية التى كانت مستخدمة فى الأقاليم العربية قبل تعدى العربية على وظائفها كليًا أو جزئيا. ولكنه من الطبيعى جدا أن يكون تأثير اللغات التحتية محسوسًا بقدر كبير فى مجال المعجم. وقد أجريت دراسات كثيرة لمحاولة استقصاء دور المعجم القبطى فى حجم المعجم العربى المصرى. معظم الكلمات العربية المقترضة من القبطية تكون فى سياقات متخصصة مثل الديانة المسيحية مثلا، أو أسماء الحيوانات، والآلات، والنباتات، وأسماء الأماكن، ولكن اللهجات العربية المصرية لم تقتبس من القبطية أى كلمات من سياقات عامة، أما العدد الإجمالى للكلمات القبطية المستخدمة فى اللهجة العربية المصرية حسب بشاى (١٩٥٩ ص١٣٦) هو ١٠٩ كلمة فقط[١٣] .

(١٣) للمزيد عن الدراسات التى تخصصت فى المفردات القبطية فى العربية المصرية انظر صبحى (١٩٥٠) وبشاى (١٩٥٩) و (١٩٦٤) .

تلخيصاً لما سبق علينا أن نقول: إن تفسير التشابهات بين اللهجات العربية الحديثة باستخدام المشترك اللغوى باعتباره نظرية أو النزوع العام أو الاقتراض والنشر ليس مقبولا للأسباب النظرية والعملية التى قدمناها سلفا، وبالطريقة نفسها لا يمكن تفسير الاختلافات بين اللهجات من خلال تأثير اللغات التحتية، أو ربما لا تؤهلنا حالة البحث اللغوى التاريخى الحالية، ولا علوم تعلم اللغة الثانية من الاعتقاد بصحة تلك الفرضية، ولا تدعم المادة اللغوية أى فرضية نقل لغوى. لقد ظهرت بعض النظريات التى تقول بأن تفسير التشابه بين اللهجات العربية الحديثة والتشابهات بينها وبين العربية الفصحى على المستويات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية إنما يرجع للأصل العربى القديم الواحد الذى خرجت منه تلك اللهجات مروراً بالعربية الجديدة فى شكلها الحضرى المبكر. وتعزو تلك النظريات الاختلافات بين اللهجات العربية وبينها وبين الفصحى إلى عملية تعلم العربية باعتبارها لغة ثانية فى مراحل لاحقة وللآثار التركيبية التى حلت بالعربية فى أثناء تلك الفترة الطويلة من إعادة التركيب.

الفروق الصغيرة بين اللهجات تشير إلى تراوح واختلاف فى مصدر المدخل اللغوى الذى تم تداوله فى مراحل التعريب الأولى، على القارئ الكريم أن يتذكر أن كل ما نصوغه أو نسوقه هنا من وجهات نظر إنما تنصب على اللهجات الحضرية، والتشابهات الكبيرة من النواحى التركيبية والصوتية بين اللهجات توحى بأن اللهجات فى مراحل تكوينها فى فترات ما قبل اللهجات الحديثة – أى فى فترات العربية الجديدة – لم تتطور الواحدة منها بمعزل عن الأخريات، ولكننا لا نستطيع أن نهمل وجود أى دور محتمل للتطور المنفصل فى تاريخ العربية بعد القرنين الثانى والثالث الهجريين. كان هناك اختلاف كبير بين الباحثين عن أسباب الاختلافات النحوية والصرفية بين لهجات العربية الجديدة ولهجات العربية القديمة؛ فمن ناحية حاول النحاة العرب وبعض الباحثين الغربيين المحدثين أن يعللوا الفرق بين النمطين اللغويين بغير العرب ومحاولاتهم الفاشلة فى تعلم العربية والتى أدت للاختلافات الكبيرة بين العربية القديمة التى كانت نمطا توليديا يستخدم التصريف الإعرابى وعلامات الإعراب، والعربية الجديدة التى تستخدم لهجاتها نمطا لغويا تحليليا يخلو من التصريف الإعرابى وعلامات الإعراب.

ومن ناحية أخرى يعتقد معظم الباحثين الغربيين أن العربية الجديدة نتيجة مباشرة لتحولات لغوية مستقرة كانت تسرى فى اللهجات العربية القديمة وانتشرت وتوسعت فى العربية الجديدة.

فى مرحلة الفتوحات، وفى المرحلة التى تليها كان العرب متمركزين فى مخيمات ومعسكرات خاصة بهم دون غيرهم، ولم يكن الاتصال بغير العرب إلا فى الحدود الوظيفية فقط(١٤) . وعلى ذلك فالاهتمام الأكبر فى تلك المرحلة ومن الطرفين - العرب وغير العرب - كان بالتواصل لأداء وظيفة ما، ولم يكن بالصحة والدقة اللغوية. ولم يجد غير العرب فى بحثهم الجاد عن تعلم العربية لحاجاتهم الماسة فى التواصل مع العرب أى تعليم منظم أو مدارس تساعدهم على تعلم العربية.

ويقول النحويون العرب: إن النتيجة كانت محاولات تعلم خاصة وفردية أدت لتعلم ناقص للعربية، انتقل بدوره للعرب من الأجيال التالية للأجيال التى وصلت إلى الأقاليم. وسهل ذلك الاستقاء من غير العرب؛ لأنهم تغلغلوا فى كل طبقات المجتمع العربى وفى كل وظائفه. فتوغل اللحن فى كل طبقات العرب حتى أشرفها وأنبلها، وورث أطفال العرب الأنماط الملحونة باعتبارها لغتهم الأم. حدثت تلك التطورات اللغوية فى المناطق الحضرية حيث توافر غير العرب، ولكن الصحراء العربية ظلت لفترة طويلة بعد الفتوحات بمعزل عن تلك التطورات؛ لأن غير العرب لم يكونوا كثيرين فى الجزيرة العربية، أو فى بوادى الأقاليم. ولما هاجر العرب البدو من الصحراء فى شبه الجزيرة العربية، واختلطوا بغير العرب فى المدن الجديدة فى الأقاليم أصبحت اللغة الملحونة التى سمعوها لغتهم ولغة أبنائهم. وفى مرحلة لاحقة فقد هؤلاء البدو السليقة اللغوية العربية السليمة وأصبحوا أنفسهم من متحدثى اللهجات العربية الجديدة. أما الأعراب والعرب الذين لم يهاجروا من شبه الجزيرة العربية بعد الفتوحات فقد احتفظوا بلهجاتهم العربية القديمة كما هى.

(١٤) انظر الفصل التالى وخاصة القسم الثالث منه .

وقد شعر النحويون العرب فى القرنين الثانى والثالث الهجريين بالاختلافات بين اللهجات العربية الجديدة الموجودة فى المدن التى سكنوها فى الأقاليم، والتى وصفوها بالفساد، واللهجات العربية القديمة المستخدمة فى بوادى شبه الجزيرة العربية، والتى وصفوها بالصفاء اللغوى. وتصوروا لأسباب شكلية، فى اعتقادى، إلى أن اللهجات العربية القديمة التى ما زال البدو يستخدمونها فى شبه الجزيرة هى لغة القرآن الكريم، وبالتالى هى العربية الفصحى، وعلى ذلك فقد اعتمدوا على أعراب تلك البوادى باعتبارهم عناصر تحكيم لغوى ومخبرين لغويين فى دراساتهم التحليلية التى ازدهرت بداية من أواخر القرن الثانى الهجرى.

يدعى فوك الذى تبنى تصورات النحويين العرب القدماء نفسها أن الفروق بين اللهجات العربية القديمة فروق أسلوبية فقط (١٩٨٠ ص١٥)[١٥] . وإن كانت هناك فضلا عن ذلك أى فروق غير أسلوبية بين اللهجات العربية القديمة فقد تمت تسويتها فى المعسكرات الحربية إبان الفتوحات العربية من خلال ظهور مشترك لغوى، وكانت النتيجة المباشرة للفتوحات أن سيطر العرب على مساحات كبيرة من الأراضى والأقاليم الجغرافية المختلفة التى تستضيف على أراضيها ثقافات متباينة ولغات شتى. وفى رأى فوك كان من الممكن أن يضيع العرب فى هذا الخضم الكبير من الحضارات واللغات لو لم يكن هناك قاسم مشترك قوى، وهو وحدتهم اللغوية. ويعتقد فوك أن تلك اللغة العربية ظلت بمعزل عن تأثير اللغات الأخرى فى الإمبراطورية العربية الواسعة؛ بسبب احتفاظ بعض العرب بطريقة حياتهم العربية البدوية التقليدية. ولقد شجعت سياسة الهجرة التى تبناها الخليفة عمر بن الخطاب هذا التوجه نحو الحفاظ على طريقة الحياة العربية التقليدية، وعدم الانخراط فى حياة الأقاليم، فقد منع العرب من الانخراط فى حياة الزراعة أو الاستقرار فى الأرياف أو الانشغال بأى نشاط ليس من حضارة العرب إلا نشاط الحرب والجهاد؛ ولذلك فقد تمركز العرب وتركزوا فى مخيماتهم دون غيرها من الأقاليم (فوك ١٩٨٠ ص١٩). أما انهيار تلك السياسة فى مرحلة لاحقة فقد أثر

(١٥) لقد اعتمدت على الترجمة العربية لهذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى باللغة الألمانية عام ١٩٥٠ .

أثرًا شديدًا فى اللغة العربية، فقد أدى اندماج العرب مع غير العرب بصورة من الصور إلى قيام اللهجات العربية الحضرية فى تلك الأقاليم، والتى اصطلحنا على تسميتها باللهجات العربية الجديدة.

تصور فوك - ولا أوافقه فى ذلك - أن العرب الذين ورثوا الأراضى الزراعية التى هجرها أصحابها الأصليون اضطروا للسكن فى الأرياف فى أعداد قليلة فى بحر من السكان الأصليين غير العرب، وحتى الأماكن التى كان العرب يشكلون فيها أغلبية عددية فقد هاجر كثير من السكان الأصليين إليها بشكل كبير وموسع. ففى مدن المعسكرات فى العراق على سبيل المثال هاجرت أعداد كبيرة من الجند الفرس والتحقت بالجند العرب وسكنت المعسكرات العربية، وكذلك استفادت أعداد كبيرة من الصناع والعمال والتجار الصغار من المدن والمعسكرات العربية الوليدة فى القرن الأول الهجرى بحيث تعايشت بشكل شبه كامل من التعامل مع العرب فى تلك المناطق. على الرغم من أن التواصل على المستوى اليومى بين العرب وهذه الجماعات المهنية المختلفة لم يكن مكثفا بشكل كبير فإن تأثيرها فى الحياة واللغة العربية داخل تلك المدن كان محسوسا بقدر ما، ولكن حدثت عمليات تواصل أكبر وأكبر بين العرب وغير العرب من خلال استيراد أعداد كبيرة من العبيد للمدن وللأراضى العربية الأم الأصلية.

وقد كان التواصل بين العرب وهذه المجموعات غير العربية التى عملت أساسا عمالة منزلية وتجارية صغيرة باللغة المشتركة الوحيدة فى تلك الفترة وهى اللغة العربية، أو للدقة نمط من أنماط العربية (فوك ١٩٨٠ ص١٩-٢١). ولكن هذا التواصل المستمر أدى إلى تعلم غير العرب للعربية بشكل غير صحيح وملحون؛ بسبب غياب التعليم المنظم. ومن بين علامات فساد تعلم العربية فى تصور فوك كان غياب التصريف الإعرابى وعلامات الإعراب (فوك ١٩٨٠ ص٢٢). بحسب نظرية فوك، لم يكن نمط العربية الذى تحدثه الموالى وغير العرب فى المعسكرات مؤثرًا بشكل كبير فى صفوة المجتمع العربى وأدائها اللغوى حتى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى، والفضل فى ذلك يرجع للفوارق الكبيرة بين الطبقات وبين العرب وغير العرب فى تلك المناطق، وفى تلك المرحلة من الحضارة العربية. ولكن تغلغل الموالى فى الحياة العربية الاجتماعية فى الربع

الأخير من القرن الأول الهجرى أدى إلى انتقال بعض السمات اللغوية من اللهجات العربية الحضرية الجديدة إلى عربية الصفوة العربية فى المدن والمعسكرات. لقد أصبح الموالى خدما، وعبيدا، وموظفين، وعشيقات، ومربيات فى بيوت العرب الذين تقلصت اتصالاتهم بمواطنهم الأصلية بشكل كبير بسبب انتشار الحياة الحضرية. فقد أحاط غير العرب بالأطفال العرب فى المنازل، وتعلم الأطفال منهم أنماطهم العربية المعيبة باعتبارها اللغة الأم تناقلوها بعد ذلك وانتشرت بينهم بشكل طبيعى.

يعتبر فوك أن انتشار العربية الجديدة باعتبارها نمطا تطوريا كان انتشاراً رأسيا من أدنى طبقات المجتمع غير العربية إلى قمته الصفوية العربية فى أواخر القرن الأول الهجرى. مما سهل انتشار اللهجات العربية الجديدة بدلا من العربية القديمة فى مدن المعسكرات كالبصرة، والكوفة، والفسطاط كان استمرار استخدام اللغات الأجنبية غير العربية فى تلك المدن بالإضافة إلى غياب التعليم الرسمى كما أشرنا سلفا، فقد كانت التعددية اللغوية أمرا اعتياديا فى تلك المدن فى القرن الأول الهجرى (فوك ١٩٨٠ ص٢٤-٢٦). وبحلول القرن الثانى الهجرى كان الموالى من أصحاب العربية الملحونة قد أتقنوا علوما عربية أخرى مثل علوم الأدب العربى، والدين، والتفسير، وأصبحوا من أعلام المجتمع العربى فى المناطق الحضرية على الأقل. فقد كانت العربية السليمة عزيزة وإن انتشرت علومها انتشاراً واسعًا بين العرب وغيرهم على حد سواء، فتجد مثلا أن الأسرة الأموية الحاكمة فى ذلك الوقت التى كانت رمز العروبة والنعرة العربية قد أنتجت خلفاء اشتهروا بعجمتهم اللغوية وإن اشتهروا أيضا بحنكتهم مثل الوليد بن عبد الملك الذى كانت عربيته ملحونة بعكس أبيه عبد الملك بن مروان الذى كان يعد من فصحاء بنى أمية.

لقد أسند فوك للموالى فى هذا السياق دورين متناقضين إلى حد كبير؛ فقد كان عليهم أولا أن يتعلموا العربية، وفى أثناء عملية التعلم أنتج الموالى نمطا لغويا يختلف اختلافًا كبيراً عن نمط المدخل الذى تعرضوا له فى التعلم، وبعد ذلك عندما تغلغلوا فى المجتمع العربى، وفى البيوت العربية علموا هذا النمط المغاير لأبناء العرب وللأجيال الصاعدة. يعنى هذا التصور أن الموالى هى الجماعة التى خلقت أنماط العربية الجديدة الحضرية، ولكن عملية نشرها وتعلمها كانت من واجبات الأجيال العربية الصاعدة فى بداية القرن الثانى الهجرى.

يعتقد فوك أن العرب فى شبه الجزيرة العربية على اختلاف تركيبهم السكانى والجغرافى كانوا يتكلمون لغة القرآن الكريم نفسها، ولذلك حاول أن يبرر الاختلاف بين نمط القرآن الكريم والشعر الجاهلى من جهة، وأنماط العربية الجديدة الحضرية من جهة أخرى. أتفق مع فوك على أن تعلم نمط القرآن الكريم بشكل غير صحيح قد أنتج نمطا لغويا مغايرا له بعد الفتوحات العربية فى مجالات الشعر وقراءة القرآن الكريم وحتى الكلام على مستويات رفيعة فى أوساط الصفوة العربية فى الدولة الأموية العربية، ولكننى قلت فى الفصلين السابقين بشكل متكرر: إن اللهجات العربية المحكية فى شبه الجزيرة العربية لم تكن نمط القرآن الكريم نفسه، بل تكلم الناس لهجات مختلفة كانت تحتوى على بذور تطور لغوى كامنة وتحتوى على عناصر تطور فى مراحلها الأخيرة. وقلت أيضا: إن الفروق بين اللهجات العربية قبل الإسلام والعربية التى استخدمت فى القرآن الكريم والشعر العربى لم تكن مجرد فروق أسلوبية، وقلت أيضا: إن الناس الذين استخدموا لهجات عربية مختلفة لم يستطيعوا التحدث بالعربية الفصحى، ولم تكن تلك الأخيرة جزءا من سليقتهم اللغوية على الرغم من أن اللهجات العربية فى القسم الشرقى من شبه الجزيرة كانت تشترك مع نمط القرآن الكريم والشعر الجاهلى فى سمات صرفية ونحوية صرفية كثيرة جعلت النمطين متقاربين إلى حد ما، أبرز تلك السمات المشتركة ربما كان نظام التصريف الإعرابى الذى لا نعرف عنه معلومات دقيقة فى اللهجات العربية الشرقية، وبسبب كل ما تقدم يمكن أن نقول: إنه من الطبيعى جدا بسبب هذا الإخفاق فى استخدام العرب لعربية القرآن الكريم قبل الإسلام أن ينتجوا هذا النمط بعد الإسلام، كما أنه يصبح من الطبيعى أن ينتجه الموالى وغير العرب أيضا بما أنه ليس جزءا من السياق اللغوى الذى تعلموه فى حياتهم اليومية، وكذلك لم يتوجب عليهم تعلمه لأسباب دينية إلا لمن دخل فى الإسلام.

هناك فى واقع الأمر فكرة واحدة لافتة للنظر فى السيناريو الذى طرحه فوك؛ إذ يزعم أن الموالى وغير العرب هم الذين نقلوا الأنماط العربية الجديدة المعدلة إلى أبناء العرب عندما تغلغل الموالى فى حياة الصفوة العربية الحاكمة. إن هذا التصور يبدو لى غير واقعى ولا حتى مقبولا من وجهة نظر تعلم اللغة الثانية باعتبارها إطارا نظريا،

فمن الصعب جدا أن يسمح وسط أسرى عربى يمتلك سليقة لغوية عربية سليمة لأبنائه أن يستعملوا نمطا عربيا جديدا معيبا وملحونا ضد سليقتهم اللغوية. تزداد صعوبة تقبل هذا التصور عندما نعرف أن الاتصال بين العرب وغير العرب فى هذا الصدد قد حدث فى مدن عربية وسياقات عربية كانت اللغة العربية غير لغة الأغلبية الرفيعة المحترمة، هذا بغض النظر عن أعداد الموالى وغير العـرب ولا وظيفتهم داخل المنازل التى عملوا فيها.

علاوة على ذلك، فإن السيناريو الذى رسمه فوك لعملية نشر نمط العربية الجديدة من الموالى وغير العرب للعرب لم يفسر كيفية حدوث تلك العملية المعقدة من وجهة نظر التطور اللغوى وتعلم اللغات، ولم يقدم لنا أيضا تحديدا للمدخل اللغوى الذى استخدم ولا كيف تم تعديله. يحاول فرستيغ (١٩٨٤) أن يسد هذه الفراغات النظرية باستخدام نظرية التهجين اللغوى، فيقول :

> **كل اللهجات العربية الحديثة أنماط مهجنة من العربية الفصحى الكلاسيكية القديمة تم تبنيها باعتبارها اللغة الأم بشكل سريع جدا من خلال أطفال ولدوا من أمهات أجنبيات وآباء عرب، أو أطفال ولدوا لأبوين غير عربيين من خلفيتين لغويتين مختلفتين لم يكن بينهما أى لغة تواصل سوى العربية (فرستيغ ١٩٨٤ ص١١٥).**

إذن يتصور فرستيغ أن اللهجات العربية الحديثة إنما هى نتاج محاولات غير العرب غير المنظمة لتعلم العربية التى كانت فى الأساس تشبه لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلى.

إن اعتقاد فرستيغ (١٩٨٤ ص٢) يخالف اعتقادات معظم الباحثين الغربين حول تاريخ العربية؛ إذ يزعم أن الفروق بين اللغة العربية الفصحى واللهجات المستخدمة بشكل يومى فى شبه الجزيرة العربية قبل الفتوحات كانت صغيرة إلى حد ما، ومن بين الأدلة التى يسوقها فرستيغ للتدليل على صحة وجهة نظره غياب أى أخطاء صحة زائدة من نصوص العربية فى الجاهلية، وهى الحجة نفسها التى استخدمها بلاو قبله.

دليله الثانى والأخير شهادة النحويين العرب أنفسهم، حيث زعموا أن العرب فى البادية على الأقل كانوا يستخدمون العربية الفصحى باعتبارها لغة حياة يومية، ولذلك استخدم النحويون شهاداتهم اللغوية مسلمات علمية. إن شهادات النحويين تلك تمثل لفرستيغ دليلا واضحا جدا لا يمكن إنكاره أو تفسيره بشكل مغاير؛ لأن اللهجات العربية القديمة كانت الفصحى القرآنية والشعرية حتى بعد عصر الفتوحات العربية (فرستيغ ١٩٨٤ ص٣).

لقد تغير الوضع اللغوى بشكل درامى بعد الفتوحات العربية بحسب رأى فرستيغ؛ من ناحية احتفظ البدو الذين لم تكن لهم صلات كبيرة بالمدن الناشئة حديثا بلغتهم العربية القديمة وعاداتهم اللغوية الموروثة حتى تمكنت منهم السمات الحضرية فى نهاية المطاف فى مرحلة ما من مراحل تطور اللغة العربية. ومن ناحية أخرى يتصور فرستيغ أن الفساد اللغوى الذى حدث فى المدن العربية فى الأقاليم هو من صنع غير العرب فى محاولة تعلمهم السريعة وغير العلمية للعربية (فرستيغ ١٩٨٤ ص٥). أما العربية البدوية السليمة فقد كانت أساس العربية الفصحى التى درسها النحويون فى القرون الثلاثة الأولى بعد الفتوحات العربية، واستشهدوا عليها بالشعر الجاهلى والقرآن الكريم، أما اللهجات العربية الجديدة الفاسدة التى أنتجها غير العرب فى محاولة تعلم لغة السادة الجدد فقد كانت نتيجة لبعد كامل عن القواعد العربية القديمة صوتيا، وصرفيا، وتركيبيا، ومحاولة للتعلم السريع. ومن النتائج المباشرة لاختلاف لغة الحديث اليومية الفاسدة عن العربية السليمة أن ظهرت فى مدن الأقاليم العربية الجديدة ظاهرة الازدواجية اللغوية (فرستيغ ١٩٨٤ ص٦).

يزعم فرستيغ – وأوافقه على ذلك – أن البحث فى تراكيب اللهجات العربية الحديثة هو الذى سيمكننا من فهم تحول اللغة العربية التركيبى من العربية القديمة إلى العربية الجديدة بعد الفتوحات (فرستيغ ١٩٨٤ ص٧). وقد ركز فرستيغ فى دراسته على نمطين من أنماط العربية الموجودة حاليا، وهما: نمط الجزر اللغوية العربية – أى المناطق التى تستخدم اللغة العربية على أطراف العالم العربى، ولكن فقدت الاتصال المباشر بالأقاليم التى تتحدث العربية جغرافيا – والهجن اللغوية العربية الحديثة. يزعم فرستيغ أن

الجزر اللغوية العربية مهمة فى أنها تبين لنا الصورة التى كانت عليها اللهجات العربية بعد أن وطنت مباشرة من دون أى تحسين أضيف عليها من خلال اقتراض من العربية الفصحى[١٦] . واهتم فرستيغ بالهجن اللغوية العربية؛ لأنها تبين درجة إعادة التركيب التى يمكن أن تمر لغة خلالها، وهو بذلك يبين درجات التبسيط التركيبى وإعادة التركيب التى يمكن للعربية أن تجوزها.

ويستمر فرستيغ (١٩٨٤ ص١٧) فيقول: إن ظهور اللهجات العربية الجديدة فى المناطق الحضرية لم يقض على اللغة العربية الفصيحة، بل ظلت نمطا مستخدما فى الأدب والدين وربما فى الأوساط العربية الراقية. الجماعة اللغوية الوحيدة التى احتفظت بالعربية الفصحى باعتبارها لغة حياة يومية لفترة طويلة كانت بدو الصحراء. ويدعى فرستيغ أن استجابة النحويين العرب لظهور العربية الجديدة كانت من خلال دراسة العربية الفصحى بغية تحسين قراءة الناس للقرآن الكريم وتصحيح لغتهم نطقًا وبناء (فرستيغ ١٩٨٤ ص٩-١١).

ويضيف فرستيغ (١٩٨٤ ص١٩) - وأتفق معه فى هذه النقطة - أن كل النظريات التى ظهرت على الساحة العلمية لتفسير ظهور اللهجات العربية الجديدة حصرت نفسها فى تفسير التشابهات بين اللهجات، أو الاختلافات بينها، أو تأثير اللغات التحتية على اللهجات العربية الجديدة والحديثة. ولكن نظرية لم تقم لتفسير نزعات متشابهة بتجليات تركيبية مختلفة بين اللهجات العربية. ومن الصعب - بحسب تصور فرستيغ - الجمع بين كل تلك النظريات؛ لأنها تنبع من مصادر لغوية شتى وتوجهات تطورية متباينة، فبعض النظريات على سبيل المثال تنطلق من أن التطورات اللغوية التى بدأت تكون ملحوظة فى اللهجات العربية الجديدة كانت كامنة فى البنية اللغوية العربية قبل الفتوحات، واستمرت تلك التطورات وربما انتشرت بعد الفتوحات أو بسببها. وعلى ذلك فتلك

---

(١٦) لا أستطيع أن أعتبر فكرة الجزر اللغوية هنا فكرة ممتازة؛ لأن بعض تلك الجزر عاش فى سياق عربى لفترة طويلة جدا، وفقد الاتصال بالعالم العربى فى مرحلة متأخرة بعد أن كان قد اتصل نظريا بالعربية الفصحى، وبلهجات عربية أخرى. من بين أحسن الأمثلة على ذلك اللهجة العربية المالطية .

النظريات لا تقبل أى تصور لاختلاف مفاجئ بين اللهجات العربية القديمة والجديدة يكون حده الزمنى الفتوحات العربية.

وهناك نظريات تتخذ منحى مغايراً تماماً للطرح السابق، فهى تتبنى فكرة الوحدة اللغوية فى مرحلة ما قبل الفتوحات، فاللغة العربية لم تكن منقسمة بحسب ذلك التصور للهجات، ولم يكن هناك فرق بين اللهجات العربية التى لم توجد أصلا والعربية الفصحى التى كانت النمط العربى الوحيد فى الجاهلية، وإن وجدت أى اختلافات بين استخدام القبائل للعربية قبل الفتوحات فهى اختلافات أسلوبية؛ لذلك يتعذر عدم رؤية فصل حاد بين العربية القديمة واللهجات العربية الحضرية الجديدة بعد الفتوحات والتى ظهرت فى وقت سريع جدا نظام علامات الإعراب والتصريف الإعرابى فى قلب الجدل بين نوعى النظريات. بينما تفترض المجموعة الأولى من النظريات أن نظام التصريف الإعرابى وعلامات الإعراب كانت فى مرحلة تدهور قبل الفتوحات العربية، فإن المجموعة الأخرى من النظريات تعتقد أن النظام كان قائما وفاعلا قبل الفتوحات وربما بعدها أيضا. يعتقد فرستيغ أن مسألة علامات الإعراب والتصريف الإعرابى مسألة غير مهمة بشكل كبير فى تاريخ العربية؛ لأن هناك تغييرات أكبر وأكثر عمقا حدثت فى مرحلة الفتوحات العربية، وهى فى مجموعها أدت إلى التحول من نمط لغوى توليدى لنمط لغوى تحليلى.

يعتقد فرستيغ (١٩٨٤ ص٢٦) أن تفسير تشابهات العربية الجديدة والعربية القديمة واختلافاتهما يكمن فى المدخل اللغوى الذى استخدم فى مرحلة تعلم العربية المبكرة وتناقلها باعتبارها نمط تواصل وحيداً واضطرارياً، ولذلك فهو لا يهتم إن كانت هناك اختلافات بين اللهجات العربية المستخدمة قبل الفتح أو إن كانت تلك اللهجات تختلف عن العربية الفصحى التى كانت لغة الشعر. وإذا اتبعنا إطار التفكير نفسه فيجب أن نقول: إن لغة التعلم التى استخدمت باعتبارها مدخلاً لغويا لم تكن سوى أنماط الحديث اليومى. ولما لم يكن فرستيغ يعتقد أن الفروق بين لهجات الحياة اليومية والعربية الفصحى كبيرة؛ فإنه من المنطقى أن لا نهتم بمعرفة أى نمط من النمطين استخدم باعتباره مدخلاً لغويا فى التعلم؛ لأن الفروق إن وجدت أصلا تكون أسلوبية فى مجملها أو قليلة وغير جوهرية.

وعلاوة على ذلك فليس من المهم أيضا أن نحدد ما إذا كانت الفروق بين اللهجات قد تم تسويتها فى شكل مشترك لغوى بعد الفتوحات أو لا. ولكن الشىء الأكثر أهمية كان وجود أعداد كبيرة من غير العرب الذين كانت عندهم رغبة ملحة وضرورة عملية فى تعلم العربية بأسرع ما يمكن لقضاء حاجاتهم. فقد كانت العربية فى بداية الأمر لغة البدو فى صحراء شبه الجزيرة العربية، ولكنها بعد فترة أصبحت لغة مشتركة لكثير من الناس الذين ينتمون إلى شعوب وحضارات مختلفة (١٩٨٤ ص٢٧). يبين هذا السيناريو فى تعلم العربية أن بنية العربية التركيبية قد تم تبسيطها بقدر كبير جدا وبشكل سريع ومفاجئ، فاختلفت اللهجات العربية الجديدة التى كانت نتاجا مباشرا لعملية التبسيط وإعادة التركيب تلك عن العربية القديمة والعربية الفصحى اختلافًا كبيرًا، وعادت وقربت نفسها من العربية عن طريق عملية مضادة من إرجاع إعادة البناء للإطار التركيبى العربى بفضل قوة النموذج العربى الفصيح الضاغط لأسباب اجتماعية ودينية.

بحسب تلك النظرية أطلق النحويون العرب حملة من الدراسات النحوية التقعيدية والوصفية لمواجهة النزعات التبسيطية والتغيرية فى بنية لغة القرآن الكريم على اختلاف مستوياتها. على الرغم من أن فرستيغ يتفق مع النحويين حول غرضهم وطريقة دراستهم فإنه يختلف معهم اختلافًا كبيرًا حول تصورهم أن الفروق بين العربية الفصحى واللهجات العربية الحضرية الجديدة ما هى إلا مجموعة من الأخطاء اللغوية التى سماها النحويون العرب باللحن. بل يعتقد فرستيغ (١٩٨٤ ص٢٨) أن تلك المجموعة من الاختلافات ما هى إلا فروق جوهرية فى النمط اللغوى أدت إليها عوامل اجتماعية لغوية كانت موجودة فى الأقاليم العربية فى وقت الفتح. وقد أدت تلك العوامل إلى تهجين غير العرب للغة العربية وتعلمها فى شكلها المبسط بدلا من تعلمها بشكل طبيعى باعتبارها لغة أجنبية محتفظين بأطرها التركيبية والصرفية والصوتية كما كانت فى المدخل اللغوى.

لم يكن العرب وحدهم فى المناطق الحضرية الجديدة فى الأقاليم، بل كانت هناك جماعات بشرية أخرى كثيرة اختلفت لغاتها وتنوعت، ولذلك كان من الحتمى إيجاد لغة مشتركة للتواصل فيما بين كل تلك الجماعات البشرية، وفيما بينها وبين العرب للقيام

بالوظائف الاجتماعية، والاقتصادية الأساسية. أما بالنسبة للأرياف فإن فرستيغ يزعم (١٩٨٤ ص٦٥) أن الظروف الاقتصادية السيئة فى بداية العصر العباسى أرغمت القرويين على هجر الأراضى الزراعية والبحث عن العمل فى مكان آخر. وفى الوقت نفسه سمح للعرب ولأول مرة بامتلاك أراضى زراعية والسكن عليها، فأعادوا إعمار القرى التى هجرت وتملكوا الأراضى التى تركها أصحابها. وقد تكون تلك الحركة السكانية هى التى أدت إلى تعظيم التواصل بين الجماعات البشرية ذات اللغات المختلفة، ولما كان العرب فى بداية الفتوحات مقيدين بالسكن فى معسكراتهم وعدم الاتصال بغير العرب (فرستيغ ١٩٨٤ ص٦٦ و ٦٧)؛ فقد كان التواصل اللغوى بالتبعية محدودا وربما كان ذلك التواصل يتم باستخدام مجموعة من المترجمين الذين يقومون بدور الوسيط بين العرب وغير العرب. وكان هؤلاء المترجمون يعرفون قدرا من العربية وقدرا من اللغات الأخرى التى يترجمون إليها يكفى للتواصل فى حدود المهام الوظيفية المحدودة فى بداية مرحلة تكوين الدولة.

فى مثل هذا السياق اللغوى العام كان فرق القوة بين اللغات التحتية واللغة العربية الهدف كبيرا وفرق الرفعة والاحترام واسعا، ولصالح العربية. وكذلك أدت العوامل الثقافية، والدينية، والعسكرية إلى إلقاء الحمل الوظيفى التواصلى على العربية وتحويلها للغة تواصل، وبالتالى يجب تعلمها. ويدعى فرستيغ (١٩٨٤ ص٦٧ و ٦٨) أن التواصل اللفظى وتعلم اللغة فى سياقات مثل التى رسمها توا تؤدى إلى إنتاج نمط بدائى من اللغة الهدف. وسيصبح هذا النمط البدائى ثابتا بعد فترة، ولما كانت المناطق الحضرية فى الأقاليم العربية الجديدة متعددة الأعراق واللغات فى تركيبتها السكانية؛ فقد استخدم غير العرب هذا النمط البدائى فى التواصل فيما بينهم، علاوة على ذلك فإن تملك العبيد والإماء واتخاذ الإماء زوجات بالإضافة إلى الزواج المختلط أدى إلى ظهور أجيال جديدة من الأطفال الذين استخدموا نمط أمهاتهم البدائى هذا باعتباره اللغة الأم.

ولما كان النمط البدائى العربى هذا فعالا فى التواصل بين الجماعات البشرية المختلفة؛ فلم يحاول غير العرب أن يتعلموا نمطا عربيا سليما أو يعدلوا بعض صيغهم التركيبية اللغوية، وفى الوقت نفسه لم يحاول العرب ترقية النمط اللغوى البدائى لغير العرب؛

لأنهم كانوا يتصورون أن غير العرب غير قادرين بالضرورة على استخدام العربية السليمة، بل وشاركوا أيضا فى استخدام النمط البدائى فى التواصل مع غير العرب (فرستيغ ١٩٨٤ ص٦٨). هناك ثلاثة عوامل شجعت العرب على تبنى النمط البدائى الجديد باعتباره لغة استخدام، ومن ثم لغة أم : العامل الأول الانعزال عن المناطق العربية الأصلية وغياب أى تعزيز للعادات اللغوية العربية الأصلية من خلال الهجرات المستمرة التى كانت فى المراحل الأولى بعد الفتوحات هجرات قليلة ومتقطعة، العامل الثانى كان الفرق العددى الكبير بين العرب وغير العرب لصالح غير العرب، وهو ما سهل نشر النمط العربى البدائى بين طبقات المجتمع الحضرى الوليد كافة، ولم يمكن هذا الفرق العددى العرب من فرض نمطهم اللغوى الأم غير المعدل. أما العامل الثالث فقد كان كثرة الزيجات المختلطة والتى أحضرت النمط العربى البدائى المعدل إلى سياق التواصل المنزلى بين الزوجين، أو بين الخدم والسيد العربى، أو بين الخدم غير العرب الذين أتوا من خلفيات لغوية مختلفة. علاوة على ذلك فإن مثل هذه الزيجات المختلطة أعطت الأطفال الفرصة فى تعلم النمط العربى البدائى المعدل باعتباره لغتهم الأم.

يدعى فرستيغ (١٩٨٤ ص٧٠-٧٢) أنه من الطبيعى فى ظل الحاجة للتواصل، وفى ظل العوامل الاجتماعية سالفة الذكر، وفى ظل غياب التعليم المنظم أيضا أن تظهر أنماط لغوية هجين فى فترات قياسية السرعة، وأن تستقر تلك الأنماط التى تتميز ببدائيتها التركيبية فى وقت سريع أيضا وتصبح بالتالى هجنًا ثابتة، هناك عنصر إيكولوجى لغوى آخر أسهم فى تهجين العربية فى تلك المرحلة المبكرة من الفتوحات، وهو الفروق الطيبولوجية اللغوية بين اللغة العربية واللغات التحتية التى كانت مستخدمة فى الأقاليم العربية قبل الفتوحات وبعدها أيضا، ولذلك لم تكن هناك عمليات نقل لغوى إيجابى(١٧) فى تلك المراحل.

(١٧) للحصول على تعريف مبسط، ولكنه شامل للنقل اللغوى انظر ترجمة محمد الشرقاوى العربية لكتاب "تعلم اللغة الثانية" التى صدرت عام ٢٠٠٥ عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ص١٩-٥٥ .

يدعى فرستيغ (١٩٨٤ ص٧٩) أنه على الرغم من أن اللهجات العربية قد مرت بمراحل كثيرة جداً من التطور التى كانت فى بعض الأحيان مراحل متناقضة أنتجت اللهجات العربية الحديثة، فإنه من الممكن أن نقارن بشكل واضح بين الأنماط المبكرة والبدائية من تلك اللهجات العربية ونتائج التطور اللغوى (اللهجات العربية الحديثة) والأنماط العربية التى لم تمر بمراحل التطور نفسها، ولا بمراحل التهجين الأولى كالعربية الفصحى.

تصور فرستيغ إذن هو أن اللهجات العربية الحضرية التى نتكلمها الآن أنماط هجنت فى بداية الفتوحات ثم أصبحت هجنًا ثابتة عندما أصبحت اللغة الأم لأطفال ولدوا وأقاموا فى المدن العربية، ولكن العربية الفصحى استطاعت فى مراحل لاحقة أن تؤثر فى تلك الأنماط المهجنة وتعيد بعض تراكيبها إلى نطاق تراكيب العربية، وهو ما يعرف فى عمليات التطور اللغوى بإرجاع الهجن الثابتة. ولكن عملية الإرجاع تلك لم تكن ناجحة كلية، إذ لم تستطع أن تمحو كل الآثار التركيبية والتعديلية للعمليتين السابقتين - التهجين وتثبيت التهجين، ولذلك فمن الممكن أن نتعقب آثار عملية التهجين اللغوى التى أصابت العربية فى اللهجات العربية الحديثة.

سرد فرستيغ (١٩٨٤ ص٩١) أربع ظواهر لغوية للتهجين قدمها هينى (١٩٨٢ ص١٧) فى دراسته للهجين العربى الثابت المسمى كينوبى، وهى : عمليات التحويل اللغوية الشكلية الواضحة لفظا تنزع لأن تكون أقل وضوحا لفظيا، السمات والقواعد اللغوية الزائدة تنزع لأن تختفى أو تقلص المورفيمات الداخلية فى الكلمة أو المركبة على الكلمة فى أكثر من موقع تنزع لأن تكون مورفيمات تحليلية خارجة على الكلمة أو فى شكل سابقة أو لاحقة، القواعد التى تعتمد على السياق تتحول لتكون أقل اعتمادا على سياق معنوى خارجى أو أقل تغيراً بحسب السياقات اللغوية أو المعنوية، فلا توجد هناك تغيرات صوتية صرفية مثلا بحسب السياق الصوتى أو النسيج المقطعى للكلمة. ترمى الظاهرتان الأولى والثانية إلى التبسيط اللغوى عن طريق حذف الزائد، وكذلك ترمى الظاهرة الثالثة إلى التبسيط من خلال التركيز على استخدام مورفيم تحليلى ثابت محل الاهتمام بصور مورفيمية مختلفة ومتعددة لشكل وظيفى واحد (١٩٨٤ ص٨٢).

تعكس اللهجات العربية الحضرية الحديثة نزعات مشابهة لتلك النزعات التى تعكسها أنماط الهجن اللغوية العربية واللهجات العربية الطرفية (١٩٨٤ ص٨٢). ويدعى فرستيغ أن نسق فونيمات اللهجات العربية الحديثة أبسط من نسق أصوات اللغة العربية الفصحى، وهذا طبعًا بحسب رأى فرستيغ يرجع إلى عملية التهجين اللغوى المبكرة. سأقدم فيما يلى قائمة بالسمات الصوتية التى يعزوها فرستيغ لعملية التهجين.

- اندماج صوتى \د\ و \ض\.
- اختفاء الأصوات الأسنانية المعرضة.
- اختفاء الأصوات المركبة /أى/ أو /او/ وحلول أصوات لين طويلة محلهما ليكونا \ee\ و \oo\ .
- فى اللهجات العربية الطرفية اختفت فونيمات عربية أصيلة أو اندمجت فى فونيمات أخرى، فقد اندمجت العين فى الهمزة فى اللهجة العربية فى تشاد، واندمجت جزئيا فى صوت الحاء فى اللهجة العربية فى الأناضول. كما أن صوت الحاء والعين قد اختفيا فى اللهجة العربية النيجيرية.

أما فى مجال الصرف فإن فرستيغ يقول (١٩٨٤ ص٨٣): إن من بين أهم سمات التهجين اللغوى التى أصابت اللغة العربية هو تقليص الزيادة. أقدم فيما يلى قائمة بأمثلة على سمات عمليات التهجين فى اللهجات العربية الحديثة.

- اختفاء علامات الإعراب من الأسماء.
- ظهور علامات جهرية وإشارات زمنية جديدة على الفعل.
- تخفيض تنوع أصوات اللين على الأفعال، وتخفيض تصنيفات الأفعال التحتية الصرفية.
- اختفاء أسلوب المبنى للمجهول العربى التوليدى.
- التخفيض الكبير فى الصيغ المنتجة للفعل، أى أوزان الأفعال.
- اندماج الأفعال المعتلة التى تنتهى بواو والأفعال المعتلة التى تنتهى بياء.

• ظهور تركيب إضافة تحليلى جديد.

• استخدام اسم موصول ثابت.

وقدم فرستيغ (١٩٨٤ ص٩٩) بالطريقة نفسها أربع سمات نحوية فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة على أنها من تأثير عمليات التهجين اللغوى المبكرة، سأقدمها فى النقاط الأربع التالية :

• تعميم نمط الجملة الاسمية على الجمل العربية، واعتماد ترتيب كلمات ثابت.

• استخدام الأفعال المسلسلة(١٨).

• التغير فى أنماط المطابقة بين الفعل والفاعل حين يسبق الفعل فاعله، وبين الفاعل أو المبتدأ والصفة الداخلة عليه بغض النظر عن عقل الاسم.

• استخدام أفعال وتراكيب جهوية غير موجودة فى الفصحى.

يدعى فرستيغ أن تلك السمات تبين أن اللهجات العربية الحديثة نتاج عمليات تعلم لغة ثانية متعددة. وعلى الرغم من أن تلك السمات تشير إلى وقوع اختلاف جوهرى بين البنية التركيبية للهجات العربية الحديثة من ناحية والعربية القديمة من ناحية أخرى فإن عمليات التطور والتسوية التى حدثت فى مراحل تالية على مرحلة التهجين اللغوى قربت الأنماط المبسطة التى نتجت من التهجين إلى العربية الفصحى تركيبيا مرة أخرى. ليست عمليات التسوية بغريبة على أنماط العربية ولا حتى الحديثة منها، فهناك حالة تسوية قائمة الآن فى نمط من أنماط العربية وهو هجين عربى ثابت يسمى بعربية جوبا (وهو نمط عربى مهجن يستخدم فى جنوب السودان)، حيث تسبب التعرض المستمر للهجة الخرطوم الرفيعة والمحترمة فى تسوية مهمة، يتم بمقتضاها تقديم سمات مطابقة وسمات جهرية فى الأفعال لأول مرة فى تاريخ عربية جوبا الصرفى (فرستيغ ١٩٩٣ ص٧٢ و ٧٣).

---

(١٨) الأفعال المسلسلة هى الأفعال التى تستخدم دون أدوات فصل مثل "أن" وتكون مثلا كأن تقول: "عايز يروح يشترى حاجات" .

أثارت نظرية التهجين اللغوى نقداً عنيفاً(١٩)؛ من بين أهم نقاط النقد على نظرية التهجين وتثبيت التهجين نقطة تختص بدور العربية الفصحى فى إعادة تثبيت التهجين لدائرة تركيبية تشبه العربية الفصحى أكثر. فقد أشار فرجسون (١٩٨٩ ص٥-١٩) إلى أنه على الرغم من أن تصور فرستيغ التاريخى ممكن وربما يحتمل الصحة، وأيضا ربما تكون بعض سمات اللهجات العربية حديثة وطارئة مقترضة من العربية الفصحى فإن التشابهات بين اللهجات العربية فى واقع الأمر نتيجة لعمليات تطور لغوى متشابكة، فهناك عمليات تطور كامنة من العربية القديمة، وهناك تطورات متوازية فى اللهجات، وهناك تشابهات من المشترك اللغوى، وهناك تشابهات من الاقتراض اللغوى وعمليات نشر. فكل لهجات العربية الجديدة عندها سابقة التاء فى المخاطب المفرد والجمع وفى الغائبة المفردة المؤنثة، وهى السابقة التى استمرت من العربية القديمة. ليس هناك أى دليل على أن تلك السمة قد فقدت فى أى مرحلة من مراحل تطور اللهجات العربية وعادت مرة أخرى، بالإضافة إلى ذلك يبدو أن بقايا التلتلة فى المضارع فى اللهجات العربية تشير إلى أن تلك السابقة قد زردت إلى عموم اللهجات من خلال عملية مشترك لغوى. ويضيف فرجسون أن الانتقال فى اللهجات العربية الجديدة من تركيب إضافة توليدى فى العربية القديمة إلى تركيب إضافة تحليلى باستخدام أداة إضافة تحليلية - هو انتقال سببه النزوع العام وليس غير؛ ذلك لأن التطورات نفسها حدثت فى لغات سامية أخرى(٢٠) .

أما فرجسون الذى كان يعارض أى دور للعربية الفصحى فى التقريب بين اللهجات يقدم لنا مثل التطابق وأنماطه فى اللهجات والفصحى على أنه سمة نحوية

(١٩) للحصول على تصور عن آراء الباحثين وخاصة العرب منهم حول نظرية التهجين اللغوى وحالة اللغة العربية، انظر فرجسون (١٩٨٩) وديم (١٩٩١) وهولز (١٩٩٥) وفيشر (١٩٩٥) .

(٢٠) لا أتفق مع فرستيغ ولا فرجسون على موضوع الإضافة التوليدية؛ لأنها فى واقع الأمر لم تزل من اللهجات العربية الحضرية الحديثة، ولكن الذى حدث توزيع للوظائف النحوية بين الإضافة التوليدية والإضافة التحليلية. بالإضافة إلى ذلك لا يمكن القول بأن ظهور أداة الإضافة التحليلية من نتائج اللهجات العربية الجديدة والتحول من النمط القديم للعربية الجديدة، فبعض اللهجات الخليجية تمتلك أداة إضافة تحليلية. انظر بروستاد (٢٠٠٠ ص٧٠-٨٧) .

تبين أن السمات الفصيحة فى اللهجات لا يمكن أن تكون قد وردت إليها من قبيل التدخل اللغوى أو الاقتراض، ففى اللهجات هناك مثنى فى الاسم، ولكنه لا يمكن أن يستخدم مع ضمائر وصل، وبالإضافة إلى ذلك هناك ظاهرة صرفية أخرى وهى ظاهرة شبيه المثنى التى تمتلك اللاحقة الصرفية نفسها للمثنى الحقيقى إلا أنه يستخدم مع أجزاء الجسم المعدودة باثنين فقط وصيغ جمعها. يفقد الاسم شبيه المثنى النون من لاحقته عندما يلتحق بآخره ضمير وصل الصفة التى ترد بعد المثنى الحقيقى وتكون عادة فى الجمع، ولا يمكن رد تلك الظاهرة بطبيعة الحال لتأثير العربية الفصحى؛ لأن نصوص العربية الوسيطة تبين أن الكلمات المثناة تأخذ إما صفة مفردة أو صفة مجموعة، ولذلك فإن فرجسون يتصور أن الفرق بين المثنى الحقيقى وشبيه المثنى هو سمة من سمات اللهجات العربية القديمة قبل الإسلام.

يعتبر وجود نمط مطابقة مختلف عن نمط مطابقة الجمع حجة أخرى ضد نظرية التهجين التى قدمها فرستيغ، فمن المقبول فى اللهجات المصرية مثلا أن تقول: "جانا جوبات كتير" و"جتنا جوبات كتير"، هذه التراكيب موجودة أيضا فى العربية الفصحى ومشابهة لها، ولكن فرجسون يدعى أن تركيب "جونا جوبات كتير" ليس مقبولا من ناحية الذوق العام بعكس العربية الفصحى.

بالنسبة لشخص مصرى قاهرى يتحدث العربية المصرية باعتبارها لغة أم يعتبر تركيب "جونا جوبات كتير" تركيبا شاذا، بينما "جانا جوبات كتير" و"جتنا جوبات كتير" يمثلان تركيبين عاديين جدا. وتجد أنماط المطابقة الفصيحة مقبولة فى العامية المصرية ومسموعة، ولكن وجود تشابهات بين أنماط المطابقة فى العامية المصرية والعربية الفصحى فيما يخص الفعل والفاعل لا يعكس بالضرورة تدخل الفصحى فى صناعة العربية المصرية، ليس هناك أى دليل لغوى بجانب الحدس اللغوى على أن المطابقة العددية بين الفعل والفاعل تتخطى النموذج الفصيح، علاوة على ذلك فإن شبيه المثنى فى تصورى الخاص ما هو إلا انعكاس لظاهرة المثنى الصرفية العربية الفصيحة والتى كانت متاحة فى العربية القديمة وأنماطها كافة حيث كان المثنى فاعلا ومنتجًا بشكل كامل. أما العربية الجديدة واللهجات العربية الحديثة والعربية الوسيطة فى بعض الأحيان

أنماط تستخدم نمطًا من المثنى لا يحذف النون قبل ضمير الوصل. نستطيع أن نعتبر أن الاحتفاظ بالنون فى آخر المورفيم قبل ضمير الوصل تطورًا كبيرًا فى المثنى، ولكن هذا التطور ليس كاملا، حيث احتفظت العربية الجديدة بالسلوك القديم فى حذف النون فى أواخر مجموعة معنوية واحدة فقط من الأسماء، وهى مجموعة أجزاء الجسم فقط.

بالإضافة إلى ذلك فإن نهاية شبيه المثنى فى كلمة "رجلين" لا تعبر عن الجمع كما يدعى فرجسون، فالكلمات الدالة على أجزاء الجسم لها صيغ جمع تكسير. تجد مثلا أن جمع "رجل" هو "رجول" وجمع "عين" هو "عيون". ولذلك فشبيه المثنى ما هو إلا بقية من بقايا المثنى العربى الفصيح والمثنى المستخدم فى اللهجات العربية القديمة. والمثنى فى اللهجات العربية الحديثة ليس نظامين، نظام المثنى العادى، وشبيه المثنى. وبناء على ما سبق فلا نستطيع أن نستخدم أنماط المطابقة فى اللهجات العربية الحديثة دليلا على عدم تدخل العربية الفصحى فى تطور اللهجات العربية الحديثة كما يدعى فرجسون.

يدعى بعض الباحثين أن اللهجات العربية البدوية هى التى قربت اللهجات الحضرية بعد الفتوحات بعضها من البعض الآخر. تعتقد تلك المجموعة من الباحثين أن اللهجات العربية البدوية القادمة من شبه الجزيرة العربية فى مراحل مختلفة من القرون الثلاثة الأولى من الفتوحات قد كونت موجة ثانية من التعريب، وكانت مهمتها الأساسية عملية تعديل صرفى نحوى على نطاق واسع للهجات العربية الجديدة التى تشكلت فى الأقاليم المفتوحة. فتجد مثلا أن ديم (١٩٧٨ ص١٢٨-١٤٧) ينكر أى دور للعربية الفصحى فى التقريب بين اللهجات العربية الحضرية، فهو يتصور أن اللهجات الحضرية لهجات مشتركات لغوية كبيرة تكونت من عمليات اقتراض وتأثير مشتركة فى المرحلة المبكرة فى التعريب فى كل إقليم مستقل من أقاليم الإمبراطورية العربية الوليدة. كانت تلك اللهجات مليئة بالتجديدات اللغوية، فبعد المرحلة الأولية من الفتوحات وبناء المدن العربية الجديدة ونشوء مقدماتها اللغوية حدثت حركة جديدة من الهجرات العربية البدوية من شبه الجزيرة العربية إلى الأمصار واصطلح على تسميتها بالهجرات العربية الثانية. كانت تلك الهجرة الجديدة من نوع متدرج وبطىء، ولكنه أصاب مناطق لم تصبها الهجرات العربية القديمة، كما أصاب المناطق نفسها التى استقر العرب فيها أول مرة.

ولقد تم تعريب الريف المصرى عن طريق تلك الموجة الثانية من الهجرات العربية. حدث الشىء نفسه فى شمال إفريقيا حيث عرب بنو هلال الإقليم بشكل كبير فى القرن الحادى عشر الميلادى. ولما كانت اللهجات العربية البدوية أكثر محافظة من اللهجات الحضرية الوليدة المولدة؛ فقد جلبت للمناطق المعربة بعض السمات اللغوية القديمة التى يعزوها فرستيغ إلى تأثير الفصحى. يذكر ديم على سبيل المثال أن الموجة الثانية من الهجرات العربية البدوية أدخلت إلى اللهجات العربية فى العراق استخدام الجيم القاهرية فى صورة صوتية لصوت القاف العربى الفصيح. وكذلك أثرت تلك الهجرات فى اللهجات المصرية التأثير نفسه فى المناطق الريفية التى تستخدم الجيم صورة للقاف، بينما تستخدم اللهجات الحضرية الهمزة صورة للفونيم نفسه (بينشتيد وفويدش ١٩٨٥ ص٦-٨).

أعتقد أنه من الصعب أن تقرب العربية الفصحى بين لهجات العربية الجديدة كما سأبين فى الفصل التالى، كما أعتقد أنه من الصعب قبول فكرة تأثير اللهجات العربية البدوية فى اللهجات الحضرية الجديدة. لكى يتصور الباحث أن العربية الفصحى قد أثرت أى تأثير فى اللهجات العربية الجديدة؛ يجب التأكد من أن نمط الفصحى كان متاحا لأبناء المناطق الحضرية من عرب وغير عرب على حدٍّ سواء، من واقع قراءتى فى كتب لحن العامة يتبين لى أن أبناء العربية فى المناطق الحضرية كانوا يرتكبون أخطاء لغوية فى استخدامهم للفصحى. حتى المتعلمون من العرب أخطئوا فى الفصحى، كما رأينا من العربية الوسيطة التى ناقشناها سلفا فى هذا الفصل. علاوة على ذلك فقد كانت الفصحى وسيلة لغوية مقصورة على بعض أنماط التواصل عند المتعلمين، فقد كانت قاصرة على الاستخدامات القرآنية، والشعرية، والعلمية المحدودة من بين سياقات الاستخدام اللغوى للمتعلم من المناطق الحضرية فى الحضارة العربية الإسلامية التى تشعبت من القرن الأول إلى سياقات حضارية متداخلة ومعقدة. ومن ناحية أخرى لكى تستطيع اللهجات العربية البدوية أن تؤثر فى اللهجات العربية الحضرية؛ يجب أن تكون رفيعة ومحترمة فى الأوساط الحضرية. السؤال هو هل كانت اللهجات العربية البدوية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين محترمة ومرغوبة اجتماعيا؟ هل شعر أبناء المناطق الحضرية بحاجة إلى تعلم الأنماط البدوية أو إلى اقتراضها؟. ليس عندنا أى معلومات اجتماعية

لغوية عن تلك المرحلة لتؤيد مثل هذا التصور، ولكن أريد هنا أن أطرح تساؤلاً منطقيا، ألا وهو هل من الممكن أن تظل اللهجات العربية الحضرية مختلفة تماماً عن اللهجات العربية البدوية حتى الآن لو كانت تلك الأخيرة محترمة عند متكلمى العربية الجديدة؟ هل تمت عمليات اقتراض واسعة ومع ذلك ظل النمطان مختلفين بهذا الشكل؟

أقترح أننا يجب ألا ننسى أن اللهجات العربية الجديدة فى إطار تطورها باعتبارها عملية لتعلم العربية باعتبارها لغة أجنبية لم تختلف كثيراً عن لهجات العربية القديمة التى كانت تمثل المدخل اللغوى العربى فى عملية التعلم. إن لم يكن الحال كذلك لكان فى تاريخ العربية نمطان : أحدهما للعرب والآخر لغير العرب الذين تعلموا العربية حديثا فى المدن العربية فى الأقاليم، ولتوجب علينا أن نرى لهذين النمطين أثرا فى الكتابات العربية، ولورد لنا فى شكل قصص أو نوادر.

أنكر هولز (١٩٩٥ ص١٩) أن يكون نموذج فرستيغ التهجينى واقعيا؛ لأن المادة اللغوية العربية التاريخية المتاحة لا تبرر مثل ذلك التصور. علاوة على ذلك فالظروف التاريخية التى أحاطت بالمراحل الأولى من التعريب لم تكن تشبه أى ظرف من ظروف نشوء أى هجين لغوى معروف آخر. وليس هناك فى المصادر النحوية العربية أى إشارة لما يمكن اعتباره هجينا لغويا عربيا، وليس هناك مادة تشير إليه فى المعاجم العربية أيضا. وحتى كتب لحن العامة نفسها لا تشير إلى تهجين لغوى، فالأنماط التى تتعامل الكتب معها أنماط تشى باللهجات العربية الحديثة، وهى عموماً مادة تتراوح على خط الصحة الفصيحة وليست أمثلة على لغة مهجنة. فى حقيقة الأمر أختلف مع هولز فى أمر واحد، وهو أنه يستخدم صمت النحويين العرب بخصوص موضوع التهجين اللغوى على أنه دليل على غيابه، هذه الحجة فى تصورى خاطئة من ناحية، ومن ناحية أخرى أشرنا سلفاً إلى أن النحويين اهتموا بلغة القرآن والشعر الجاهلى فقط، ولم يكن لهم أى اهتمام بأى نمط عربى آخر. وعندما ذكر النحويون أى لهجة من اللهجات العربية ذكروا اللهجات العربية البدوية فى شبه الجزيرة العربية، بل إن النحويين لم يستخدموا أى لهجة عربية حضرية جديدة فى الوصف اللغوى أو التحليل، أو حتى الإشارة فى الأمثلة.

بل إن هولز (١٩٩٥ ص٢٠-٢١) يقول: إن نصوص العربية الوسيطة التى تمثل أهم مصدر من مصادر العربية الجديدة فى المراحل المبكرة من الفتوحات العربية فى الأقاليم تقدم لنا أدلة على فساد فرضية التهجين اللغوى. على الرغم من أن تلك النصوص تحتوى على أخطاء كتابية وإملائية، وعلى الرغم من أنها نصوص كتابية وليست محكية فإنها نصوص حقيقية صادقة؛ إذ يصعب تصديق أن شخصا حاول اللعب بمحتواها بغية إصلاح تلك الأخطاء، فهى إذن صورة صادقة للعربية فى تلك المرحلة؛ لأنها نصوص دنيوية ذات طابع وظيفى. تعكس تلك النصوص تراوحا كبيرا فى الصرف والنحو مما يبين أننا بصدد التعامل مع نمط لغوى فى حالة تطور. وكان هذا التطور من نمط لغوى يقارب العربية الفصحى بشكل ما إلى نمط يقارب اللهجات العربية الحديثة بشكل ما. ولكن تلك النصوص لا تبين بحال من الأحوال أية سمة من سمات التهجين اللغوى أو حتى أى هجين لغوى مستقر. وعلى الرغم من أن نصوص العربية الوسيطة تعكس تبسيطًا لغويا واضحا وتطورا تركيبيا ما، فإنها لا تعكس التبسيط الواسع للتهجين اللغوى الذى يصاحب إعادة تركيب شاملة، بل إن تلك النصوص تعكس بشكل ما بعض سمات العربية القديمة أيضا.

بل إن العربية الوسيطة تعكس معرفة بالعربية الفصحى بشكل ما، يتراوح من فصل لآخر ويبين اهتماما لدى الكاتب بتقليد ذلك النمط الرفيع. ويضيف هولز أن التطور اللغوى من أيام تلك النصوص حتى الآن لم يشهد أى تطور درامى قاطع أو وقفًا فاصلاً فى التسلسل التركيبى للعربية، وهذا أكبر دليل على غياب التهجين اللغوى. ويضيف هولز (١٩٩٥ ص٢٢) أن كل الهجن اللغوية تبسط الأنماط اللغوية للغة الهدف كافة وتعيد تركيبها، ويتساءل إن كان من الممكن أن يتم تهجين العربية، وتثبيتها، وإعادة تركيبها؛ لتقارب العربية الأصيلة مرة أخرى فى الفترة الوجيزة من بداية الفتوحات العربية حتى بداية القرن التاسع الهجرى الذى لم تشهد نصوصه اللغوية أى دليل على تلك العملية.

يقول هولز (١٩٩٥ ص٢٢): إن هجن العالم اللغوية تنتج من حاجة ماسة للتواصل في سياقات محدودة في بداية الأمر. إن كانت نظرية التهجين صحيحة لكان من المهم أو من الضروري أن نجد هجينا عربيا قبطيا، وهجينا عربيا آراميا، وهجينا عربيا فارسيا، وهجينا عربيا بربريا؛ لأن اللغات المحلية في الأقاليم المفتوحة كانت مختلفة، بينما كانت اللغة الهدف واحدة. ففي الإنجليزية مثلا هناك هجين لغوي إنجليزي نيجيري، وإنجليزي صيني، وإنجليزي صيني مختلف عن الأول؛ بسبب اختلاف اللغة الأصلية للمتعلمين، بل إنه من الضروري إن صح التهجين أن توجد عمليات تثبيت مختلفة تؤدي إلى إعادة التأصيل العربي التي تقارب بين المنتجات المختلفة، ولكنها بالضرورة لن تلغي كل الفروق، ولن تنتج لهجات عربية حديثة متشابهة لأبعد الحدود التركيبية كما هو واضح من اللهجات العربية الآن. بل إن نصوص العربية الوسيطة تبين هذا التشابه نفسه منذ فترة مبكرة في تاريخ العربية الجديدة. علاوة على ذلك فكل تلك النصوص تعكس التطور نفسه، أي أنها تبين النزوع التركيبي نفسه،بدرجة البعد نفسه عن العربية الفصحى. فكل الأنماط العربية المعاصرة – على الرغم من فروق الدرجة – تعكس درجة تخفيض الأنساق الصرفية نفسها والتناسق النحوي والتراكيب التحليلية. يصعب استخدام نظرية التهجين اللغوي لتبرير تلك التطورات وتلك التشابهات المبهرة. وحتى إن تمت عمليات تهجين مختلفة فإننا يجب أن نتوقع نتائج تركيبية أكثر اختلافًا من اللهجات العربية الحديثة وتعكس تأثيرًا تحتيا أكبر وتبسيطا صرفيا ونحويا أكثر عمقا، واقتباسا معجميا أكثر اتساعا.

الفصل الخامس

العربية لغة أجنبية

أقر بصحة تصورات هولز عن غياب أى دليل لغوى على وجود هجن لغوية عربية ثابتة أو أنماط مبسطة فى تاريخ تطور اللهجات العربية عموما، وأكبر دليل على ذلك التشابه الكبير بين اللهجات العربية الحديثة من النواحى التركيبية؛ فمجموعات اللهجات العربية الحديثة فى المغرب ومصر وسوريا تعكس تاشبها كبيراً فيما بينها كما تعكس تشابهًا كبيراً مع اللهجات العربية الكويتية والنجدية فى شبه الجزيرة العربية، وهى جميعا لهجات مرت بأطوار إعادة تركيب على مستويات مختلفة بطول تاريخ العربية المنظور (بروستاد ٢٠٠٠ ص٣٧٠). أنا متأكد تمام التأكد أن اللهجات العربية الحديثة قد تطورت من أصل لغوى واحد، فعندنا نزعات التطور نفسها وتشابهات تركيبية غير عادية. تقدم لنا بروستاد (٢٠٠٠ ص٣٧٠) قائمة مبسطة لتلك النزعات المشتركة كما يلى : أنماط تعليم الاسم أداة النكرة المحددة "شى"، وأداة المبتدأ الجديد "واحد"، وأسماء الإشارة، والاستخدام غير المرتبط بجنس الاسم لتعريف بعض الأسماء منخفضة التحديد. تبين تلك السمات بالإضافة إلى اختفاء المبنى للمجهول التوليدى وانتشار الإضافة التحليلية أن اللهجات العربية تطورت من نمط ليس هو العربية الفصحى؛ ذلك لأن اللهجات تعكس تلك السمات، بينما لا تعكسها العربية الفصحى.

أريد أن أبين للقارئ الكريم هنا أننى أختلف مع معظم من نقدوا نظرية التهجين اللغوى، فأنا أتصور أن إنكار أن يكون التهجين اللغوى قد أسس اللهجات العربية الحديثة، وبالتالى هو السبب فى الفروق بين اللهجات والعربية الفصحى وبين اللهجات

والعربية القديمة عموماً لا يعنى أن التهجين اللغوى بوصفه عملية من عمليات تعلم لغة ثانية لم تحدث مطلقًا. سأحاول أن أبين فى الفصل التالى أن المناطق المحيطة بالمدن العربية الجديدة فى القرن الأول من الفتوحات العربية كانت مؤهلة من ناحية الظروف الاجتماعية والسكانية لعملية تهجين لغوى ما، بل إننى أزعم أن الظروف كانت تمكن من ظهور لغة تواصل مشتركة عربية مبسطة، ولكن تلك الأنماط المبسطة لم تشترك فى عملية تعريب المدن فى تلك المرحلة ولم تسهم فى تشكيل عربيتها الجديدة لأسباب ليست لغوية، وبالتالى اختفت تلك الأنماط دون أثر كتابى يدل عليها عندما مرت المدن من مراحل التعريب المبكرة، فأى نمط لغوى مشترك مبسط وجد فى محيط الأمصار يجب أن يكون قد اختفى مبكرا؛ نتيجة لعمليات التوسع السكانى المدنى والترقى فى عمليات تعلم العربية لغة ثانية. لقد حدث ذلك عندما لم يستطع أبناء الجيل الثانى من غير العرب تعلم الأنماط المبسطة من لغة أم؛ لأنهم كانوا يتعرضون لأنماط عربية سليمة ومتواترة من العرب فى المدن. وبالتالى يمكن أن نتصور أن الأنماط المبسطة التى ظهرت كانت لغة مشتركة اختفت بعد الجيل الأول الذى استخدم تلك الأنماط لأغراض تواصل مع العرب فقط، أما الجيل الثانى من غير العرب فقد تعلم العربية بشكل طبيعى من عرب المدن الجديدة بشكل سليم، وإن لم يكن فى صف أو بطريقة منظمة وإن كان بمدخل لغوى مبسط إلى حد ما. ولكن التوسع الأفقى للمدن الجديدة محا أى أثر للأنماط المبسطة من لغات التواصل العربية التى أشرنا إليها سلفًا وغيرت من الظروف الاجتماعية التى تؤدى إلى التهجين. ولكن فى أماكن أخرى حيث لم يكن العرب أغلبية ظهرت على حدود المدن جماعات لغوية متباينة يجب أن تكون قد أنتجت أنماطا مبسطة للتواصل من العربية وغير العربية على حدٍ سواء، ربما يكون ذلك قد حدث فى المدن الفارسية التى سكنها العرب وتحولت فى مرحلة من الزمن إلى مدن مهجر.

لا يبين التشابه فى التراكيب فى اللهجات العربية أى عملية لغوية أو عملية تطورية خاصة بعد مراحل التعريب المبكرة أو خلالها، ولكنه يبين أن أصل تلك اللهجات العربية كان واحداً، ولكن هذا الأصل المشترك لا يعنى أن يكون مشتركًا لغويا تأسس بعد الفتوحات أو خلالها فى المدن العربية الجديدة. إن صحت فكرة المشترك اللغوى؛

فيجب أن نتكلم عن عدة مشتركات لغوية إقليمية مختلفة ولو اختلافا طفيفا؛ بسبب الانعزال الجغرافى وظروف التعريب والفتح واختلاف لهجات المدخل الأصلى. ولكننى سأبين فى الفصل التالى أن ظهور تلك المشتركات اللغوية الإقليمية كان أمرًا صعبًا للغاية؛ بسبب التجدد المستمر فى سكان المدن العربية وعدم استقرار مجموعات معينة فى تلك المدن لفترة طويلة؛ بسبب استمرار الفتح وتقدمه، ولما كانت الهجرات العربية مستمرة إلى تلك المناطق فقد كان من الصعب تثبيت أى تطور لغوى ينافى أو يغاير المدخل اللغوى العربى الأصلى الوارد من شبه الجزيرة العربية مع المهاجرين. من الممكن أن تكون المشتركات اللغوية قد ظهرت بعد نصف القرن الأول من الفتوحات حيث استقر سكان المدن وخفَّت وتيرة المهاجرين والخارجين للفتح واستطاع التركيب السكانى أن يثبت أنماط تطور لغوى معينة وأنماط تسوية بعينها.

حسب تقديرى يجب أن يكون تأثير المشتركات اللغوية الإقليمية المزعوم على تطور العربية يجب أن يكون صوتيا أكثر من أى شىء آخر. إن صح أن كل إقليم عربى قد تم فتحه على يد عسكر ينتمون جميعًا إلى مجموعة متقاربة من اللهجات العربية فيبدو نظريا على الأقل أن تكون الفروق بين تلك اللهجات التى سيسويها المشترك اللغوى قليلة. ولما كانت قواعد العربية الحديثة على مستوى اللهجات متقاربة إلى حد التماثل أحيانا؛ فيجب أن نفترض أنها كانت كذلك منذ البداية، ولما كانت الفروق بين أصوات اللهجات العربية الحديثة كبيرة نسبيا؛ فإن المرء يستطيع أن يفترض أن الفروق بين أصوات اللهجات العربية القديمة، وبالتالى لهجات العربية الجديدة، كانت أكبر من الفروق فى التراكيب. من الممكن أن يكون المشترك اللغوى قد سوى الفروق بين اللهجات على المستويات النحوية الصرفية وقرب فيما بينها على المستوى الصوتى نسبيا؛ ليمكن من تكوين مجموعات لهجاتية. ولكننى فى واقع الأمر لا أرى بناء على هذا التصور المنطقى أن نظرية المشترك اللغوى مفيدة لنا فى فهمنا لتطور العربية، فتأثيرها - إن صح - قليل ولم يؤد بالعربية إلى منعطف تطورى خاص.

من الصعب أن نحدد فترة زمنية لبداية المشترك اللغوى، ولا حتى أن نقدم تاريخا وصفيا لتطوره بشكل واضح. بناء على استمرار تدفق العرب على المدن الجديدة فى

الأقاليم وانتشارهم فيها من ناحية، وبناء على ازدياد التواصل بينهم وبين غير العرب فى تلك المدن من ناحية أخرى أفترض أن تعلم العربية لغة ثانية وبناء المشترك اللغوى كانا عمليتين حدثتا فى وقت واحد تقريبا. بل إننى أفترض أن هاتين العمليتين قد استغرقتا وقتا طويلا تخطى بكل حال من الأحوال الأعوام الخمسين الأولى بعد الفتح التى شهدت تأسيس المجتمع العربى الجديد. ولكن على أى حال إن افترضنا أن الأصل المشترك والمشتركات الإقليمية قد تبرر ولو جزئيا التشابهات الكبيرة بين اللهجات العربية عموما من جهة وبين مجموعات خاصة من تلك اللهجات على وجه الخصوص من جهة أخرى، فإن السؤال الأساسى يبقى : ما تفسير تطور كل تلك اللهجات العربية بالطريقة نفسها بعيدا عن العربية الفصحى؟. من الواضح أن التأثير التحتى لا يمكن أن يفسر تحول اللهجات العربية عموماً من نمط لغوى توليدى إلى نمط تحليلى فى شكله العام، وإن كان هذا التصور غير كامل من الناحية النظرية، ولكننى لن أفصّل كثيرا فى تلك النقطة فليس هنا مكانها.

أتصور أنه من المنطقى بحسب أبحاث تعلم اللغة الثانية الحديثة أن نعتبر أن بعد القبطية، والآرامية، والبربرية، والفارسية عن نمط العربية الطيبولوجى يجب أن يكون عنصر منع لأى تأثير محتمل للغة الأم على تعلم العربية وتراكيب المتعلمين وخاصة فى المرحلة الأولى من الفتح. ويبقى أن نفترض منطقيًا أن أى فروق بين اللهجات العربية والعربية الفصحى وبين اللهجات بعضها البعض إنما يرجع إلى إنتاج عملية تعلم العربية باعتبارها لغة ثانية فى سياق طبيعى غير منظم، فهى إذن تطورات فردية اكتسبت صبغة جمعية فى إطار عملية التعلم العامة. وهذا يعنى أن الفرق بين العربية القديمة عموماً واللهجات العربية الحديثة يكمن جزئيا فى تعلم العربية والعملية العقلية الطويلة التى اتخذت صورة فردية جماعية فى الوقت نفسه. ولكن يبقى سؤال: هل نشأت كل التطورات فى كل إقليم على حدة أم انتقلت بعضها من إقليم لآخر فى إطار التطور اللغوى العادى؟

يمكن رد بعض السمات المشتركة والنزعات اللغوية التركيبية المشتركة بين اللهجات إلى عوامل سكانية اجتماعية؛ من بين تلك العوامل انتقال سمة لغوية ما من منطقة لهجية إلى منطقة أخرى من خلال عملية نشر، وعلى الرغم من أننى قلت سلفًا: إن

النشر كان مسئولا عن انتشار "شاف" وأداة النفى "ما-ش" مثلا فإنه لا يمكن ولو نظريا على الأقل أن نتصور أن كل التشابهات التركيبية والصرفية فى اللهجات العربية وردت لنا من خلال عملية نشر تركيبى صرفي واسعة النطاق. فهناك بعض العقبات التى وقفت فى طريق النشر اللغوى فى القرون الأولى من الفتوحات العربية، من ناحية لم يكن هناك أى مركز ثقل لغوى واحد متفرد فى القرنين الأول والثانى ينشر السمات اللغوية الخاصة به لتستعيرها باقى المراكز الحضرية وتضمنها فى أنماطها العربية، ومن ناحية أخرى كانت المدن العربية الجديدة فى الأقاليم لمدة ما لا يقل عن خمسين عامًا مساحات تجمُّع إدارية منعزلة بعضها عن البعض، وكل منها محاطة بجماعات سكانية من غير العرب بحيث لم يكن هناك تواصل مباشر بين تلك المدن. سأطور تلك الفكرة فى الفصل القادم، ولكن يكفى الآن أن نعرف أن مع هذا العزل وتلك المسافة لم تكن هناك وسائل إعلام تنشر سمات لغوية من طرف من أطراف الإمبراطورية العربية للطرف الآخر كما هو كائن الآن من تشابه بين لهجات متباعدة مكانيا.

يعكس مثل "شاف" وأداة النفى "ما-ش" الصعوبات التى تواجه انتشار سمات لغوية نحوية أو صرفية ما من خلال النشر اللغوى على الرغم من مكانتهما من نتائج النشر اللغوى. كما بينا سلفًا فإن "شاف" كانت نتيجة لعملية نشر متأخرة فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر لم يثبت لدينا ما هو أقدم منها، ولكن المسألة الأهم أنه على الرغم من أن تلك السمة المعجمية موجودة فى كل اللهجات العربية الحديثة فإن هناك جيوبا من اللهجات لا تستخدم "شاف" فى أواسط مناطق لهجاتية كلها تستخدم "شاف"؛ فاللهجات العربية اليهودية فى العراق وشمال إفريقيا لم تستخدم تلك المفردة على الرغم من أنها موجودة فى اللهجات العربية المسلمة الرفيعة المحترمة المحيطة بها. نحن إذًا أمام حالة من النشر اللغوى غير الكامل؛ إذ إن العوامل الاجتماعية اللغوية قد تكون لعبت دورها المعنى فى نشر تلك السمة المعجمية فى تلك الجيوب اللهجاتية. ولو نظرنا بشكل شمولى إلى أداة النفى "ما-ش" يمكن أن نرى التوزيع اللغوى نفسه[1].

---

(١) التوزيع اللغوى مصطلح يستخدم للتعبير عن الحدود الجغرافية أو الاجتماعية أو الطبقية أو حتى حدود الاستخدام الوظيفى لسمة لغوية ما أو لتركيب معين فى سياق اجتماعى لغوى .

فقد استجلب الفاطميون الشيعة هذا المورفيم معهم من شمال إفريقيا إلى مصر، ولكن بعد سقوط الدولة الفاطمية هاجرت جماعات من الشيعة والدروز من مصر إلى بلاد الشام وهى تستخدم تلك السمة الصرفية، ولكن الجماعات اللغوية السنية فى بلاد الشام لم تقترض تلك السمة الصرفية، وبالتالى لم تنتشر فى سوريا بالطريقة نفسها التى انتشرت بها فى مصر، ولكن الجماعات الشيعية الدرزية فى الشام استمرت فى استخدام تلك السمة الصرفية باعتبارها أداة تعريف بالهوية، ولولا الهجرات ما عرف هذا المورفيم فى بلاد الشام بعد مصر على الرغم من أنه تطور فى الإقليمين بطريقتين مختلفتين.

سأحاول أن أقدم فى هذا الكتاب على مدى الفصول القادمة تفسيرًا عامًا للتحول من اللهجات العربية القديمة إلى العربية الجديدة التى تطورت إلى اللهجات العربية الحديثة. سأقدم تفسيرًا يعمل من خلال نموذج تعلم العربية باعتبارها لغة ثانية تعلمًا خارج نطاق التدريس المنظم. قد يتصور القارئ أننا أسهبنا كثيرًا فى الفصول السابقة فى تقديم التفسيرات اللغوية التاريخية المختلفة لتطور العربية، نعم قد يكون ذلك صحيحا، ولكننى فضلت أن أقدم النظريات وأنقدها لأقدم نظريتى، فيعلم القارئ تطور أبحاث العربية ويخبرها نسبيًا من ناحية، ومن ناحية أخرى تعتمد نظريتى على كل تلك النظريات معًا، وإن كانت تختلف مع كل منها على حدة فى تفاصيل معينة أو فى تحليل مادة بطريقة ما. ولكن تعلُّم العربية لا يتم فى فراغ لغوى تاريخى ولا لغوى اجتماعى، تعلم اللغة الثانية مسألة تحدث فى سياق مهدت له النظريات السابقة تمهيدًا أحسبه حسنا.

فى الحالات التاريخية التى يتم تعلم اللغة فيها بشكل غير منظم وخارج سياقات التدريس فى الفصول يكون مصدر المدخل اللغوى الوحيد أو الرئيسى على الأقل هو أبناء اللغة الموجودين فى سياق التعلم المكانى، وتصبح سياقات التواصل ساحات التعلم الوحيدة التى يستقى المتعلم من خلالها المدخل اللغوى المطلوب للتعلم. يجب أن ننتبه إلى أن التعلم فى تلك السياقات يكون عرضا جانبيا حيث التواصل الوظيفى هو الهدف الأساسى من السياق، كما أن التعلم لا يكون منظما بل فرديا مختلفا من شخص لآخر ومن سياق لآخر. أنا أزعم أن العربية فى الأقاليم المفتوحة تم تعلمها فى القرنين

الأول والثانى من الفتوحات بشكل حر خارج نطاق الصفوف أو المقصودية، وتم تعلمها لأسباب وظيفية تواصلية أثناء سياقات التواصل بين العرب وغير العرب. وفى أمثال تلك السياقات التى قد تنتج تهجينا لغويا وغيره من السمات التطورية والمراحل التعلمية تكون الظروف الاجتماعية السكانية والسياسية مهمة جدا فى اتجاه التعلم (تهجين أو تعلم سليم) وفى سرعته ونوعيته (منظم أو حر غير منظم). تنبع تلك الأهمية من أن تلك الظروف غير اللغوية تحدد درجة قرب المنتج اللغوى المتعلم من المدخل اللغوى الأصلى كيفيا من حيث المستويات التركيبية.

قد تؤدى الظروف الاجتماعية السكانية إلى إنتاج نمط لغوى هجين مؤقت لأسباب التواصل الحتمية. وفى حالات قليلة يصبح هذا النمط التواصلى اللغة المشتركة بين الجماعات اللغوية المختلفة التى تعيش فى بيئة لغوية واحدة وتتعلمها الأجيال الصاعدة لغة ثانية أو حتى اللغة الأم. ولكن تركيبة أخرى من الظروف الاجتماعية اللغوية قد تؤدى إلى ظهور مستويات مختلفة من اللغة الوسط التى ينتجها المتعلمون خلال تعاملهم مع درجات مختلفة من المدخل اللغوى الذى يقدمه ابن اللغة.

أزعم أن تعلم اللغة العربية لغة ثانية أولا ثم اللغة الأم فى الأقاليم المفتوحة فى القرنين الأول والثانى للفتح كان عملية خضعت لمجموعة من الظروف الاجتماعية السكانية والبيئية اللغوية التى أدت إلى ظهور نمطين لغويين متزامنين ومختلفين فى الوقت نفسه. سأبين فى الفصل التالى أن نمط التطور الحضرى فى نصف القرن الأول من الفتوحات، والتغيرات السكانية الناتجة عن هذا التطور منحت العرب الرفعة الاجتماعية والأغلبية السكانية فى المناطق التى أصبحت العربية فيها مادة لتعلم لغة أجنبية، ثم أصبحت لغة ثانية فاللغة الأم لأجيال لاحقة. وفى مناطق أخرى منحت ظروف مختلفة العرب التفوق والرفعة الاجتماعيين، ولكنها لم تمنحهم الأغلبية السكانية العددية. من المؤكد أن تلك المناطق شهدت أنماطا مهجنة من اللغة العربية اختفت لاحقا لأسباب اجتماعية تاريخية مختلفة، والسبب فى هذا الاختلاف أن تلك الظروف حدَّت من جودة المدخل اللغوى وكميته فى سياقات التواصل والتعلم.

على الرغم من أن البنية التحليلية للهجات العربية الحديثة لا تعكس أى أثر لنموذج التهجين اللغوى الذى يدعيه فرستيغ (١٩٨٤)، وعلى الرغم من أن نصوص العربية الوسيطة لا تقدم لنا أى دليل على التبسيط الشديد وإعادة التركيب المميزة للهجن اللغوية فإن المناطق المتاخمة للمدن العربية الجديدة شهدت أنماطا مبسطة من العربية لم تكن أساس اللهجات العربية الجديدة ثم اللهجات الحديثة، هناك الكثير من الإشارات فى كتب القرن الثالث الهجرى لوجود أمثال تلك الأنماط المبسطة والمخلطة فى أحياء غير العرب فى المدن العربية الجديدة وخاصة البصرة. يذكر كل من الجاحظ فى البيان والتبيين (الجزء الأول ص٦١) وابن قتيبة فى الشعر والشعراء (ص٢١٠) العديد من الأمثلة على تلك الأنماط المبسطة من العربية فى معرض ذكرهما لحديث العرب وغير العرب. تشير بعض الأمثلة التى يذكرها الجاحظ خاصة إلى أن المفردات العربية فى تلك الأنماط المبسطة كانت تستخدم فى إطار تراكيب وبنية جمل فارسية.

من بين الأمثلة مثل يجمع بين ابن مفرغ الذى كان الجند يسحلونه فى شوارع البصرة وبعض أطفال الفرس الذين كانوا يجرون خلفه، سأله الأطفال عن سر سحله بلغة فارسية فأجابهم هو بكلمات عربية فى تراكيب فارسية قائلا كما يلى : "عرب إست، نبيذ إست، عصارتى زبيب إست، سمية روسبى إست"، يعنى هذا الكلام: "هذا ماء، وهذا نبيذ، وهذا عصير زبيب، وهذه سمية الغانية". تشير أمثال تلك الأمثلة إلى أن بعض الأنماط المبسطة ربما كانت موجودة بالقرب من المدن العربية الجديدة أو حولها حيث يكثر غير العرب من خلفيات لغوية مختلفة، ولكنها لا يمكن أن تكون قد تطورت فأصبحت هى اللهجات العربية الجديدة التى يمكن أن تنعكس فى السلوك اللغوى الموجود فى نصوص العربية الوسيطة فى القرن الثامن الميلادى، بل يجب أن يكون هناك نمط آخر أو أنماط أخرى أكثر تعقيدا من الناحية التركيبية قد تطورت لتصبح اللهجات العربية الجديدة.

غالبًا ما تظهر الأنماط اللغوية المهجنة فى مناطق يتجمع فيها مجموعات لغوية مختلفة تحتاج إلى تواصل لغوى، وتختار تلك المجموعات لغة واحدة، لتكون لغة التواصل المشتركة بينها جميعًا، وغالبًا ما يكون المدخل اللغوى المستخدم فى تعلم تلك اللغة

المشتركة مبسطًا لدرجة إعادة التركيب ومحدودا محدودية شديدة تتسق مع محدودية عدد متكلمى تلك اللغة باعتبارها اللغة الأم. سنبين فى الفصل التالى أن المناطق المحيطة بالمدن العربية الجديدة شهدت تجمعا لمجموعات بشرية متنوعة تتكلم الفارسية بالإضافة إلى جماعات من العبيد والعمال من شرق إفريقيا، بالإضافة إلى مجموعات كبيرة من متكلمى الآرامية والسريانية وغيرها من لغات المناطق المفتوحة، وشهدت حاجة للتواصل بين كل تلك الجماعات المتباينة فى فترة زمنية محدودة. وكان من الطبيعى أن تختار تلك الجماعات اللغة العربية باعتبارها لغة مشتركة؛ لأنها كانت لغة السادة ملاك الأراضى التى يعمل فيها هذا العدد الكبير من الناس. وكان مصدر المدخل اللغوى محدودا جدا فى تصورى بسبب ندرة العرب المقيمين على الأراضى الزراعية خاصة فى القرن الأول الهجرى. فى حالة كتلك يبدو من الطبيعى، بل ومن المقبول أن يتم تبسيط المدخل اللغوى بطريقة تسهل التعلم لدرجة أن المدخل يخضع لعملية إعادة تركيب، ولكن هذا الكلام طبيعى نظريا وقدمنا له شاهدا تمثيليا واحدا فى الفقرات القليلة السابقة. ويكون أيضا من الطبيعى فى سياق مثل هذا من الناحية النظرية أن لا يكون هناك موانع تواجه إعادة التركيب لندرة العرب فى تلك المناطق، ولغياب تنوع مصادر المدخل اللغوى الذى يسهل عملية التعلم.

شكل العرب فى مناطق أخرى من الأقاليم المفتوحة وخاصة المدن العربية الجديدة أغلبية بشرية سكانية عالية حيث كانت أنماط العربية هى اللغة الأم، ولكن على الرغم من أن التواصل بين العرب فى تلك المناطق وغير العرب كان لأسباب وظيفية وليس لأسباب تعلم العربية فى حد ذاتها، فإن العربية فى تلك المناطق تحولت إلى لغة ثانية مكتسبة بشكل طبيعى من خلال جيل واحد من غير العرب. وتشترك أنماط العربية التى كانت تلك الأجيال المبكرة التى تعكسها نصوص العربية الوسيطة مع اللهجات العربية الحديثة فى بعض السمات الصرفية النحوية. أزعم أن غير العرب فى تلك المدن تعلموا العربية على أنها لغة أجنبية، وتوفر لهم فى هذا السياق مدخل لغوى واسع أوجدته الوفرة فى أبناء العربية. وأزعم أيضا أن أبناء العربية أنفسهم الذين كانوا حريصين على التواصل مع غير العرب للأغراض الوظيفية نفسها، وقد حرص غير العرب على هذا التواصل، قد بسطوا

اللغة العربية التى يستخدمونها مع غير العرب بشكل تركيبى. وهذا المدخل اللغوى المبسط كان نمط العربية التى استخدمه غير العرب فى تعلم العربية بشكل غير منظم، وتعلموا هذا النمط على أنه العربية الصحيحة، بل إنهم يجب أن يكونوا قد لاحظوا الفروق التركيبية والصوتية بين ما تعلموه وأنتجوه من عربية وأنماط العربية التى يستخدمها العرب أنفسهم فيما بينهم، ولذلك حاولوا فى عملية مراقبة[٢] معهودة أن يقربوا إنتاجهم اللغوى من المدخل العربى الأصلى من خلال عملية محاكاة عادية فى مثل تلك السياقات التعلمية.

لقد استجلبت الفتوحات العربية أعداداً كبيرة من العرب من شبه الجزيرة العربية إلى الأقاليم المفتوحة وخاصة المدن العربية الجديدة. عاشت تلك الجماعات العربية المهاجرة فى المدن الجديدة نفسها، وكانت معزولة جغرافياً عن المناطق المأهولة بأعداد كثيفة من السكان الأصليين لتلك الأقاليم. وعندما بدأ اقتصاد المدن العربية الجديدة فى الازدهار بدأ غير العرب ينجذبون إلى تلك المناطق غير المأهولة سلفا كما انجذب إليها العرب قبلهم، ولذلك وجد غير العرب الذين هاجروا فى جماعات صغيرة أو كأفراد يبحثون عن عمل أنفسهم مضطرين للحياة فى مناطق يتكلم غالبية سكانها العربية باعتبارها لغة أم. وكانت أنماط العربية المستخدمة فى تلك المدن هى النمط اللغوى المحترم والرفيع؛ ولذلك وجب استخدامه وبالتالى تعلمه، بل إن الظروف الاجتماعية السكانية والسياسية لم تحتم نوع اللغة المستخدمة فى التواصل ومن ثم لغة التعلم فقط، بل إنها أيضا حددت نوعية المدخل اللغوى العربى الذى استخدم فى التواصل والتعلم. ولما كانت الأحادية اللغوية هى الظاهرة الغالبة فى أوساط عرب شبه الجزيرة العربية وفى سكان الأقاليم المفتوحة أيضا، فقد كان من الصعب على الفريقين أن يستخدما العربية كما هى إلا إذا بسط العرب استخدامهم اللغوى ليكون مفهوما بالنسبة إلى غير العرب من المتكلمين والمتعلمين.

---

(٢) المراقبة عملية عقلية يستخدمها متعلم اللغة ليقرب بين نظام لغته الوسط والمدخل اللغوى الأصلى (جاس وسلينكر ١٩٩٤ ص١٤٥). للمزيد عن نظام المراقبة العقلية انظر كراشن (١٩٨٢ و ١٩٨٥)، وانظر أيضا لارسن فريمان ولونج (١٩٩١ ص٢٤٠-٢٤٩) .

النمط العربى المعدل الذى استخدمه العرب مع غير العرب هو نمط حديث الأجانب. حديث الأجانب عملية لغوية نفسية ولغوية اجتماعية يستخدمها ابن اللغة الهدف ليسهل التواصل الوظيفى والفهم مع من يتحدث لغته باعتبارها لغة أجنبية. سأبين فى الفصل السابع من هذا الكتاب أن أنماط حديث الأجانب عادة ما تكون أنماطا صحيحة من الناحية التركيبية وإن كانت أبسط من الأنماط العادية على كل مستويات التحليل اللغوى. وبما أن العرب قد قدموا لغير العرب المدخل اللغوى المكون من أنماط حديث الأجانب فى إطار سياقات التواصل الوظيفى؛ فكان من الطبيعى لغير العرب أن يتعلموا هذا النمط على أنه العربية السليمة. نتيجة التعلم كانت نمطا من اللغة الوسط المغاير تركيبيا لأنماط العربية التى يستخدمها العرب فيما بينهم، ومن الطبيعى فى حالات تعلم اللغة الأجنبية بشكل غير منظم وحر أن لا يتم تسوية تلك الفروق وإن كانت ملحوظة بين نمط اللغة الوسط ونمط اللغة الهدف الأصلى؛ ذلك لأن متعلم اللغة الثانية بشكل طبيعى أحيانا كثيرة يتجمد مستواه التعليمى عند درجة أقل قليلا من درجة ابن اللغة الهدف على الصعيد التركيبى الصرفى الصوتى وحتى الصعيد الدلالى. ولذلك من الطبيعى فى تلك المرحلة المبكرة أن نتكلم عن أنماط العربية الجديدة فننفصل بين الأنماط الحضرية والأنماط البدوية أو أنماط شبه الجزيرة العربية.

من المنطقى أن نفترض أن المنتج الأول والمرحلى لعملية تعلم لغة كتلك فى الأقاليم العربية المفتوحة كان نمطا من اللغة الوسط بعيدا جدا عن أنماط العربية المستخدمة باعتبارها اللغة الأم. ولكن الاختلاط بين العرب وغير العرب فى المدن العربية الجديدة وسياقات التواصل المتنوعة مكنت غير العرب من استخدام فرص مدخل لغوى متوفر ومتكرر لتسوية الفروق الكبيرة بين أنماطهم العربية المتعلمة وعربية أبناء اللغة الهدف. ولكن عندما تصل مرحلة التعلم إلى منطقة تختفى فيها الفروق الكبيرة أو التركيبية الملحوظة بين النمطين، وتصبح الفروق الكائنة غير ذات تأثير وظيفى تتوقف عملية التعلم ويحدث ما نسميه فى تعلم اللغة الثانية بتجمد التعلم.

سألخص فرضيتى هنا فى سطور قليلة بسرعة لأقول: إن الظروف الاجتماعية السكانية هى التى فرضت أن تستخدم العربية باعتبارها لغة للتواصل بين الشعوب مختلفة

اللغات التى دخلت فى سياقات التواصل بعد الفتوحات فى المدن العربية الجديدة، وفى الوقت نفسه فرضت تلك الظروف نفسها كيفية تعلم العربية باعتبارها لغة تواصل أجنبية فتعلمها الناس بشكل حر غير منظم. علاوة على ذلك فرضت تلك الظروف أيضاً على العرب باعتبارهم أبناء للغة الهدف أن يقدموا للمتعلمين مدخلا لغويا مبسطا ومعدلا لتسهيل التواصل بين أبناء اللغة الهدف والأجانب من ناحية، ولتسهيل التعلم من ناحية أخرى. أزعم أن اللهجات العربية الحضرية الجديدة التى تكونت بعد الفتوحات العربية فى المدن العربية الجديدة ما هى إلا نتاج تعلم المدخل العربى المعدل الذى قدمه العرب لغير العرب فى شكل حديث الأجانب. إذا قبلنا بهذا التفسير ولو نظريا؛ فلن يكون من العسير علينا تفسير الاختلافات بين اللهجات العربية القديمة والعربية الفصحى واللهجات العربية الحضرية الحديثة التى تمثل امتداد اللهجات العربية الحضرية الجديدة التى نشأت بعيد الفتوحات العربية، ولن يكون من العسير أيضا أن نفسر ظاهرة السمات النحوية المشتركة ذات الأشكال اللفظية المختلفة باعتبارها أداة الإضافة التحليلية وأداة النكرة المحددة مثلاً.

من الناحية التاريخية واللغوية، ومن الناحية الاجتماعية السكانية لا يمكن أن يكون الفرق بين اللهجات العربية الجديدة والعربية القديمة إلا نتاج تعديل العرب لأنماطهم اللغوية فى حال حديثهم مع غير العرب فى سياقات التواصل فى المرحلة المبكرة من الفتوحات، وسنقدم فى الفصل الأخير من هذا الكتاب مادة حديث الأجانب من اللهجات العربية الحديثة، وسيتبين أن أنماط تعديل اللهجات الحديثة حال حديث الأجانب يشبه الاختلافات بين العربية القديمة والعربية الجديدة. وإن كان للمتعلم فى حالة تعلم لغة ثانية بشكل حر غير منظم مصدر واحد للمدخل اللغوى – وهو مصدر ابن اللغة الهدف نفسه – فإنه يتعلمه كما هو دون إعادة تركيب أو تحريف؛ بسبب وفرة أبناء اللغة الهدف ومدخلهم اللغوى؛ وبسبب الفرص المستمرة لتحسين التعلم وتثبيت المدخل اللغوى المتعلم. علاوة على ذلك فالمدخل اللغوى المعدل هو المدخل المتعلم دون غيره كأنه اللغة الهدف فى شكلها المثالى.

إذا كانت أنماط العربية القديمة فى شبه الجزيرة العربية أقرب إلى العربية الفصحى من اللهجات العربية الجديدة وخاصة فى المناطق الشرقية من شبه الجزيرة فإن الفروق بين النمطين ما هى إلا تراكم تعديلات أبناء اللغة على مدخلهم اللغوى وعناصر التطور الطبيعى لكل لغات العالم التى تقع فى طور تواصلى علاوة على التطورات التى أشرنا إليها فى الفصل الثانى والتى كانت قائمة فى حالة علامات الإعراب والتصريف الإعرابى وصوت العين مثلا. إن المقارنة البسيطة بين العربية الفصحى واللهجات العربية الحديثة تبين لنا بوضوح آثار عمليات التعديل التركيبى التى أفترض أن العرب أجروها على لغتهم الأم حال تواصلهم مع غير العرب فى سياقات وظيفية. تصنيفات صرفية كبيرة فى العربية الفصحى تم اختصارها فى اللهجات العربية الحضرية خاصة؛ ففيما يخص الفعل على سبيل المثال تجد أن تصنيفات فعلية تحتية كاملة قد اختفت من اللهجات العربية الحضرية فى مقابل ثباتها وفعاليتها فى الفصحى التراثية والمعاصرة على سبيل المثال، فتصنيفات المثنى وجموع المؤنث قد اختفت كلية من الأفعال والضمائر فى اللهجات العربية جميعا، أما فى الأسماء فتصنيف المثنى غير ثابت وإن كان موجودا، ففى الأسماء التى تشير إلى مفاهيم إنسانية عاقلة لا تستطيع استخدام لاحقة المثنى بشكل طبيعى، فالمثنى فى تلك الأسماء ظاهرة غير اعتيادية، نستخدم فى أمثال تلك الأسماء المثنى التحليلى فى أن تقول مثلا: "إتنين مدرسين" فى اللهجة المصرية بدلا من "مدرسين"، ولكننا نستخدم المثنى بلاحقته بشكل طبيعى اعتيادى منتج مع الأسماء غير العاقلة، ولكن الصفات التى تخص العاقل وغير العاقل على حد سواء لا تستطيع أن تستخدم لاحقة المثنى كما لا تستطيع أن تستخدم لواحق جموع المؤنث.

تعكس اللهجات العربية الحضرية الحديثة – فى مقابل العربية الفصحى القديمة والفصحى المعاصرة – سمات أخرى تدل على استراتيجيات تعديل تركيبى تهدف إلى توضيح العلاقات النحوية بين الكلمات وجعلها أكثر تحليلية؛ فتجد أن اللهجات العربية الحضرية الحديثة مثلا تستخدم صيغتى "اتفعل" و"انفعل" للتعبير عن المبنى للمجهول فى مقابل المجهول الفصيح الذى يمكن اعتباره ظاهرة فعلية توليدية عتيقة.

إن استخدام أمثال تلك الصيغ الأوضح يبين – من الناحية الشكلية – استخدام الفعل أكثر من الصيغة التوليدية. ومن بين السمات التحليلية الجديدة التى تبين معانى صيغ الأفعال تطور سوابق الفعل المضارع مثل "بيكتب – هيكتب – كيكتب – عم يكتب" وغيرها من السوابق اللفظية التى تبين صيغة الفعل وزمنه ومفعوليته. تذكر عزيزى القارئ أن أمثال تلك السوابق توجد فى كل اللهجات العربية الحديثة وخاصة الحضرية منها، ولكنها لا توجد فى فصحى التراث ولا فى الفصحى المعاصرة. ويعتبر تطور أداة الإضافة التحليلية مثلا آخر على رغبة ابن اللغة الهدف فى جعل العلاقات النحوية العربية التوليدية أكثر وضوحا وأكثر تحليلية، فكل اللهجات العربية تعبر عن الإضافة بتعبير معجمى فى مقابل التعريف النحوى الإعرابى الموجود فى الفصحى. على الرغم من أن السمات النحوية الخاصة بكل مثل من الأمثلة التى قدمناها سلفا تختلف من لهجة لأخرى فإنها جميعا تقوم بالوظائف النحوية نفسها والتواصلية تقريبا مع اختلاف التفاصيل البسيطة.

سأقدم فى الفصلين التاليين الظروف الاجتماعية السكانية التى أدت إلى تعلم العربية لغة ثانية بشكل حر وغير منظم فى المناطق الحضرية فى الأقاليم العربية الجديدة، وسأشرح بعد ذلك سمات تلك العملية الكبيرة والمدخل اللغوى الذى استخدم فيها.

الفصل السادس

الظروف الاجتماعية السكانية للتعريب

١ - مقدمة :

من المقبول فى أوساط تاريخ العربية أن انتشار العربية فى العراق، والشام، ومصر، وشمال إفريقيا إنما هو عملية تعلم للعربية لغة ثانية فى إطار واسع (هولز ١٩٩٥ ص٢٤). وزعمت فى الفصل السابق أن الفروق بين اللهجات العربية الحضرية الحديثة والعربية القديمة هى حاصل جمع تعديلات أبناء اللغة العربية الهدف التركيبية وعملية التعلم الحر غير المنظم نفسها. إن الذى مكن لعملية التعلم الحر والتعديلات التركيبية إنما هى عوامل غير لغوية. سأقدم فى هذا الفصل تلك العوامل وأشرح الظروف الاجتماعية السكانية التى مكنت لسياق تعلم العربية بهذه الطريقة ركز كثير من الباحثين من (أمثال توماسون وكوفمان ١٩٨٨ وفوك ١٩٥٠ وفرستيغ ١٩٨٤) بشكل عام، ولكن عملية تعريب الأقاليم العربية فى تصورى الخاص مسألة لغوية تاريخية لها خصوصيتها. تكمن خصوصية حالة اللغة العربية فى أن العوامل الاجتماعية السكانية وقت الفتوحات لم تكن وحدها الحاسمة فى تطور اللهجات العربية الجديدة، بل إن السمات الاجتماعية اللغوية والاجتماعية التاريخية قبل الفتوحات العربية كانت هى الأخرى فعالة فى التحول إلى العربية بشكل كامل وسريع نسبيا بعد الفتح إن لم تكن حاسمة فى هذا الصدد.

لكى أبرر فرضيتى الطموحة بأهمية التعلّم الحرّ للفئة الثانية اخترت أن ألخص فى هذا الفصل المقتضب العوامل غير اللغوية التى أثرت فى التحول اللغوى إلى العربية فى المدن العربية الجديدة، وتعديل المدخل اللغوى المستخدم فى تلك العملية واسعة الانتشار.

أدعى فى هذا الفصل أن السمات الاجتماعية السكانية فى وقت الفتوحات كانت متشابهة إن لم تكن متماثلة فى جميع الأقاليم العربية المفتوحة باستثناء شمال إفريقيا، ولذلك سأقدم العوامل بشكل عام دون النظر إلى كل إقليم على حدة. ولكننا لو نظرنا إلى ظروف المجتمعات السكانية والتاريخية اللغوية فى الأقاليم قبل الفتوحات فسنصطدم باختلافات كبيرة فى أعداد ومدى عمق الدراسات التاريخية، والاجتماعية، واللغوية، والاقتصادية التى اهتمت بتلك الأقاليم فى أواخر الحقبة اليونانية الرومانية. اخترت مصر حالة لدراسة الظروف الاجتماعية السكانية قبل الفتوحات العربية لعدة أسباب: أولا - هناك دراسات حديثة كثيرة عن كل عنصر من عناصر المجتمع والتاريخ المصرى فى العصر اليونانى الرومانى المتأخر. ثانيا - هناك العديد من الوثائق المصرية الحقيقية من تلك المرحلة نفسها فى حوزتنا والتى تمت ترجمتها وتحليلها وتوثيقها، بل وأرشفتها. ثالثا وأخيرا - هناك نصوص عربية وسيطة من إقليم مصر أكثر من أى إقليم عربى آخر.

سأقدم فى القسم الثانى من هذا الفصل ثلاث نقاط أساسية عن مصر فى العصر اليونانى الرومانى : النقطة الأولى تختص بالوضع الاجتماعى السكانى فى مصر فى تلك المرحلة، النقطة الثانية تختص بالتوزيع الوظيفى للغات فى مصر مدنها وقراها فى العصر الرومانى المتأخر، النقطة الثالثة والأخيرة لها علاقة بوضع اللغة اليونانية فى المدن المصرية غير اليونانية.

سأقدم فى القسم الثالث من هذا الفصل باختصار شديد العوامل غير اللغوية التى أسهمت فى تسريع عملية التعريب ونجاحها فى المناطق الحضرية ومنعت اندماج العرب اللغوى والحضارى فى شعوب الأقاليم التى كانت تفوق العرب عدداً فى تلك الأقاليم بشكل واسع. سأناقش ثلاث نقاط مهمة فى هذا القسم : تتعلق النقطة الأولى بأعداد الجنود العرب المشاركين فى الفتوحات الأولية والمهاجرين العرب الأول إلى الأقاليم والمدن العربية الجديدة فى نصف القرن الأول من الفتوحات، النقطة الثانية تتعلق ببناء المدن العربية فى العراق والشام ومصر، وتهتم النقطة الثالثة بتطور التواصل بين العرب وغير العرب فى الأقاليم المفتوحة.

سأناقش تلك النقاط كلها؛ لأننى أتصور أن هناك علاقة طردية بين تمركز العرب فى منطقة من المناطق أو إقليم ما واختيار اللغة العربية باعتبارها لغة تواصل مشتركة فى ذلك الإقليم أو حوله. هناك أيضا حسب تصورى علاقة علِّية بين طريقة اكتساب اللغة العربية باعتبارها لغة هدف ونوع المدخل اللغوى المستخدم فى تلك العملية من ناحية والتوزيع السكانى للعرب فى الأقاليم من ناحية أخرى. أتصور أن مصداقية تصورى هذا تثبت بدراسة حالة العربية فى المناطق التى لم تتحقق فيها الظروف الاجتماعية السكانية بالطريقة نفسها التى تحققت بها فى مناطق اللهجات العربية كما هو الحال فى إيران. لم يستطع العرب أن يحافظوا على لغتهم العربية باعتبارها لغة تواصل فى إيران بعد القرنين الأول والثانى من الفتوحات حيث اندمج العرب لغويا وحضاريا فى المجتمع الإيرانى، لم يؤسس العرب مدنا عربية ولا مراكز حضرية خاصة بهم فى تلك المناطق لاستقبال المهاجرين العرب والوافدين بشكل مستمر لفارس الشاسعة الكبيرة، بل كانت الهجرات العربية موزعة على مناطق متفرقة من فارس الكبيرة الشاسعة، ولذلك لم يشكل العرب فى أى مكان من فارس منطقة ذات أغلبية سكانية عربية تستطيع أن تحافظ على العربية باعتبارها لغة تواصل. لقد عاش العرب على حدود المدن الفارسية القائمة فعلا فى تجمعات صغيرة، وفى أسر متفرقة فى بعض الأحيان حيث توجب عليهم التواصل مع الإيرانيين بلغتهم الأم لأسباب وظيفية ضرورية.

أتمنى فى نهاية هذا الفصل أن أنجح فى توضيح أن الظروف الاجتماعية السكانية فى مرحلة الفتوحات العربية وطريقة تواصل العرب مع غيرهم كانا العنصرين الحاسمين فى نشوء اللهجات العربية الجديدة فى المناطق الحضرية بالطريقة التى نشأت بها. أحب أن ألفت انتباه القارئ الكريم إلى أنه يجب النظر إلى المقارنة البسيطة التى قدمتها بين حالة العالم العربى وإيران فى هذا السياق على أنها مجرد مثل على أهمية الانتشار الحضرى وبناء المدن الكبيرة فى تعلم اللغة الثانية بشكل حر غير منظم على الأقل فى الحالة التى نحن بصددها.

تكمن أهمية دراسة الوضع اللغوى والاجتماعى اللغوى قبيل الفتوحات العربية فى مصر فى العصر اليونانى الرومانى فى أن الحالة اللغوية الاجتماعية التى كان

المصريون يتعاملون بها مع اللغة الأجنبية فى تلك المرحلة وهى اليونانية قد مكنت من اكتساب العربية باعتبارها اللغة الأم بالتعاون مع العوامل السكانية المختلفة التى طرأت بعد الفتوحات، وتبين أيضا أن تلك الحالة نفسها هى التى أدت إلى عدم اكتساب اليونانية باعتبارها اللغة الأم، أو حتى باعتبارها لغة ثانية بشكل كامل فى مصر قبل الفتوحات على الرغم من أنها عاشت فى مصر ما يقرب من ألفية كاملة قبل الفتوحات العربية.

٢ – مصر قبل الفتوحات العربية :

فى الفقرات القليلة التالية أناقش ثلاث نقاط أساسية أتصور أنها قد سهلت تعريب إقليم مصر بالتضامن مع طريقة الهجرات العربية لمصر بعد الفتوحات: النقطة الأولى – الموقف الاجتماعى السكانى فى المدن والقرى المصرية فى العصر اليونانى الرومانى، النقطة الثانية – الموقف اللغوى فى الإقليم قبيل الفتح العربى مباشرة، والنقطة الثالثة – مكانة اللغة اليونانية فى المناطق الحضرية. من المهم جدا فى حالة كتلك التى ندرسها أن ننتبه إلى مكانة لغة ما أو نمط لغوى ما فى سياقه الاجتماعى، والجماعة اللغوية التى تستخدم هذا النمط والسياقات التواصلية التى يستخدم فيها. فأنا أتصور أن عملية التحديد الوظيفى للغات المستخدمة فى مصر باعتبارها جماعة لغوية كبيرة والتوزيع اللغوى فى العصر اليونانى الرومانى كانا عنصرين مهمين جدا فى تعريب مصر بعد الفتوحات العربية.

(أ) الوضع الاجتماعى السكانى :

كان الشكل المادى للمدن المصرية فى العصر اليونانى الرومانى المتأخر يونانيا بشكل كبير، ويشبه باقى المدن الرومانية الأخرى فى الشرق عموماً (باجنال ١٩٩٣ ص٤٥-٤٦)(١) . فكان لكل المدن مؤهلاتها من المؤسسات السياسية التى تمكنها من الحصول على لقب

---

(١) للمزيد من المعلومات عن المدن المصرية وعواصم الأقاليم المحلية انظر باومان (١٩٩٢)، وانظر أيضا لوكسفيكس (١٩٨٦) للمزيد من المعلومات عن المبانى العامة فى مصر فى العصر الرومانى .

"بوليس" يونانية، ويمكن تلخيص تلك المؤسسات فيما يعرف بمجلس المدينة، علاوة على ذلك فقد كان لكل مدينة من المدن مؤسسة الجيمنازيوم، وهى العلامة الاجتماعية الأوضح للمدن اليونانية فى المنطقة العـربية قبل الفتوحات. ولكن السؤال : إلى أى حد كانت تلك السمات المادية دالة على حقيقة هوية المدن المصرية فى العصر اليونانى الرومانى؟ إن الكشوف الأثرية الحديثة والحفريات الأخيرة فى منطقة إدفو ومحيطها تبين أن المناطق الداخلية من تلك المدينة والأحياء الفقيرة فيها تمتعت بالقليل من الشوارع الواسعة والمؤسسات الرومـانية، كما كانت بيـوتها مكونة من حجرات دون أحواش، كما كان الحال فى البيوت اليونانية فى المدن اليونانية العتيدة كالإسكندرية مثلا. لقد كانت البيوت فى الأحياء الشعبية والفقيرة تشبه الريف المصرى أكثر مما تشبه المدن اليونانية القديمة؛ لأن الأدوار السفلى فيها كانت محجوزة للورش أو للدكاكين الصغيرة، كما أن الحيوانات المنزلية كانت تعيش مع الناس فى البيوت نفسها (باجنال ١٩٩٣ ص٤٩-٥١). كانت المدن المصرية باختصار ريفًا كبيرًا إذا ما استثنينا الشوارع اليونانية الكبرى فى تلك المدن، ولكنها عمومًا خلت من السمات المعمارية اليونانية مثل الأعمدة والبولفارات والمعابد اليونانية الكبيرة. ولذلك يمكن أن نقول: إن عواصم الأقاليم المصرية كانت قرى ريفية كبيرة، وإن مصر خلت من عمران مدنى واسع إذا ما استثنينا الإسكندرية.

لقد كان البشر والحيوانات يعيشون معا فى مساحات صغيرة جدا وأماكن ضيقة للغاية، فقد كان حجم المدن فى مصر فى أواخر العصر اليونانى الرومانى لا يتجاوز فى المعدل كيلو مترًا واحدًا. علاوة على صغر الحجم الجغرافى وضيق المساحة كانت المدن المصرية فى تلك المرحلة تحوى أعدادًا من السكان أقل من تلك التى كانت تستضيفها المدن العربية الحادثة الحديثة مثل الفسطاط فى النصف الأول من القرن الأول بعد الفتوحات. تبين البرديات التى بين أيدينا أن مدينة متوسطة مثل هرموبوليس التى كانت تقبع فوق ١٢٠ هكتارًا من الأرض احتوت على سبعة آلاف بيت تقريبًا (رودر ١٩٥٩ ص١٠٧). وكان عدد سكان تلك المدينة يتراوح بين ٢٥ ألف و٥٠ ألف نسمة، ويميل نحو الرقم الأعلى. ومع ذلك فقد كانت هرموبوليس أكبر من المدن المصرية العادية، إذ إن المدن المصرية

العادية قد تستضيف ما يقارب من ١٦ ألف نسمة فقط (باجنال ١٩٩٣ ص٥٣)[٢] . الصورة العامة للتجمعات الحضرية فى مصر اليونانية الرومانية كانت صورة تجمع عمرانى نصف مدنى صغير الحجم ويحوى أعداداً محدودة من السكان. لم تكن تلك المدن يونانية الهوية على الرغم من أنها كانت تضم بعض المؤسسات السياسية اليونانية وبعض السمات العمرانية المحدودة.

أما بخصوص القرى المصرية فى أواخر العصر اليونانى الرومانى فقد كانت مصر تضم ما يتراوح بين ألفين وألفين ونصف قرية كاملة تزرع كل منها ما يقارب الألف هكتار من الحقول (باجنال ١٩٩٣ ص١١٠) . وكان عدد سكان القرى يتراوح ما بين عدة مئات من السكان فى القرى الصغيرة إلى خمسة آلاف نسمة فى القرى الكبيرة، وفيما بين الرقمين تراوحت قرى كثيرة بأعداد سكان مختلفة[٣] . وكذلك كانت مساحات القرى متراوحة ما بين أصغر القرى التى تحوى فى زمامها عشرة هكتارات، أو تزيد قليلا على ذلك إلى قرى تشبه فى مساحتها مساحة المدن مثل قرية كرانيس التى كان يمكن اعتبارها مدينة صغيرة (هاسلمان ١٩٧٩ ص٧). على الرغم من أنه من الصعب أن نخلص بنتائج ثابتة وقاطعة حول القرى والمدن المصرية – لأن المعلومات المتوفرة لدينا عن الإقليم عموماً متركزة على إقليم الفيوم بصفة خاصة، وهو أحسن إقليم مصرى توثيقاً فى العصر اليونانى الرومانى– فإن عواصم الأقاليم كانت تشبه القرى فى مساحاتها وفى بعض سماتها الشكلية؛ فقد كانت قرية كرانيس على سبيل المثال بحجم مدينة تيميويس نفسه، ولكن ذلك لا يعنى أن كل المدن كانت صغيرة بحجم كرانيس، فقد كانت مساحتها ثلث مساحة أرسينوى على سبيل المثال (باجنال ١٩٩٣ ص١١٠ و ١١١).

كانت القرى المصرية فى تلك المرحلة صغيرة ومكتظة بالسكان إلا أنها كانت تفتقر للمؤسسات السياسية والإدارية المستقلة، فلم يصل لنا أى نص أو وثيقة رسمية كتبها مسئول رسمى إدارى من مستوى متوسط أو مرتفع من أية قرية من قرى عموم مصر

---

(٢) للمزيد من المعلومات عن تعداد سكان مدن مصر فى العصر اليونانى الرومانى فى مختلف فتراته انظر روثبون ١٩٩٠ .

(٣) للمزيد من المعلومات عن عدد سكان القرى المصرية فى تلك المرحلة انظر باجنال (١٩٨٥ ص٢٨٩–٣٠٨) .

في العصر اليوناني الروماني المتأخر؛ ولذلك لم يكن هناك أي مباني عمومية أو منشآت عامة في قرى تلك الفترة، ولكن كانت هناك حاميات عسكرية ومعسكرات للجيش الروماني خارج حدود القرى السكنية، إلا أنها لم تتداخل مع مناطق العمل الخاصة بالقرية أو حدودها الإدارية. وحتى المعابد التي كانت تشغل مركز القرية المكاني حتى القرن الرابع بدأت في التلاشي وإخلاء الساحة لمباني غير محددة بعد القرن الرابع بشكل أساسي (باجنال ١٩٩٣ ص١١٣ و ١١٤). وأصبحت المعابد وحدات إدارية خاملة قبيل الفتح العربي في مصر خاصة، وفي باقي أقاليم المنطقة بشكل عام، باستثناء مناطق معينة في الشام والعراق.

ليس التداخل في المساحة وعدد السكان بين القرى وبعض المدن في مصر مسألة فريدة، فقد كان أسلوب حياة الطبقات المنخفضة في الأحياء الشعبية من المدن متشابها إن لم يكن متماثلا مع أسلوب حياة سكان القرى. فقد كان بعض سكان المدن يحترفون الزراعة والرعي وصيد السمك، بل إن دور بعض سكان المدن كان مكملاً وحيويا للحياة الاقتصادية للريف المصري؛ خذ مسألة إنتاج زيت الزيتون والنبيذ مثلا: فتجد أن العنب والزيتون يزرعان في الريف وينقلان إلى المدينة المجاورة حيث يتم تصنيعهما ليصبحا زيتا ونبيذا. ويمكن تعميم المثل نفسه على إنتاج باقي المحاصيل الحيوية مثل القمح والكتان (باجنال ١٩٩٣ ص٧٩ و ٨٠).

الأكثر من ذلك أن بعض القرى الكبيرة التي يصل حجمها لحجم مدينة صغيرة قد بدأت من القرن الرابع في اكتساب بعض السمات العمرانية التي كانت حتى ذلك الوقت من سمات المدن الكبرى - الحمامات العمومية مثلا - (رولاندسون ١٩٩٨ ص١٢). ولكن كل ذلك لا يعني أن القرى والمدن كانت متساوية في توزيع الثروة وفي البنية الاجتماعية لكل منهما. تمثلت الفروق الأساسية بين المدن التي كانت عواصم أقاليم والقرى في وجود طبقات عالية من المصريين اليونانيين الأغنياء من ملاك الأراضي الزراعية في المدن بالإضافة إلى وجود الحكومة المحلية والسلطات كافة. هناك فرقٌ أخر بين المدن والقرى وهو غياب أي رمز من رموز السلطات الإدارية من القرى منذ نهاية القرن الثالث الميلادي. في ظل هذا الغياب لنظام المجالس القروية أو حتى العمودية - كما نعرفها في عصرنا - جعل القرية مرتبطة بالمدينة العاصمة بشكل كامل ومباشر.

لو نظرنا إلى المادة اللغوية التى بين أيدينا، ولو صدق تلخيصنا للنظام الإدارى فى تلك المرحلة وصح؛ فإننا نستطيع أن نفترض أن مصر لم تشهد وجود مناطق حضرية مدنية كبيرة ذات شأن وذات طابع يونانى يميز اليونانيين عن المصريين ويفصل بينهم. وقد يكون ذلك قد أدى إلى انفصال اليوانيين فى الإسكندرية عن باقى مصر عمومًا ومنع أى نوع من أنواع الاتصال المباشر.

استضافت مصر فى تلك المرحلة ثلاث جماعات بشرية مختلفة: استضافت المواطنين الرومان، والمواطنين اليونان فى المدن، والمواطنين المصريين من أبناء البلاد الأصليين. وكان المجتمع المصرى فى تلك المرحلة تراتبيا وطبقيا فى تركيبه عموما(٤) . اللقب الرسمى للمصريين عمومًا باستثناء الرومان وسكان المدن اليونانية مثل الإسكندرية هو "أيجبتوى" أو المصريين. يشير رولاندسون (١٩٩٨ ص١١) إلى أن تلك التسمية وهذا المدخل الإحصائى الرسمى أحسن دليلٍ على مدى اندماج أبناء المهاجرين اليونانيين فى مصر خارج المدن اليونانية مثل الإسكندرية، ولكن داخل هذا التصنيف الإحصائى وتلك التسمية كان هناك فصل شديد وواضح بين اليونانيين الأصلاء الذين كانوا يمثلون الطبقات الرفيعة فى عواصم الأقاليم والذين كانوا يسيطرون على معظم مساحات الأراضى الزراعية فى الريف المصرى على أحسن تقديرٍ وبين جماهير المصريين الذين كانوا يعيشون فى القرى عادةً. على الرغم من أن اليونانيين شكلوا الطبقة الرفيعة المحدودة والتى سكنت المدن بينما سيطر المصريون على الريف؛ فإن الحياة الحضرية والقروية لم تكونا منفصلتين بشكل كبير كما أشرنا سلفًا. بالإضافة إلى التجاور المكانى والاعتماد الوظيفى كان الريف مرتبطًا بالمدن بشكل كبير، ومن بين مظاهر ذلك الارتباط اعتماد القرويين فى الحصول على القروض من المدن (باجنال ١٩٩٣ ص٧٤)، وكذلك اعتمدت ثروات الطبقة العالية فى المدن على أراضى الريف وعلى عمال ومدراء يعيشون فيه. ففى مدينة هيرموبوليس كان هناك ستة بالمائة (نحو ٤٥٠) أسرة من أصل سبعة آلاف كانت قادرة على أن تعيش من الأراضى الزراعية التى تمتلكها

(٤) انظر باومان ١٩٩٢ وروثبون ١٩٩٠ .

فى الريف بشكل كامل وبدون الاعتماد على مصادر أخرى للدخل (باجنال ١٩٩٣ ص٧١). تحت قمة الهرم تلك كانت هناك جماعتان من ملاك الأراضى: كان لأفراد الجماعة الأولى أراضى تتراوح ما بين عشر لمائة أرورات من الأرض، وكانت تلك المجموعة تعيش على ريع الأرض الزراعية بشكل جزئى. والمجموعة الثانية من ملاك الأراضى كانت تمتلك أقل من عشر أرورات من الأرض الزراعية، وهى المجموعة الأكبر. وكان ريع الأرض الزراعية لتلك المجموعة من الملاك قليلا ولا يكفى حياة كاملة.

هناك سمة أخرى من سمات اعتمادية الريف والمدن هى النظام الإدارى والحكم المحلى، أصبحت الإدارة فى القرن الرابع الميلادى مسألة محلية؛ فتم اختراع وظيفة جديدة سميت "لوجستيس"، واستحدثت تلك الوظيفة لتدير المجالس المحلية، وكذلك فى كل الهيئات المحلية التى تدير الأعمال المدنية كافة مثل الأمن والتحكم فى الأسواق ومراقبتها. وعلى ذلك لم تكن المجالس المحلية مسئولة مباشرة أمام الإدارة المركزية فى الإسكندرية، بل كانت مسئولة أمام اللوجستيس، ولم يكن هذا المنصب مسئولا عن الأجهزة المدنية فقط، بل كان أيضا مسئولا عن القرى المحيطة بالمدينة محل سلطته. وكان اللوجستيس مسئولا عن تعيين مسئولين محليين فى القرى ينوبون عنه فى الأعمال القروية كافة مثل الأمن، ومراقبة جباية الضرائب، وحماية الريف والأسواق، وغيرها من المهام الثابتة أو الطارئة (باجنال ١٩٩٣ ص٦٠-٦٢).

وغالبًا ما كان اللوجستيس من ملاك الأراضى فى القرى وكان من الطبقة اليونانية، وبذلك سيطرت الحكومة على الريف من خلال المدينة، ولكن الحكومة المركزية فى عموم مصر لم تكن ممثلة بشكل كبير فى المدن ولا فى القرى المصرية باستثناء الإسكندرية. لقد تنازلت الحكومة المركزية عن سلطاتها كاملة لمجموعة من اليونانيين المصريين المحليين بداية من القرن الرابع. المظهر الوحيد للسلطة المركزية فى الأقاليم والقرى كان الوحدات العسكرية المتمركزة فى زمام كل قرية أو كل مجموعة من القرى، ولكن باستثناء ذلك كان الانتقال الإدارى والترقى من مكان محلى لمكان آخر خارج الإقليم المحلى لإقليم آخر كانت مسألةً مستحيلةً (باجنال ١٩٩٣ ص٦٢-٦٣).

تركزت في يد اليونانيين الثروة، من امتلاك الأراضي الزراعية والسلطة المحلية في المدن والسلطة المركزية في الإسكندرية. وبذلك أصبح اليونانيون الطبقة العالية في المدن المصرية المحلية منذ بداية القرن الثالث الميلادي تقريبًا (باجنال ١٩٩٣ ص٥٥). ولكن انتشار الدين المسيحي، وخاصةً انتشار العقيدة المصرية التوحيدية الخاصة أفقدت اليونانيين الكثير من هيبتهم واحترامهم عند المصريين كما أفقدت عبادتهم مصداقيتها لدى المؤمن المصري البسيط. لقد سقطت الوثنية اليونانية القديمة بانتشار المسيحية، وسقطت معها باقي المؤسسات اليونانية المدنية والثقافية مثل الجمنازيوم (باجنال ١٩٩٣ ص٥٩ و ٦٠). ولكن المكانة السياسية والاقتصادية التي أسسها اليونانيون لأنفسهم في المدن وإحساسهم بموقعهم وعزلتهم عن المصريين ساعدتهم على الاحتفاظ بموقعهم باعتبارهم صفوةً اجتماعية. ولذلك إن لم يكن اليونانيون في الحكومة المحلية وإن لم تكن اليونانية لغة الإدارة والدولة لكان من السهل جدا، بل ومن الحتمي لتلك الأقلية الرفيعة من الأغراب، أن يتعلموا لغة الأغلبية المحلية - وهي المصرية. أما بخصوص المصريين القرويين أنفسهم فلم يكونوا يتعرضون للغة اليونانية؛ لأن الإدارة اليونانية في المدينة كانت تحكم القرية من خلال وسطاء محليين.

هناك نقط مهمة ومثيرة للاهتمام في هذا التلخيص المقتضب: أولا - كانت الفروق الجغرافية والسياسية بين العرق اليوناني والعرق المصري المحلي غير واضحة، ثانيا - استمد اليونانيون هويتهم المستقلة من خلال مؤسسات ثقافية وسياسية معينة، وانهارت تلك الهوية المستقلة والأهمية الثقافية بظهور الإسلام ، الذي سرعان ما أصبح الدين الشعبي الأهم في عموم مصر بحلول القرن الثالث الهجري.

(ب) الوضع اللغوي في مصر في أواخر العصر اليوناني الروماني :

كانت هناك ثلاث لغات مستخدمة في عواصم الأقاليم المحلية وإلى حد أقل في القرى التابعة لها وهي : المصرية القبطية، واليونانية، واللاتينية. ولكن العلاقة الوظيفية بين تلك اللغات الثلاث ليست واضحة لنا بشكل كبير على الرغم من وجود كمية كبيرة من البرديات المصرية من العصر اليوناني الروماني والتي تمت أرشفتها وتحليلها بشكلٍ مُرضٍ.

ولكن الحمل الوظيفى للغة اللاتينية على الأقل أكثر وضوحًا من حمل المصرية واليونانية الوظيفى، وكذلك العلاقة بينها وبينهما أكثر وضوحًا من العلاقة بينهما.

يمكن تلخيص وظيفة اللغة اللاتينية فى مصر قبل عصر ديقولتيان كما يلى :

> **كانت الوثائق الرسمية والقرارات الحكومة مكتوبة باللاتينية إذا ما كانت تخص شخصًا رومانيا أو موظفًا رومانيا أو عسكريا رومانيا، وكذلك كانت المراسلات بين الحكام الرومان مكتوبة باللاتينية، وكانت المكاتبات بين الرومان والوثائق العسكرية مكتوبة باللاتينية (كياميو ١٩٧٩ ص٢٧).**

ويضيف كياميو أن اللاتينية فى مصر كانت لغة هامشية؛ لأن شخصا لم يكن يتكلمها باعتبارها لغة حوارٍ أو حياة يومية فى داخل النطاق المدنى المصرى وسياق تواصل الحياة اليومية، ويضيف أيضا أنها لم تكن اللغة السائدة داخل صفوف الجيش الرومانى نفسه (كياميو ١٩٧٩ ص٢٨). ولكننا نستطيع أن نقول - إن صح تحليلنا للنصوص البردية المصرية من القرن الرابع - : إن اللغة اللاتينية اكتسبت بعض المهام التواصلية فى القرن الرابع وما بعده أكثر مما قبل ذلك؛ فقد أصبحت اللاتينية مستخدمة بشكل أكبر فى المحاكم وفى المراسلات الرسمية والمراسلات الخاصة بين الناس الذين أصبحوا مهتمين باستخدام بعض الشكليات اللاتينية فى مراسلاتهم ومكاتباتهم، وظلت باقى المهام التواصلية للاتينية التى كانت فاعلة فى القرن الثالث مستمرة فى القرن الرابع وما بعده حتى الفتح العربى فى القرن السابع (باجنال ١٩٩٣ ص٢٣١).

تبين وثائق القرن السادس الميلادى بعض الظواهر اللافتة من الناحية الاجتماعية. فقد ظهرت فى تلك الفترة قواميس لاتينية صغيرة مكونة من قوائم كلمات لاتينية مكتوبة بالحروف اليونانية وبعلامات الإعراب وصيغ جمعها، كانت تلك القواميس الصغيرة مزدوجة اللغة أو متعددة اللغات، وكانت مصممة للمصريين الذين يريدون استخدام بعض اللاتينية دون أن يكون لهم بها خبرة كبيرة. ظهرت بالإضافة إلى تلك القواميس بعض كتيبات المحادثة المكتوبة باللاتينية واليونانية والمصرية القبطية. وعلى الرغم من أن تلك الوثائق لم تظهر قبل القرن السادس فإن من الصعب أن نتصور

أن اللاتينية اكتسبت وظائف تواصلية فى تلك المرحلة المتأخرة أكثر مما سبق. تكمن أهمية تلك الكتيبات فى أنها تبين النزعة الاجتماعية تجاه استخدام اللاتينية فى المحادثة العامة لأول مرة، وتبين أيضا أن اللاتينية كانت مهمة فى المجالات العملية وخاصة فى المواقع الوظيفية التى كانت تتطلب استخدام اللاتينية، ومع ذلك فإن اللاتينية لم تكن لغة مهمة من ناحية الحياة اليومية على الرغم من أهميتها العملية فى إطار الوظائف العالية والرفيعة. كانت وظائف التواصل الخاصة بالحياة اليومية مجال اليونانية والمصرية القبطية.

إذا وضعنا فى اعتبارنا الفكرة السابقة التى بينا فيها ارتباط القرية بالمدينة فى المسائل الإدارية والسياسية وفى الأنشطة الاقتصادية، فإننا يجب أن نتصور أن اللاتينية كانت شبه غائبة عن أى سياق تواصلى، وكانت موجودة فقط فى المدن والوحدات العسكرية الموجودة فى أطراف القرى المصرية.

إذا ما رجعنا إلى المصرية واليونانية؛ لرأينا أنه من الصعب التفريق بينهما وظيفيا من ناحية وتوزيع مهامهما التواصلية من ناحية أخرى؛ بسبب العوامل المختلفة التى كانت تؤثر فى الموقف اللغوى فى مصر فى القرنين السادس والسابع الميلاديين. فى سياق تحديد الاستخدام اللغوى يجب النظر باهتمام إلى عوامل اجتماعية واقتصادية كثيرة فى مصر فى تلك الفترة مثل: الجنس، والثروة، والمهنة، والمكانة الاجتماعية. إن كثيراً من الباحثين اللغويين يتصورون أن اليونانية لم تكن مستخدمة بشكل كبير فى الريف المصرى فى تلك المرحلة (يوتى ١٩٧٥ ص٢٠٣ وهاريس ١٩٨٩ ص١٩٠)، وأن القبطية كانت اللغة الأم لمعظم المصريين (روبنسون ١٩٩٦ ص٧٧). تعتبر تلك التصورات التعميمية صحيحة على وجه العموم، ولكن البرديات اليونانية التى توثق للمرحلة والتى وصلت إلينا فى شكل وثائق حكومية رسمية سجلت مكانة متكلمى اليونانية وعددهم، وهى إضافة إلى ذلك المصدر الوحيد فى هذا الصدد لتلك الفترة (باجنال ١٩٩٣ ص٢٤١)، وتبين الوثائق أن اللغة المصرية فى القرنين الخامس والسادس كانت مستخدمة فى الوظائف الدينية فقط، وفى المراسلات الكنسية، وأدبيات الأديرة. أما فى السياقات المدنية فلم يستخدم

المصـــريون لغتهم الأم فى المكــاتبات والكتابات العــادية، لم تستخدم اللغــة القبطية فى الكتـابات المدنيـة واليـومـيـة إلا فى القـرن السـابع بعد وصـــول العرب إلى مـصـر (فيبشكا ١٩٨٤ ص٢٨١)(٥) .

أصبحت اليونانية منذ بداية القرن الرابع الميلادى اللغة المستخدمة بشكل رئيسى فى الكتابة والتوثيق فى مصر، ذلك على الرغم من التزايد فى استخدام اللاتينية كما أشرنا سلفًا. فلم يكن من الممكن على المصريين فى تلك المرحلة أن يديروا معابدهم أو يرسلوا تقاريرهم أو حتى مراسلاتهم الخاصة باستخدام لغتهم الأم، ولكنهم قاموا بتلك الوظائف باستخدام اليونانية الكتابية. من الصعب أن نتصور أن الأشخاص الذين كانوا يقومون بمهمة الكتابة والتوثيق لم يتكلموا اليونانية، فليس من الممكن نظريا على الأقل أن يكتب الإنسان لغة لا يستطيع أن يتكلمها أو يفهمها على الأقل. فمن المنطقى ساعة الكتابة أن نبنى جملا وعبارات، وبناء العبارات يعنى استخدام اللغة، وهذا التسلسل المنطقى يعنى أن تعميم "يوتى" السابق بأن اليونانية لم تكن مستخدمة فى الريف المصرى بشكل كبير تعميم صعب التصديق، فهناك أنواع كثيرة من الوثائق الرسمية وكمية هائلة من الوثائق الشخصية المكتوبة باليونانية نشأت من قرى الريف المصرى.

لقد بينا سلفا أن اليونانيين الذين يتكلمون اليونانية باعتبارها اللغة الأم كانوا متمركزين فى المناطق الحضرية، وإن كانوا يملكون أرضا أو يشغلون وظيفة حكومية فى الريف. فإن هذا الاتصال كان عادة ما يتم من خلال وسيط مصرى، ولذلك من الغالب أن يكون من كتب الوثائق اليونانية التى وجدت فى الريف المصرى من أبناء الريف ومن المتعلمين منهم على وجه التحديد، بل وربما كانوا من مزدوجى اللغة أيضا. ويمكن أيضا أن نقول: إن الأميين من المصريين لم يكن لهم أى معرفة باليونانية؛ لأنهم لا يحتاجونها لأغراضهم الكتابية (يوتى ١٩٧٥ ص١٨٩ وويبشكا ١٩٨٤ ص٢٧٩).

---

(٥) للحصول على معلومات أكثر بخصوص الوثائق المصرية فى أرشيف ديسكوروس فى مرحلة ما قبل العرب انظر ماكول (١٩٨٨ ص٣٦-٤٧). وللحصول على مراجع ودراسات أعمق حول الوضع اللغوى فى مصر فى أواخر العصر القديم انظر روبنسون (١٩٩٥) .

على الرغم من كثرة الوثائق اليونانية من تلك الفترة فإنها لا تعطينا معلومات واضحة أو دقيقة عن خلفيات الكتاب الاجتماعية أو سياقات النصوص، فنحن مثلا لا نعرف إن كان من كتب نصّ الرسالة فى قرية من القرى هو المؤلف الذى أملاها أو أنه كاتب محترف، أو ربما هو شخص قريب أو صديق يساعد فى عملية الكتابة فقط (باجنال ١٩٩٣ ص٢٤٢). قليلة جدا الحالات التى كان الكاتب فيها معروفا؛ ففى ثلاث مراسلات من قرية كرانيس كان الكاتب هو أوراليوس كاسيوس والذى كتب لنفسه وبنفسه. هذا الشخص ينتمى لطبقة صغيرة من أثرياء القرية، ويعمل فى إحدى الوظائف الحكومية وينتمى إلى علية القوم فى تلك المنطقة. فقد كان وأخوه يمتلكان نحو ٦٧ أرورا من الأراضى الزراعية واعتبر من أعيان القرية. يقترح هذا المثل أن الطبقات العالية فى القرى مثل كاسيوس كانوا يستطيعون استخدام اليونانية والحديث بها.

إلا أن تلك المراسلات الثلاث فى الوقت نفسه تبين أن الكاتب كان يكتب بالنيابة عن ثلاثة إخوة غير أشقاء، وهذا يبين أنه لم يكن كل أبناء الطبقات الريفية العالية قادرين على استخدام اليونانية للكتابة أو الحديث بها باعتبارها لغة ثانية. ولكننا يمكن أن نصل إلى نتيجة أخرى من تلك المراسلات، وهى أن مجموعة الموظفين الذين انتمى إليهم كاسيوس كانت قادرة أكثر من غيرها فى الريف المصرى على استخدام اليونانية لأغراض الكتابة على الأقل. ولكننا إن قارنا تلك المراسلات بمراسلات أخرى كتبها موظفون معبديون أو مدنيون فى القرى؛ لتبين لنا أن أوراليوس كاسيوس كان أكثر معرفة باليونانية من كثير من زملائه الموظفين فى تلك الفترة (باجنال ١٩٩٣ ص٢٤٢).

على الرغم من أنه من الصعب، بل من الخطير أن نصدر أى تعميمات بناء على مراسلات أوراليوس كاسيوس؛ بسبب افتقار الوثائق المصرية فى تلك المرحلة للوضوح والتركيز على المعلومات المطلوبة بعكس المتوقع فإننا نستطيع أن نتصور أن تحدُّث اليونانية واستخدامها فى الكتابة كان وظيفة تواصلية محفوظة للموظفين من الطبقات العالية فى المجتمع الريفى المصرى فى تلك المرحلة. وفى داخل تلك الجماعات البشرية المحدودة كان هناك أفراد أكثر مهارة من آخرين فى استخدام اليونانية: فقد كان قليل منهم قادراً حتى على كتابة اسمه فى تذييل الرسائل. لقد كان الموظفون القرويون

عموماً في أغلبهم قادرين فقط على كتابة أسمائهم في أواخر الرسائل أو توقيع الإيصالات التي كتبها لهم غيرهم من المتخصصين (باجنال ١٩٩٣ ص٢٤٣). وليس من الواضح في حقيقة الأمر إن كانت صعوبة استخدام اليونانية للكتابة نابعة من عدم تمكن هؤلاء الموظفين من الحديث باليونانية، أو من جهلهم بطريقة الكتابة عموما على الرغم من أنهم كانوا يتحدثون اللغة اليونانية بشكل أو بآخر. ولكنني شخصيا أجد نفسي ميالا إلى تصور أنه بما أن اليونانية لم تكن اللغة الأم للمصريين في الريف في أواخر العصر القديم فقد كان تدني مستوى المعرفة الكتابية باليونانية يعني بالضرورة تدني مستوى المعرفة باللغة اليونانية عموماً، وضعف استخدامها لغير الأغراض الوظيفية.

هناك أمثلة كثيرة على موظفين قرويين ورجال دين محليين من ملاك الأراضي الأميين، والذين كانوا يملكون أرضا أكثر من التي يمتلكها زملاؤهم الذين يجيدون القراءة والكتابة. كان أوراليوس إيسيدوروس من بين أفضل تلك الأمثلة: إذ ترك لنا أرشيفا كاملا من الوثائق الرسمية والمراسلات والإيصالات التي لم يكتبها هو بنفسه. لقد كان هذا الرجل من ملاك الأرض الذين حصلوا على مهام وظيفية رسمية، كان من بينها جباية الضرائب التي عمل بها لمدة عشرين عاماً متتالية، وقد كان هذا الرجل المحترم في عصره أميا بالكامل مثل باقي جباة الضرائب في عصره. يبين لنا هذا المثل أن معرفة اليونانية لم تكن مهمة للحصول على وظيفة رسمية في الريف المصري، ولكنه من الممكن في الوقت نفسه أن نجد المعرفة بالقراءة، والكتابة، وباللغة اليونانية في طبقات الموظفين وملاك الأراضي من أغنياء الريف أكثر من الفقراء من القرويين. لقد كانت الأمية في واقع الأمر العنصر السائد في الريف المصري في تلك الحقبة وخاصة عند النساء (باجنال ١٩٩٣ ص٢٤٣). لم تكن النساء في مصر عموماً وفي الريف خاصة تعمل في أي وظائف رسمية تتطلب الكتابة. كثيرا ما كان شخص من الأقرباء الذكور ينوب عن المرأة في الأمور الكتابية. علاوة على ذلك فعندما كان شخص يوجه رسالة لامرأة ما فقد كان يخاطبها من خلال مترجم أو قارئ، غالباً ما يكون ذكراً.

وفي الجيش الروماني الذي كان يمثل الوجود الرسمي الوحيد في القرية المصرية في أواخر العصر الروماني اليوناني كان بعض الجنود يقرأون ويكتبون، وكان بعضهم

الآخر من الأميين الذين كانوا يعتمدون على زملائهم فى المهام الإدارية التى تحتاج التوثيق. وليس لدينا أى دلالة أو حتى إشارة بسيطة فى الوثائق التى بحوزتنا تشير إلى أن الإلمام باليونانية كتابة وقراءة أو التحدث بها كان أساسيا فى أعمال الجندية[٦] . ولذلك فمن الممكن أن نفترض أن المعرفة بالقراءة والكتابة والمعرفة باليونانية باعتبارها لغة حديث، والجهل بهما كانا موجودَيْن فى الجيش الرومانى معًا (يوتى ١٩٧١ ص.٦٢٠)، بل إن بعض الباحثين يفترضون أن المعرفة بالقراءة والكتابة فى الجيش الرومانى قد بدأت بالتدهور والانحسار فى القرن الخامس الميلادى (هاريس ١٩٨٩ ص٢٩٤).

هناك سؤال مهم ملح ألا وهو، هل كانت الأمية فى تلك المرحلة مرتبطة بمعرفة اللغة اليونانية نفسها، أم كان الأمران منفصلين؟ لا يبدو لى أن تكون اللغة القبطية مستخدمة فى الجيش الرومانى باعتبارها لغة كتابية رسمية، ولكنها كانت لغة التواصل بين الجنود الذين كانوا من المجندين المحليين فى غالبيتهم. ولكن الضباط اليونانيين كانوا يتكلمون مع جنودهم المحليين باليونانية، ولذلك من الممكن أن يكون التعدد اللغوى فى الجيش أكثر منه فى القرى. وربما يكون أيضا الحديث باليونانية أكثر انتشارا فى الجيش من الاستخدام الكتابى لتلك اللغة. هناك مؤسسة أخرى لم يكن فيها الإلمام بالقراءة والكتابة مرتبطا بالمعرفة اللغوية، وهى مؤسسة الأديرة. فى أديرة مصر فى القرنين الخامس والسادس كانت هناك مجموعات من الرهبان الذين يستطيعون التحدث بلغتين، والذين كانوا يقومون بالترجمة والوساطة بين زملائهم ممن لم يكونوا يجيدون سوى لغة واحدة (دومر ١٩٦٨ ص٣٤-٣٨ وروسو ١٩٨٥ ص٤٦). وجود الرهبان مزدوجى اللغة فى الأديرة يعطى مؤشرا أقوى على انتشار ظاهرة العدد اللغوى فى مصر قبل الإسلام أكثر مما كنا نتصور. وربما يرجع انتشار تعدد اللغات فى الأديرة إلى أن تلك الحياة الروحية كانت تجذب مختلف أنواع البشر الذين كانوا فى حياتهم المدنية العادية خارج خدمة الرب من خلفيات عرقية ولغوية ومهنية متباينة.

---

(٦) للمزيد من المعلومات عن الكتابة فى الجيش الرومانى فى نهاية العصر الرومانى فى مصر انظر هاريس (١٩٨٩)، وانظر كذلك باومان (١٩٩١) لتعقيدات الأدلة العلمية المتوفرة حول هذا الموضوع .

تبين الأمثلة التى سقناها لتعدد اللغات أن تلك الظاهرة كانت وظيفية فى غرضها، ففى حالة الموظفين الرسميين مثلا كانت الحاجة لاستخدام اليونانية تنبع من ضرورة التوثيق، أما الجنود فى الجيش فقد كانوا بحاجة إليها للتواصل مع رؤسائهم فى الجندية، ولكن الجماعتين السابقتين لم تكونا بحاجة لليونانية لأغراض الحياة اليومية، أو لأغراض تواصلية خارج العمل. بالإضافة إلى ذلك فإن ندرة الكتبة المهرة فى اليونانية والسيدات الأميات فى الريف المصرى وفى الطبقة العالية منه خاصة تبين أن المعرفة باليونانية كانت معرفة عملية فقط. وتبين أيضا أن أحدا من أبناء الريف لم يستخدم اليونانية باعتبارها اللغة الأم.

هناك سؤال أجده مهما فى هذا السياق، هل كان لانتشار المسيحية فى مصر ولاعتمادها كدين رسمى للإمبراطورية الرومانية أثر فى اللغة اليونانية؟ أى هل كان للنضال المصرى للاحتفاظ باستقلالية الكنيسة المصرية، والحفاظ بالإيمان المسيحى التوحيدى باعتباره دين الشعب المصرى فى مقابل محاولات فرض سيطرة الكنيسة اليونانية - أثر على موقع تلك اللغة فى السياقات التواصلية المصرية فى أواخر العصر الرومانى؟ لكن البرديات لا تقدم لنا معلومات كثيرة عن وجهة نظر المصريين فى اللغة اليونانية فى أواخر العصر الرومانى، ولكننا نستطيع أن نتوقع تأثيراً سلبيًا للظروف السياسية على موقع اليونانية عند المصريين، وهو ما قد يكون قد ساعد فى اختفائها بسرعة كبيرة بعد الفتح العربى.

(ج) اليونانية فى المدن :

لقد كانت المدن المصرية وعواصم الأقاليم أكثر يونانية من الريف المصرى بطبيعة الحال؛ إذ كان فى تلك المناطق الحضرية مؤسسات يونانية ثقافية مثل: المدارس ومؤسسات سياسية إدارية بالإضافة طبعًا لوجود الجاليات اليونانية فى تلك المناطق. ولكن الريف لم يكن منعزلا عن المدن أو منفصلا عنها؛ ولذلك فإن الاختلافات بينه وبين المدن فى استخدام اليونانية كان اختلافا فى الدرجة على أحسن تقدير كما أتصور، ولذلك فقد

كانت الشرائح الاجتماعية التى لم تكن فيها اللغة اليونانية اللغـة الأم أو أداة مستخدمة فى مجال العمـل كانت جماعات فى غالبيتهـا من الأميين وأصحاب اللغـة الواحدة. أما قمة السلم الاجتماعى فقد كانت مكونة من مجموعة من الأفراد الذين يستخدمون اليونانية فى أعمالهم بما أنهم هم من سيطروا على الوظائف المدنية، أو ممن تكلم اليونانية باعتبارها اللغة الأم بما أنهم كانوا من الأقلية العرقية اليونانية، بل إن بعض الوظائف الإدارية كانت تتطلب من أصحابها الإلمام بالكتابة والقراءة باليونانية (باجنال ١٩٩٣ ص٢٤٦). وفى واقع الأمر كان معظم الموظفين المدنيين فى المدن من المتعلمين، ولذلك يجب أن نتصور أنهم كانوا من مزدوجى اللغة إن لم يكونوا من اليونانيين. أما نساء الطبقة العالية من المصريين فى المدن فقد كن غالبا من صاحبات اللغة الواحدة؛ لأنهنّ لم يكنّ بحاجة لاستخدام اليونانية فى أى عمل؛ إذ لم يكن هناك موظفات من النساء فى مدن مصر فيما قبل الفتح العربى. نعم كان من الضرورى للنساء اللاتى يمتلكن الأراضى الزراعية أن يتعاملن مع أوراق وإيصالات وتقارير مكتوبة باليونانية، إلا أنهن لم يكن مضطرات فى غالب الأحيان للتعامل مع تلك المكاتبات بأنفسهن. فى غالب الأحيان كان مثل هؤلاء النساء يكتبن أسماءهن فى نهاية المكاتبات أو يوقعن الإيصالات بالكاد، بل إن الوكلاء التجاريين أو الأقارب من الذكور كانوا فى كثير من الأحيان يقومون بهذا الدور عن النساء. فى مثل تلك السياقات لم تكن النساء الغنيات بحاجة لمعرفة اليونانية أيضا على الرغم من انتمائهن للطبقة التى تتعامل باليونانية أكثر من غيرها.

هناك جماعات من سكان المدن كانت ظروف أعمالهم تجبرهم على الإلمام باليونانية كتابة وحديثا. كانت هذه هى جماعة الكتبة العموميين الرسميين، ومن امتهن مهنة الكتابة للعامة لقضاء حاجاتهم وأغراضهم (هاريس ١٩٨٩ ص٢٤٩). كذلك كان بعض المصريين الذين انخرطوا فى سلك الكنيسة، وترقوا فى مناصبها من العارفين بالقراءة والكتابة ومزدوجى اللغة فى الوقت نفسه. السؤال المهم فى سياق الاستخدامات اللغوية فى المدن هو، هل كان هناك من اليونانيين من كانوا يتحدثون اليونانية فقط دون المصرية؟. ليس هناك أى أدلة تاريخية فى هذا الصدد، ولكن هناك مثل دال من الكنيسة المصرية: فقد كان بعض رهبان أديرة مصر فى القرن السادس من اليونانيين الذين تعلموا

لهجات القبطية فى الدير فقط وليس قبله. ولكن أعداد تلك المجموعة من الرهبان ليست واضحة لنا بحال، إلا أننا نعرف أن هناك مجموعة صغيرة من اليونانيين الذين لم يتكلموا المصرية فى الإسكندرية، ولكن تلك المجموعة استطاعت أن تدير شئون حياتها المالية والمعيشية بمعونة الوكلاء والمعاونين والخدم فى بعض الأحيان (باجنال ١٩٩٣ ص٢٥٩). ولكن ليس من الواضح ما إذا كان غالبية اليونانيين فى مصر كانوا جاهلين تماما بلغة المصريين، ولكننا نعرف أن معظم سكان المدن من المصريين الذين لا يعملون بالوظائف الرسمية أو الكتابية كانوا من الأميين الذين يتكلمون لغة واحدة، ينطبق ذلك على النساء بشكل خاص. فقد كان من الممكن على الإنسان أن يدير عملا فى المدينة أو يملك متجرا دون أن يعرف الكتابة باليونانية.

إذا ما نحينا تأثير المسيحية وصعود الكنيسة المصرية جانبا، فإن المدن حوت بشرًا يتكلمون اليونانية أكثر من القرى، لقد كانت المدن المصرية مقر المؤسسات الحكومية التى تديرها غالبًا الطبقات العالية من أبناء الجالية اليونانية فى مصر، وكانت تلك الإدارة تستخدم اللغة اليونانية باعتبارها لغة إدارية رسمية، وهو ما منح المدن المصرية شكلا يونانيا فقط، إذ لم يكن تأثير اليونانية خارجًا عن تلك السياقات التواصلية الوظيفية لدى المصريين، فقد كان اليونانيون كجماعة بشرية يمتلكون حسا عاليًا بمكانتهم المتميزة، وانعزالا يغذيه إحساس بالطبقية. على عكس الوضع اللغوى فى الريف كانت المدن توحى بوجود اختلافات وظيفية فى الاستخدام اللغوى، وأيضا اختلافات عرقية عنصرية. ولكن الوضع فى المدينة يشترك مع الوضع اللغوى فى الريف فى أن الغالبية العظمى من المصريين الذين لا يحتاجون اليونانية لأغراض عملية كانوا من الأميين، وكذلك لم يكن اليونانيون الذين لا يتكلمون المصرية بحاجة إلى تعلمها لقضاء احتياجاتهم اليومية ومصالحهم العملية. وحتى المصريون الذين كانوا بحاجة إلى معرفة اللغة اليونانية فى سياقات أعمالهم فى الوظائف الرسمية لم يستخدموا اليونانية لأغراض تختلف عن أغراضهم العملية، ولذلك من الممكن أن نقول: إن استخدام اللغة فى المدن المصرية كان مسألة وظيفية فقط وعرقية فقط.

وزاد تحجيم اللغة اليونانية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين أكثر من ذى قبل؛ بسبب انتشار المسيحية وخاصة بعد الفتنة الكبيرة التى قامت بين الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية التى استعدت معظم المصريين الذين التزموا بمبدأ كنيستهم التوحيدى (روبنسون ١٩٩٦ ص٧٨). لقد أدى انتشار المسيحية إلى الاختفاء شبه التام للوثنية من طبقات الشعب المصرى، وإلى اختفاء التركيب الثقافى اليونانى بشكل كبير وخاصة اليونانية. علاوة على ذلك كان أى استخدام لليونانية أو للأدب المكتوب بها يعتبر خيانة لمبادئ الكنيسة المصرية، وللإيمان الصحيح بعد عام ٤٥١ ميلاديا. ولذلك أصبحت المصرية القبطية لا اليونانية لغة الفكر التوحيدى الجديد. وعلى الرغم من أن القبطية التى شرعت الكنيسة فى استخدامها منذ تلك الحقبة كانت متأثرة بالمفردات اليونانية الكنسية والمفردات العادية أيضا، ومتأثرة بالشكل الكتابى اليونانى أيضا فإن استخدام القبطية فى حد ذاته كان رمزًا للكنيسة(٧)، ولذلك استطاعت اللغة المصرية فى القرنين السادس والسابع أن تنتزع من القبطية بعض مهامها الكتابية كما فى الكنيسة وفى الكتابات الدينية، إلا أنها لم تستطع أن تمس السياقات الإدارية.

يمكن القول من خلال التلخيص المبسط الذى قدمته توا عن الوضع اللغوى فى مصر قبل الفتوحات إن اللغة اليونانية كانت محددة الاستخدام بشكل كبير وخاصة بعد المسيحية. وكانت وظائفها التواصلية محدودة جدا خارج النطاق الإدارى والعرقى اليونانى الذى كان يتمثل فى مجموعات بشرية صغيرة خارج الإسكندرية. وعندما قامت الكنيسة المصرية وفصلت عن الكنيسة البيزنطية اكتسبت اللغة اليونانية صورة سلبية، ليس فقط باعتبارها لغة الديانة الوثنية وأصحابها، ولكن أيضا باعتبارها لغة الكنيسة المعادية التى تضطهدهم لتخرجهم من الدين الصحيح للهرطقة البيزنطية الرسمية. اللغة الإدارية التى تحمل سمعة سيئة مثل اليونانية عادة ما يتم التخلى عنها بسهولة إذا ما زال النظام الإدارى أو السياسى الذى يدعمها، وهذا بالضبط ما حدث مع اللغة اليونانية فى مصر.

(٧) للمزيد من المعلومات عن السمات النصية للقبطية فى القرنين الخامس والسادس انظر ليفورت (١٨٥٠ ص٦٥-٧١)، وانظر أيضا تاجل (١٩٧١ ص٣٢٧-٣٥٥) .

والفراغات التواصلية التى تركتها اليونانية بعد الفتح العربى ملأتها اللغة المصرية أو العربية الوافدة. وإذا ما اعتمدنا على البرديات؛ لتبين لنا أن المهام الكتابية التى كانت تقوم بها اليونانية التوثيق الرسمى لعقود الزواج، أو الإيصالات، أو العقود، والصكوك، فقد كانت تكتب بالعربية أو بالقبطية أو بكليهما معا. وقد أدى هذا التحول إلى تقليص آخر لمهام اللغة اليونانية بعد الفتــح العربى، فقد ظلت اليونـانية محتفظة بمهمة لغوية واحدة وهى الدواوين حتى الربع الثالث من القرن الأول الهجرى، حيث أدى قرار سياسى بالتعريب إلى تغييب اليونانية عن مصر بعد قرون طويلة ظلت فيها لغة مصر الإدارية الرفيعة. حدث الشىء نفسه للغة اللاتينية التى فقدت المهام اللغوية المحدودة التى تمتعت بها فى العصر الرومانى فى الجيش والنظام القانونى بعد الفتوحات العربية.

ولكن المصير الذى لقيته اليونانية لم تلقه اللغة المصرية حتى نهاية القرن الأول بعد الفتح على الأقل. فقد احتفظت المصرية بمهامها التواصلية فى مجالات الدين والحياة اليومية، بل إن القبطية فى القرنين الثانى والثالث بعد الفتح أصبحت لغة كتابة أدبية بشكل كبير. إن تطور القبطية بهذا الشكل ليس فى دائرة اهتمامنا فى هذا الكتاب، ولكن يكفى الآن أن نقول: إن القبطية بعكس اللاتينية واليونانية قد اكتسبت مجالات تواصل بعد الفتح العربى، ولم تخسر شيئا من مجالاتها السابقة. إن وصول العرب ولغتهم إلى مصر لم يمثل أى تهديد للغة المصرية؛ لأن تلك الأخيرة لم تكن تشغل مهمة لغة الإدارة أو التواصل الوظيفى الرسمى فى الدولة، ولكن العرب ولغتهم أثروا سلبًا على المصرية القبطية فى أن اللغة العربية بدأت تتنافس مع المصرية فى المجال الذى كان سابقًا من مجالات المصرية، وهى مجالات الحياة اليومية.

وعندما دخل العرب إلى مصر لم تكن اليونانية إلا لغة الإدارة الحكومية فقط، وكانت القبطية لغة الحياة اليومية، وفى الوقت نفسه لم يكن كثير من الناس يستخدمون اليونانية فى المدن باعتبارها اللغة الأم. والإنجاز العربى الكبير كان إنشاء المدن العربية الجديدة، وهى المساحات التى وفرت للعرب مكانا يستطيعون أن يستخدموا العربية فيه باعتبارها اللغة الأم، وكانوا هم الأغلبية البشرية.

٣ - الفتوحات العربية والهجرة :

سأركز فى هذا القسم على كيفية استقرار العرب فى مصر، وعلى طريقة تواصلهم مع أبناء مصر الأصليين.

(أ) الفتـــح :

كانت أعداد الجنود العرب الذين اشتركوا فى الفتوحات الأولى للعراق، والشام، ومصر قليلة بالمقارنة بسكان تلك الأقاليم الأصليين. بدأ فتح سوريا فى العام ١٣ من الهجرة، وشهدت الفــترة ما بين العامين ١٣ و١٥ أعظم المعارك بين العــرب والبيزنطيين (دونر ١٩٨١ ص١١٢)، وشهدت الفترة ما بين العامين ١٦ و٢٧ هجريا إخضاع شمال سوريا والمدن الساحلية من بلاد الشام. كما أن العقد الثانى من التقويم الهجرى لم ينته إلا وفلسطين بكليتها تحت يد العرب عن طريق قوات محدودة العدد ومعارك صغيرة فى معظمها. ومع أن المؤرخين العرب اختلفوا كثيرا فيما بينهم حول تاريخ فتح العراق إلا أننا نستطيع أن نحدد معركة القادسية الحاسمة بالفترة ما بين العام ١٤ والعام ١٦ هجريا (دونر ١٩٨١ ص٢١٢). يفترض كل من الطبرى والواقدى أن معركة العبلة فى جنوب العراق قد وقعت فى العام ١٤ هجريا، وافترض كذلك مؤرخون كثيرون أن فتح المدائن كان فى العام ١٦ هجريا، ويفترض الطبرى أن معركتى الأهواز وخوزستان قد حدثتا فى الفترة ما بين ١٦ و٢٠ هجريا (الشرقاوى ٢٠٠٢ ص١٢٠ و ١٢١).

يؤرخ الكثير من المؤرخين (انظر فتح مصر ص٥٦) فتح مصر بالعام ١٨ هجريا (كينيدى ٢٠٠٠ ص٦٢)، ولكن المؤرخين المعاصرين يؤرخون لبداية فتح مصر بالعام ١٩ للهجرة. أما حصن بابليون فقد سقط فى يد العرب فى عام ٢٠ هجريا وتبعه فتح الإسكندرية وهو ما تفترض المصادر العربية أنه تم فى العام نفسه (ابن عبد الحكم ص٨٠ وانظر أيضا خطط المقريزى ص٢٨٨). ولكن المصادر المعاصرة تبين أن فتح الإسكندرية قد تم فى النصف الثانى من العام ٢١ هجريا، ويقول ابن عبد الحكم: إن فتح الإسكندرية الثانى قد تم فى العام ٢٥ هجريا (انظر فتوح مصر ص١٧٨).

وبحلول العام ٣١ هجريا وصل العرب فى جنوب مصر حتى أسوان حيث وقع العرب اتفاقية سلام مع ملوك القبائل النوبية فى تلك المنطقة (فتوح مصر ص١٨٨). لم يكن من الممكن حتى انتهاء مرحلة الفتوحات أن يكون هناك تواصل بين العرب وغير العرب فى الأقاليم المفتوحة بشكل كبير، فلم يكن هناك تحديد واضح للمدن العربية وكانت الجيوش العربية فى حالة حرب وتحرك مستمر.

ولذلك فمن الصعب أن نتصور أن أى هجرة كبيرة من شبه الجزيرة العربية إلى مصر والشام والعراق قد حدثت قبل ٣١ ، و ٢٧ ، و ٢٠ هجريا على التوالى، ومن الصعب أيضا أن نتصور أن الجيوش العربية والأفراد من الجنود قد اشتركوا فى أى نشاط اجتماعى أو مدنى حضرى قبل انتهاء مرحلة الفتح، وليس لدينا فى الكتب العربية والمصادر التاريخية أى إشارة لمثل تلك الأنشطة فى العقود الثلاثة الأولى من الفتوحات العربية.

كان عدد الجنود العرب الذين اشتركوا فى فتوحات بلاد الشام عمومًا ما يقارب الأربعة والعشرين ألف جندى، انقسموا لأربعة جيوش منفصلة كل منها تحت إمرة قائد مستقل، تأمر ثلاثة من القواد على سبعة آلاف جندى وتأمَّر الأخير – عمرو بن العاص – على ثلاثة آلاف جندى فقط. ثم تمت إضافة ألف جندى مددا عربيا بعد بداية الفتوحات (دونر ١٩٨١ ص١٢٦). وكانت أعداد الجنود المشتركين فى فتح جنوب العراق قليلا أيضا إذ بلغ ألفى جندى فقط، ولكن الطبرى قدر عدد الجند المشتركين فى معركة القادسية الفاصلة بما بين ستة آلاف واثنى عشر ألف جندى عربى، ولكن دونر (١٩٨١ ص١٩٦) قدر عدد الجند فى تلك المعركة بستة آلاف فقط. أما عدد الجند المشتركين فى فتح مصر فى المرحلة الأولى فقد كان بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ جندى فقط (فتوح مصر ص٥٦، وكينيدى ٢٠٠٠ ص٦٢). ولكن عمليات المدد اللاحقة ضاعفت عدد الجند كما يدعى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص٦١)، ولكن ابن عبد الحكم هو المؤرخ العربى الوحيد الذى يذكر وجود تلك الإمدادات، فلا نستطيع تحرى مصداقيتها، ولكنه من المؤكد أنه بحلول العام الأول من فتح مصر، وبوقوع الإسكندرية فى حصار العرب وصلت إمدادات عربية قوامها ١٢٠٠٠ جندى من شبه الجزيرة العربية؛ ولذلك يمكن تقدير عدد الجنود العرب فى مصر وقت الفتح بما بين ١٢٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ جندى.

من الصعب أن نتصور أن مثل تلك الأعداد القليلة من الجنود العرب فى الجيوش المشتتة قد سببت تغيرا سكانيا ديموغرافيا ملحوظا فى التركيبة الاجتماعية السكانية للأقاليم المفتوحة.

(ب) بناء المدن العربية :

كان توزيع العرب فى الأقاليم المفتوحة من العوامل التى حافظت على كيان العرب كجماعة بشرية مستقلة عن السكان الأصليين، وساعد هذا التوزيع العرب أيضا على الاحتفاظ بلغتهم العربية لغة أم على الرغم من قلتهم العددية وتأسيس العنصر العربى باعتباره كيانا عرقيا قويا وحاضرا فى بنية الأقاليم المفتوحة السكانية، وعلى الرغم من أن ظروف استيطان العرب فى الأقاليم المفتوحة تختلف من إقليم لآخر عمومًا فإن الجيوش العربية كان لها مسلك واحد مشترك فى كل تلك الأقاليم ، وهو بناء مدن عربية خاصة بهم دون غيرهم من أبناء الأقاليم المفتوحة، وتمركز الجيوش العربية فى معسكرات معزولة عن التجمعات البشرية الكثيفة للسكان الأصليين فى الريف أو حتى المدن القائمة فعلا؛ ففى حالة فتح العراق مثلا بنى العرب مركز جيوشهم الرئيسى فى تلك الفتوحات على المنطقة الفاصلة بين الأراضى العربية وإقليم العراق الجنوبى، وكانت الطريقة نفسها هى المتبعة فى سوريا فى بداية الأمر حيث لم يسكن العرب إلا فى مدن ومخيمات بنوها هم أنفسهم، ولكن الطاعون الذى حل بالجيوش العربية عام ١٨ هجريا غيَّر تلك الطريقة، فأهملت مدينة الجابية مثلا، وتخلى العرب عنها. أما فى حالة مصر، فلم يكن هناك اتصال مباشر بين البلد الأم فى شبه الجزيرة العربية والإقليم المفتوح، ومع ذلك فقد أسس العرب معسكراتهم فى مناطق صحراوية بالقرب من بابيليون والجيزة وأسوان.

علاوة على ذلك، فإن المعسكرات العربية باستثناء الجابية تطورت بسرعة؛ لتكون مناطق تجمع نصف حضرية، وتطورت بسرعة أكبر فى نصف قرن من الفتح فقط؛ لتكون مناطق حضرية كاملة ذات تجمعات بشرية عربية كثيفة بمجرد أن أثبتت الفتوحات العربية نجاحها وفائدتها الاقتصادية (الموسوى ١٩٨٢ ص٧١). وشجع نجاح الفتوحات

الكثير من عرب شبه الجزيرة العربية من غير الجنود على الهجرة للأقاليم المفتوحة واتخاذها موطنًا دائمًا لهم. وكان من أهم أسباب الهجرة للمدن العربية الجديدة التمتع بالمزايا الاقتصادية والعطاء الذى كان الجند يستفيدون منه فى تلك الأقاليم. بين لنا المؤرخون العرب وخاصة ياقوت والبلاذرى أن أخبار الفتوحات ونجاحها وصلت شبه الجزيرة العربية؛ لتثير موجات من الهجرات العربية خاصة من تميم وبكر (الصياد ١٩٩١ ص٤٧). ويضيف المؤرخون أن الجنود العرب أرسلوا لأطفالهم ونسائهم ليلحقوا بهم عندما وجدوا أن الأحوال فى الأقاليم العربية قد استقرت لهم (الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثانى ص٢٢٦).

لم يكن تأثير الهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية إلى المدن العربية الجديدة مقتصراً على تحويل تلك الأخيرة لتجمعات بشرية نصف حضرية، ومن ثم حضرية كاملة، بل إن التأثير امتد إلى عملية تحول تدريجى فى تمركزات السكان فى الأقاليم المفتوحة، وهجرات داخلية فى نطاق الإقليم ذاته. لقد سكن العرب فى مناطق لم تكن مسكونة إلا قليلا قبل الفتوحات، وقد شكلت الهجرات العربية لتلك المناطق بعد الفتح مباشرة تجمعات عربية صلبة ذات أغلبية بشرية عربية عرقية ولغوية، ولكن تلك التغيرات السكانية لم تؤثر على الأغلبية البشرية والمجتمعات القروية الريفية فى الأقاليم فى بداية عهد الفتوحات؛ ذلك لأن الهجرات العربية لم تمس المناطق الزراعية فى الريف، وكانت متركزة على المدن الجديدة والمخيمات العربية سالفة الذكر. لقد كانت سياسة الخلافة المبكرة فى الأقاليم المفتوحة هى تجنب استخدام المناطق الزراعية لأغراض غير زراعية، ولتجنب حيازة العرب تلك الأراضى التى أوكلت للعاملين عليها لزراعتها، فقد منع العرب من تملك حقول ومزارع لهم والاستفادة منها بشكل شخصى (كينيدى ٢٠٠٠ ص٦٧). أدعى أن عزلة المناطق العربية فى الأقاليم بهذا الشكل هى التى مهدت للعرب أن يؤسسوا لأنفسهم تجمعات أغلبية سكانية فى مناطقهم، وهى التى سمحت لهم بعد ذلك بالتوسع الرأسى والأفقى فى الأقاليم دون الخوف من الاندماج أو الامتصاص فى المجتمعات المحلية واللغات الأجنبية.

لقد تم تأسيس البصرة على الحدود فيما بين الجزيرة العربية والأراضى الفارسية التى كانت تتحدث الآرامية قبل الإسلام، وفى مكان كان يستخدم سوقا قديما (انظر شلبى ١٩٧٤ ص١٣٣). كما أن العرب قد بنوا الكوفة على بعد مئات الأميال إلى الشمال الغربى من البصرة، وإلى جنوبى الأنبار وغربى المدائن، والموقع الذى بنيت عليه مدينة الكوفة لم يكن من قبل مستخدما لسكنى غير العرب. وفى مصر كان الوضع كما كان عليه فى العراق، فلم يسكن العرب أى منطقة سكنها غيرهم قبلهم. لقد تجنب العرب فى مصر كما تجنبوا فى سوريا والعراق السكن فى العواصم الإدارية، وفضلوا المناطق الصحراوية. قد يكون العرب قد تجنبوا السكن فى المدن الساحلية؛ تحسبا لغارات بيزنطية محتملة من الأساطيل الرومانية التى كانت تسيطر على البحر المتوسط فى تلك المرحلة (كينيدى ٢٠٠٠ ص٦٤). إن الاستثناء الوحيد لسكن العرب فى المناطق الصحراوية خارج المدن كان سوريا، حيث سكن العرب فى المدن التى كانت وقتها قائمة فعلا (دونر ١٩٨١ ص٢٤٥). اختار العرب أن يسكنوا فى دمشق وحلب وحمص التى كانت المركز الإدارى للقوات العربية فى بداية الفتح. لقد مكن توزيع العرب الجغرافى لمدنهم ومخيماتهم الجديدة فى بداية الفتح العربى من توسع تلك التجمعات البشرية رأسيا وأفقيا بحرية كاملة(٨) .

على الرغم من أن العرب فى سوريا لم يسكنوا فى مناطق منعزلة، وسكنوا مدنا رومانية وآرامية قائمة فعلا فإنهم سكنوا المدن والمناطق التى أخلاها أصحابها فهجرت مع الفتح العربى، ولم يكن العرب فى تلك المدن أقلية يخشى عليهم من الدمج. علاوة على هجر المواطنين الرومانيين للمدن كانت تلك المدن العربية مأهولة ببعض الجاليات العربية إلى حد ما قبل الفتح العربى. بالإضافة إلى أن العرب كانوا منجذبين للمدن الشامية دون غيرها من المدن؛ بسبب المكاسب الاقتصادية والتجارية التى كان العرب يطمحون لتحقيقها من تلك المدن التى طالما تاجروا معها قبل الإسلام.

---

(٨) تعتبر المدن العربية الجديدة فى شمال إفريقيا حالة مماثلة، فقد تم بناء القيروان والرباط فى أماكن لم تكن مأهولة بالبدو من سكان تلك المناطق الأصليين .

وكانت المطـامح التـجـارية فى الأقـاليم الأخرى أقـل وضــوحًا من مطـامح العرب فى الشـام.

إذا ما استثنينا حالتى الجابية والرملة اللتين لا نعرف عنهما أى معلومات سكانية؛ سنجد أن المدن العربية التى كانت مخيمات ومعسكرات جنود قد تطورت بشكل سريع إلى تجمعات عمرانية عربية معقدة وواسعة المساحة. من الصعب أن نفهم كيفية ذلك التطور بالتفصيل، ولكن يمكن أن نعرف عمومًا أن القيادة السياسية العربية المبكرة كانت تمتلك تصورًا عاما، وسياسة حاسمة باتجاه منع سكن العرب فى أواسط مناطق مأهولة بسكانها الأصليين بشكل كثيف، حيث سيشكل العرب أقلية عرقية ولغوية. علاوة على ذلك فقد كانت السياسة العامة منع بناء المعسكرات على مواقع تفصلها عن شبه الجزيرة العربية؛ أى موانع طبيعية جغرافية مثل الماء أو الجبال مثلا (العلى ١٩٥٣ ص٣٤). كانت تلك السياسات واضحة تماما فى حالة بناء البصرة التى رفض الخليفة الثانى عمر بن الخطاب أن يتم بناؤها على أى موقع شرقى الفرات (انظر الصياد ١٩٩١ ص٤٦). أما فى حالة الكوفة فقد كان أمر الخليفة أن ينقل الجنود العرب من معسكراتهم بالمدائن إلى منطقة خارجها؛ لكى لا يفصلهم عن خليفتهم نهر (انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص٢٦٧). وأراد عمرو بن العاص أن يجعل من مدينة الإسكندرية مقر قيادة الجيش العربى فى مصر فى بداية الفتح، إلا أن الخليفة عارض ذلك الطلب بشدة بسبب السياسات العربية المتعارف عليها نفسها (كوبياك ١٩٨٧ ص٥٨). وكان نهر النيل فى تلك الفترة يجرى شرق مدينة الإسكندرية. لقد ساعدت طرق المواصلات السهلة التى تخلو من الموانع الجغرافية الطبيعية العرب فى السفر إلى المدن الجديدة الناشئة والعودة منها للجزيرة العربية فى وقت أقل، وهو ما مكن عرب الجزيرة من الهجرة إلى الأقاليم الجديدة.

سأختم مناقشتى هنا بتلخيص بسيط: إذ اشترك فى الفتح عدد محدود من الجنود العرب، كما أن هذه الجيوش الصغيرة عسكرت خارج المناطق المأهولة بالسكان الأصليين. لم يكن فى ظل موقف مثل هذا أن يحدث أى تغير سكانى أو تحول لغوى فى مناطق ذات حضارات عريقة وكثافة سكانية عالية، كما كان الحال فى مصر والشام والعراق، ولكن هذا الموقف العربى الواضح هو الذى ساعد العرب على الاحتفاظ بلغتهم

وحضارتهم منفصلة، ولم يذوبوا فى الحضارات التى دخلوا عليها؛ لأن العرب فى سكنهم بهذه الطريقة لم يتسببوا فى تحول سكانى مفاجئ وسريع ليحتم نشوء نمط تواصلى سريع مثل الهجين اللغوى يضطر طرفا المعادلة لاستخدامه فيما بينهما. ومكن الموقع الجغرافى للمدن العربية العرب من الهجرة إليها بسهولة، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن مغريا لغير العرب فى بداية الأمر؛ إذ لم تكن تلك التجمعات فى مناطق زراعية. لم تؤثر المدن العربية الجديدة فى البداية على البنية الاقتصادية ولا الاجتماعية السياسية للأقاليم المفتوحة.

إن طريقة سكن العرب فى الأقاليم المفتوحة مسألة مهمة لبحثنا هنا. هناك نقطتان جديرتان بالاهتمام فى هذه المسألة: أولا – لم يوجه العرب للمدن القائمة أى هجرات تذكر باستثناء بلاد الشام وخاصة دمشق، وحلب، وحمص. ثانيًا – نمت المدن العربية الجديدة؛ لتصبح مدنا كبيرة وكثيفة السكان من وقت قليل نسبيا. مكن هذان السببان اللغة العربية من أن تكون لغة مهمة ولغة أغلبية فى المناطق المفتوحة على الرغم من أن العرب أنفسهم كانوا أقلية عددية فى تلك الأقاليم فى القرون الثلاثة الأولى من الفتح العربى.

(ب) العرب وغير العرب فى المدن المفتوحة :

فى مصر كان الوجود العربى خارج الفسطاط نادرًا جدًا حتى بداية الدولة الأموية (كينيدى ٢٠٠٠ ص٦٩). على الرغم من أن الإسكندرية كانت تضم نحو اثنى عشر ألف جندى عربى فى العام ٤٣ هجريا، إلا أن ذلك العدد كان فيما يبدو صغيرًا جدا بالمقارنة بالمصريين أو اليونانيين المقيمين فى الإسكندرية، إذ اشتكى حاكم المدينة العربى من التهديد الذى تمثله تلك القلة العددية لجنوده (انظر كتاب القضاة والولاة للكندى ص٣٦). لقد كانت الحياة للعرب فى المدن القائمة فعلا فى العراق أمرا غير مقبول للسياسات التى أشرنا إليها سلفا، ولأسباب غيرها أيضا (تاريخ بن خياط، الجزء الأول ص١٠٩)، ولم يكن سكن العرب فى ريف العراق أيضا بالأمر المحبب، فقد كانت أعداد العرب فى سواد العراق كله أقل بكثير من أعدادهم فى المدن العربية وحولها. لقد كان الوجود

العربى خارج المدن العربية فى العقود الثلاثة الأولى بعد الفتح مقتصراً على إرساليات عسكرية محدودة العدد، كانت مهمتها حفظ الأمن والمساعدة فى جباية الضرائب. ويبدو أن تلك الإرساليات كانت متمركزة حول البصرة والكوفة، ولكن الوحدات العسكرية التى كانت على الحدود الفعلية الأخيرة للإمبراطورية فى فارس لم تكن من العرب، ولكنها كانت من الجنود الفرس الذين انضموا فى شكل وحدات كاملة للجيش العربى بعيد فتح فارس (دونر ١٩٨١ ص٢٣٩).

وفى قرى الريف المصرى، والعراقى، وأيضا فى قرى الريف الشامى، والمغاربى كان العرب ممثلين بشكل ضئيل للغاية عدديا؛ فقد استمر المزارعون المحليون إلا من هرب منهم مقيمًا على أرضه الزراعية التى كان يزرعها قبل الفتح. وفى ما قبل الدولة الأموية قليل جدا من المزارع انتقلت إلى يد القادة العرب، وكانت تلك المزارع هى التى تركها أصحابها وفروا مع الفتح لانتمائهم للطبقة الحاكمة فيما قبل العرب. وعندما كان يحدث مثل ذلك الحدث النادر كانت تلك الأراضى تعطى لقبائل العرب التى قدمت للفتح جنودا ومهمات، (دونر ١٩٨١ ص٢٤٠). ولكنه لم يكن من الواضح مع ذلك أن العرب أقاموا على تلك المزارع أو حتى أداروها، فقد كان أول وجود عربى مشهود فى الريف المصرى نحو العام ١٠٩ هجريا، حدث ذلك عندما قرر الوليد بن رفاعة الوالى الأموى على مصر أن يحول جماعة من المهاجرين العرب القيسية إلى الريف المصرى فى الصعيد لأول مرة فى تاريخ الهجرات العربية فى مصر (كينيدى ٢٠٠٠ ص٧٤). وفى الوقت نفسه تقريباً هاجرت جماعة أخرى من العرب القيسية للحوف الشرقى فى شمال البلاد، وكانت تلك المجموعة مكونة من عشيرة قوامها خمسة آلاف عربى مهاجر. كانت هاتان الهجرتان هما المرة الأولى من نوعهما التى ينتقل العرب فيها من شبه الجزيرة العربية إلى الريف المصرى، ليعيشوا خارج المدن العربية المعروفة فى الفسطاط، والجيزة، وأسوان بأعداد كبيرة (كينيدى ٢٠٠٠ ص٧٥). إن كانت تلك الأرقام صحيحة؛ فيجب أن نتصور أن الوجهة الأساسية حتى بداية القرن الثانى الهجرى كانت الفسطاط والمعسكرات العربية الأخرى، وأن الريف المصرى وغير المصرى ظل خاليا لأهله إلى حد كبير، وإن كانت ملكية بعض الأراضى قد انتقلت للعرب. وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن الفتوح العربية قد

استجلبت معها موجات من الهجرات العربية المتكررة والمستمرة؛ فإننا يجب أن نتصور أن المدن العربية كالفسطاط، والكوفة، والبصرة كانت مزدحمة بالعرب ازدحاماً كبيراً.

لقد كانت المدن العربية فى الأقاليم الوجهة المفضلة للمهاجرين العرب من شبه الجزيرة العربية، ولكن تحويل بعض تلك الهجرات إلى خارج المدن، وتسكينها فى الريف يرجع إلى خوف سياسى من رد فعل سلبى من قبل سكان تلك المدن وخاصة الفسطاط تجاه الهجرات الجديدة تلك. ففى حالة الهجرة القيسية التى توجهت للحوف الشرقى فى العام ١٠٩ للهجرة نجد أن الخليفة هشام قد وافق عليها، بشرط أن تكون وجهة العرب المهاجرين هى أى مكان خارج الفسطاط بغية تجنب أى صراعات مع عرب مصر. إن كانت تلك الحادثة دالة على شىء، إنما تدلنا على أن الوجهة المفضلة للعرب فى الهجرة إلى الأقاليم المفتوحة كانت المدن العربية القليلة فى تلك الأقاليم وهجر الريف. من الواضح فى كتب التاريخ العربية والقصص المتناثرة فى المصادر العربية أن المدن العربية ازدهرت ازدهاراً كبيراً بعيد تأسيسها؛ بسبب العطاء الذى تسلمته العشائر العربية المقيمة فى تلك المدن من ديوان الإقليم وخاصة مصر والعراق. قام دونر (١٩٨١ ص٢٣١) بعملية تقدير لبداية الهجرات العربية إلى المدن الجديدة فى الأقاليم بحلول نهاية معارك فتح العراق فى العام ١٧ هجريا. وبدأت تلك الهجرات عادة بأبناء القبائل نفسها التى شاركت فى جيش الفتح؛ لأنهم كانوا أكثر أحقية بمزايا الفتح من غيرهم من القبائل العربية التى اشتركت فى فتوحات أخرى، أو لم تشترك فى أى فتح. كان التوصيف الفنى لتلك الهجرات اللاحقة للمدن العربية فى كتب التاريخ العربى هو "الروادف" تعبيراً عن التحاقهم بذويهم فى عملية كانت آنذاك طبيعية. لقد سمحت الجاذبية الاقتصادية والتردد فى السكن فى الريف والقرار السياسى فى منع تمازج العرب بغير العرب لتلك المجتمعات الصغيرة أن تنمو رأسيا من حيث الكثافة السكانية، وأفقيا من حيث المساحة بشكل سريع.

لقد اتسمت الهجرات العربية للمدن العربية فى الأقاليم المفتوحة بسمتين متناقضتين: السمة الأولى - النمو المضطرد لتلك المدن فيما يخص أعداد السكان، والثانية - رفض المهاجرين الأول استقبال مهاجرين جدد. وقد نبعت مقاومة عرب مصر الذين

كانت أسماؤهم مسجلة فى ديوان جند مصر فى الفسطاط لاستقبال أى مهاجرين جدد من غيرتهم على نسب العطاء التى كانت تفرض لهم سنويا، والتصور بأنها ستتقلص بالضرورة مع كثرة عدد المسجلين فى الديوان، ولذلك كان عندهم إصرار شديد على مقاومة أى هجرة محتملة إلى المدن العربية (كينيدى ٢٠٠٠ ص٦٥ وهيندز ١٩٧٢ ص٤٥٠-٤٦٩). ليس لدينا أى معلومات كبيرة حول رد فعل عرب العراق لموجة الهجرات العربية من شبه الجزيرة، ولكن النمو السريع للبصرة والكوفة يوضح أنه لم يكن هناك مقاومة كبيرة لتلك الهجرات. ولكن ذلك الحدس ليس صحيحا بشكل كامل، فلا بد ألا ننظر لتلك المقاومة بشكل مطلق، بل على أنها مقاومة اختيارية فى العراق ومصر. يبدو أن العداء للهجرات من شبه الجزيرة العربية كان موجها إلى المهاجرين الذين ينتمون لقبائل لم تكن مشاركة فى الفتح ولم تكن أسماؤها مسجلة فى ديوان جند المدينة. لقد كان الروادف الذين ينتمون للقبيلة نفسها دائما موضع ترحيب، فقد كانت تلك الروادف مثل نقط الماء الصغيرة التى ملأت حوض المدن العربية الجديدة. ومن الممكن على ذلك أن نقول: إن المدن كانت فيها نسبة كبيرة من التجانس اللهجاتى العربى؛ بسبب تلك الهجرات الانتقائية. وكذلك نستطيع أيضا أن نقول: إن المدن العربية قد اجتذبت المهاجرين من شبه الجزيرة العربية دون الخوف من تفريغها من سكانها.

لقد توسعت المدن العربية بشكل سريع من الناحيتين الرأسية والأفقية بفضل الهجرات العربية المتتابعة والمستمرة. فى مرحلة الفتوحات وبعدها مباشرة كانت تلك المدن خالية من أى عناصر لغوية أو عرقية غير عربية، ويرجع ذلك إلى أن تلك المدن كانت مصممة أساسًا لتكون منطلقًا للفتح ونقطة ارتكاز للجيوش العربية (دونر ١٩٨١ ص٢٦٦). لقد تم اعتبار المعسكرات التى أنشئت فى عهد الخيفة الثانى عمر بن الخطاب فيما بين العامين ١٣ و ٢٣ هجريا أمصارًا كاملة؛ بسبب الدور الإدارى المهم الذى أخذت تلك المدن فى القيام به فى تلك الفترة المبكرة (الصياد ١٩٩١ ص٤٥).

لقد أسهمت نجاحات فتوحات العراق فى اجتذاب المهاجرين لخارج شبه الجزيرة العربية إلى البصرة؛ فقد هجر المئات من بكر وتميم الصحراء العربية للحاق بأقربائهم فى العراق (الموسوى ١٩٨٢ ص٧١). لقد كان الخليفة عمر بن الخطاب يتحكم فى الهجرات

العربية بشكل مباشر؛ لأنه كان يخاف من تفريغ شبه الجزيرة العربية. ولكن الخليفة عثمان بن عفان أهمل تلك السياسة بعد العام ٢٣ هجريا، فانفتحت الهجرات بشكل واسع للأقاليم المفتوحة (انظر تاريخ الطبرى ، المجلد الخامس ص١٣٤). حدث الشيء نفسه فى الفسطاط (كينيدى ٢٠٠٠ ص٦٥). لقد قلنا سلفا: إن أعداد الجنود المشاركين فى فتح مصر كانت لا تزيد على ١٥ ألف جندى، ولكن فى بداية الدولة الأموية وصلت أعداد العرب المسجلين فى ديوان مصر بالفسطاط إلى لنحو أربعين ألف شخص (ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص١٠٢)، مما يشير إلى زيادة سريعة وكبيرة فى الوقت نفسه. وفى عهد مروان بن الحكم ارتفع عدد الجنود المسجلين فى ديوان مصر ليصل إلى ثمانين ألف جندى (عمر ١٩٩٠ ص٥٠). وبحلول نهاية القرن الهجرى الأول أدت زيادة الجنود المسجلين فى الديوان إلى عملية إعادة تنظيم ديوان مصر. وعلى الرغم من أن الديوان قد أغلق وألغيت سجلاته فى أواخر عصر بنى أمية فإن الهجرات من بلاد الشام إلى مصر ظلت – ولو بقلة – مستمرة حتى نهاية فترة حكم هشام الثانى فى العام ١٢٥ هجريا.

لقد كانت عمليات زيادة كثافة المدن العربية السكنية مصحوبة بعمليات توسيع تلك المدن على المستوى الأفقى المساحى، وقد تمت عملية التوسعة تلك من خلال إعادة توزيع الأرض؛ للتمكين من استيعاب المهاجرين الجدد. ففى مرحلة مبكرة من تاريخ العرب فى الأقاليم حاولت بعض القبائل توسيع مساحاتها فى مدينة البصرة، ونتج عن تلك المحاولات صراعات كادت أن تهدد وجود العرب فى الأقاليم، وكيان مدنهم ذاتها (انظر تاريخ الطبرى المجلد الرابع ص٧٠). حاول أبو موسى الأشعرى والى البصرة فى الفترة ما بين العامين ١٧ و ٢٩ هجريا أن يحل تلك المشاكل؛ فأعاد تقسيم المدينة فى شكل خطط، فوزع مجموعة من الخطط على كل قبيلة، لتقوم هى بتوزيعها بين أفرادها (انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص٣٤٧). لقد كانت عمليات توسيع المساحة الأفقية للمدن العربية وإعادة تقسيمها داخلياً مصحوبة فى كل حالات المدن العربية بعمليات استغلال للأراضى الصالحة للزراعة حول تلك المدن. فقد استغل أبو موسى الأشعرى البرارى التى كانت تحيط بالبصرة، حيث قام بتوزيع الأراضى الصالحة للزراعة على شيوخ القبائل (الصياد ١٩٩١ ص٤٩). ولكى تشجع السلطات فى البصرة الزراعة؛ قامت بتوزيع بور البصرة

على من يقدر على زراعته. وكانت عادة الأمويين المستمرة توزيع القطائع على من تستحسن امتلاكهم الأراضى الزراعية حول تلك المدينة. وبذلك أصبح عدد كبير من سكان البصرة من ملاك الأراضى الزراعية، وسكنوا فى أراضيهم التى زرعوها، أو سكنوا البصرة ووكلوا من هو أقل منهم ثراء للعمل على أراضيهم الزراعية، وبالتالى تكونت طبقة من ملاك الأراضى الذين سكنوا المدن وتملكوا ثروات كبيرة (لابيدوس ١٩٨١ ص١٨٢). ويبدو أن التسابق على امتلاك الأراضى بغرض الزراعة وبناء الدور قد احتدم فى البصرة لدرجة أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسل إلى أهل البصرة يثنيهم عن امتلاك الأراضى والزراعة (انظر الحاجظ، البيان والتبيين ص٢٦٢).

كان التوسع الحضرى عن طريق تشجيع استصلاح الأراضى الزراعية وزراعتها ظاهرة عامة شائعة بين كل المدن العربية الجديدة، ولم يكن مقصورا على البصرة بأى حال من الأحوال، ففى الكوفة كانت هناك جهود حثيثة لزراعة المناطق المحيطة بالمدينة؛ بغرض توفير مصدر للغذاء يوفر الطعام للمدينة المتنامية بشكل سريع. لهذا الغرض تم تجفيف المستنقعات التى كانت تحيط بالمدينة وتسويتها للزراعة (لابيدوس ١٩٩٥ ص٤٦). أما فيما يخص موقف استصلاح الأراضى للزراعة فى مصر حول الفسطاط، فإن الأمر أقل وضوحا عنه فى إقليم العراق. على الرغم من أننا نعرف أن العرب عاشوا فى غير مكان فى مصر فإننا لا نعرف على وجه الدقة سلوك العرب تجاه الأراضى الزراعية قبل الدولة الأموية بشكل خاص. نعرف مثلا أن عشرين ألفا من الحاميات العربية فى العقد الثالث من القرن الأول الهجرى عاشوا فى شمال مصر فى ثغر الإسكندرية تحت حكم ابن أبى السرح (انظر خطط المقريزى، المجلد الأول ص٣٢٣)، لكن المصادر العربية لا تذكر أى نوع من أنوا ع النشاط الاقتصادى لتلك الحامية العربية الضخمة بمقاييس تلك الأيام. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الحامية العربية التى كانت تقيم فى الجيزة فى مدينة تشبه فى تقسيم الخطط مدينة الفسطاط (انظر معجم البلدان لليعقوبى ص٨٦). ربما يكون اختفاء المعلومات الاقتصادية عن هذين التجمعين؛ نتيجة أنهما حاميتان عسكريتان وليستا موقعى تجمع هجرة عربية. نحن نعرف أن بعض العرب تملكوا أراضى زراعية فى الريف المصرى، ولكننا فى واقع الأمر لا نعرف إن كان هؤلاء العرب

كانوا يقيمون فى الريف المصرى حيث أرضهم، أم كانوا يقيمون فى الفسطاط مثلا، ويتمتعون بريع تلك الأرض التى كان يديرها فلاحون أو وكلاء مصريون محليون. على الرغم من أن المقريزى (الخطط، المجلد الرابع ص٢٨ ، ٢٩) يذكر أسماء القرى التى كانت القبائل العربية تمتلكها ويعددها، فإنه ليس واضحا بشكل تام ما يتعلق بإمكانية أن تكون تلك القبائل العربية قد عاشت فى تلك القرى وأقامت تجمعات زراعية عربية أم لا. ولكن معلوماتنا الثابتة أن التجمعات العربية فى الفسطاط، والجيزة، وأسوان، والإسكندرية كانت هى الوحيدة لتمركز العرب فى الإقليم وليس غير، ولكن الريف ظل حتى بداية القرن الثانى الهجرى مصريا كاملاً دون تغير سكانى واضح.

على الرغم من انحسار إقامة العرب فى وادى النيل عن المناطق التى حددتها سلفا فإنهم كانوا يقيمون فى الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء منذ ما قبل الفتح العربى. لقد كان العرب أيضا يعيشون فى تجمعات صغير وهامشية فى الشرقية وقتا منذ فترة طويلة (هولز ١٩٩٥ ص١٨ وعمر ١٩٩٠ ص٢٠ و ٢١)، بل إن بعض المصادر اليونانية تشير إلى أن مدنا مصرية معينة مثل قفط كانت شبه معربة فى مراحل مبكرة من التاريخ المصرى قد تصل فى العمق للقرن الأول قبل المسيح (عمر ١٩٧٠ ص١٢-١٣). ولكن العرب لم يحاولوا طوال فترة إقامتهم الهامشية فى مصر اختراق وادى النيل ذى الكثافة السكانية العالية، وبالتالى لم يكن لهم أى تأثير على المجتمع المصرى الزراعى فى ذلك الوقت، وليس لدينا أيضا أى إشارة إلى تأثير اللغة العربية فى الموقف اللغوى أو الثقافى المصرى فى تلك المراحل المبكرة، ولذلك فمن الصحيح أن نقول: إن التعريب كان نتيجة للفتح العربى ونمط التواصل بين العرب وغير العرب فى مصر، وليس على أنه نتيجة الإقامة الطويلة للعرب فى مصر منذ ما قبل الفتح العربى.

النسق الذى اقترحته حتى الآن للوجود العربى فى الأقاليم بعد الفتح هو ما يشبه نقط تمركز عربية صغيرة فى بحر من الأقاليم غير العربية، وبمرور الوقت اتسعت تلك النقط أفقيا، وزادت كثافتها الرأسية، وقلت أيضا: إنه على الرغم من كون العرب أقلية فى الأقاليم المفتوحة بالمقارنة بالسكان الأصليين فإنهم شكلوا لأنفسهم تجمعات أغلبية فى المدن العربية. ولكن السؤال هو، كيف استطاع العرب وغير العرب التواصل فى ظل

هذا الموقف السكانى الانعزالى؟ وكيف كانت طريقة التواصل تلك مؤثرة فى عملية تعريب مصر وباقى الأقاليم العربية الأخرى؟. على الرغم من أن المدن العربية فى العراق ومصر قد أصبحت مراكز سياسية وتجارية كبيرة فى عهد عمر بن الخطاب فإنه ليست هناك أى إشارات فى المصادر العربية تبين وجود تجمعات سكانية غير عربية من أى حجم أو قوة نوعية، لم تكن تلك المدن فى بداية الأمر جذابة لغير العرب؛ لأنها لم تكن مراكز قديمة ولم تكن مجاورة مناطقهم الزراعية كما كانوا معتادين فى العصر اليونانى الرومانى.

على الرغم من أن المدن العربية كانت عربية خالصة فى تركيبتها السكانية فإن المراحل المتتالية من التطور الحضرى العمرانى قد تسببت فى تغييرات عميقة، وجذرية، وكبيرة فى التركيبة السكانية للأقاليم عامة وللمدن العربية خاصة، ولكن هذا التغيير كان تدريجيا وبطيئا ولم يكن سريعًا مفاجئًا، كما أن التطور العمرانى قد أسهم فى تغيير الحياة الاقتصادية وأنماط التكسب القديمة التى كانت تلك الأقاليم تتعيش عليها. وقد أدت التغييرات الاقتصادية إلى موجات من الهجرة الداخلية من السكان الأصليين، كان مصدر الجذب فيها المدن العربية الجديدة، وقد بدأت تلك الموجة فى العراق حيث بدت أكثر وضوحًا من مصر فى بداية الأمر، أى فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول. لقد تسبب التدهور الذى أصاب نظام رى نهر دجلة قبل الفتح العربى فى تدهور الاقتصاد الزراعى فى المناطق الواقعة شرق النهر. أما فى سوريا فقد شهد النصف الثانى من القرن الأول الهجرى تدهورا فى الاقتصاد الزراعى المحلى؛ بسبب كارثة تجارية اقتصادية كبيرة تتلخص فى العقبات الاقتصادية التى فرضت على انسياب البضائع الزراعية بين سوريا والأنضول التى كانت تمثل أكبر سوق للإنتاج الزراعى السورى من الزيتون والكروم. أما فى مصر، فقد تسببت الضرائب الباهظة والثورات المتتالية فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى فى اضطراب الأوضاع فى الريف المصرى وانهيار الزراعة. وقد أدت تلك الأوضاع إلى إفراغ مناطق كاملة من الريف المصرى من سكانها. بالإضافة إلى أن انقطاع انسياب المواد الزراعية والتجارة من مصر بعد اكتمال الفتح قد أثر سلبا فى الزراعة، فقد كانت مصر سلة الغذاء للإمبراطورية الشرقية (انظر كيجى ٢٠٠٠ ص٥٥). ولكن الدمار الزراعى والاقتصادى

عموماً كان انتقائيا إلى حد كبير، ففى المناطق التى أسس العرب مدنهم الجديدة فيها كانت الإدارة العربية تشجع الزراعة باعتبارها نمطا اقتصاديا، فقد تمت زراعة المناطق المحيطة بالبصرة بأشجار النخيل، ويجب أن يكون الوضع فى مصر مشابها؛ لأن الأمويين كانت لهم سياسة واضحة فى تشجيع استغلال الأراضى بغرض الزراعة.

فبعد خمسين عاماً من بناء تلك المدن أصبحت تتمتع باقتصاد ثرى وبنشاط زراعى مستقر ومتطور، على عكس باقى الأقاليم التى كانت تعانى من حالة تدهور عام. فى أوضاع كتلك يصبح من الطبيعى أن يهاجر غير العرب للمناطق العربية فى شكل جماعات صغيرة وأفراد للعمل صناعًا وعمالاً وتجارًا صغاراً، علاوة على ذلك فقد تم استجلاب آلاف مؤلفة من العبيد من شرق إفريقيا للعمل فى الأراضى الزراعية حول البصرة والكوفة (لابيدوس ١٩٩٥ ص٤٦). أما فى داخل المدن العربية نفسها وخاصة فى العراق فقد أقامت بعض الجماعات من غير العرب والتى تمتعت بكثافة نسبية. فقد كان من المعتاد أن تنضم وحدات من غير العرب إلى صفوف الجنود العرب المنتصرين، وكانت تلك الجماعات تقيم فى خطط مجاورة للمدن العربية. بالإضافة إلى الجنود كانت هناك جماعات كبيرة من العبيد الذين يعملون فى بيوت العرب فى المدن نفسها، وكانوا مسئولين عن إدارة الشئون المنزلية للعرب. ولذلك بحلول النصف الثانى من القرن الأول الهجرى كانت المدن العربية فى البصرة والكوفة والفسطاط محاطة بدائرة من السكان غير العرب من الفقراء. لم تستطع تلك الجماعات أن تخترق المدن العربية بأعداد كبيرة؛ نتيجة للكثافة السكانية العالية لتلك المدن، والمساحات المحدودة التى كانت محل نزاع القبائل التى كانت تسكن فى تلك المدن أصلا. لدينا إشارات كثيرة فى المراجع العربية لجماعات من غير العرب فى داخل المدن العربية (الجاحظ: البيان والتبيين، المجلد الأول ص٦١ والبلاذرى: فتوح البلدان ص٣٦٦)، من بين الإشارات الواضحة على ازدياد أعداد غير العرب فى المناطق المحيطة بالمدن العربية فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى بناء كنيسة فى محيط الفسطاط فى عهد مسلمة بن مخلد الذى حكم من العام ٤٧ إلى العام ٦٨ هجريا (عمر ١٩٩٠ ص٣٥).

علاوة على ذلك فقد كان من الطبيعى فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى أن يستخدم القواد العرب جنودا من غير العرب من المخلصين لتهدئة الثورات العربية فى تلك المدن المتوترة فى تلك المرحلة. يذكر ابن قتيبة (عيون الأخبار، المجلد الأول ص١٣٢) وياقوت (معجم البلدان، المجلد الأول ص٥٢٢) أن عبيد الله بن زياد بن أبيه استأجر فى عام ٥٤ هجريا مجموعة من ألفى رجل من الرماة الفرس، وأسس لهم موقعا فى البصرة. حدث الشيء نفسه فى الكوفة التى استضافت عدة آلاف من جنود الفرس الذين عملوا لحساب الدولة الأموية. وكانت تلك الفرق تعرف باسم حمراء الديلم (انظر البلاذرى، فتوح البلدان ص٢٨٠). لقد عاشت تلك الجماعات من الجند خارج المدن نفسها فى مناطق منعزلة عن المساكن العربية. فقد كانوا جزءًا من المكون غير العربى الذى يحيط بالمدن. وفى سياق مثل هذا كان موقع العرب موقع السيد صاحب العمل والمضيف. وعلى الرغم من أن المصادر لا تذكر أى معلومات عن نسبة السكان العرب فى مقابل غير العرب فى تلك المناطق، فإن الهجرات المستمرة من شبه الجزيرة العربية للمدن العربية، والكثافة السكانية العالية التى كانت تلك المدن عليها مكنتها من الاحتفاظ بأغلبية داخلية عربية منعت اندماج العرب فى غير العرب لغة وثقافة. ولذلك تمتع العرب بمكانة الأغلبية فى النواحى كافة من سياسية، واقتصادية، وسكانية.

٤ - الموقف اللغوى :

الفرق بين اللغة اليونانية واللغة العربية باعتبارهما لغتى إدارة وحكم هو الفرق بين لغة أغلبية ولغة أقلية[٩] . على المستوى السكانى تمثل لغات الأقلية تلك اللغات التى تستخدمها جماعات بشرية أقل من جماعات بشرية أخرى تستخدم لغة أخرى فى مكان جغرافى معين (أونز ٢٠٠٠ ص١). لقد كان اليونانيون الذين يستخدمون اللغة اليونانية فى عواصم الأقاليم المحلية فى مصر قبل الفتح العربى أكبر تجمع سكانى يونانى

(٩) انظر مناقشة أونز لسمات اللغات الأقلية، ولغات الحكم والأغلبية فى مقدمة كتاب "اللغة العربية كلغة أقلية" (٢٠٠٠ ص١-٤٤) .

عرقى فى البلاد، ومع ذلك فقد كانوا أقل عددا من المصريين بشكل كبير. لقد كان الوضع اللغوى فى الريف المصرى أكثر وضوحاً منه فى المدن، فلم يكن هناك أى تجمعات سكانية يونانية تستخدم اللغة اليونانية باعتبارها لغة حياة يومية، بعكس عواصم الأقاليم والمدن اليونانية مثل الإسكندرية.

علاوة على ذلك، فإن اللغة اليونانية باعتبارها لغة أقلية سكانية تعكس ثلاث سمات أساسية من السمات العرقية الاجتماعية للغات الأقلية التى حددها ألاردت (١٩٨٤ ص٢٠١). هذه السمات الحضارية هى: الأصل المشترك، ووجود سمات حضارية، ولغوية، وتاريخية مميزة، ووجود تنظيم اجتماعى معين يسمح من خلال التواصل مع باقى عناصر المجتمع اللغوى أن توضع الجماعة التى تتكلم تلك اللغة فى موقف الأقلية (انظر أونز ٢٠٠٠ ص٢).

ترتبط تلك السمات بوضع الجالية اليونانية فى مصر قبل الفتح العربى من خلال السمات التالية : أولاً - كان اليونانيون على وعى كامل بهويتهم باعتبارهم جماعة سكانية مختلفة عن المصريين بهوية مستقلة، كما أن مؤسساتهم الحضرية فى المدن دعمت هذا الفصل وأكدت هويتهم الحضارية المستقلة. ثانيا - فيما يتعلق بالنقطة الثانية كان اليونانيون فى مصر يتكلمون لغة مستقلة ولهم ذاكرة تاريخية منفصلة عن المصريين وخلفية ثقافية مستقلة، كما أنهم كانوا يشكلون طبقة اجتماعية منفصلة عن أبناء مصر المحليين من الفلاحين الريفيين. ثالثا - فيما يتعلق بالنقطة الثالثة والأخيرة، فقد كانت اللغة اليونانية مستخدمة باعتبارها لغة إدارة ولغة قانونية فقط، ومنذ بداية القرن الخامس استطاعت اللغة المصرية القبطية أن تأخذ من اليونانية بعض المهام التواصلية الكتابية، فتركت تلك الأخيرة بمهام أقل من تلك التى كانت تستخدم فيها فى القرن الرابع الميلادى.

الوضع الاجتماعى السكانى واللغوى الحضرى للعرب فى مصر بعد الفتح، بل وفى شمال إفريقيا، والشام، والعراق كان معاكساً تماماً للوضع الذى كان عليه اليونانيون فى مصر قبل الفتح العربى، فقد أسس العرب فى غضون خمسين عاماً من الفتح مدينة عربية كبيرة فى مصر هى الفسطاط، شكلت مركز ثقل للعرب وأغلبية سكانية لغوية فى تلك المنطقة التى كانت أصلا غير ذات جذب للسكان المحليين. وكانت كل مهام التواصل اليومى

ووظائف التواصل الاجتماعى والسياسى داخل تلك المدينة تتم باستخدام اللغة العربية. كما أن الفسطاط توسعت مثل باقى المدن العربية فى شمال إفريقيا والعراق رأسيا من حيث الكثافة السكانية، وأفقيا من حيث التوسع المساحى فى خلال خمسين عامًا من بنائها، وسهل ذلك التوسع ازدياد الهجرات العربية المنظمة والمتقطعة. وبذلك تمددت مساحة سيطرة اللغة العربية على سياقات التواصل، وأصبح أمرا واقعا على كل من يرد لمحيط تلك المدن العربية أن يستخدم اللغة المستخدمة فيها؛ لأنه هو الأقلية اللغوية. علاوة على ذلك، فقد كان الانعزال النسبى للمدن العربية والفسطاط فى حالتنا نحن هنا عن باقى القرى المصرية وعواصم الأقاليم سببا فى ضمان اتساع المدينة بحرية، وضمانا لمنع أى عملية ذوبان للعرب فى غير العرب حضاريا أو لغويا فى تلك المرحلة المبكرة من الوجود العربى فى مصر. وعندما هاجر أفراد مصريون أو جماعات صغيرة من الناس بدافع الظروف الاقتصادية الصعبة إلى مناطق مجاورة للمدن العربية وجدوا أن اللغة العربية فى تلك المنطقة لغة الأغلبية المسيطرة، وأن القبطية التى يتكلمونها فى قراهم ومدنهم باعتبارها لغة حياة يومية فى هذه المنطقة دون وظائف عامة تواصلية ودون قوة سياسية أو سكانية، ولذلك كان من المنطقى استخدام العربية باعتبارها لغة تواصل يومية مع غير المصريين من العرب.

بعد العام ٧٨ هجريا بدأت الدولة العربية فى استخدام اللغة العربية لغة إدارة وحفظ الملفات والدواوين فى الأقاليم العربية بدلا من اليونانية، علما بأن العربية كانت مستخدمة بشكل محدود على الصعيد الإدارى فى الدولة العربية قبل ذلك؛ إذ كانت تستخدم باعتبارها لغة كتابة وتسجيل للوثائق وعقود الملكية والإيصالات فى نصوص غالبًا ما كانت مزدوجة اللغة منذ بداية الفتح وخاصة فى مصر. فقدت اليونانية مكانتها الرفيعة باعتبارها لغة الحديث اليومى للطبقة العالية من اليونانيين والمصريين بعد الفتح باختفاء تلك الطبقة من الأراضى المصرية والشامية معا، وبفقدان مكانة لغة الإدارة اختفت اليونانية من عموم مصر بعد أن كانت قد فقدت موقعها باعتبارها لغة كتابة وفكر وأدب فى القرن الخامس الميلادى (روبنسون ١٩٩٦ ص٧٨). على ذلك فقد انهارت مكانة اللغة اليونانية فى الأقاليم العربية قبل الفتوحات العربية بفترة؛ لأن اللغات الرفيعة التى لا يتكلمها غالبية سكان منطقة ما تنهار سريعا بمجرد انهيار وظيفة من

وظائفها وخاصة الوظيفة الثقافية أو الإدارية كما يبين كهانا وكهانا (١٩٧٩)، وعندما تظهر لغة أخرى بوظائف أكثر، وبمستوى أكبر من الرفعة وعدد سكان، غالبًا ما تختفى اللغة القديمة بسرعة نسبية عالية (أونز ٢٠٠٠ ص٤).

لقد وجد أبناء اللغات الأخرى فى مصر مثل اليونانية والمصرية القبطية أنفسهم فى موقع الأغلبية الساحقة خارج المدن الجديدة، أما فى المناطق المحيطة بالمدن العربية وداخل المدن نفسها، فقد كان العرب أغلبية سكانية من حيث العدد، وكانت لغتهم اللغة المستخدمة للقيام بالوظائف اللغوية التواصلية كافة. على ذلك نستطيع أن نقول: إن تعريب المناطق الحضرية فى مصر بل وفى عموم الأقاليم العربية قد تم على مرحلتين أساسيتين منفصلتين، ولكنهما متزامنتان فى الوقت نفسه، وعلى الرغم من أن تحديد عمليات التحول اللغوى فى نقاط مكانية أو مراحل زمنية صعب وغير دقيق على وجه العموم، فإننا نستطيع أن نحدد هاتين العمليتين بالقسم الثانى من القرن الأول الهجرى بشكل عام.

المرحلة الأولى – مرحلة إعادة توزيع الوظائف اللغوية التواصلية، فقد بدأت الدولة تستخدم العربية باعتبارها لغة إدارة لأول مرة فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى – أى قرن الفتح الأول – . صحيح أن اليونانية والقبطية ظلتا تستخدمان لبعض الوقت بعد القرن الأول فى بعض الوثائق والعقود والإيصالات، إلا أنهما دائمًا ما كانتا تظهران مع العربية فى نص متعدد اللغات، ولكن سرعان ما أصبحت العربية لغة تلك النصوص الإدارية الوحيدة بحلول القرن الثانى للفتح. الوظيفة الكتابية الوحيدة التى كانت القبطية تستخدمها بعد الفتح كانت لغة الكتابة الكنسية المسيحية، وكانت تلك العملية قد تركت وظائف الحياة اليومية للغة القبطية دون أى تدخل.

المرحلة الثانية – اشتراك العربية مع القبطية فى وظائف الحياة اليومية التواصلية، كانت تلك العملية قاصرة على المدن العربية الجديدة والمناطق المحيطة بها. فعندما أصبحت المدن العربية الجديدة مراكز حضرية ذات ثقل سكانى أو اقتصادى، وعندما دفعت الظروف الاقتصادية السيئة بعض الريفيين المصريين لهجر الريف للمدن

العربية الجديدة ظهرت فى محيط المدن العربية جماعات صغيرة من العمال، والتجار الصغار، والخدم. لقد كانت اللغة العربية مهمة لتلك الجماعات الصغيرة للحصول على عمل عند العرب فى تلك المدن. يجب أن تكون قد ظهرت فى تلك المراحل المبكرة من تعلم العربية فى تلك الظروف بعض الأنماط العربية البدائية التى سرعان ما تخفت من الساحة اللغوية المتواصلة بفضل توفر المدخل اللغوى العربى السليم، والمهام اللغوية، وسياقات التواصل التى من شأنها أن تحسن من مستويات اللغة الوسط التى كثيراً ما تنتج فى ظروف تعلم لغة بشكل غير منظم[١٠] . ولذلك يمكن النظر إلى المدن العربية الجديدة على أنها منابر انتشرت منها اللغة العربية بشكل أفقى من الأقاليم العربية على مستويات متباينة من التعقيد اللغوى بحسب مستوى اللغة الوسط للمتعلم.

(١٠) اللغة الوسط هى المستويات اللغوية التى عادة ما يصل إليها متعلم اللغة فى مرحلة من مراحل التعلم، وكثيراً ما تكون دون مستوى المدخل اللغوى المستخدم فى عملية التعلـم. للمزيد عن اللغة الوسط انظر "تعلم اللغة الثانية" المترجم فى المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٥ .

الفصل السابع

التعلم الحر للغة الأجنبية وحديث الأجانب

١ - مقدمة :

من الخلاصات التى خلصت إليها فى الفصلين السابقين أنه من الضرورى أن ننظر إلى التطور من العربية القديمة إلى العربية الجديدة وما نتج عنها، وبالتالى يجب أن ننظر إلى الفروق بين العربية الفصحى واللهجات العربية الحديثة على أنها نتيجة لعملية كبيرة من عمليات تعلم اللغة الثانية. قدمت فى الفصل السابق العوامل الاجتماعية السكانية المهمة فى أى عملية من عمليات تعلم اللغة الثانية على نطاق واسع. أما هذا الفصل الذى نحن بصدده فسأقدم فيه نمط تعلم اللغة الثانية ونمط المدخل اللغوى الذى من المفترض عموماً أن ينشط، ويؤثر فى ظل الظروف الاجتماعية السكانية التى درسناها فى الفصل السابق.

سأحاول فى الصفحات التالية أن أقدم للقارئ بحثا فى أنماط تعلم اللغة الثانية وأنماط المدخل اللغوى المناسب لها من خلال الدراسات التجريبية والعرضية فى مجال تعلم اللغة الثانية، وسأقدم فى القسم الثانى التباينات والتعريفات العملية التى سيتم استخدامها على طول الفصل، والتى تمثل لحالتنا فائدة عملية، وسأقدم فى القسم الثالث السمات الخاصة بتعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم وخصائصها؛ لأن الظروف الاجتماعية السكانية والتاريخية التى رسمناها فى الفصل السابق تبين أن تعلم العربية فى المدن العربية فى الأقاليم المفتوحة بداية الفتح لم يكن منظما فى صفوف، أو معدا بحسب منهج تعليمى دراسى خاص. وسأقدم فى القسم الرابع أنماط

المدخل اللغوى التى تعمل فى سياقات التعلم الحر غير المنظم، وسأركز فى هذا القسم على نمط تعلم الأجانب بشكل خاص، وسأسرد سماته وخصائصه اللغوية الاجتماعية اللغوية. وفى القسم الخامس سأعقد مقارنة بين نمط حديث الأجانب التبسيطى والسمات اللغوية فى اللغات المبسطة التى كثيراً ما تنتج عن حالات تعلم اللغة الحر وغير المنظم والتى من المفروض أنها قد ظهرت فى بدايات الاتصال العربى غير العربى فى الأقاليم المفتوحة.

٢ - تعلم اللغة الثانية :

ليس مهما لأغراضنا هنا أن ننظر فى الفروق بين تعلم اللغة الثانية وتعلم اللغة الثالثة أو الأكثر؛ لأن اهتمامنا ينصب على التواصل بين العرب وغير العرب، وكان معظمهم فى تلك المرحلة من الأميين الذين يتكلمون لغة واحدة كما بينا فى الفصل السابق[١] . فمثل هذا التفريق غير مجد لنا فى بحثنا هنا. بالإضافة إلى ذلك، فمثل هذا التفريق غير مفيد مادام تركيزنا هنا سيكون على المدخل اللغوى الذى أدى إلى اكتساب العربية وتعلمها بطريقة حرة غير منظمة. هناك تفريق مصطلحى آخر لن نهتم به هنا، وهو التفريق بين "تعلم" اللغة الثانية و "اكتساب" اللغة الثانية. بعض الباحثين يعرف عملية الاكتساب بأنها عملية تتم عرضًا دون تدبير سابق ودون عملية تعليم وتعلم منظمة فى إطار صف منهجى منظم، بينما يوكلون للتعلم المعنى التنظيمى فى الفصول بالمناهج والكتب الدراسية أو ما شابه ذلك من قصد ونية واضحة (كراشن ١٩٨١ ص١-٢). على الرغم من أن هذا التمييز يبدو مفيداً لنا فى دراستنا لتطور العربية فى تلك المرحلة المبكرة من وجودها فى الأقاليم فإنه من المستحيل الآن أن نعرف أى سمة من سمات لغة المتعلم فى إطار حر غير منظم مكتسبة بشكل عرضى، وأى سمة متعلمة بنية مبيتة وقصد تربوى تعليمى، فلغة المتعلم سلسلة من العمليات المتتابعة تتابعا منطقيا والمتداخلة، وخليط من العمليات العقلية الأصيلة فى العقل البشرى، ولذلك يصبح استخلاص سمات

(١) انظر القسم الثانى من الفصل السابق .

متعلمة عن سمات مكتسبة أمرًا مستحيلاً. علاوة على ذلك، لم يتمكن الباحثون من استخلاص سمات خاصة للتراكيب المكتسبة تميزها عن تلك المتعلمة[٢] ، ويختلفون أيضا حول معنى الاكتساب، ومتى تكون السمة اللغوية مكتسبة. بناء على هذا القدر من التخبط أفضل أن لا أميز بين التعلم والاكتساب هنا؛ لأن الفصل بين المعنيين لن يفيدنا فى فهم اللغة العربية وتعلمها فى تلك المرحلة.

هناك تعريفان يجب أن نقدمهما هنا بشكل واضح: التعريف الأول تعريف اللغة الثانية فى مقابل اللغة الأجنبية. يشير مصطلح "اللغة الثانية" إلى اللغة الأجنبية التى تلعب دورًا اجتماعيا ومؤسسيا إداريا فى مجتمع المتعلم كما فى حياته الشخصية. أما مصطلح "اللغة الأجنبية" فيشير إلى اللغة التى يتعرض لها المتعلم فى سياقات محدودة وخاصة فى فصول تعلم اللغة (إليس ١٩٩٦ ص١٢). إن دراستنا التى تهتم باللغة العربية فى الأقاليم المفتوحة فى القرون الأولى وبالتعريب، وتحول تلك الأقاليم من اللغات المحلية للعربية اهتمت بتعلم العربية كحالة من حالات "تعلم اللغة الثانية" وليس حالة من حالات تعلم "اللغة الأجنبية"؛ لأن العربية لعبت أدوارًا كثيرة ومختلفة فى المجالين الفردى والعام فى الأقاليم المفتوحة.

هناك تعريف آخر تجب الإشارة إليه هنا لأهميته فى دراستنا، وهو الفصل بين "التعلم الحر" للغة بشكل غير منظم فى إطار الصف "والتعلم المنظم" فى إطار منهجى صفى. المقصود بالتعلم الحر هو أن عملية اكتساب اللغة تتم بشكل عرضى عفوى فى إطار سياقات التواصل الطبيعية التى تتم بين متعلم اللغة وابن اللغة، وفى السياق التواصلى يتعرض المتعلم لمدخل لغوى قابل للتعلم فيتعلمه بطريقته الخاصة. أما التعلم المنظم فإنه عملية تحدث فى إطار فصل تعليمى، أو فى إطار بيئة مشابهة بصحبة معلم وكتاب تعليمى منهجى (إليس ١٩٥٦ ص١٢). لن أنظر هنا فى سمات تعلم اللغة فى

---

(٢) فبعض الباحثين (مثل بيكرتون ١٩٨١ ص٢٠٢-٢٠٦) يعتقد أن التركيب اللغوى مكتسب بمجرد أن يظهر فى لغة المتعلم عندما يستخدم اللغة الهدف، بينما ينظر فريق آخر من الباحثين (مثل دالى وبرت ١٩٨٠ ص٢٣٤-٢٥٢) إلى السمة المكتسبة على أنها تلك التى تظهر فى لغة المتعلم بقدر كبير من الدقة والصحة اللغوية .

إطار الصف بشكل منظم؛ لأنه من الصعب أن نفترض وجود عملية تعليم منظم للعربية بشكل واع فى القرن الأول من الفتح العربى، كما أن المصادر التاريخية العربية لا تشير ولو عرضا إلى وجود مثل تلك العملية. أما عملية الاكتساب الحر، فهى مسألة فى غاية الأهمية بالنسبة لنا هنا؛ لأنها تتفق ومنظورى لحالة التحول اللغوى من اللغات المحلية إلى العربية فى القرون الأولى من الفتح العربى فى الأقاليم العربية.

سنعرف التعلم الحر للغة الثانية هنا تعريفًا عمليا وظيفيا على أنه عملية تعلم لغة أجنبية لها قيمتها المؤسسية والاجتماعية عند المتعلم بشكل حر، ودون معونة مدرس أو كتاب تعليمى.

٣ - التعلم الحر للغة الثانية :

ليس الغرض فى هذا القسم أن نقدم وصفا تفصيليا لما يحدث عندما يتعلم الإنسان لغة ثانية بشكل حر خارج نطاق الصف، بل إننى أحاول هنا أن أحدد تأثيرات تلك العملية على استراتيجيات التعلم، وسرعته، وأنماط المدخل اللغوى المستخدمة عادة، والنتيجة النهائية لعملية تعلم لغة ثانية كتلك. قدم كلين (١٩٨٦) تمييزًا واضحًا بين تعلم اللغة بشكل حر وبين التعلم المنظم عن طريق وضع بعض العوامل النفسية اللغوية المحددة. فيرى كلين مثلا أن المتعلم فى عملية الاكتساب الحر يرمى أساسًا أثناء التواصل مع ابن اللغة إلى التواصل لغرض عملى، ولكنه يتعلم اللغة عندما تتطور المهام التواصلية التى يشترك فيها مع ابن اللغة الهدف. ويضيف كلين أنه فى حالة تعلم اللغة الأجنبية بشكل منظم فى الصف هناك تركيز وتحديد لسمات لغوية معينة يتم تعلمها والاهتمام بها دون التركيز على سمات أخرى فى الوقت نفسه.

وهناك باحثون يفصلون بين تعلم اللغة الثانية بشكل منظم والتعلم بشكل حر وغير منظم عن طريق عوامل تحديد اجتماعية لغوية. يدعى أصحاب التوجه الاجتماعى اللغوى أنه من غير المنطقى أن يزعم شخص أن تعلم اللغة الثانية فى سياق حر مسألة غير واعية، تتم بشكل عرضى وغير مقصود فى كليتها، بينما تتم كل عمليات التعلم فى

الصف بشكل واع ومركز، ولذلك يركز هذا الفريق على السياق الذى يتم فيه التعلم الحر والبيئة المحيطة بتلك العملية، ويركزون أيضا على هذه السياقات وعملية التعلم والنتائج التى تؤدى إليها. سأحاول أن أتعامل مع التوجهين هنا معًا، ولن أفضل أحدهما على الآخر، فكل منهما فى تصورى يكمل الآخر ويفيد توجهنا الدراسى لحالة تعلم العربية فى القرن الأول الهجرى(٣) .

٣ - العوامل النفسية فى التعلم الحر :

يعرف كلين (١٩٨٦ ص١٦) عملية تعلم اللغة الثانية بشكل حر على أنها عملية تعلم تتم من خلال سياق تواصل يومى اعتيادى، بشكل طبيعى غير منظم، وبعيدا عن تأثير مدرس أو عملية تعليمية. عملية تعلم كتلك التى يصفها كلين عملية ليست موحدة عند كل الناس، فكل فرد عنده أغراضه الخاصة وراء التعلم، ومن الواضح حسب التعريف أن تلك الأغراض هى التى تحدد استراتيجيات تعلم اللغة الهدف ونتيجتها بطبيعة الحال. يعنى ذلك أن نوع العربية التى من المفروض أن يتعلمه موظف إدارى يريد أن يحافظ على عمله يختلف عن نوع العربية التى يرغب عامل أو فلاح أو تاجر بسيط يحاول أن يتواصل مع أبناء اللغة الهدف فى سياقات تواصل البيع والشراء. ليس غرض التعلم وحده هو المهم فى هذا السياق، بل إن الظروف الاجتماعية اللغوية المصاحبة لعملية التعلم فى غاية الأهمية، إذ إنها تحدد درجة المدخل اللغوى الذى قد يحصل المتعلم عليه وإمكانية تعلمه وتداوله.

هناك نقطتان مهمتان فى عملية التعلم الحر يجب تسليط الضوء عليهما الآن: أولا - تتم عملية التعلم فى سياق تواصل الحياة اليومية بشكل طبيعى جداً، وثانيًا - تتم تلك العملية دون أى معونة من معلم أو استشارة شخص أو كتاب،

(٣) يزعم إليس (١٩٩٦ ص١٢) الذى يعتبر من أصحاب التوجه الاجتماعى فى تعلم اللغة الثانية الحر أنه ليس من الواضح ما إذا كانت هناك فروق فى المنتج النهائى لعمليات تعلم اللغة بشكل حر وعمليات تعلم اللغة المنظمة فى الصف .

فيكون الفرد المتعلم معتمداً على نفسه بشكل كلى (كلين ١٩٨٦ ص١٦). يستخدم المتعلم استراتيجيات التواصل؛ ليسهل على نفسه تعلم المعدل اللغوى البسيط الذى يتعرض إليه فى مراحل التعلم الأولى، أو المراحل المبكرة للتعرض للغة الهدف. فيجب على المتعلم أن يستخدم المعلومات اللغوية وغير اللغوية المسبقة لاستصدار مدخل لغوى معين يمكن تعلمه (كلين ١٩٨٦ ص١٦-١٧)(٤) .

ويقول كلين أيضا: إن عملية تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منتظم عملية تركز على التواصل بشكل أكبر من تركيزها على الصحة اللغوية. فالمتعلم يركز جل تركيزه على توصيل رسالة معنوية خاصة أكثر مما يركز على اللغة التى يستخدمها للتوصيل؛ ذلك لأن سياق التعلم سياق تواصل أصلا لا يهدف إلى تعلم لغة، ولكن إلى التوصيل بأى وسيلة فى يد المشتركين فى سياق التواصل(٥) .

فيما يتعلق بمسألة غياب التدريس العمدى فى سياق تعلم اللغة الثانية بشكل حر، فإن كلين (١٩٨٦ ص١٨) يقول: إن أى عملية لتعلم لغة ثانية تكون عادة عملية فيها نوع من الدعم، والقيادة، والتدريس، ربما مهما كانت تلك العملية حرة وغير منظمة، من الممكن أن يكون شكل القيادة أو التدريس كمية المدخل اللغوى المقدم والقابل للتعلم، أو كمية العناصر المعجمية ومجالاتها، أو تصحيح تركيب، أو خطأ لفظى، أو تقديم ابن اللغة معنى كلمة جديدة للمتعلم. لا تتم تلك العملية فى الفصل حيث يختار المدرس أو واضع المنهج السمات التى يتم تدريسها والتركيز عليها، بل إن المتعلم فى عملية التعلم الحر هو الذى

---

(٤) مهمة تعلم سمة لغوية ما وتقريبها إلى نمط اللغة الهدف الذى يتبينه المتعلم فى المدخل اللغوى مسألة ديناميكية؛ لأنها تتضمن تحليل السمات اللغوية فى المدخل عمومًا (كلين ١٩٨٦ ص٦٣) وتجميع العناصر المحللة فى تراكيب لغوية معبرة (كلين ١٩٨٦ ص١١١)، والمقارنة بين المنتج الذى ينتجه المتعلم والمدخل اللغوى الذى يتلقاه (كلين ١٩٨٦ ص١٣٨) .

(٥) من المعروف أن التركيز على البنية اللغوية والتراكيب النحوية يكون دائمًا فى سياق التعلم، أما فى سياقات التواصل فليس هناك أى رغبة ولا حتى أى فرصة لدراسة التراكيب اللغوية والاهتمام بها فى حد ذاتها. سوف نرى على امتداد هذا الفصل أن هذا التصور الثابت ليس صحيحًا فى كل الأحوال، إذ إن المتعلمين فى سياقات تعلم اللغة الثانية الحرة يركزون على الصحة اللغوية فى كل حال من الأحوال إذا كانت تلك الصحة عاملاً اجتماعيا لغويا ذا أهمية .

يقوم بمهمة اختيار المدخل اللغوى بعد مهمة التعرف عليه، حيث يحلله ويتعلمه ويستخدمه فى شكل منتج لغوى (كلين ١٩٨٦ ص٥٤-٦٢)[٦] .

على ذلك فإمكانية الحصول على المدخل اللغوى فى أى عملية تعلم حر غير منظم للغة ثانية نقطة انطلاق مهمة جدا لتلك العملية وتشكلها، وتتحكم فى نتائجها بشكل كبير. فى سياقات التعلم المنظمة فى الفصول المعلم هو الذى يحدد نوع المدخل اللغوى وكميته، وعلى الطالب أن يتعلم ما يقدم له بشكل واضح، أما التعلم الحر فتحكمه عوامل مختلفة. حدد كلين (١٩٨٦ ص٤٣-٤٤) عاملين مهمين فى هذا السياق: العامل الأول - كمية المدخل اللغوى المتاح للمتعلم فى سياق تواصل معين ونوعيته. والعامل الثانى - فرص التواصل المتاحة للمتعلم لكى يختبر المدخل الذى تعلمه فعلا، ويكتسب مدخلا لغويا جديدا ليتعلمه بالطريقة نفسها[٧] . فى المرحلة الأولى من التعلم يكون الجمع بين المعرفة اللغوية باللغة الأم واللغة الهدف ضروريا للاندماج مع المعلومات التى يستقيها المتعلم من السياق المحيط به فى عملية التعلم مع المدخل اللغوى فى آن واحد، وبالتالى يتعلم الشخص المفردات بداية؛ لأنها أبسط سمة يستطيع من خلال دمج العناصر الثلاثة السابقة استنباطها وتخمينها، وبعد أن يتعلم الإنسان المفردات يستطيع أن

---

(٦) معرفة السمات المشتركة بين اللغات لا يساعد المتعلم فى فهم قواعد تركيبية جديدة، ولكنه قد يعاونه بشكل ما فى تحديد حدود الكلمات مثلا، وبالتالى العناصر المعجمية والتى يجب أن يستخدم طرقا أخرى لفهمها. وعلى ذلك، فإن معرفة الإنسان بلغته الأم قد يساعده فى استبطان القواعد اللغوية وخاصة النحوية المعجمية. وعلى ذلك فإن الشخص الذى يتعلم لغة غير لغته الأم ليس فى حالة حسنة؛ لأنه يخسر بطبيعة الحال ميزة التقريب تلك التى يمكن تسميتها بحسب مصطلحات تعلم اللغة الثانية بالنقل. بل إن تدخل اللغة الأولى فى القواعد والأصوات قد يسبب مشاكل فى التعلم. أكبر مساعدة قد يحصل عليها المتعلم فى سياق تعلم اللغة الثانية الحر هو أى معرفة عند الإنسان باللغة الهدف التى يرمى إليها. فتلك المعلومات هى التى تساعد المتعلم فى المراحل المبكرة على فك رموز اللغة الهدف، ولكن تلك المعرفة قد تكون مضللة؛ لأن النتيجة التى قد يخلص إليها المتعلم بناء على تلك المعلومات قد تكون مخطئة (كلين ١٩٨٦ ص٦٥) .

(٧) المهام التى يجب على المتعلم أن يقوم بها دون مساعدة معلم أو سند إنسانى هى تعلم السمة وتجميعها مع سمات أخرى تعلمها سلفًا؛ ليشكل منها منطوقًا لغويا ذا معنى، وبالتالى يختبرها ويقيمها. تتضح تلك العملية بشكل كبير فى مجال النحو حيث يجب على المتعلم أن يضع الكلمات فى ترتيب معين ليصل بها إلى منطوق له معناه الخاص. للمزيد عن العمليات العقلية التى يقوم بها المتعلم فى هذا السياق انظر كلين (١٩٨٦) .

يتعلم العلاقات النحوية والصرفية التى تربط بين المفردات فى منطوقات. وفى هذا السياق يتعلم العلاقات النحوية والصرفية المحمولة فى إطار معجمى قبل غيرها من المحمولة فى أطر أقل وضوحًا. ولكن التعلم الحر فى سياق غير منظم لا يعنى غياب المدخل اللغوى غير المعدل، فأبناء اللغة فى سياقات التعلم الحر يبسطون مدخلهم اللغوى ومنتجهم بحسب مستوى المتعلم من وجهة نظرهم.

بما أن تعلم اللغة الثانية بشكل حر يحدث فى سياق تفاعل اجتماعى؛ فإن فرص التواصل تعطى المتعلم فى هذا السياق ميزتين: الميزة الأولى أنها تعطى المتعلم مدخلاً لغويا جديدا، وكثيرًا ما تكرر المدخل اللغوى الذى تعلمه المتعلم سلفًا، والميزة الثانية أن السياق يعطى المتعلم فرصة اختبار تعلمه للمدخل اللغوى بشكل عملى فى سياق إنتاج لغوى تواصلى يتضح فيه مصداقية تحليل المتعلم من عدمه (كلين ١٩٨٦ ص٤٦). فمن خلال التعرض المستمر للمدخل اللغوى وتقييم الذات ومراقبة الأداء اللغوى لأبناء اللغة الهدف يستطيع المتعلم أن يتطور إلى مستويات تعقيد لغوى تركيبى أكبر فى تعلمه للغة الهدف.

التواصل المتفاعل يأخذ شكل المحادثة عادة، ولكن على الرغم من أن الباحثين يتصورون دائمًا أن المحادثة سياق مفيد فى عملية التعلم، فإن تلك الفائدة فى تصور الباحثين كانت محصورة فى ممارسة القواعد النحوية، والصرفية، والمعجمية، والدلالية التى يجب على المتعلم أن يكون قد تعلمها فعلا فى سياق أخر وخاصة سياق التعلم فى الفصل. ولكن الأبحاث التجريبية التى أجريت منذ منتصف السبعينيات شهدت نتائج إحصائية تدعم دور المحادثات باعتبارها سياقات تعلم من خلال أهميتها فى التفاعل التفاوضى وهى وسيلة من وسائل التعلم[٨] . أصبح من الثابت الآن أن التفاعل فى شكل المحادثات

(٨) للحصول على معلومات أكثر حول دور المناقشة فى عملية التعلم الحر، انظر دراسات جاس وفرونيس (١٩٨٥) و (١٩٨٩) دراسات لونج وخاصة (١٩٨١) و (١٩٨٣)، وانظر أيضا بيكا (١٩٨٧) و (١٩٨٨)، وانظر كذلك دراسات بيكا ودوتى (١٩٨٥) وبيكا ودوتى ويونج (١٩٨٦) وبيكا ويونج ودوتى (١٩٨٧) وفرونيس وجاس (١٩٨٥) .

ليس مهما فى الممارسة والتدريب فقط، ولكنه أيضا مهم كوسيلة لتعلم تراكيب جديدة فى اللغة الهدف. على الرغم من أن الضغط المستمر الذى يقع فيه المتعلم فى سياق المحادثة للسير فى التواصل دون انقطاع قد يفقده الانتباه للمدخل اللغوى الجديد الذى قد يظهر فى المحادثة أو تصويبات ابن اللغة، فإن التصويبات الصريحة من قبل ابن اللغة الهدف دائمًا ما تلفت انتباه المتعلم فى أثناء المحادثة؛ ليصوب من أخطائه (جاس ١٩٩٧ ص١١٤-١١٥). لقد اكتشف بروك، وكروكس، وداى، ولونج (١٩٨٦ ص٢٢٩-٢٣٦) أن المتعلم لو استطاع أن ينتبه للتصويبات الصريحة؛ فإن نظام لغة المتعلم عنده سيتطور ليستوعب التصويبات التى يتبرع بها ابن اللغة الهدف. قد يحدث هذا عندما تتطلب المهمة التواصلية اهتماما من المتكلم مثل ألعاب التواصل مثلا. الفرضية التى أحاول أن أسوقها هنا للقارئ الكريم أن التعلم فى سياقات تعلم اللغة يكون فى التفاعل الذى كثيرا ما يأخذ شكل المحادثة، التفاعل ليس علة التعلم ولكنه وسيلته؛ إذ يبين التراكيب واجبة التعلم ويقدم التصويبات اللغوية، بينما يتواصل المتحادثون لقضاء حاجة عملية أو اجتماعية غير التعلم (جاس ١٩٩٧ ص١٣١).

على الرغم من أن التعلم الحر للغة الثانية يحدث عرضيا خلال مهام تواصلية اجتماعية فإنه ليس عفويا أو نتاج الصدفة[٩] . تتفاعل العوامل الاجتماعية التواصلية

(٩) لتعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم صعوباته: فإن المتعلم مثلا يجد نفسه مضطرًا لتعلم سمات لغوية معينة، ولكن اللغات بطبيعتها كل متكامل وشبكات كاملة من السمات والتراكيب، فإن تعلم سمة واحدة يستتبع بالضرورة تعلم النظام كاملا. فعلى المتعلم أولا أن يستخرج السمة واجبة التعلم أولا ويتعلمها، ثم يتعين عليه دمجها فى نظام لغته الوسط لينتج شبكة متكاملة تسميها لغة المتعلم (كلين ١٩٨٦ ص٤٨ و ٤٩). ولما كانت لغة المتعلم تتطور باتساع سياقاته التواصلية؛ فإنه من الواجب عليه أن يكتسب سمات جديدة، فيعدل نظامه من جديد فى عملية مستمرة من الاكتساب وتعديل نظام لغة المتعلم فى عقله، حتى يصل المتعلم إلى المرحلة النهائية وهى مرحلة التجمد. ويقول كلين (١٩٨٦ ص٥٠): إن تفاوت قدرة المتعلمين على تعلم سمات جديدة من اللغة الهدف وعلى دمجها فى لغة المتعلم وعلى القيام بأحكام تحليلية سليمة بالإضافة إلى عوامل خارجية مثل السياق ومدى توفر المدخل اللغوى والحالة الاجتماعية اللغوية للمتعلم هى التى تنتج مستويات متباينة بين المتعلمين. على الرغم من هذا التفاوت فإن تعلم اللغة الثانية يسير فى أطر محددة عالميا، تلك الأطر تقرب لغات المتعلمين الوسط كافة؛ لتحددها فى أطر تركيبية ومرحلية معينة؛ ولذلك فإن العوامل الداخلية والخارجية الاجتماعية تؤثر فى سرعة خطوات التعلم والنتيجة النهائية لعملية التعلم نفسها، وكذلك تؤثر فى بنية السمات المتعلمة .

مع العوامل الداخلية العقلية التى أشرت إليها توا للتحكم فى وتيرة التعلم والنمط النهائى للتعلم، أى الشكل النهائى للغة المتعلم فى عملية شديدة التعقيد.

يدعى كلين (١٩٨٦ ص٥٠) أنه على الرغم من التعاون فيما بين العوامل الداخلية العقلية والعوامل الاجتماعية التواصلية فى تحديد وتيرة التعلم وشكله النهائى، فإن الدور الأكبر والتأثير الأوضح يخص العوامل الاجتماعية التواصلية. ففيما يخص وتيرة التعلم نستطيع أن نقول: إن الضغط الذى يقع على المتعلم ساعة التواصل لتبادل رسالة مفهومة مع ابن اللغة والحاجة للتواصل فى المواقف الاجتماعية عموماً يسرعان من وتيرة عملية التعلم. بالمنطق نفسه يتسبب نقص المدخل اللغوى القابل للتعلم عن طريق نقص المواقف التواصلية مع أبناء اللغة الهدف يبطئ من وتيرة التعلم، كما أنه يصيب المدخل بمحدودية سيئة الوقع على عملية التعلم. ولكن عندما يرتفع مستوى المتعلم وتزداد معرفته باللغة الهدف يقل تأثير المواقف التواصلية والتعرض للمدخل اللغوى بفاعلية، فعندما تزداد المهارات الكلامية للمتعلم فى استخدام اللغة الهدف يقل المدخل اللغوى الجديد تواردا، وتتوقف البيئة المحيطة به والسياق التواصلى عن إمداده بمعلومات جديدة بشكل كامل فى مرحلة من المراحل. وكذلك تتأثر النتيجة النهائية لعملية التعلم حتما بالعوامل الداخلية والخارجية نفسها التى نتحدث عنها. ففى عمليات التعلم الحر غير المنظم دائماً يتجمد مستوى المتعلم عند مرحلة أقل من مستوى ابن اللغة على مستويات التحليل اللغوى كافة وخاصة المستوى الصوتى. تحدث عملية التجمد عندما لا يدرك المتعلم فرقا ملموساً بين منطوقاته اللغوية، وما يقدمه ابن اللغة من مدخل لغوى له فى سياق التواصل، وهذا من العوامل الداخلية. وتحدث عملية التجمد أيضا عندما لا تتسبب الفروق فيما ينتجه المتعلم وما ينتجه ابن اللغة فى عرقلة المهمة التواصلية أو عندما لا تصم المتعلم اجتماعيا، وهذا من العوامل الخارجية (كلين ١٩٨٦ ص٥٠-٥٢).

فعل التواصل الاجتماعى هو الاختبار الحقيقى للإنتاج اللغوى فى سياقات تعلم اللغة الثانية بشكل حر. على ذلك فإن القدرة على الحصول على مدخل لغوى قابل للتعلم من خلال تعدد فرص التواصل وتنوعها يحدد الوقت الذى يحتاجه المتعلم للوصول إلى مرحلة معينة من مراحل اللغة الوسط، ويحدد تنوع فرص التواصل وسياقاته تنوع

المدخل اللغوى وجودته، وكل هذا يؤثر فى النتيجة النهائية لعملية التعلم. نستطيع أن ندرك أن المتعلمين فى سياق حر غير منظم يكتسبون مهارات لغوية وإدراكية فى مجال المعجم أكثر من العناصر الوظيفية من المركبات النحوية والعناصر الصرفية؛ بسبب مشاكل سياقات التواصل والتركيز على التواصل. ومن المتوقع إذن أن ينتج المتعلم منطوقات لغوية تتميز بالإهمال التركيبى النحوى، وبالدقة المعجمية وصحة المحتوى اللفظى. إن المتعلم فى كل فرصة تواصل مع أبناء اللغة الهدف يقوم بعمليات تحليل للمدخل اللغوى بغية التوصل إلى سمات جديدة وتعلمها. لتحقيق هذا الهدف يعتمد المتعلم على مفاتيح السياق والتعديلات التى يجريها أبناء اللغة الهدف على المدخل اللغوى.

إن كانت سياقات التواصل والمهام الوظيفية هى التى تقدم معظم المدخل اللغوى فى سياقات تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم، وإذا كان أبناء اللغة الهدف يعدلون مدخلهم اللغوى بغية تسهيل مهمة المتعلم الأجنبى، إذن يجب أن نفترض أن المتعلم سيتعامل مع هذا المدخل المعدل على أنه المدخل الصحيح للغة الهدف إن كان فى مراحل التعلم المبكرة، وإن كان لا يتعرض لمدخل لغوى غير معدل مثل محادثات أبناء اللغة بعضهم مع البعض الآخر مثلاً. وعلى ذلك فإنه من الطبيعى لعمليات تعلم اللغة الثانية بشكل حر غير منظم أن تنتج أنماطا لغوية مختلفة، أى أنماطا لغوية تختلف عن أنماط اللغة الهدف التى يتكلمها من أنتج المدخل اللغوى الذى قام المتعلم بمعالجته ومن ثم تعلمه. بناء على ما سبق؛ فإننا نستطيع أن نتصور أن درجة التبسيط التى تظهر فى لغة المتعلم الوسط إنما تنتج عن نسبة المدخل اللغوى، وكثرته، ومدى التمكن منه.

فإذا أردنا أن نحدد المدخل اللغوى الذى استخدمه غير العرب فى تعلم العربية باعتبارها لغة ثانية بشكل حر وغير منظم فإن هناك ثلاثة عوامل لها أهمية خاصة: العامل الأول – مدى التمكن من المدخل اللغوى من خلال تعدد فرص التواصل وتنوع سياقاته، العامل الثانى – التعديلات التى يجريها ابن اللغة الهدف على مدخله اللغوى، والعامل الثالث – الحاجة والدافع اللذان يشعر بهما المتعلم ويدفعانه للتعلم.

لقد بينت فى الفصل السابق أن بناء المدن العربية فى الأقاليم قد مكن للمدخل اللغوى العربى أن يصل إلى أبناء اللغات المحلية بقدر كافٍ وتنوع سياقات وافٍ،

وزعمت أيضا أن أبناء اللغات الأخرى شعروا بحاجة، بل وبضرورة للتواصل مع سادتهم العرب الذين كانوا يتحكمون فى وظائفهم وأشغالهم بالعربية. وفى الفقرات التالية أقدم تفسيرا لدور العوامل الاجتماعية السكانية اللغوية فى المدخل اللغوى العربى الذى قدمه أبناء اللغة الهدف للمتعلمين الأجانب.

(ب) العوامل الاجتماعية اللغوية المؤثرة فى المدخل اللغوى :

من المتعارف عليه الآن فى مجال أبحاث تعلم اللغة الثانية أن يتم التعامل مع التعلم الحر وغير المنظم للغة الثانية على أنه عملية تتأثر تأثرًا كبيرًا بالسياق الاجتماعى والبيئة غير اللغوية المحيطة بالعملية. من بين أهم الباحثين الذين يتبنون هذا التصور كان إليس (١٩٩٦)[١٠] ، فهو يربط طرديا بين درجة نجاح الفرد فى تعلم اللغة الثانية واختيار النمط اللغوى الذى سيتعلمه من ناحية، والسياق الاجتماعى الذى يجد المتعلم نفسه فيه من ناحية أخرى. وعلى ذلك فإنه من المهم أن نقدم السمات العامة للسياق الاجتماعى الذى تجرى من خلاله عملية التعلم، وتأثيرها فى الإنتاج اللغوى الذى يصدره المتعلم.

على الرغم من الافتراض العام بوجود علاقة طردية بين تعلم اللغة الثانية بشكل طبيعى وفى سياق حر غير منظم والتركيز على القيمة التواصلية لمنطوق ما أكثر من التركيز على مستواه التركيبى وصحته اللغوية – فإن المتعلمين فى سياق طبيعى غالبًا ما يلجأون إلى التعلم الواعى المقصود، ويبحثون عامدين عن فرص للتمرين على القواعد أو السمات اللغوية التى تعلموها سلفًا (إليس ١٩٩٦ ص٢١٥). على الرغم من أن المدخل اللغوى يصل إلى المتعلم بشكل عشوائى، وعلى الرغم من أن عملية التعلم نفسها تحدث خارج نطاق الصف وتحكم مدرس، فإن تقييم العنصر المتعلم وتثبيته فى لغة المتعلم الوسط أمر يكون كثيرًا متعمدًا من قبل متعلم يرتفع مستوى وعيه باللغة الثانية التى يكتسبها كلما تطور مستواه التواصلى فيها؛ فقد تنتج عملية تعلم كتلك نمطا لغويا سليما من ناحية القواعد

(١٠) انظر خاصة صفحة ٢١٤ من هذا الكتاب .

كما أثبت لنا لينون (١٩٨٩) فى دراسته لتعلم الألمان للإنجليزية باعتبارها لغة ثانية فى سياق حر غير منظم فى بريطانيا (انظر تلخيص الدراسة عند إليس ١٩٩٦ ص٢١٥). ويعنى ذلك أنه ربما لا تكون هناك علاقة حتمية بين نمط التعلم ونتيجته من ناحية وكون السياق حرا غير منظم من عدمه من ناحية أخرى، بل ربما تكون العوامل الحاسمة فى ذلك الموضوع من وجهة نظر التوجه الاجتماعى اللغوى فى تعلم اللغة الثانية هى الظروف الاجتماعية التى تتم فيها عملية التعلم؛ فإن تلك الظروف هى التى تحتم على المتعلم أن يستخدم استراتيجيات خاصة فى التعلم، مما قد يؤدى لإنتاج لغوى مختلف فى كل حالة عن الأخرى.

هناك فرضية أخرى ذات صلة وهى أن المتعلم يتعرض فى سياقات التعلم الحر وخاصة فى بيئة اللغة إلى ضغط متواصل من البيئة المحيطة بمهام تواصلية مستمرة ومتكررة، ولذلك يتصور الباحثون أن مستوى المتعلم فى هذا السياق أفضل حالا من مستوى المتعلم فى سياق الفصول المنظم غير الحر حيث لا تحاصر المهام التواصلية، بل إن بعض الباحثين يدعون أن مثل هذا السياق الحر الضاغط يؤدى إلى مهارة لغوية أشبه بمهارة ابن اللغة (شينكل لانو ١٩٩٠ ص٢١٦). إن تلك الفرضية تجد دعمًا واسعًا من الدراسات الميدانية والتجريبية التى قارنت بين تعلم اللغة فى الفصل والتعلم من خلال التواصل الاجتماعى الحر غير المنظم. لقد خلص دى أنجليان (١٩٧٨) إلى أن الطلاب الذين يتعلمون اللغة فى سياق الصف ويتمتعون بمستوى مرتفع من التحفيز لا يصلون إلى مستويات عالية فى اللغة الهدف، أرجع الباحث السبب إلى أن المتعلم فى ذلك السياق لا يحصل على مهام تواصلية كافية يكون أحد أطرافها ابن اللغة الهدف. والعكس صحيح، فمن بين الأمثلة الأكثر وضوحًا على تأثير المهام التواصلية حالة المهاجرين الفيتناميين فى كليفورنيا بالولايات المتحدة، حيث أدى التواصل المستمر والمكثف مع أبناء اللغة الإنجليزية فى مجال العمل إلى ارتفاع مستوى المتعلمين فى اللغة الهدف بشكل ملحوظ، (إليس ١٩٩٦ ص٢١٥).

هناك حالة أخرى تدعم تلك الفكرة، وهى الحالة التى قدمتها الدكتورة فاثمان (١٩٧٨ ص٢١٢-٢٢٢)؛ حيث أثبتت نتائج دراستها العملية أن المتعلمين فى بيئة اللغة

الهدف غالبًا ما يتفوقون إحصائيا على المتعلمين فى سياق الفصول فى المهارات الكلامية. ليست المهارات الكلامية وحدها هى التى تتأثر إيجابيا ببيئة التعلم الطبيعية الحرة، بل إن استراتيجيات التواصل هى الأخرى تتأثر إيجابيا بتلك البيئة نفسها (فاثمان ١٩٧٨ ص٢٢٢). بناء على تلك النتائج يمكن أن نخلص إلى أن المتعلم كلما تعرض لمهام تواصلية أكثر تحسن إنتاجه اللغوى. إن دراسة فاثمان أيضا تبين أنه على الرغم من الفروق فى مستويات الصحة النحوية بين المتعلمين الذين يتعلمون فى الصفوف والمتعلمين فى سياق حر غير منظم لصالح المجموعة الأولى فإن الإنتاج اللغوى فى المحصلة النهائية متساوٍ من الناحية الإحصائية، إلا أن القدرات التواصلية والمهارة الكلامية أحسن فى سياق التعلم الحر منها فى سياق الفصول.

إن النتيجة التى توصلت إليها فاثمان بخصوص الفروق فى الأخطاء اللغوية التى يرتكبها المتعلمون فى السياقات الحرة والمتعلمون فى سياقات الفصول المنظمة مهمة لدراستنا هنا؛ فقد أنتج المتعلمون فى سياق الصف فى دراسة فاثمان أخطاء تعميمات أكثر من التى أنتجها المتعلم الحر، ويرتكب المتعلم الحر أخطاء تبديل أكثر من التى يرتكبها المتعلم فى الصف، أما أخطاء الحذف وترتيب الكلمات فهى أخطاء يرتكبها المتعلم الحر أكثر من متعلم الصف (فاثمان ١٩٧٨ ص٢٢٠ و ٢٢١). يمكننا أن نستنتج من تلك الدراسة أن التعلم فى سياق الصف ينتج متعلما يمتلك مهارات نحوية أحسن ولغة سليمة أكثر من المتعلم فى سياق حر غير منظم، أما السياقات الحرة فهى تنتج متعلمًا أكثر كفاءة لغوية عمومًا وأفضل تواصلا من المتعلم فى الصف. أى أن كلا المتعلمين ينتج أخطاء فى استخدام اللغة الهدف، ولكنهما ينتجان أنماطا مختلفة من الأخطاء، وهذا يتناقض مع الخلاصة التى خلصت لها فاثمان سلفا بأن كلا السياقين ينتج مستويات متوازية من التعلم(١١) .

---

(١١) انظر إليس (١٩٩٦) للحصول على معلومات أكثر بخصوص الفروق بين أبحاث تعلم اللغة الثانية بشكل حر وبشكل منظم النتائج المتناقضة التى توصلت لها ومناقشتها .

العنصر الأخير من عناصر العلاقة بين الكفاءة وتعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم موجود فى دراسة تجريبية قدمتها جاس (١٩٨٧ ص٢٢٩-٢٤٨) عندما أجرت الدراسة لمحاولة فهم تفسير الجملة فى كل من حالتى تعلم الإنجليزية والإيطالية بشكل منظم فى الفصل وبشكل حر غير منظم. ففى حالة الإنجليزية وجدت جاس غياب أى فرق بين حالات التعلم الحر وحالات التعلم المنظم فى الصف من حيث القدرة على تحليل الجملة وإدراكها. ومع ذلك فإن المتعلمين بشكل حر فى حالة الإيطالية كانوا أفضل من المتعلمين بشكل منظم فى الصف من حيث القدرة على تحليل الجملة. بينت جاس أن غياب الفرق بين حالتى التعلم كان فى حالة الإنجليزية التى يعتمد تحليل الجملة فيها وفهمها على ترتيب الكلمات فقط، أما فى حالة تعلم الإيطالية حيث يعتمد تحليل الجملة على أكثر من مسألة: منها التصريف الإعرابى وترتيب الكلمات وغيرهما، فإن تعلم اللغة الثانية بشكل حر غير منظم يقدم للمتعلم قدرة خاصة على حل المشكلات، ولذلك هو أفضل فى هذا السياق من التعلم فى الصف. القواعد اللغوية المركبة يصعب تعليمها فى الصف بشكل كامل أو بشكل سريع، وكذلك لا يتعرض المتعلم للمدخل اللغوى الطبيعى بشكل مستمر كما يحدث فى السياق الحر. ويمكن إذن أن نخلص من تلك الدراسة العملية إلى أن التعلم الحر يفيد أكثر من تعلم اللغة فى الصف فى القواعد المركبة.

يبدو من نتائج الدراسات التى قدمناها حتى الآن أن تعلم اللغة الثانية بشكل حر غير منظم يتميز بمهارة حديث وبكفاءة فى التواصل الشفوى أعلى من غيره من سياقات التعلم، كما أنه ينتج متعلمين أفضل من حيث القواعد والكفاءة فى استخدامها وإدراكها، كما أنه يساعد المتعلم على إنتاج كفاءة تشبه كفاءة ابن اللغة الهدف عمومًا. ولكن تلك النتائج ليست فى واقع الأمر دون معايب إجرائية؛ فقد جمع إليس (١٩٩٦ ص٢١٦) أدلة من الدراسات نفسها التى لخصت نتائجها توا على فساد الخلاصات التى خلصت إليها تجريبيا. فبينما أثبتت فاثمان (١٩٧٨) أن التعلم الحر يؤدى لإنتاج شفوى أحسن من تعلم الفصول، فقد بينت أيضا فى الوقت نفسه أن المتعلمين فى سياق تعلم حر غير منظم يتراوحون فى تلك المهارة التواصلية من الأنجح إلى الأقل نجاحًا. كما أن جاس (١٩٩٠ ص٣٧) فندت فكرة أن تعلم اللغة الثانية بشكل حر يؤدى لمهارة تواصلية تشبه

مهارة ابن اللغة الهدف، كما بينت أن المتعلم من الصعب أن يصل إلى مستوى ابن اللغة الهدف، حتى إن كان التعلم فى سياق حر أو فى سياق منظم فى الصف، وتدعم هذا التصور نتائج الدراسات الطولية(١٢)؛ إذ تبين تلك الدراسات أن المتعلمين البالغين فى سياق حر يفشلون فى تحقيق المهارة التى تشبه مهارة ابن اللغة الهدف. كما أن تحصيل المتعلم للقواعد بشكل كامل يبدو مسألة مستحيلة؛ لأن هناك تزايدا مضطردا فى نتائج الدراسات التجريبية التى تشير إلى أن التعلم فى الفصل أكثر تحقيقا للمهارات النحوية من التعلم الحر.

حاول إليس التوفيق بين تلك النتائج المتناقضة، فلفت انتباهنا إلى وجوب إدراك سياقات مختلفة داخل عملية تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم. سأركز هنا على سياقين فقط من ثلاثة سياقات ميز بينها إليس داخل تعلم اللغة الثانية بشكل حر، وسأهمل الأخير لغياب ارتباطه بموضوع بحثنا هنا: السياق الأول سياق تكون اللغة الهدف فيه اللغة الأم لجماعة لغوية أو أكثر داخل المجتمع الذى تتم فيه عملية تعلم اللغة الثانية بشكل حر. أما السياق الثانى فهو سياق تكون اللغة الهدف فيه ليست لغة أم لأى من الجماعات اللغوية المكونة للمجتمع، بل مجرد لغة وظيفية تستخدم للتواصل أو للعمليات الإدارية وللحكم. أما السياق الثالث فهو أن تكون اللغة الهدف مجرد لغة تواصل مشتركة محدودة الوظيفة. معظم البحث موجه للسياق الأول حيث تكون اللغة الهدف لغة أم لجماعة ما داخل المجتمع. وركزت تلك الدراسات فى معظمها على العمال المهاجرين لهذا السياق التعلمى أو الجماعات اللغوية الصغيرة أو جماعات الأقلية العرقية. أول ما يتبين من تلك الأحداث أن هناك تباينًا كبيرًا بين درجة تقارب تلك الجماعات مع اللغة الهدف وثقافة متحدثيها وأنماطهم الاجتماعية، ففى بعض الحالات يتمكن المتعلم من الوصول إلى لغة وسط ثابتة(١٣) نستطيع من خلالها أن نميز

---

(١٢) انظر دراسات شومان ١٩٧٨ وكلين وديتمار ١٩٧٩، ودراسة شميت ١٩٨٣ وميسل ١٩٨٣ .

(١٣) نشير إلى النظام اللغوى الذى يستنبطه المتعلم من خلال تحليل المدخل اللغوى الذى يقدمه ابن اللغة بمصطلح اللغة الوسط (سلينكر ١٩٧٢)، انظر أيضا لارسن فريمان ولونج (١٩٩٠ ص٦٠) للحصول على معلومات أكثر وعلى تعريف أوضح بخصوص اللغة الوسط. يقول جاس وسلينكر (١٩٩٤ ص١١) =

تلك الجماعة العرقية، أو الوطنية، أو الدينية، أو اللغوية لغويا. تعتمد أنماط اللغة الوسط هذه على الظروف الاجتماعية التى يجد المتعلم نفسه فيها.

من المفيد هنا أن نخرج من الحديث النظرى لنأخذ مثلا عمليا واضحا على تعلم اللغة الثانية فى تانك السياقين(١٤) ، وسنهتم بسياقات جماعات العمال المهاجرين الذين يفدون لسياق تكون اللغة الهدف فيه لغة الأغلبية السكانية، هذه حالة العمال المهاجرين فى ألمانيا. تعيش جماعات العمال المهاجرين منعزلة عن الأغلبية الألمانية إلى حد كبير، كما أنها تعيش معزولة بعضها عن البعض الآخر، فتعيش جماعات العمال الإيطاليين منعزلة عن الإسبان وعن جماعات الأتراك. البنيات اللغوية والتراكيب التى يتعلمها المتعلمون فى مثل تلك السياقات هى التى يحتاجونها للعمل وقضاء حاجاتهم فقط، ولكن بعض أفراد تلك الجماعات يتوصلون إلى مستوى ما من الكفاءة اللغوية الألمانية، ولكن أى درجة من درجات الكفاءة فى اللغة الهدف يعتمد على معدلات الانعزال عن المجتمع الهدف وعلى عدد سنوات الإقامة فى سياق التعلم فى ألمانيا. وفى أثناء عملية التعلم يمر المتعلم بمراحل تعلم مختلفة من اللغة الهدف حيث تتميز كل مرحلة باكتساب تراكيب لغوية معينة. ولكن تلك المراحل لا يمكن أن تصل إلى مرحلة تشبه إنتاج ابن اللغة الهدف على الرغم من إمكانية اقتراب اللغة الوسط من هذا المثال. يمكن تحديد كل مرحلة من تلك المراحل بعوامل وبسمات داخلية تتعلق بالمتعلم نفسه وبسمات خارجية تتعلق بالخلفية الاجتماعية التى يجد المتعلم فيها نفسه؛ يعتبر السن، والجنس، والتوجه النفسى ناحية اللغة الهدف من أهم العوامل الداخلة المؤثرة فى التعلم، ومن بين العوامل

= : إن اللغة الوسط مكونة من عناصر كثيرة، بعضها عناصر من اللغة الأم، وبعضها عناصر من اللغة الهدف، وبعضها عناصر لا تنتمى إلى اللغة الأم ولا تنتمى فى الوقت نفسه إلى اللغة الهدف. من خواص اللغة الوسط أنها تتباين بشكل منظم وتعكس مراحل تنموية معينة وتطور منظم منتظم يعكس مرحلية. (لارسن فريمان ولونج ١٩٩١ ص٨١) .

(١٤) لقد قلت فى الفصل الماضى أن العرب أسسوا مجتمعات عربية فى الأقاليم الجديدة، وتحولت تلك المدن إلى مناطق تجمع لأغلبية لغوية وسكانية عربية حيث أصبح العرب السادة وأصحاب الأعمال، لذلك فمن المفيد أن ننظر إلى سياقات تعلم يكون العمال المهاجرون فيها محل الدراسة .

الاجتماعية مدة الإقامة فى سياق التعلم، ونوع العمل الذى يقوم به العامل، ومكانه، ودرجة التواصل الاجتماعى مع أبناء اللغة الهدف (كلين وديتمار ١٩٧٨ ص٢ و ٣).

لقد ذكرت سلفًا أن عنصر الوقت من أهم العوامل الاجتماعية فى عمليات تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم. فى حالة العمال المهاجرين فى ألمانيا كانت فترة الإقامة فى سياق اللغة الهدف مهمة وحساسة فى العامين الأول والثانى فقط، ولكن بعد تلك المرحلة الأولى أصبحت عوامل أخرى أكثر تأثيراً فى التعلم (كلين وديتمار ١٩٧٨ ص٤). من أجل تحديد دور العوامل الأخرى وتأثيرها فى عملية التعلم أجرى كلين وديتمر مقارنة بين التراكيب النحوية المكتسبة والبيئة الاجتماعية للمتعلم، وقد تبين من تلك المقارنة أن التواصل مع الألمان فى وقت الفراغ والعمل وقت الوصول إلى ألمانيا كانا أكثر العوامل تأثيرا بعد المرحلة الأولى فى لغة المتعلم والكفاءة اللغوية. ولذلك يمكن أن نقول: إن اللغة الوسط الثابتة عند المتعلم مسألة تحددها مجموعة معقدة من العوامل الداخلية والخارجية، وعند اختلاف تركيبة تلك العوامل معا تنتج أنماط مختلفة من اللغة الوسط الثابتة عند متعلمين مختلفين، ولكن أهم العوامل فى المرحلة المبكرة اثنان: هما فترة التواصل مع أبناء اللغة الهدف وطولها من ناحية، ومستوى كثافة هذا التواصل من ناحية أخرى.

ولكن على الرغم من أن فترة الإقامة الطويلة فى بيئة التعلم عنصر حساس فى المرحلة الأولى فإن تأثيرها الإيجابى تخفى فعاليته؛ بسبب فشل المتعلم فى حالات كثيرة فى فصل عناصر لغوية قابلة للتعلم فى المراحل المبكرة. ويعنى ذلك أن المدخل القابل للتعلم أقل بكثير من المدخل الذى يتعرض له المتعلم فى المراحل المبكرة، إلا أن كثافة المدخل اللغوى ومعدلات تكراره تساعد المتعلم فى سد تلك الهوة وفى اكتساب مهارات فى فصل المدخل القابل للتعلم (انظر جاس ١٩٩٧ ص١٧). ويعنى ذلك أن المدخل المتكرر القابل للتعلم أكثر من غيره من أنواع المدخل إن كان مصحوبًا بفترة إقامة طويلة وبمستوى تواصل كثيف مع أبناء اللغة الهدف.

فى حالات أخرى يستطيع المتعلمون أن يحصلوا على مستويات لغوية وعلى أنماط تقترب من نموذج اللغة الهدف كما هو فى المدخل اللغوى. يحدث التعلم السريع والكفء للغة الثانية عندما يحاول المتعلم أن يتماثل مع جماعة الأغلبية السكانية التى تتحدث اللغة الهدف، وبالتالى يحسن المتعلم مكانته الاجتماعية وقدرته التكيفية. كمثل على ذلك نستطيع أن نستشهد بوصف تيلور (١٩٨٠) لحالة المهاجرين النرويجيين فى الولايات المتحدة، والذين استطاعوا أن يقتربوا من نموذج اللغة الهدف المستخدم فى بيئتهم اللغوية فى الولايات المتحدة. ولكن هذا لا يعنى أن كل النرويجيين عندهم المستوى نفسه، فإن المستويات الفردية كما أشرنا سلفا تحددها مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية معقدة التشابك، من أهم عوامل التعلم السريع فى تلك الحالة الخاصة كان الدافع الشخصى وارتفاع مستويات التواصل مع اللغة الهدف ومع أبناء اللغة الهدف (إليس ١٩٩٦ ص٢١٧-٢١٨). نستطيع أن نستشف من مثلى العمال المهاجرين فى ألمانيا، ومن المهاجرين النرويجيين فى أمريكا أن درجة التماثل مع اللغة الهدف تتعادل طرديا مع تقارب ثقافة المتعلم مع ثقافة أبناء اللغة الهدف. فقد أسهم مستوى اندماج المهاجرين النرويجيين فى الثقافة المحيطة بهم فى تمكينهم من استصدار مدخل لغوى أكثر كثافة واستمرارًا مما مكنهم من الوصول إلى مستوى مرتفع من اللغة الوسط، بعكس حالة العمال المهاجرين فى ألمانيا، حيث كانوا عادة منعزلين عن تجمعات أبناء اللغة الهدف، وبالتالى لم يكن من الممكن الحصول على مدخل لغوى كثيف ومستمر بالدرجة نفسها.

الحالة الثانية لتعلم اللغة بشكل حر هى حالة تعلم لغة وظيفية فقط وليست لغة أم لأى من الجماعات اللغوية فى المجتمع(١٥) . من أفضل الأمثلة على تلك الحالة استخدام اللغة الإنجليزية فى المستعمرات البريطانية السابقة باعتبارها لغة إدارة، كما هو الحال فى نيجيريا مثلا. فى مثل تلك الحالات تستخدم اللغة الهدف باعتبارها لغة إدارية

(١٥) هذه الحالة مناسبة جدا لحالة اللغة العربية فى الأقاليم المفتوحة فى القرن الأول الهجرى، حيث ظلت العربية خارج المدن لغة وظيفية فقط، ولم تكن اللغة الأم لأى من المصريين، أو الشوام، أو العراقيين وخاصة فى الريف .

فى سياق متعدد اللغات. وغالبًا ما كان الاختيار يقع على تلك اللغة للإدارة؛ لأنها كانت لغة المستعمر القديم(١٦) . فى أمثال تلك المجتمعات تكون القطاعات المتعلمة والتى تجيد القراءة والكتابة بدرجة ما هى التى تستطيع أن تصل إلى مستوى من مستويات التعدد اللغوى. ويتنافس أبناء طبقات المتعلمين على المستوى الوطنى للتوصل إلى مستوى معين من الكفاءة اللغوية يكون معروفا بالمعيار الوطنى الذى قد يختلف أو يتشابه مع المعيار العام للغة الهدف، ويحاول الأفراد المتعلمون أن يحسنوا من مستوياتهم اللغوية للمزايا الاجتماعية والاقتصادية التى يوفرها تعلم اللغة الثانية. ولكن تحقيق مستوى عال من الكفاءة اللغوية فى اللغة الهدف غير ممكن فى الكثير من الحالات، إذ يقتصر مستوى المتعلمين عادة على مستويات محددة تحتمها سرعة التعلم، والفروق الفردية، وتوقف التعلم المنظم عند مراحل مبكرة فى كثير من الحالات (إليس ١٩٩٦ ص٢١٩).

علاوة على ذلك فتوجه المتعلم النفسى تجاه اللغة المستخدمة إداريا فقط يختلف كلية عن توجه المتعلم للغة الأغلبية التى يتعلمها لسياقات تواصل أكثر من السياقات الوظيفية. فتجد أن متعلم اللغة الوظيفية نادراً ما يمانع فى تعلم اللغة؛ لأنها لا تهدد هويته العرقية أو القومية، أما فى حالة تعلم لغة الأغلبية فإن هناك إمكانية فقدان هوية الجماعة التى ينتمى المتعلم إليها، وعلى ذلك فمن الصعب فى بعض الأحيان أن يتقبل المتعلم استخدام تلك اللغة باعتبارها لغة حديث، أو على الأقل يربى المتعلم حساسية من استخدام تلك اللغة. ولكن المشكلة مع تعلم لغة إدارية فقط هى أن هذا التعلم يكون فى إطار طبقى محدود وليس مسألة عامة، فالفلاحون والعمال والأميون من الشعب غالبًا ما يكونون عرضة للإبعاد من نطاق تأثير اللغة الهدف.

تطور أنماط لغوية محلية إقليمية من أهم خصائص تعلم اللغة الإدارية. لقد قلنا سلفًا: إنه من الصعب أن يصل المتعلم فى مثل تلك السياقات إلى مستويات عالية من الكفاءة فى اللغة الهدف، كما أن المتعلمين يطورون أنماط لغة وسط مبسطة تشبه فى

---

(١٦) فى بعض الأحيان يتم اختيار لغة أجنبية ما لتكون اللغة الإدارية للحفاظ على ميزان القوة بين اللغات المحلية ثابتا فى سياق تمثل المسألة اللغوية فيه حساسية خاصة (إليس ١٩٩٦ ص٢١٩) .

أحيان كثيرة الهجن اللغوية (إليس ١٩٩٦ ص٢٢٠). كما أن هناك تشابهات تركيبية بين الأنماط البدائية من تلك اللغات المحلية فى إفريقيا على سبيل المثال وأنماط العمال المهاجرين فى ألمانيا كما تحدثنا عنها سلفًا. ليس تطور أنماط مبسطة فقط هو الأصل فى تلك السياقات، بل من الممكن جدا أن يحدث العكس، فتجد أن متعلمى اللغة الإدارية الهدف فى بعض الأحيان قادرون على تطوير أنماط معقدة ذات أساليب معقدة من اللغة الهدف حيث يكون الاهتمام بالشكل اللغوى أكثر من الاهتمام برسالة التواصل الفعال(١٧). من بين أحسن الأمثلة على تلك الأنماط الخاصة من اللغة الهدف نمط "بابو" الذى طوره الموظفون الهنود فى العصر الاستعمارى (ويدوسون ١٩٧٧ ص١٦٣ و ١٦٤). استخدم الموظفون الهنود هذا النمط الخاص ذا الأسلوب الشعرى المسهب ليس لغرض وظيفى توصيلى، بل لمجرد استخدام نمط إنجليزى ماهر. تبين ويدوســون (١٩٧٧ ص١٦٩) أن المتعلم الذى يستخدم "بابو" غالبا ما ينتج جملا خاوية المعنى مع أن قواعدها الإنجليزية دقيقة.

وكذلك قد ينتج عن تعلم اللغة الثانية فى سياق لغة هدف إدارية فقط ظهور أنماط معيارية مخالفة فى بعض سماتها للنمط الهدف الأصلى الذى شكل المدخل اللغوى. فقد ظهرت أنماط معيارية فرنسية وإنجليزية مختلفة عن اللغة الهدف المعيارية فى المستعمرات الفرنسية والإنجليزية السابقة، وكذلك البرتغالية المستخدمة فى البرازيل والإسبانية المستخدمة فى عموم أمريكا اللاتينية والوسطى مختلفتان بشكل ملحوظ عن البرتغالية والإسبانية الأوروبية. من بين أوضح السمات اللغوية فى تلك الأنماط البديلة تعميم القواعد النحوية فى اللغة الهدف على حالات لا تعممها اللغة الهدف فى شكلها الأصلى. سمة أخرى من سمات تلك الأنماط اللغوية وهى انعكاس التراكيب اللغوية فى اللغة الأولى فى استخدام اللغة الهدف (كاشرو ١٩٨٩ ص١٥-٢١). وكثيراً ما ينظر مستخدمو تلك

(١٧) هذا التوجه ناحية اللغة الإدارية الهدف مهم جدا لدراستنا هنا، فيمكننا أن نفترض أن الكتاب المحترفين من غير العرب حاولوا إنتاج أحسن نمط من العربية، وحاولوا استخدام علامات الإعراب والتراكيب المعقدة للعربية، لكى يبينوا مهارتهم فى استخدام اللغة بغرض الحفاظ على وظيفتهم .

الأنماط المعيارية البديلة لأنماطهم على أنها معيار اللغة الهدف، وليس على أنها مجرد مرحلة من مراحل اللغة الوسط، وكثيرا ما يكون توجههم النفسى ناحية هذه الأنماط إيجابيا جدا، على أنها فصيحة وذات رفعة اجتماعية (إليس ١٩٩٦ ص٢٢٠).

اخترت ألا أركز على السياق الثالث حيث اللغة الهدف هى اللغة المشتركة فى جماعة لغوية متعددة اللغات أصلا، وليست اللغة الهدف لأى من الجماعات البشرية المتداخلة فى السياق التواصلى، فهذا السياق ليس ذا صلة بموضوع بحثنا هنا فليس هذا السياق موجوداً فى الأقاليم العربية المفتوحة فى القرن الأول الهجرى. فقد كان أبناء اللغة العربية قاسمًا مشتركًا فى كل السياقات التواصلية فى الأقاليم العربية المفتوحة فى القرون الثلاثة الأولى على الأقل.

(ج) اكتساب العربية بشكل حر غير منظم :

يمكن أن نستنتج من كل ما سبق أن المتعلم فى سياق تعلم اللغة الثانية بشكل حر قد يكون واعيا بالعمليات العقلية التى تحدث فى التعلم، بل ويستطيع أن يتحكم فيها بغية الوصول إلى مستويات أعلى من الكفاءة فى اللغة الهدف علاوة على مستويات رفيعة من المعرفة النحوية، ويستطيع المتعلم فى سياق حر غير منظم أن يقوم بالمهام النحوية التحليلية المعقدة أفضل من الطالب الذى تعلم فى سياق الفصل، ولكن استراتيجيات التواصل والكفاءة الشفاهية التواصلية سمات أكثر وضوحًا فى التعلم الحر من المهارات النحوية، كما أن الفترة الزمنية التى يقضيها المتعلم فى بيئة اللغة الهدف تتوازى مع المهارات اللفظية التواصلية فى اللغة الهدف. ولكن الظروف الاجتماعية هى العنصر الحاسم فى التعلم، هذه العوامل توجه المتعلم ناحية الصحة النحوية، والتواصل الشفوى، واستغلال فرص التواصل بشكل فعال، والإمكانيات المتاحة للحصول على المدخل اللغوى. وكذلك كثيرا ما يتحكم انخراط المتعلم فى ثقافة اللغة الهدف وقربه وبعده عنها فى التقريب بين لغته الوسط والمعيار اللغوى فى اللغة الهدف، والذى استقى منه المدخل القابل للتعلم.

وفى سياقات أخرى، حيث لا تمثل اللغة الهدف أى لغة أم فى السياق التواصلى يستطيع أشخاص معينون فى المجتمع الحصول على درجات معينة من الكفاءة الوظيفية فى اللغة الهدف. ولأسباب اجتماعية، أو سكانية، أو اقتصادية لا يتمكن كثير من الناس من الحصول على أى كفاءة فى اللغة الهدف. كما كان الحال مع تعلم اللغة الهدف التى تمثل لغة أم لغالبية الجماعة فإن الظروف الاجتماعية تحدد حدوث عملية التعلم من عدمه من ناحية، وتحدد درجة المهارة فى كثير من الأحيان من ناحية أخرى، ولكن على الرغم من الإصرار على تعلم اللغة الهدف والتعامل مع عملية التعلم بشكل واع فإن أنماطًا محلية تظهر وتظهر معها معايير صحة نحوية مختلفة بشكل كبير عن معايير اللغة الهدف الأصلية.

إذا ما حاولنا أن نطبق تلك الخلاصة على تعلم اللغة العربية فى سياقها باعتبارها لغة إدارية، وفى سياقها باعتبارها لغة أم أو لغة حديث ثانية عند أبناء اللغات المحلية فإننا يجب أن نتصور أن غير العرب حاولوا بشكل واع أن يتعلموا العربية من العرب الذين كانوا يتواصلون معهم فى المدن العربية الجديدة. وفى هذا السياق لم يفلح غير العرب فى تحصيل المدخل اللغوى فحسب، بل استطاعوا أيضا أن يختبروه ويعدلوا إنتاجهم بحسب ما يمدهم به أبناء اللغة الهدف. إذا كان التواصل مكثفًا ومستمرًا وواعيًا؛ فإننا يجب أن نتوقع ظهور مستويات عالية من الكفاءة اللغوية فى اللغة الهدف فى فترات قصيرة نسبيا، وأتصور أن هذا كان الحال فى المدن العربية حيث شكل العرب الغالبية السكانية فى تلك المدن.

٤ - المدخل اللغوى فى تعلم اللغة الثانية بشكل حر :

أدرس فى هذا القسم أنماط المدخل اللغوى المرتبطة بسياقات تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم، سأبدأ هنا بالسمات العامة للمدخل اللغوى، وسأنتقل بعد ذلك إلى تفسير نمط حديث الأجانب كنمط تفاعل لغوى بين العرب وغير العرب فى القرن الأول الهجرى على الأقل[١٨] .

(١٨) كما بينا فى الفصل السابق فإن هناك عاملين أسهما فى تصورنا حول استخدام نمط حديث الأجانب فى التواصل بين العرب وغير العرب فى المراحل المبكرة بدلا من التهجين اللغوى؛ وهما كثرة العرب فى التجماعات التى حدث فيها التواصل، وغياب التعدد اللغوى بين السكان غير العرب .

(أ) المدخل اللغوى والتواصل :

لقد قلنا سلفًا: إن أهم عاملين فى تعلم اللغة الثانية بشكل حر هما: ابن اللغة الهدف وتركيبة السياق الذى يتم فيه التعلم. ابن اللغة الهدف هو الذى يقدم المدخل اللغوى للمتعلم[١٩]. إن السياق الاجتماعى اللغوى ووجهة نظر ابن اللغة الهدف فى مستوى المتعلم فى اللغة الثانية يوجهان ابن اللغة لتعديل مدخله اللغوى؛ ليوصل الرسالة بشكل واضح. المدخل اللغوى فى تعلم اللغة الثانية بشكل حر يأتى من سياق تواصلى بين المتعلم وابن اللغة يكون التعلم فيه مسألة جانبية أو من خلال ما يقدمه إليس (١٩٩٦ ص٢٦) على أنه الخطاب غير المتبادل. من بين أفضل الأمثلة على هذا النوع من المدخل اللغوى هو سماع أبناء اللغة يتحدثون بعضهم إلى بعض، ولذلك فإن دراسات المدخل اللغوى فى تعلم اللغة الثانية تركز على أنواع التعديلات التى يقوم بها ابن اللغة فى سياق تقديمه للمدخل اللغوى وتركز أيضا على بنية الخطاب فى السياقات التواصلية.

قدم لنا كراشن (١٩٨٦ ص٢) مفهوم المدخل اللغوى القابل للفهم؛ يقوم هذا المفهوم على فكرة أن أى متعلم لأى لغة من اللغات يستطيع أن يتعلم أصوات اللغة الهدف أو مورفيماتها أو تراكيبها النحوية من خلال مدخل يستطيع أن يتعامل معه. فتجد أن المتعلم يستطيع أن يتعلم تراكيب نحوية بمساعدة السياق المحيط بعملية التعلم

(١٩) لقد تطورت وجهات النظر العلمية فى مسألة المدخل اللغوى كثيرا فى العقود الماضية، ففى الستينيات سيطرت النظرية السلوكية على وجهة نظر الباحثين فى المدخل اللغوى، فقد تصوره الباحثون فى تلك الفترة على أنه العنصر الوحيد الذى يحدد التعلم. فبحسب تلك النظرية يتعلم المتعلم ما يحصل عليه دون تغيير. وفى السياقات الحرة يتعلم المتعلم ما يمكنه مستواه من فصله من المدخل اللغوى. وبحسب تلك النظرية أيضا المتعلم عنصر سلبى جدا فى التعلم. ومع تغير التوجهات النفسية فى الستينيات أصبح الباحثون ينظرون إلى المدخل على أنه مجرد محرك لعملية عقلية عامة هى عملية التعلم. ولما كان كل فرد مجهزا فى عقله بآلية لتعلم اللغات، فإن تلك الآلية تبدأ فى العمل بمجرد أن يتعرض المتعلم لمدخل لغوى مناسب. ولكن هذا التصور بدوره تم تعديله، ويتم الآن التركيز على المدخل وعلى التواصل باعتبارهما عناصر مهمة فى عملية التعلم. فالتواصل يساعد المتعلم على تعلم تراكيب لغوية أصعب من المستوى العام الذى يقف المتعلم عنده فى لحظة ما. لقد أصبح المنظور السلوكى فى صفحات التاريخ، ولكن المنظور العقلى يحتاج حتى الآن لإثبات تجريبى .

وبمساعدة معرفته السابقة باللغة الهدف إن وجدت. وعلى ذلك فنستطيع أن نقول: إنه إن كان المدخل اللغوى مفهوما بشكل كاف، وإن كان متواترا بشكل كاف فإن المتعلم سيكتسب التركيب النحوى المرجو دون الحاجة لعملية تعلم منظمة فى فصل لغة أو تعلم واع. ولذلك يتصور كراشن أن المدخل اللغوى هو العامل البيئى الاجتماعى الأهم، والذى يتعاون مع مركز تعلم اللغة فى العقل البشرى لكى يتم تضمين سمة لغوية ما فى نظام اللغة الوسط عند المتعلم (كراشن ١٩٨٦ ص٢ و ٣). تقدم فكرة الأنماط اللغوية المعدلة أفضل دليل على صحة فرضية المدخل اللغوى القابل للفهم؛ فنجد كراشن (١٩٨٦ ص٨) يقول: إن نمط حديث الأجانب المعدل نمط يلجأ أبناء اللغة إليه بغرض التواصل لا التعليم عند حديثهم مع الأجانب، الهدف الوحيد من التعديل تقديم مدخل قابل للفهم لدى الأجنبى، كما أن المتحدث من أبناء اللغة عادة ما يعدل نمط حديثه حسب مستوى المتعلم الأجنبى فى محادثة من المحادثات بغية تحسين التبادل والتواصل (كراشن ١٩٨٦ ص٩). لقد دعمت الأبحاث التى أجراها كل من دايس (١٩٧٧ ص٢٠٤-٢١٢) وفريد (١٩٨٠ ص١٩-٢٧) تلك الأفكار بشكل تجريبى.

ومن بين مصادر التدليل على صحة تلك الفكرة أيضا الأبحاث التى أجريت على الفروق فى المراحل العمرية وعلاقتها بمستويات التعلم وكفاءته؛ فقد بينت تلك الدراسات أن المتعلمين من البالغين فى مراحل التعلم المبكرة يتعلمون السمات اللغوية المختلفة أسرع من الأطفال، ويرجع السبب فى ذلك إلى الكميات الكبيرة من المدخل اللغوى القابل للفهم من ناحية، وإلى مساعدات السياق التى تمهد للتعلم من ناحية أخرى (كراشن ١٩٨٦ ص١٢). علاوة على ذلك، فإن المتعلمين البالغين عموما يمتلكون قدرات أكبر من الأطفال على المحادثة تمكنهم من فك رموز المدخل اللغوى المتاح أمامهم[٢٠] .

ولكن لونج (١٩٨١ ص١٦٨) حمَّل فرضية المدخل اللغوى القابل للفهم أهمية إضافية عندما قال: إن التواصل والمدخل اللغوى القابل للفهم معا فى تأثيرهما، بل إن

---

(٢٠) للمزيد من المعلومات عن هذا النوع من الدراسات وفوائدها الكثيرة انظر كراشن ولونج وسكاركلا (١٩٨٢ ص١٦١-١٧٢) .

لونج يدعى أن المدخل اللغوى غير المعدل مع تواصل سليم قد يؤدى إلى تعلم سمة لغوية ما، ولكنه يرفض تمام الرفض أن يؤدى مدخل لغوى معدل وسياق تواصلى غير مناسب لأى عملية من عمليات الاكتساب إلا فى حالات نادرة جدا، بل إنه من الواضح للونج أن طريقة التواصل المعدلة العامل الأساسى فى المحافظة على انسياب المحادثة، وبالتالى توفر فرصة المدخل اللغوى والاكتساب. ولما كانت مستويات المتعلمين دائما أقل من مستويات أبناء اللغة فإن ابن اللغة دائما ما يجد نفسه مضطرا لتعديل طريقة التواصل والتحادث؛ ليتأكد من أن المتعلم أو المتحادث يستقبل الرسالة المرجوة لا غيرها. إن لونج يعطى التواصل المعدل أهمية تفوق المدخل اللغوى المعدل فى أحيان كثيرة فى تسهيل تعلم سمات اللغة الهدف (١٩٨١ ص٢٧٣). الفكرة الأساسية هنا أن التواصل المعدل يساعد فى فهم المدخل اللغوى مهما كانت درجة تعديله. فعندما يعدل ابن اللغة الهدف مدخله اللغوى ليصبح قابلا للفهم، فإنه يصبح قابلا للتعلم فى الوقت نفسه، فسرت جاس (١٩٩٧ ص١٣١) تلك الفكرة بقولها: إن التواصل وتداول المدخل اللغوى يجعل السمات اللغوية أكثر وضوحًا من الناحية المعنوية، ومن الناحية اللغوية أيضا فتخلق بذلك قابلية التعلم[٢١] .

هناك مفهوم آخر مفيد لنا فى هذا السياق وهو مفهوم الإنتاج اللغوى القابل للفهم، ويعنى أن المتعلم بحاجة للمدخل اللغوى القابل للتعلم؛ ليستطيع تحليله واستخلاص سمات لغوية قابلة للتعلم، ومن ثم يستطيع أن يكون منتجا لغويا ينطقه. وهذا الإنتاج فى حد ذاته إن كان ناجحًا فإنه يستدعى من ابن اللغة مدخلا لغويا يدعم السمة المتعلمة فعلا ويضيف عليها سمات أخرى (سوين ١٩٨٥ ص٢٣٥-٢٥٣). زيادة فرص المدخل اللغوى بهذه الطريقة تعطى المتعلم فرصة للفهم أكثر مما تعطيه فرصة

---

(٢١) حاولت دراسات كثيرة أن تفهم ما هو العامل الذى يجعل المدخل اللغوى مفهوما. من بين تلك الدراسات كانت تلك الدراسة المهمة التى قام بها بيكا ويونج ودوتى (١٩٨٧ ص٧٣٧-٧٥٨)، حيث تم اختبار العلاقة بين التواصل المناسب والفهم. ولكن إذا ما كان التواصل المناسب يؤدى بالضرورة إلى عملية تعلم لسمة لغوية ما يبقى سؤال مفتوح إلى حد كبير بسبب فقر الدراسات التى أجريت فى هذا السياق وضعف العناصر الإجرائية لها .

للتحليل، وبالتالى يستطيع أن يحتفظ بتواصل مستمر من المدخل اللغوى والمعنى فى الوقت نفسه(٢٢) .

على الرغم من ندرة الأبحاث التجريبية على مفهومى المدخل اللغوى القابل للفهم والمنتج اللغوى القابل للفهم فإن الدراسات المتاحة تمكننا من أن ننتج نموذجا لسياق التواصل الذى يتم من خلاله تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم. بحسب هذا النموذج يرسل ابن اللغة رسائل بغرض قضاء مصالح غير لغوية بلغة غالبًا ما تكون معدلة لكتون أكثر وضوحًا فى تراكيبها اللغوية، أما المتعلم فيحاول أن يتعلم المدخل اللغوى الذى يستطيع فك رموزه ويحاكيه فى شكل منتج لغوى قابل للفهم وقد يكون فى بعض الأحيان مختلفًا تركيبيا عن المدخل اللغوى الأصلى. يعطى هذا السياق التعاونى المتعلم فرصة للحصول على المدخل اللغوى وتحليله والتأكد من صحته وبالتالى إعادة إنتاجه. وفى الوقت نفسه يعطى هذا السياق لابن اللغة الهدف الفرصة لتقييم مستوى المتعلم، وتعديل مدخله اللغوى ليناسب هذا المستوى. وهذا يسمح للمتعلم بالحصول على مستويات تعقيد لغوى أكبر من ابن اللغة الهدف. من أهم الأدلة على صحة هذا السياق الدراسة التى أجرتها هاتش (١٩٧٨) لتبين أهمية التواصل فى تعلم اللغة الثانية، حيث أكدت الباحثة أن تعاون المتعلم الأجنبى المشترك فى محادثة مع ابن اللغة يساعد على إمكانية رفع قدرات المتعلم فى اكتساب اللغة الثانية عن طريق زيادة كفاءته على استخلاص المنتج اللغوى وتحليله.

يمكن أن نستخلص من كل ما سبق أن سياقات التواصل التى يشترك فى فعاليتها كل من ابن اللغة الهدف والمتعلم هى موقع تعلم اللغة الثانية بشكل حر. ولكن تعلم اللغة نفسه مسألة غير واضحة فى ملامحها، فهل تكون هى نهاية عملية أم يكون التعلم فى حد ذاته عملية تبدأ بتحليل مدخل لغوى، وتنتهى بتضمينه فى لغة المتعلم الوسط؟ سأركز هنا على الفرضية الأخيرة مادامت نقطتنا الأساسية هنا هى محاولة التعرف على المدخل اللغوى الذى ساعد فى تعلم العربية فى القرنين الأول والثانى من الفتوحات العربية.

---

(٢٢) للمزيد من البحث فى مجال المدخل اللغوى وتقييم الأبحاث المقدمة انظر إليس (١٩٩٦ ص٢٦-٢٩) .

يبرز فى هذا السياق سؤال مهم؛ ألا وهو: ما العنصر الذى يجعل مدخلاً لغويا ما قابلا للفهم، ومدخلاً لغويا آخر غير قابل للفهم؟ السؤال بصيغة أخرى هو، ما العناصر التى تجعل المتعلم قادرا على استخلاص سمة لغوية معينة وتحليلها واتخاذ القرار بتعلمها؟ إجابة هذا السؤال كما أشرت سلفا تكمن فى أن المدخل اللغوى يجب أن يكون قابلا للفهم[٢٣] .

نحتاج إلى أن نفصل بين مفهومين: الأول هو مفهوم المدخل القابل للفهم وهو العنصر الضرورى فى عملية التعلم، والمدخل الذى تم فهمه فعلا وهو نتيجة عملية التعلم. المفهوم الأول يعنى أن ابن اللغة الهدف هو المسئول عن توفير المدخل اللغوى القابل للتعلم. ويركز المفهوم الثانى على قدرة المتعلم على التعامل مع هذا المدخل وتعلمه. هناك سؤال آخر وهو: ما الذى يفعله ابن اللغة لكى يجعل المدخل قابلا للفهم؟. تكمن إجابة هذا السؤال فى الوضوح اللغوى وأشياء أخرى. من الممكن أن يتأتى الوضوح اللغوى من خلال تكرار السمة اللغوية المقصودة كثيرًا فى السياق التواصلى، أو عن طريق التركيز عليها وتكرارها. إن الوضوح اللغوى يرفع درجة وعى المتعلم بالسمة محل البحث، ورفع الوعى يؤدى إلى التعليم فى النهاية (شميت ١٩٩٠ ص١٣٩). يدعى باردوفى هارلنج (١٩٨٧ ص٣٨٥-٤٠٧) الذى يعرف الوضوح بكثافة ظهور السمة اللغوية أن وضوح سمة لغوية غير اعتيادية قد يؤدى إلى تعلمها بشكل أسرع من سمة لغوية اعتيادية ولكنها ليست واضحة[٢٤] . علاوة على ذلك فإن المتعلم ينزع لاستخدام السمات اللغوية التى تكشفت له أوضح لغويا فى سياق استخلاصه للمدخل اللغوى. وقد لاحظ بيلى (١٩٩٤ ص١٥٧-١٨١) فى دراسته لاكتساب الأصوات أن المتعلم يكتسب علامة الماضى الصرفية أكثر من غيرها، وأسرع بسبب وضوحها اللغوى.

هناك عامل آخر يساهم مع الوضوح اللغوى فى جعل المدخل اللغوى قابلا للتعلم، وهو عامل التعديل اللغوى الذى يجريه ابن اللغة الهدف على مستويات التحليل اللغوى

---

(٢٣) انظر مناقشة جاس (١٩٩٧ ص٨١ و ٨٢) لمفهوم المدخل اللغوى القابل للتعلم .

(٢٤) وصل دوتى (١٩٩١ ص٤٣١-٤٦٩) إلى النتيجة نفسها .

كافة لكى يجعلها قابلة للفهم لدى المتعلم. التعديل اللغوى هو تغيير القواعد اللغوية بحيث تناسب مستوى المتعلم، ذلك لأن المتعلم يصبح قادرا على التعامل مع المدخل اللغوى فقط بعد أن يكون قد حلله (جاس ١٩٩٧ ص٢٣). ولذلك فمن الممكن أن يكون نمط حديث الأجانب نمطا مناسبًا يستخدمه ابن اللغة الهدف مع المتعلم الأجنبى؛ لأنه نمط معدل لغويا وواضح لغويا أيضا لدرجة تؤهله لأن يكون وسيلة لنقل المدخل اللغوى للمتعلم، وهو يساعد كلا من ابن اللغة الهدف والمتعلم الأجنبى على تبادل رسائل تواصلية ذات معنى سليم من ناحية، ومن ناحية أخرى يساعد على توصيل المعلومات اللغوية الضرورية فى عملية التعلم.

(ب) نمط حديث الأجانب :

فى حالات تعلم اللغة الثانية بشكل حر وغير منظم - كما كانت حالة تعلم اللغة العربية فى الأقاليم المفتوحة فى القرون الأولى من الفتح - يكون المدخل اللغوى المعدل مسألة حيوية ضرورية؛ فإن تعلم اللغة الثانية باستخدام مدخل لغوى غير معدل مسألة غير متاحة فى معظم الحالات (لونج ١٩٨١ ص٢٧١). ومن الممكن لذلك أن نستطرد ونقول: إن تعلم اللغة الثانية فى سياق طبيعى حر لا يمكن أن يتم دون نمط حديث الأجانب. نستطيع أن نعرف نمط حديث الأجانب فى هذا السياق بأنه استراتيجية لتقديم المدخل اللغوى المعدل للمتحدث الأجنبى، ويتمثل فى متوالية من التعديلات اللغوية يطبقها ابن اللغة الهدف على لغته حال حديثه مع شخص أجنبى. الغرض الأساسى من نمط حديث الأجانب هو توصيل رسالة وظيفية من قبل ابن اللغة للمتحدث الأجنبى بغرض وظيفى، وليس بغرض تعليمى. ولذلك فالتعديل اللغوى ليس مسألة تعليمية، ولما كنت قد ادعيت سلفًا أن عملية تعلم العربية فى الأقاليم كانت بشكل حر غير منظم، ولما كنت قد ادعيت أيضا أن غرض التواصل بين العرب وغير العرب فى الأقاليم كان وظيفيا وليس تربويا فإن المدخل اللغوى الذى استخدمه العرب مع غير العرب فى سياقات التواصل المبكرة تلك كان من عينة نمط حديث الأجانب.

ولكن قبل أن ندرس سمات نمط حديث الأجانب واستراتيجياته يجب أن نتوقف قليلا أمام مشكلة نظرية؛ ألا وهى التعامل مع الأنماط اللغوية التى تقدم المدخل اللغوى للتعلم على أنها أنماط ثابتة لا تتغير مستويات تعقيدها اللغوى. فإذا نظرنا بسرعة إلى مجموع الدراسات التى أجريت على المدخل اللغوى عموما فسنتبين منها نوعين أساسيين : النوع الأول الدراسات التى تتعامل مع المدخل اللغوى على أنه نص، والنوع الثانى من الدراسات يتعامل مع المدخل اللغوى على أنه متوالية تواصلية (إليس ١٩٩٦ ص٢٤٦). يتعامل النوع الثانى من الدراسات مع المدخل اللغوى على أنه نص متغير فى سياق محادثة، وهو السياق الطبيعى. أما النوع الأول فيقوم على فكرة أن هناك فرقًا كبيرًا أو صغيرًا بين ما يجب أن يكون المدخل اللغوى عليه من صحة نحوية، أو صرفية، أو صوتية كما فى كتب اللغة وما يتم استخدامه فعلا مع الأجنبى فى وقت المحادثة. يتعلق هذا الفرق بشكل أساسى بسلوك ابن اللغة الهدف فى موقف تواصلى ما فى مقابل لغته كما فى كتبها. لا أحب أن أسهب فى تفاصيل تلك الدراسات هنا(٢٥)، وسأقدم مثلا على المشاكل التى قد يتسبب هذا النوع من الأبحاث فيها. فلما كان هناك فروق بين استخدام ابن اللغة الهدف للغته مع الأجنبى، فكيف نتعرف على نوعية هذا المدخل الذى يتعلمه الشخص الأجنبى، ولما كان المتعلم فى سياق طبيعى ينتقل من مستوى اجتماعى إلى مستوى اجتماعى آخر، ومن جماعة إلى جماعة أخرى داخل سياق اللغة الهدف الاجتماعى فلا بد أن يختلف كل سياق ومستوى من حيث المدخل اللغوى المقدم للمتعلم كمًا وكيفًا. وفى سياق مثل هذا يصعب قياس اللغة الوسط عند المتعلم فى أى مرحلة من المراحل، كما أنه من السهل أن نخطئ فى تقييم تطور عملية التعلم من قياس لغة وسط مستقاة من تنوع كمى وكيفى غير قابل للتحقق. وحتى فى حالة وجود نمط لغوى معيارى مستخدم بشكل عام وكامل فى كل السياقات الاجتماعية والمواقف التواصلية، فإن أبناء اللغة الهدف لا يلتزمون عادة بالنمط المعيارى بحذافيره فى حالة تحادثهم، كما لا يلتزمون به فى حالة محادثة الأجانب طبعًا، فالطبيعى فى

---

(٢٥) انظر ملخصا لتلك الدراسات عند ليتباون ودأنجليان (١٩٨٥) وإليس (١٩٩٦) .

استخدام اللغة لأغراض التواصل أن يكون هناك تعديل لغوى وحياد عن القواعد المتعارف عليها فى الاستخدام.

يحاول النوع الثانى من الدراسات الخاصة بالمدخل اللغوى والتى تتعامل معه على أنه متوالية تواصلية أن تتغلب على تلك الصعوبة النظرية، وهى تفعل ذلك عن طريق فرضية مبدئية تقول: إن ابن اللغة الهدف يستخدم مدخلا لغويا معدلا فى كل محادثة يدخل فيها مع متعلم أجنبى، وتعمم تلك الفكرة على كل المحادثات بغض النظر عن القصد من قبل ابن اللغة الهدف. فالمدخل اللغوى فى هذا النوع من الدراسات متغير اجتماعى لغوى يتحكم السياق فيه. ولكن المشكلة نفسها التى تكلمنا عنها فى حالة الدراسات السابقة تظهر مرة أخرى عندما تحاول تلك الدراسات أن تجد سمات لغوية بعينها وتقدمها على أنها من سمات حديث الأجانب، وسمات أخرى على أنها خارج نطاق حديث الأجانب. فتجد أن دراسات حديث الأجانب عموما تحاول أن تجد قائمة من التراكيب والأصوات لتكون مفردات نمط حديث الأجانب مثل اختفاء صيغة فعلية ما أو تفضيل تركيب على تركيب آخر. ولكن هذه المحاولات يصعب التعامل معها على أنها صحيحة؛ لأن سياق التواصل، والموقف الاجتماعى اللغوى، والنفسى اللغوى، والمستوى اللغوى للمتعلم يختلف فى موقف عن غيره، ويصعب هذا المقارنة بين أى قائمة من السمات وموقف حقيقى يتم فيه استخدام نمط حديث الأجانب. ومن أجل كل ما سبق سأهمل السؤال حول ما إذا كانت سمة لغوية ما من سمات نمط حديث الأجانب من عدمه؛ لأن هذا الحديث غير مفيد على المستوى المقارن.

فى العرض التالى لنتائج الدراسات المتعلقة بحديث الأجانب سأكون مهتما بثلاثة عناصر فقط: العنصر الأول السياق والموقف النفسى اللغوى الذى يحدث فيه استخدام نمط حديث الأجانب، واستراتيجيات نمط حديث الأجانب وسماته الأساسية، والعلاقة بين هذا النوع من المدخل اللغوى وتعلم اللغة الثانية. وسأركز فى العرض على السمات العامة لهذا النمط اللغوى المعدل فى كل اللغات دون لغة بعينها وفى كل المواقف. وبناء على ذلك عندما نقدم سمات حديث الأجانب فى اللغة العربية فى الفصل

التالى سيكون من الممكن أن نقارن بين السياقات العامة، وسياقات اللغة العربية، والنزعات العامة، ونزعات العربية الخاصة، وبالتالى يصبح من الواضح ارتباط نمط حديث الأجانب بالموقف العام الذى قد حدث فى القرنين الأول والثانى من الفتوحات العربية.

وفى ظل غياب أى معلومات مؤكدة عن كنه النمط اللغوى الذى كان مستخدما فى وقت تعريب الأقاليم المختلفة فى سياقات تعلم مختلفة، فإن هذه الطريقة تبدو لى آمنة. سأستخدم هذه الطريقة وأتجاهل تحديد سمات أنماط حديث الأجانب فى لغات العالم كافة؛ بسبب تعقيد الشبكات الاجتماعية وتنقل أبناء اللغة الهدف والمتعلمين على حد سواء رأسيا وأفقيا بين تلك الشبكات والمستويات. أما السمات اللغوية المحددة فهى مسألة نادرا ما تثبت كما وكيفا فى أكثر من سياق؛ ففى لحظة واحدة ومع تثبيت كل الظروف يمكن لابن اللغة أن يستخدم سمة لغوية ما مع متعلم معين، ولكن المتحادثين أنفسهما قد يستخدمان سمة لغوية مختلفة، وقد يستخدم شخصان آخران سمات لغوية مختلفة تماما فى الوقت نفسه. وفيما يتعلق باستراتيجيات نمط حديث الأجانب وخصائصه اللغوية العامة، فهى أفضل قياسا من السمات اللغوية الخاصة؛ لأنها تمكننا من النظر بشكل صحيح مع أنه عام جدا على إمكانيات التعديل اللغوى النظرية والعملية كافة فى حالة التحدث مع شخص أجنبى.

هناك عنصر مهم جدا فى الدراسات التى أجريت على المدخل اللغوى المعدل وهو عنصر الجدل الذى سببته بعض الدراسات التى توصلت إلى غياب أى تعديل لغوى صوتى أو صرفى أو نحوى على لغة ابن اللغة الهدف أثناء مخاطبته لمتعلم أجنبى، لقد اكتشف أرثر وزملاؤه (١٩٨٠ ص١١١-١٢٤) فى معرض مقارنتهم لنمط حديث العاملين بشركات الطيران مع أبناء اللغة الإنجليزية بنمط حديث الموظفين أنفسهم مع أجانب، أن استصدار سمات نمط حديث الأجانب التقليدية والمتعارف عليها سلفا مضطربة وليست متواترة الظهور فى المادة التى جمعوها. علاوة على ذلك فقد تبين فريق البحث أن الفرق فى سرعة كلام الموظفين للأجانب وسرعته لأبناء اللغة ليس فرقا دالا أبدا، ولذلك خلص الباحثون إلى عدم ضرورة أو حتمية استخدام تعديل لغوى أثناء حديث ابن اللغة مع الأجنبى.

ولكن فشل الباحثين فى العثور على سمات لغوية معدلة يمكن رده فى هذه الدراسة لمسائل إجرائية، فالباحثون كانوا يبحثون عن سمات نمط حديث الأجانب كما هى موجودة فى دراسات سابقة كسمات لغوية ثابتة، ولكنها لم تظهر كما توقعوا. علاوة على ذلك، بما أن المحادثات كانت تليفونية بين أبناء اللغة الهدف من الموظفين والمتحدثين الأجانب فمن الممكن أن يكون نمط أداء الأجانب اللغوى على الهاتف ممتازا لأسباب كثيرة فأدرك ابن اللغة عدم جدوى التعديل اللغوى أو ضرورته.

لقد أجرى سميث وزملاؤه (١٩٩٨ ص١٧٥-١٨٥) دراسة للمقارنة بين سرعة حديث أبناء اللغة مع أبناء اللغة نفسها وسرعة حديث أبناء اللغة مع أبناء لغة أخرى، جلب الباحثون ١٨ شخصاً من أبناء اللغة الإنجليزية، ووضعوهم فى مجموعات ثنائية يكون الطرف الثانى فيها إما شخصا أجنبيا أو شخصا من أبناء اللغة الإنجليزية أيضا. وكان الطرف الثانى فى كل المجموعات شخصاً واحداً، لقد كانت ممثلة أمريكية ألمانية مزدوجة اللغة ومزدوجة الثقافة أيضا. وتكلمت تلك الممثلة بثلاث طرائق حديث مختلفة، فقد تكلمت بالإنجليزية السليمة، وبإنجليزية بلكنة أجنبية، وبإنجليزية متعثرة بمشاكل نطق وقواعد. فى حالة استخدامها اللغة ملكونة أظهرت بعض مشاكل القواعد وسوء اختيار المفردات وطلبت المساعدة من ابن اللغة الهدف فى غير مرة. أما فى حالة استخدام الإنجليزية المضعضعة، فقد أظهرت مشاكل نطق وفهم وإنتاج لغوى أكبر. لقد خرجت نتيجة الدراسة والمقارنات مختلطة فى هذه الدراسة كما حدث فى دراسة أرثر وزملائه (١٩٨٠). فعلى الرغم من أن الباحثين سجلوا عمليات تعديل لغوى واضحة فإنهم أيضا سجلوا حالات استخدام معدلات سرعة حديث أكبر مع الأجانب منها مع أبناء اللغة الهدف. وخلص سميث وزملاؤه من هذه النتائج إلى أن الأرقام التى أنتجتها دراستهم كانت معقدة بشكل كبير، وغامضة عليهم.

إن دراسة أرثر (١٩٨٠) وسميث (١٩٩١) تختلفان فى نتائجهما عن باقى الدراسات فى المجال، وتطرحان مشكلة نظرية يجب التعامل معها، ولكن مفتاح حل هذا اللغز يكمن فى التراوح اللغوى الذى هو من سمات أنماط حديث الأجانب عموماً وليس فى لغة محددة.

معظم الدراسات التجريبية تصدر نتائج توحى لنا بأنه بغض النظر عن المشتركين فى محادثة ما، فإن أى شخص يعدل لغته لتتناسب فى تصوره مع مستوى الشخص الأجنبى المشترك فى المحادثة بشكل أو بآخر (جاس ١٩٩٧ ص٦٦). ولكن التعديل اللغوى يتراوح وفقا لمستوى المتحدث الأجنبى من ناحية، وخبرة ابن اللغة المتحدث من ناحية أخرى، وسياق التواصل من ناحية ثالثة. يمكن العثور على دليل واضح على أن ابن اللغة يعدل لغته بمجرد أن يدرك انخفاض مستوى الشخص الأجنبى فى اللغة الهدف فى الدراسة التى قامت بها جاس وفارونيس (١٩٨٥ ص١٤٩-١٦٢). علاوة على ذلك، فقد وجد جايس (١٩٧٩ ص١٨٥-١٩٣) أن مستوى مهارة المتحدث الأجنبى فى اللغة الهدف عنصر تنبؤ ممتاز للتعديلات التى سيقوم بها ابن اللغة الهدف لمدخله اللغوى ولمستوى التعقيد التركيبى الذى سيستخدمه فى المحادثة.

كما أن هناك أدلة تجريبية على أثر خبرة ابن اللغة السابقة ومهارته فى التطوع لتعديل نمطه اللغوى فى دراسة كليفجن (١٩٨٥ ص٥٩-٦٨). وجد الباحث فى هذه الدراسة أن مدرسات روضة الأطفال ماهرات فى استخدام نمط حديث الأجانب، فهن يطوعن استخدامهن اللغوى ليتناسب مع مستوى المتحدث الأجنبى، كما أنهن رفعن مستوى تعقيد لغتهن التركيبى عندما أدركن ارتفاع مستوى المتحدث فى تعلم اللغة الهدف. ويمكننا أن نقول على ذلك إن تعديلات نمط حديث الأجانب التركيبية تعتمد على مسائل لها علاقة بالسياق، وبابن اللغة الهدف، كما أن لها علاقة بالمتعلم ومستواه فى اللغة الهدف، كما أن له علاقة بالمادة اللغوية التى يتم تبادلها. ولكننا يجب أن نلتفت إلى أن نمط حديث الأجانب عندما يبدأ بالنشاط ويعمل، فإنه يعكس سمات عامة فوق لغوية سأتحدث عنها فى الفقرات القليلة التالية.

(ج) غياب الصحة النحوية فى نمط حديث الأجانب :

من أقدم سمات أنماط حديث الأجانب وأكثرها تناولا بالمناقشة والتحليل درجة صحتها النحوية؛ أى درجة قبولها لدى ابن اللغة الهدف العادى على أنها صحيحة من عدمه. لقد وصفت الدراسات المبكرة حديث الأجانب بأنه المدخل اللغوى المعدل وغير الصحيح تركيبيا الذى يقدمه ابن اللغة للمتعلم الأجنبى (فرجسون ١٩٧١ ص١٤١ و ١٤٥ و ١٤٦).

يتجلى غياب الصحة التركيبية فى نمط حديث الأجانب عندما يستخدم ابن اللغة عنصراً تركيبيا ما فى حديثه مع أقرانه من أبناء اللغة الهدف بينما لا يستخدمه فى حديثه مع شخص أجنبى، أو يستخدمه بطريقة لا يستخدمه بها فى حديثه مع ابن اللغة الهدف. من بين الأمثلة الكلاسيكية على غياب الصحة التركيبية غياب فعل الكينونة فى أنماط حديث الأجانب فى اللغات التى تستخدم فعل الكينونة. وكذلك يعتبر غياب اللواحق والسوابق الصرفية من أنماط حديث الأجانب فى اللغات التى تستخدم تلك السوابق واللواحق فى وظيفة نحوية مثلا كلاسيكيا على غياب الصحة التركيبية. نحن لن نتكلم بشكل مسهب هنا عن غياب الصحة النحوية فى أنماط حديث الأجانب، ولكننا سنكتفى بالإشارة إلى ثلاثة أنواع من غياب الصحة التركيبية: أولا هناك الحذف كما هو الحال فى مسألة حذف فعل الكينونة، ثانيا هناك التوسيع حيث يتم إضافة كلمة أو سمة نحوية زائدة بغية التوضيح، أفضل مثل على ذلك إضافة ضمير منفصل قبل فعل مصرف أو بعده فى العربية. النوع الأخير لغياب الصحة التركيبية هى التبديل حيث يتم تغيير موقع سمة تركيبية ما فى الجملة(٢٦) .

على الرغم من أن معظم الدراسات التى أجريت على تعديل تراكيب المدخل اللغوى فى نمط حديث الأجانب تركز على تعديل التواصل والتعديل التركيبى المتسق مع معايير الصحة التركيبية، وتعتبرها مسألة اعتيادية، وتعتبر التعديل التركيبى الذى يخالف معايير الصحة التركيبية غير اعتيادى فإن إليس (١٩٩٦ ص٢٥٤-٢٥٧) وإليس (١٩٨٧ ص١٣٣ و ١٣٤) يقول: إن المدخل اللغوى غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية يظهر فى سياقات كثيرة وفى حالات التواصل بحيث يكون المتحادثان واعيين بالتعديل التركيبى أو غير واعيين به. فتجد أن فيرجسون ودبوس (١٩٧٧ ص٩٩-١٢١) يقولان: إن نمط حديث الأجانب الذى لا يتسق مع معايير الصحة التجريبية يظهر فى مواقف التحقير، كما أن كلين (١٩٨٧) وجد أن رؤساء العمال فى أستراليا استخدموا

---

(٢٦) للحصول على مناقشة تفصيلية بخصوص سمات المدخل اللغوى الذى ينافى معايير الصحة التركيبية انظر فرجسون (١٩٧١ ص١-١٤)، وفرجسون ودبوس (١٩٧٧ ص٩٩-١٢١) وخاصة ص١٠٥-١٠٧).

حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية حين التحدث للعمال من الأجانب[٢٧] ، كما أن بعض الباحثين وجدوا أن حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية يظهر فى سياقات حديث الأصدقاء بشكل غير واع (هاتش وشابيرا وفاجنر جوخ (١٩٧٨ ص٣٩-٦٠)، وكذلك فى حالات إعطاء توجيهات أو وصفة سير مثلا (انظر لارسن فريمان ولونج ١٩٩٢).

علاوة على ذلك، فإن المغايرة مع معايير الصحة التركيبية تحدث على كل مستويات التحليل اللغوى، فيعطينا إليس (١٩٩٦ ص٢٥٣) أمثلة من المستويات الصوتية حيث يقول: إن أضافة صوت لين قصير بين مقطعين أو بين صائتين واستخدام الشكل الكامل لصوت اللين بدلا من شكله المختصر اثنان من أبرز السمات الصوتية فى نمط حديث الأجانب. أما فى المجال المعجمى فقد يتضمن نمط حديث الأجانب استخدام كلمات أجنبية أو كلمات ذات معانٍ مختلفة قليلا[٢٨] .

هناك عنصر آخر من عناصر نمط حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية، هو عنصر الصلة الاجتماعية أو النفسية بين المشتركين فى المناقشة. ولذلك يبدو أن استخدام مدخل لغوى غير متسق مع معايير الصحة التركيبية يبدو مدفوعًا بعامل أو أكثر من العوامل الاجتماعية النفسية. ولكن لونج (١٩٨٣ ص١٢٦-١٤١) يلفت انتباهنا للأهمية الخاصة للعوامل النفسية[٢٩] . وقد أكد ميسل (١٩٨٠ ص١٣-٤١)

---

(٢٧) للحصول على المزيد من المعلومات عن استخدام نمط حديث الأجانب فى سياقات اجتماعية بحيث يصبح دالة سلطوية، انظر تقرير بحث هيدلبرج (١٩٧٨ ص١-٢٢) .

(٢٨) يقدم لنا ميسل (١٩٨٠ ص١٩ و ٢٠) مجموعة كبيرة من الأمثلة على الاستخدام الخاطئ للمفردات الألمانية فى نمط حديث الأجانب .

(٢٩) يقول لونج (١٩٨٣ ص١٢٦-١٤١): إن ابن اللغة يقدم للمتعلم مدخلاً لغويا من نمط حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية فى أربعة حالات: الحالة الأولى عندما يكون مستوى المتعلم فى اللغة الهدف منخفضا، والحالة الثانية عندما يتصور ابن اللغة الهدف أن المتعلم فى مكانة اجتماعية أقل من مكانته هو، والحالة الثالثة عندما تكون خبرة ابن اللغة الهدف منحصرة فى استخدام نمط حديث الأجانب مع المبتدئين من المتعلمين، والحالة الأخيرة عندما يكون موقف التواصل عفويا ولا إراديا .

تصورات لونج هذه عندما قدم لنا تقريرًا عن تصورات العمال الإيطاليين والإسبان فى ألمانيا عندما غضبوا من استخدام أبناء اللغة الألمانية نمط حديث الأجانب معهم؛ لأنهم يتصورون أنه يعكس رؤية الألمان لفارق اجتماعى بينهما. وقد ظهرت النتائج نفسها فى سياق استخدام نمط حديث الأجانب فى الصف (لينش ١٩٨٨ ص١٠٩-١١٦)، عندما تم قياس رد فعل الطلاب تجاه نمط حديث الأجانب عند المدرسين، فقد ثبت أن الطلاب يشعرون أن المدرس يحتقرهم عندما يستخدم نمط حديث الأجانب بشكل غير متسق مع الصحة التركيبية.

ولكن ثبت أيضا أن نمط حديث الأجانب غير المتسق هذا يظهر فى حالات يكون طرفا الحوار فيها صديقين حميمين لهما الدرجة الاجتماعية نفسها والمكانة. ولذلك فمن الممكن أن يكون الدافع الحقيقى وراء استخدام ابن اللغة الهدف لأسماء غير صحيحة أو لأفعال دون تصريف مثلا نابعا من إدراك ابن اللغة الهدف لضعف مستوى المتعلم فى لغته. ولا يبدو أن موضوع المكانة الاجتماعية ذو صلة هنا؛ لأن الأصدقاء قد يستخدمون نمط حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية.

تبين الأبحاث التركيبية (ملخصة فى إليس ١٩٩٦ وجاس ١٩٩٧) أن استخدام نمط حديث الأجانب بشكل يتعارض مع معايير الصحة التركيبية مسألة استثنائية فى حديث أبناء اللغة الهدف مع الأجانب وليس القاعدة فى ذلك؛ لأنه سمة غير اعتيادية علاوة على أنه يحمل رسالة اجتماعية ونفسية خاصة جدا للمتلقى قد توحى له بالفروق الاجتماعية، أو العرقية، أو الاقتصادية بينه وبين ابن اللغة الهدف الذى يحادثه. ومع أن المدخل اللغوى من عيِّنة حديث الأجانب غير المتسق هذا مسألة غير اعتيادية لغويا إلا أنه قد يستخدم لوظيفة أخرى غير توضيح فرق أو الفصل بين المتكلم والمستمع، فمن الممكن أن يستخدم نمط حديث الأجانب فى الصف لتوضيح معانى المفردات أو التراكيب (جاس ١٩٩٧ ص٧٠). لقد اكتشفت جاس ولاكسمان (١٩٩١ ص١٨١-٢٠٢) أن نمط حديث الأجانب غير المتسق قد يستخدم أحيانا دون التأثير النفسى السلبى مع المتعلمين فى مستويات تعلمهم الأولى فى الصف وآخره. تضمنت المادة اللغوية التى استخدمتها تلك الدراسة تحليل مادة من محادثات بين اثنين من أبناء اللغة

الإنجليزية واثنين من الأجانب؛ أحدهما بالغ، بينما كان الثانى طفلا ابن خمس سنوات. وتبين من تحليل المحادثات التى جرت بين الأربعة أن ابنى اللغة الهدف استخدما نمط حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية مع البالغ ومع الطفل فى الوقت نفسه، ولكن ابنى اللغة الهدف استخدما هذا النمط من المدخل اللغوى مع الطفل أكثر إحصائيا مما استخدموه مع البالغ؛ يرجع ذلك لأن المتعلمين الاثنين كانا فى مرحلة مبكرة من التعلم، ولكن البالغ كان أكثر معرفة بالإنجليزية من الطفل.

وعلى ذلك يمكننا أن نقول: إن نمط حديث الأجانب - إن خالف معايير الصحة التركيبية - وارد وله وظائف توصيلية ما، ولكنه مع هذا يبقى غير اعتيادى بسبب الرسائل الاجتماعية التى قد يحملها.

٤ - السلامة التركيبية فى نمط حديث الأجانب :

لقد تبين مما سلف ذكره أن لنمط حديث الأجانب وقعا اجتماعيا ما وأغراضا توصيلية، ولذلك ثبتت أهميته لدى الباحثين. وحاول الباحثون أن يتبينوا ماهية نمط حديث الأجانب سليم التركيب ووظيفته، فقد حاول أرثر، وفينر، وكولفر، ولى، وتوماس (١٩٨٠ ص١١١ و ١١٢) أن يثبتوا أنه بعكس فرضية فيرجسون - (١٩٧١ ص١٤٣) التى تقضى بعدم صحة التعديلات اللغوية فى حديث الأجانب تركيبيا - عندما يحدث تعديل تركيبى فى المدخل اللغوى فى أنماط حديث الأجانب، غالبًا ما يكون هذا التعديل فى حدود المسموح به تركيبيا فى قواعد اللغة الهدف، ولذلك فإنهم يعتقدون أن أنماط حديث الأجانب التى لا تتسق مع معيار الصحة التركيبية غريبة؛ لأنها محدودة.

نجد أن تلك المجموعة من الباحثين تنقل تعريف نمط حديث الأجانب من تعريف فيرجسون (١٩٧١) الذى يجعل النمط غير صحيح تركيبيا فى أحيان كثيرة لاتباع تعريف هنزل (١٩٧٥) الذى يقول بأن نمط حديث الأجانب معدل ولكنه صحيح تركيبيا. وتدعى مجموعة أرثر البحثية (١٩٨٠ ص١١٣) أن الانتقال فى نمط حديث الأجانب ليس فقط من الصحيح لغير الصحيح تركيبيا، أو من الرسمى للعامى، بل قد يكون أيضا

انتقالا من التركيب المعقد للتركيب الأبسط. سنتكلم على التبسيط التركيبي في القسم التالي، ولكنه يكفينا الآن أن نقول: إن نمط حديث الأجانب قد يكون سليمًا تركيبيا وقد يغاير معايير الصحة التركيبية، ولا أتصور أن هذه المقولة متناقضة بأي حال من الأحوال، فأنا أتعامل مع نمط حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية على أنه متغير اجتماعي لغوي يحمل معاني غير لغوية وتعليمية.

٥ - التعديلات التركيبية في حديث الأجانب :

أهم سمة من سمات أنماط حديث الأجانب أنها معدلة تركيبيا لتناسب مستويات الأجانب المشتركين في سياق تواصلي ما. سأقدم فيما يلي أنواع التعديلات التي قد يقوم بها ابن اللغة الهدف على مدخله اللغوي؛ إذ تذكر الدراسات التحليلية ثلاثة أنواع من التعديلات للمدخل الأصلي هي التبسيط والإسهاب والتنظيم. يستخدم ابن اللغة الهدف التبسيط؛ ليسهل من لغته الأم على المتعلم، ويستخدم الإسهاب والتنظيم؛ ليساعد المتعلم على الفهم، وبالتالي توصيل رسالة معنوية وظيفية. ولكن معظم الدراسات وجهت نظرها ناحية التبسيط باعتباره أكثر تلك التعديلات أهمية في اكتساب المتعلم للغة الهدف بشكل حر غير منظم في سياقات طبيعية خارج الصف[٣٠] .

تحدث عمليات التبسيط اللغوي على كل مستويات التحليل اللغوي في اللغة الهدف. من الناحية الصوتية يمكن أن يكون التبسيط من خلال معدلات تحدُّث أبطأ من العادي مثلا، أو نطق الأصوات بشكل كامل، أو القيام بعمليات صوتية أقل في الكلمات أو المقاطع. لقد قامت دراسات كثيرة لقياس سرعة النطق ومعدلات الأصوات، وفي العادية يتم قياس معدلات التكلم بعد المقاطع الموجودة في الثانية الواحدة. أما بالنسبة لقياس معدلات النطق، فإنه يتم بعد معدلات المقاطع بالنسبة للمجموع الكلي للوقت الذي

(٣٠) لتلخيص دراسات نمط حديث الأجانب انظر إليس (١٩٨٧) ولونج (١٩٨٣)، ولتقييم تلك الدراسات انظر أيسنشتين (١٩٨٣) .

استغرقته عملية النطق (انظر إليس ١٩٩٦ ص٢٥٥)[٣١] . على الرغم من أن كثيراً من الباحثين قد قدموا تفسيرات مختلفة للعناصر الزمنية فى المدخل اللغوى المعدل من قبل ابن اللغة الهدف، فإن هناك دراسات تدريبية قليلة جدا أثبتت أيا من تلك التفسيرات النظرية.

من بين تلك الدراسات القليلة دراستان أجراهما هنزل عامى ١٩٧٣ و ١٩٧٩؛ وقد بين هنزل كيفية تعديل ابن اللغة الهدف للمدخل اللغوى الذى ينتجه بطرق مختلفة، فى أوقات مختلفة بحسب المستويات المختلفة للأجنبى المشترك فى المحادثة. اكتشف هنزل (١٩٧٣ ص٢٠٦-٢٢٢) أن أبناء اللغة التشيكية غير المدربين على استخدام أنماط حديث الأجانب كانوا قادرين على تعديل حديثهم صوتيا مع المتعلمين الأجانب. وعلى ذلك يستنبط هنزل أن ابن اللغة الهدف واعٍ بشكل مستمر ودائم بالظروف السياقية والاجتماعية التى يتم فيها التواصل، كما أنهم واعون بالفروق اللغوية بينهم وبين المتعلمين، وبالتالى تتم عملية التبسيط اللغوى. أما الدراسة الثانية لهنزل (١٩٧٩ ص١٥٩-١٦٧) فهى مهتمة بسلوك التبسيط اللغوى عند مدرسى اللغة المحترفين فى الفصول. كانت مجموعة الدراسة مكونة من ١١ مدرساً: خمسة منهم مدرسون للغة التشيكية، وثلاثة للغة الألمانية، وثلاثة للغة الإنجليزية، وكانوا كلهم أبناء للغات التى يدرسونها. وتمت مقارنة تسجيلات حديث المدرسين إلى الطلاب بتسجيلات حديث المدرسين إلى أبناء اللغة نفسها التى يدرسونها. وتبين من المقارنة أنه فى أثناء الحديث للأجانب يستخدم المدرسون معدلات حديث أبطأ فى نطق الكلمات من معدلات الحديث فى حال التحدث مع أبناء اللغة. وكان بطء النطق مصحوباً بنبر أعلى للكلمات وبتحديد أوضح لنهاية الكلمات وبداية الكلمات التى تليها.

وفيما يتعلق بالنطق، فقد اكتشف هنزل (١٩٧٩ ص١٦٤) أن المدرسين يستخدمون الفونيمات الفصيحة والواضحة للغتهم الأم فى الفصول، أما فى خارج الفصول فقد بينت التسجيلات وجود استخدام مختلط للفونيمات الفصيحة وبعض فونيمات اللهجات أيضا.

---

(٣١) للمزيد عن دراسات توقيت نطق ومقاطع المدخل اللغوى المعدل انظر جريفث (١٩٩١ ص٣٤٥-٣٦٤) .

كما أن الدراسة والمقارنة أثبتت وجود معدلات عالية من استخدام أصوات لين كاملة النطق، وتجمعات صوائت غير منقوصة، وعمليات صوتية أقل فى حال الحديث مع المتعلمين من الطلاب أكثر من المستخدمة فى حال الحديث مع أبناء اللغة الهدف. فقد كانت أصوات اللين فى بداية الكلمات فى اللغة الإنجليزية على سبيل المثال مسبوقة بهمزة للتوضيح، وفيما يتعلق بسمات الحديث فقد اكتشف هنزل أن المدرسين يتكلمون مع الطلاب داخل الفصول بصوت أعلى، وبطريقة أبطأ من العادة كما هو متسق مع دراسات أخرى فى مجال أنماط حديث الأجانب. علاوة على ذلك فقد استخدم المدرسون وقفات تتماثل مع حدود الكلمات ووقفات أخرى أطول فى نهايات الجمل أو المركبات أو حتى المنطوقات عمومًا[٣٢] .

كذلك بينت دراسة هنزل (١٩٧٩ ص١٦١ و ١٦٢ و١٩٧٣ ص٢١٠ و ٢١١) لحديث مدرسى التشيكية والألمانية والإنجليزية للأجانب أن هناك أيضا تبسيطا على المستوى المعجمى، من بين الاستراتيجيات التى يستخدمها المدرس مثلا لتبسيط استخدامه للمفردات أن يستخدم كلمات يتوقع أن يكون الطالب قد عرفها أو حتى استخدمها سلفا، وكذلك قد يلجأ إلى الشرح أو استخدام مرادفات أبسط لكلمات يتصورها أعقد. يعتبر التعميم من بين الاستراتيجيات أيضا، حيث يعمم المدرس استخدام كلمة عن طريق توسيع محيطها الدلالى إن كان محيطها ضيقًا أصلاً؛ ليستخدمها فيما ليست مستخدمة له فى اللغة الهدف بشكل اعتيادى. علاوة على ذلك فمعجم نمط حديث الأجانب بسيط عموما، فهو لا يستخدم تعبيرات اصطلاحية خاصة أو كلمات مركبة من كلمات أخرى مثلا. وكما كان الحال فى مجال الأصوات فنجد أن المدرس عادة ما يستخدم المفردات الفصيحة ويتجنب اللهجات أو غير المتفق عليه من المفردات مع الطلاب بشكل أكثر مما يفعله مع غير الطلاب من أبناء اللغة الهدف التى يقوم بتدريسها.

---

(٣٢) توصل هاكتسون (١٩٨٦) إلى نتائج مماثلة فى دراسته لأنماط حديث مدرسى السويدية مع الطلاب داخل فصول تعلم اللغة .

وقد توصلت دراسات أخرى أجريت على أنماط حديث الأجانب عند أشخاص آخرين غير مدرسين إلى النتائج نفسها تقريباً، فقد لاحظ فيرجسون ودوس (١٩٧٧ ص١٠٤) مثلا أن أبناء اللغة الهدف عند الحديث مع الأجانب يتجنبون استخدام السمات اللهجاتية الخاصة أو الجغرافية المحدودة، كما أنهم يستخدمون أشكالا أبسط من الكلمات عند حديثهم مع الأجانب[٣٣] .

أما فيما يتعلق بتبسيط تراكيب اللغة الهدف وقواعدها فقد تبين لهنزل (١٩٧٩ ص١٦٢) أن المشتركين فى دراسته أجروا بعض عمليات التبسيط المركبة جدا للجمل التى استخدموها مع الأجانب. لقد كانت الجمل التى وجهها المدرسون للطلاب الأجانب قصيرة جدا ومركبة بشكل سليم نحويا، ولكنه بسيط وبعيد عن كل أنواع انحراف لهجاتى أو تغيير أسلوبى معمول به فى اللغة الهدف بشكل اعتيادى. وكلما انخفض مستوى المتعلم فى اللغة الهدف قصرت الجملة المستخدمة. وفيما يتعلق باستخدام الجمل الاعتراضية والإضافات العادية فى شكل مفاعيل مثلا أو جمل صلة أو ما شابه ذلك من التراكيب التى تستخدم لوصف الفاعل، أو المفعول، أو حتى الجمل التى تعمل عمل الصفة فقد تبين للباحث أنها تقل فى حال توجيه الخطاب للأجانب عنه فى حال توجيه الخطاب لأبناء اللغة الهدف. يؤكد فرجسون ودبوس (١٩٧٧ ص١٠٤) هذا التبسيط التركيبى عندما وجدا أن الجمل البسيطة والقصيرة هى السمة الغالبة على أنماط حديث الأجانب عموماً، كما وجد الباحثان أن أنماط حديث الأجانب تعكس ميلاً شديداً لدى ابن اللغة الهدف لتقليل الأنساق الصرفية[٣٤] واستخدام مورفيمات معينة بشكل تعميمى. من بين الأمثلة التى قدمها الباحثان على تلك الظاهرة استخدام me لتحل محل mine ، me ، I كلها. وكذلك وجد الباحثان أن نمط حديث الأجانب يستخدم كلمات نحوية:

---

(٣٣) لقد لاحظ فيرجسون (١٩٧٥ ص٤ و ٨) الاستراتيجيات نفسها فى استخدام المفردات فى أنماط حديث الأجانب فى اللغة الإنجليزية .

(٣٤) الأنساق الصرفية مجموعة من المورفيمات تؤدى الغرض نفسه، مجموعة مورفيمات الجمع فى العربية هى الجمع الصرفى نفسه، فلواحق – ين، و – ون، و – ات تشكل نسق الجمع فى العربية .

(حروف جر، أو تصاريف، أو أدوات إضافة تحليلية، أو حروف ناصبة، أو جازمة، أو أدوات نفى) أقل نسبيا من أنماط الحديث الاعتيادية[٣٥] .

على الرغم من أن كل تلك الدراسات تتعامل مع أنماط حديث الأجانب فى اللغة الإنجليزية على وجه التحديد، فإن معظم الدراسات الحديثة فى مجال أنماط حديث الأجانب تنزع لتصور استراتيجيات التبسيط والتعديل اللغوى على أنها مسألة عمومية مشتركة بين جميع اللغات؛ فتجد أن مدرسى اللغة المحترفين كما قدمنا سلفًا فى دراستى هنزل (١٩٧٣ و ١٩٧٩) والإنسان العادى (فرجسون ١٩٧١ و ١٩٧٥ و ١٩٧٧) ينتجون عمليات التبسيط نفسها، كما أن اللغات المختلفة تستخدم استراتيجيات التبسيط التركيبى نفسها. لقد جمعت رومين (١٩٨٨ ص٧٧-٨١) نتائج دراسات التبسيط التركيبى فى أنماط حديث الأجانب فى لغات أوروبية ولغات غير أوروبية؛ لتبين التشابهات الكبيرة بين استراتيجيات التبسيط بينها جميعا، فقد وجدت فى أبحاث فرجسون (١٩٧٥) ومولهوزر (١٩٨٦) وهنزل توماس (١٩٨٢) وفى أبحاثها هى أدلة صريحة على تشابه المدخل اللغوى من نمط حديث الأجانب بين كل اللغات التى درست فيها الظاهرة[٣٦] . يدعم هذا الاتفاق العمومى بين متكلمى لغات شتى على استراتيجيات التبسيط التركيبى المقولة التى تقدم بها كوردر (١٩٧٧ ص١١-١٨) من أن كل الناس برغم اختلاف لغاتهم يملكون استراتيجيات التبسيط التركيبى نفسها فى عقولهم، وهى استراتيجيات لا يتعلمها الإنسان من خبرة استخدام سابقة، بل يولد بها ويتذكرها وقت الحاجة فقط. فمن المقبول نظريا بناء على ذلك على الأقل أن نزعم أن العربية إن استخدمت فى نمط حديث الأجانب ستستخدم الاستراتيجيات العمومية نفسها التى تستخدمها لغات أخرى، بل إن عادل الطويسى (١٩٩٠) توصل إلى نتائج مشابهة

---

(٣٥) للحصول على المزيد من الأمثلة على تبسيط قواعد اللغة الإنجليزية فى نمط حديث الأجانب انظر فيرجسون (١٩٧٥ ص٤ و ٥)، ولتبسيطات اللغة الألمانية انظر القائمة التى قدمها ميسل (١٩٧٧ ص٩٣ و ٩٤)، أما بالنسبة لتبسيطات التراكيب بشكل عام انظر القائمة التى قدمها هاتش (١٩٨٣ ص٦٥-٦٧) .

(٣٦) اكتشف كليمنتس (١٩٩٢ ص٧٥-٩٢) استراتيجيات التبسيط التركيبى نفسها فى هجين برتغالى ثابت اسمه كرولاى يستخدم فى شبه القارة الهندية .

على المستوى الصوتى على الأقل، ولكننا سنناقش نمط حديث الأجانب فى العربية بشكل أكثر استفاضة فى الفصل التالى.

النوع الثانى من التعديل اللغوى هو التنظيم: انظر مثلا التنظيم على المستوى النحوى، حيث يستخدم ابن اللغة الهدف نوعا واحدا من أنواع ترتيب الكلمات لا يتغير، حتى ولو كانت اللغة الهدف فى شكلها الاعتيادى تستخدم أكثر من نوع واحد لترتيب الكلمات. وبالتالى يمكن تجاهل الاختلاف المعنوى والدلالى الذى يؤدى إليه اختلاف نوع ترتيب الكلمات لصالح تنظيم يسهل على المتعلم الفهم. علاوة على ذلك فإن التنظيم قد يعنى تجنب التراكيب، أو التصريفات الشاذة للأسماء أو الأفعال، أو حتى تنظيمهم حسب القاعدة الأصلية. فمن الممكن مثلا أن يصاغ جمع التكسير لصيغة ما فى شكل جمع سالم لتوضيح أن المعنى المقصود من الكلمة مجموع وليس مفرداً.

النوع الثالث من تعديلات المدخل اللغوى هو الإسهاب: يرجع ابن اللغة الهدف إلى استخدام هذا النوع من التعديل اللغوى لكى يطيلوا فترة المنطوق اللغوى الذى يصدرونه باستخدام مركبات أو حروف زائدة غير ضرورية بغية توصيل رسالة معنوية أو وظيفية. كما أن ابن اللغة قد يستخدم شروحا طويلة لكلمة ما؛ لأنه لا يرغب فى استخدام كلمة صعبة ما (تشادرون ١٩٨٣ ص١٣٠). كما أن ابن اللغة الهدف وخاصة المدرس منهم قد يقدم للمتعلم مجموعة من المرادفات فى الجملة نفسها لكى يتأكد من فهم المتلقى لما ينوى قوله. نستطيع أن نلاحظ استخدام تلك الظواهر اللغوية فى فصول اللغة طبعًا، وأيضا فى الفصول العادية التى تضم مجموعة من الطلاب لا يتكلمون لغة التدريس لغة أم. فقد لاحظ تشادرون (١٩٨٣ ص١٢٦-١٤٦) أن المحاضرات الجامعية التى تضم مجموعة من الطلاب الذين لا يتكلمون اللغة الأم تحتوى على بعض ظواهر الإسهاب اللغوى التى لا تحتويها المحاضرات نفسها، والتى يلقيها المحاضرون أنفسهم لمجموعات من الطلاب الذين يتكلمون الإنجليزية باعتبارها لغة أم.

ولكننا فى حقيقة الأمر لا نعرف ما إذا كانت ظواهر الإسهاب اللغوى تحدث خارج الإطار التدريسى عموماً؛ لأن الأبحاث فى هذا المجال قليلة جدا، ولكن الإمكانية

النظرية لهذه الاستراتيجية موجودة؛ لأننا عرفنا نمط حديث الأجانب سلفًا على أنه امتداد من أكثر الأنماط تعديلا إلى أقلها مما يشبه اللغة الهدف تمامًا. وحتى يتم تغيير فى مستوى الأبحاث التجريبية يمكننا أن نقول: إن الإسهاب اللغوى هو إضافة عناصر لغوية لا تضاف عادة لتوصيل رسالة ما فى شكل مدخل لغوى قابل للتعلم. الغرض الأساسى من تلك الظاهرة المناقضة لا التبسيط بالحذف، بل إضافة علامات لغوية بديلة لكى يتأكد ابن اللغة الهدف من قابلية المدخل اللغوى للفهم.

أنتجت الأبحاث التى توجهت إلى الإسهاب اللغوى نتائج متعارضة فى أحوال كثيرة، فبينما يقر كل من أسودوريدس (١٩٨٨ ص٢١٧-٢٣٩) وأسودوريدس وهولشتين (١٩٩٢ ص١٤٨) أن وجود السمات اللغوية الزائدة عن الحاجة التركيبية كإضافة ضمير منفصل مثلا لفعل مصرف فعلا مع الضمير نفسه لا يعيق الفهم ، وبالتالى الحذف لا يعيقه أيضا. نجد أن باحثة مثل جاس (١٩٩٧ ص٧٧) تقول: إن النتائج التى بين يديها تشير إلى أن الزيادة تساعد على الفهم، وعلى ذلك تعتبر استراتيجية الإسهاب اللغوى من عوامل قابلية المدخل اللغوى للفهم. وكذلك قدم لنا باركر وتشادرون (١٩٨٧ ص١٠٧-١٣٣) نتائج أبحاث تجريبية مختلفة تدعم فكرة تسهيل الفهم من خلال المدخل اللغوى المسهب. وجدت الأبحاث التى لخصها الباحثان أن الإسهاب اللغوى تؤدى إلى نتائج إيجابية لدى المتعلم تنعكس فى قدرة أكبر على فك رموز المدخل اللغوى. ظهرت كذلك دراسات أخرى صممت لبحث جدوى الإسهاب اللغوى وسمات أخرى، وقد قدمت تلك الدراسات نتائج مبشرة فى الصدد نفسه، ولما كان يانو ولونج وروس (١٩٩٤ ص١٨٩-٢١٩) على قناعة بأن تبسيط المنطوق اللغوى عن طريق تخفيض جرعة المعلومات فى المنطوق اللغوى يساعد فى الفهم، فقد أجروا دراسة أعطوا فيها مجموعة من الطلاب نصوصًا مبسطة ونصوصا غير مبسطة ونصوصا فيها إسهاب لغوى؛ كانت النصوص البسيطة مكونة من جمل قصيرة وكلمات بسيطة وسهلة، بينما احتوت النصوص المسهبة على شروح وتفسيرات للكلمات الصعبة أو النادرة. وبينت الدراسة أن النصوص المبسطة والمسهبة كانت أسهل فى الفهم على المشتركين فى الدراسة كما هو متوقع، ولكن المثير فى الدراسة أن نتائج النصوص المبسطة كانت قريبة جدا من نتائج النصوص المسهبة، فليس هناك فرق إحصائى لصالح أحد النوعين، ولكن عندما كان مطلوبًا من الطلاب أن

يخمنوا بعض المعانى أو الوظائف التركيبية من النصوص كانت النصوص المسهبة أكثر فائدة للمشتركين من النصوص المبسطة. وتبين نتيجة تلك الدراسات أن كلا من التبسيط والإسهاب مفيدان، ولكن كلٌ بطريقة خاصة.

اكتشف كل من كليفجن (١٩٨٥) وهاكنسون (١٩٨٦) أن التبسيط والتنظيم والإسهاب اللغوى سمات تدريجية ومستمرة فى شكل متواليات، وليست مراحل أو متقابلة وجود وعدم، أى أن ابن اللغة يستخدم كلا منها بطرق مختلفة وبحسب مستويات الشخص الأجنبى المشترك فى المحادثة؛ فقد وجدت دراسة هاكنسون مثلا أن مدرسى السويدية باعتبارها لغة أجنبية يستخدمون مع طلابهم جملا طويلة عادة، ولكن عندما يرتفع مستوى الطلاب يكثر المدرسون من جمل الصلة والجمل الجانبية. وبالطريقة نفسها وجد كليفجن أن مدرسى روضة الأطفال الذين يستخدمون منطوقات مبسطة مع الأطفال الأجانب يزيدون من مستويات تعقيد تلك المنطوقات التركيبية بارتفاع مستوى الأطفال. ووجدت الدراسة أن المدرسين أنفسهم يحتفظون بمستويات بسيطة من التركيب اللغوى مع الأطفال الذين لا يبدون علامات تحسن فى المستوى[٣٧] . ولذلك يجب أن نختم بأن نقول: إن حديث الأجانب معدل لغويا، ولكنه يقابل مستويات الصحة التركيبية.

٦ - خطاب نمط حديث الأجانب :

يمتد البحث فى نمط حديث الأجانب فى طريقين مختلفين: الطريق الأول اللغوى الذى يركز على التعديلات اللغوية التركيبية، والطريق الثانى الأبحاث التواصلية التى لها علاقة بمسألة الخطاب. أسهمت دراسات لونج (١٩٨٠ و١٩٨١) فى دفع المجال الثانى قدما وإعطائه زخمًا كبيرًا؛ لقد توصل لونج إلى نتيجة أن تعديل خطاب ابن اللغة الهدف فى سياق التواصل حتى دون تعديل تراكيب الخطاب اللغوية قد يؤدى إلى خلق مدخل لغوى قابل للفهم، وتوصل جاس وفارونيس (١٩٩٤ ص٢٨٣-٣٠٢) إلى نتائج مشابهة، عندما قالا: إن المدخل اللغوى المعدل تركيبيا وخطابيا فى الوقت نفسه يؤدى حتما إلى فهم

---

(٣٧) للمزيد من النتائج عن تبسيطات أنماط حديث الأجانب انظر إليس (١٩٩٦) .

المدخل اللغوى وبالتالى إلى التعليم. ولكن على مستويات التحليل اللغوى يصبح المدخل ذو الخطاب المعدل أكثر فائدة. وتنقسم دراسات المدخل اللغوى عن خطاب نمط حديث الأجانب إلى قسمين: القسم الأول له علاقة بتسيير الخطاب؛ أى طريقة ابن اللغة الهدف فى التأكد من توصيل الرسالة المعنوية أو الوظيفية للمستمع الأجنبى، والقسم الثانى دراسات إصلاح الخطاب؛ أى طريقة ابن اللغة الهدف فى تعديل خطابه إن حدثت عملية سوء فهم أو خطأ فى الفهم (إليس ١٩٩٦ ص٢٥٧).

وجد الباحثون أن الاستراتيجيات التى يستخدمها ابن اللغة الهدف فى الحديث مع الأجنبى لا تختلف كيفا عن تلك التى يستخدمها مع غيره من أبناء اللغة الهدف، بل إن كثافة استخدام تلك الاستراتيجيات هو الذى يفصل بين نمط خطاب الأجانب ونمط خطاب أبناء اللغة الهدف (إليس ١٩٨٧ ص١٣٣). علاوة على ذلك فقد كشفت الدراسات عن أن استخدام استراتيجيات خطاب الأجانب لا يؤثر على السمات التركيبية، ولا على الإنتاج اللغوى بين الطرفين فى العملية التواصلية، وتلك النقطة هى التى تجعلنا لا ننتبه كثيراً إلى تعديل خطاب حديث الأجانب؛ لأن تأثيرها التركيبى محدود؛ ولذلك لن أسهب هنا فى تفصيل دراسات تعديل الخطاب فى أنماط حديث الأجانب، ولكن هناك حقيقة مثيرة وهى أنه مادام يقع تقديم المدخل اللغوى القابل للفهم فى خطاب تواصلى يتحكم فيه ابن اللغة الهدف بشكل أساسى، ومادام نمط حديث الأجانب المستخدم فى هذا التواصل عادة ما يكون مقبولاً من نواحى معايير الصحة التركيبية، فمن الممكن أن يكون لابن اللغة الهدف نظرة خاصة تجاه الأخطاء التى ينتجها المتعلم الأجنبى فى المحادثة محل التعلم؛ أى أن ابن اللغة يستطيع أن يصحح بعض الأخطاء التى ينتجها المتعلم فى الحديث ويستطيع أيضا أن يترك بعضها. إن كان رد فعل ابن اللغة الهدف للأخطاء عاليًا بغض النظر عن اللغة كما هو الحال فى التعديل التركيبى فإن هذا قد يفسر الاختلاف فى الإنتاج اللغوى بين أبناء اللغة الهدف والمتعلمين كجماعتين[٣٨] .

---

(٣٨) ربما يمكن تفسير الاختلافات بين أنماط العربية القديمة وأنماط العربية الجديدة الحضرية ولو جزئيا من خلال اختيار أبناء العربية لتصويب بعض الأخطاء فى مقابل إهمالهم لتصويب بعضها الآخر. وربما يكون هذا صحيحاً بصورة خاصة فى الحالات التى تكون الأخطاء فيها قد وقعت فى سمات كانت فى حالة تطور قبل الفتح العربى فعلاً .

أجرى تشن، وداى، وتشنوت، ولوبسكو (١٩٨٢ ص٥٣٧-٥٤٦) دراسة لتبين ما إذا كان ابن اللغة الهدف يصحح الأخطاء اللغوية التى يرتكبها المتحدث الأجنبى فى سياق محادثة ما، وإن كان يفعل هذا فعلا فمتى؟. سجلت الدراسة نوعين من المحادثات بين أبناء اللغة الهدف والأجانب فى هاواى: النوع الأول محادثة حرة بين شخصين، والنوع الثانى تسجيل لأحداث لعبة كلامية. ولما كان النوع الثانى من المحادثة يحتوى على توضيحات وإرشادات فيمكننا أن نعتبره سياقًا نصف تعليمى. استطاع الباحثون استصدار الأنواع التالية من الأخطاء اللغوية التى تم رصدها من نحو ١٥ ساعة تسجيل صوتى : أخطاء حقائق، وأخطاء فى الخطاب، وأخطاء فى اختيار الكلمات المناسبة، وأخطاء فى القواعد، وأخطاء حذف. علاوة على ذلك تم تسجيل أخطاء نطق ولكن الباحثين تجاهلوها تمامًا. وفى النهاية تم عد ١١٣٤ خطأ لغويا فى حديث الأجانب المشاركين فى المحادثات، وصحح أبناء اللغة الهدف ١٨٩ فقط منها، وكانت النسبة المئوية للتصويب ٨,٩٪.

وجد الباحثون كذلك أن نسب توزيع التصويبات على أنواع الأخطاء غير متساوية، فكانت أعلى نسبة أخطاء تم تصويبها هى أخطاء الحقائق، وكانت نسبتها ٨٩,٥٪ من المجموع الكلى للأخطاء، وتلتها تصويبات أخطاء الخطاب حيث بلغت ٣٥٪ من الأخطاء فى هذا المجال، وتلتهما فى نهاية الأمر تصويب أخطاء اختيار الكلمات بنسبة ١٥٪ من مجموع الأخطاء. أما نسبة تصويبات أخطاء التراكيب والقواعد فبلغت ٧٪ من مجموع الأخطاء التركيبية، وكانت نسبة تصويب أخطاء الحذف ١,٥٪ فقط. وفسر الباحثون انخفاض نسبة التصويبات برغبة المشتركين فى المحادثة بإبقائها سارية وبالتوصيل الوظيفى أكثر من الصحة اللغوية، فلو ارتفعت نسبة التصويبات عن الأرقام التى سقتها سلفا؛ لتعطلت المحادثة. ولذلك فليس من الغريب أن تكون أعلى نسبة لتصويب الأخطاء هى نسبة أخطاء الحقائق وأخطاء الخطاب. ويمكن أيضا تفسير فروق النسبة الكبيرة فى أخطاء الحقائق والأخطاء اللغوية البحتة من خلال تصور أن يكون اهتمام المشتركين فى المحادثة اهتمامًا بمحتواها دون الاهتمام بالصحة التركيبية كما قلنا سلفا. ولذلك فنسبة تصويب أخطاء القواعد وأخطاء الحذف لا تزيد على ٩,٥٪ من مجموع الأخطاء،

وهى ظاهرة متسقة مع أنماط حديث الأجانب فى السياقات الحرة غير المنظمة حيث يكون الاهتمام بتعليم اللغة وتعلمها ثانويا.

ولقد انعكس اهتمام المتحدث الأجنبى بالمحتوى المعنوى للمحادثة أكثر من اهتمامه بالعناصر اللغوية التركيبية فى عدد المرات التى طلب فيها المساعدة من ابن اللغة المشترك معه فى المحادثة. لقد سجل الباحثون طلبات مساعدة قام بها الأجانب فى مجال المفردات فقط، ولم ترد فى أثناء ١٥ ساعة من التسجيل الصوتى للمحادثات أى طلبات مساعدة فى التراكيب أو القواعد. لقد جمع الباحثون السكتات وطلبات المساعدة فى المفردات وتبين أنها ٩٠ مرة، وجمعوها مع أخطاء المفردات التى تم تصويبها بنسبة بلغت نحو ١٥٪ كما أشرنا سلفا، ليكون التعامل مع سياق المفردات تصويبا ومساعدة يصل إلى نسبة نحو ٢٥٪. مرة أخرى هذا ليس غريبا لأن المفردات لها صلة وثيقة بالمحتوى الذى يتم تبادله فى المحادثة.

وعلى صعيد آخر تلقى الأجانب الذين كان مستواهم فى اللغة الهدف عاليًا تصويبات على أخطائهم أقل من تلك التى تلقاها مبتدءون. كانت نسبة تصويب أخطاء المبتدئين ١٣,٤٪ ، بينما كانت نسبة تصويب أخطاء المتقدمين ٣٪ فقط من مجموع أخطائهم.

النتائج التى قدمناها توا لتلك الدراسة تعكس اهتمام المتحاورين فى سياق طبيعى غير منظم بتصويب أخطاء المحتوى ليس غير، علاوة على ذلك فقد بين شيجلوف ومعاونوه (١٩٧٧ ص٣٦١-٣٨٢)، وجاسكيل (١٩٨٠ ص١٢٥-١٣٧) أن هناك نزعة فى المحادثات بين أبناء اللغة الهدف والأجانب لأن يصلح المتحدث أخطاءه اللغوية أكثر من أن يتلقى أخطاء من ابن اللغة الهدف فيصلها هو بشكل واعٍ. ولكن هذا لا يعنى أن تصويبات الآخرين ليست مستخدمة فى المحادثة، بل إنه من العادى أن يتكشف الشخص الأجنبى موضع الخطأ وبعد لحظة صمت يضمن التصويب فى منتج لغوى. وهذا يعنى أن ابن اللغة الهدف لا يقاطع المتعلم الأجنبى فى المحادثة إلا عندما يعجز الأخير عن صياغة المنطوق بشكل سليم. إضافة إلى ذلك فعندما يقدم ابن اللغة الهدف

تصويبا لغويا فإنه لا يقدمه على أنه أمر واجب الاستخدام كما قدمه، بل يقدمه على أنه اقتراح يتولى المتكلم الأجنبى تقييمه؛ أى أن ابن اللغة الهدف يرى فى الاقتراح الذى قدمه وسيلة تكميل الرسالة التى يرغب المتكلم الأجنبى فى صياغتها باللغة الهدف.

وعلى الرغم من أن الدراسة التى أجراها جاسكيل (١٩٨٠) قامت على مشترك واحد، وبالتالى لا يمكن تعميم نتائجها، وعلى الرغم من أن دراسة شن وزملائه (١٩٨٢) تعتبر مصطنعة إلى حد ما، فقد كان المشتركون فى الدراسة يعرفون أنهم خاضعون للتسجيل وأيضا تم توجيههم إلا أن التشابه بين نتيجتى الدراسة يعكس حقيقة أن التبادل والمحادثات التواصلية مهمة فى تقديم المدخل اللغوى فى سياقات التعلم الحر، ومع ذلك فقليلا ما يهتم ابن اللغة الهدف بتصويب أخطاء المتعلم اللغوية؛ ذلك ببساطة بسبب الاهتمام بالتبادل والتواصل على حساب التعليم والتعلم، ويعنى كل هذا أن ما يستطيع المتعلم فك رموزه من مدخل لغوى وتحليله وإعادة إنتاجه لا يتم تصويبه بشكل مباشر عادة من خلال ابن اللغة الهدف، بل إن ما تم تصويبه يتم من خلال مبادرة يقوم المتعلم نفسه بها بعد أن يكون قد أدرك الفوارق التركيبية بين منتجه هو والمدخل اللغوى الذى يقدمه ابن اللغة الهدف.

على الرغم من وجود نزعة لدى المتعلم لتصويب نفسه فقد تبين داى ومعاونوه (١٩٨٤ ص١٩-٤٥) أن ابن اللغة الهدف فى بعض الأحيان قد يصوب أخطاء المتعلم فى سياقات التعلم الحرة غير المنظمة، وعادة ما يحدث هذا عندما تكون المسافة الاجتماعية بين المتعلم وابن اللغة الهدف صغيرة نسبيا. لقد أجرى داى ومعاونوه دراسة لتبيان أنواع التصويبات التى يقوم بها ابن اللغة الهدف، وتبين لهم من تحليل تسجيلات أن ابن اللغة الهدف يقوم بنوعين من التصويبات: النوع الأول هو النوع الصحيح وهو عبارة عن تصويب مباشر لخطأ لغوى ما، أما النوع الثانى فهو التصويب الخفى وهو فى شكل اقتراحات. لقد كان المشتركون فى الدراسة أشخاصاً يتعلمون الإنجليزية من مستويات مهارة متباينة، أما المادة اللغوية التى تم تحليلها فقد كانت محادثات حرة. وعلى الرغم من أن الأخطاء التى تم تصويبها كانت قليلة جدا بالنسبة للأخطاء المرتكبة فقد كانت ١١٦ خطأ من أصل ١٥٥٩ بواقع ٧,٥٪ فإن التصويبات الصريحة كانت أكثر من التصويبات الخفية فى شكل اقتراحات.

لقد تبينت هذه الدراسة أيضا كما تبينت دراسة شن ومعاونيه (١٩٨٢) أن تصويبات أكثر راحت لتصويبات المتعلمين فى المستويات المنخفضة من اللغة الهدف، بينما راحت تصويبات أقل للمتعلمين ذوى المستويات العالية. وادعى الباحثون كذلك أن الفرق الاجتماعى أو مستوى المعرفة بين المتعلم وابن اللغة الهدف عامل مهم فى نوع الأخطاء وكمية تواردها. فكلما كان المتعلم على صلة أوثق بابن اللغة الهدف المشترك معه فى المحادثة كانت نسبة التصويبات الصريحة أعلى، والعكس صحيح. علاوة على ذلك فحتى لو كان المشتركان فى المحادثة مهتمين بشكل أساسى بالوظيفة المعنوية التوصيلية التى تقوم بها تلك المحداثة دون الوظيفية التعليمية فإن ابن اللغة الهدف قد يصوب أخطاء المتعلم صاحب المستوى المنخفض فى اللغة الهدف بشكل صريح إن كان الخطأ اللغوى الذى ارتكبه قد يؤثر فى سير التواصل، أو يسبب سوء فهم بين المتحادثين.

إنه لمن المؤسف أن تكون الدراسات التى أجريت على التصويبات اللغوية فى محادثات ابن اللغة الهدف مع المتعلم قليلة نسبيا، ولكن إن حصرنا أنفسنا فى النتائج المحدودة التى بين أيدينا فإنه من الممكن أن نقول: إن القليل جدا من الأخطاء اللغوية هى التى يتم تصويبها من قبل ابن اللغة الهدف، وكذلك ما تكون التصويبات قائمة على منظور ابن اللغة الهدف لمستوى المتعلم من ناحية، وعلى مدى التقارب الاجتماعى بينهما من ناحية أخرى.

هناك سؤال فى هذا الصدد له عندنا أهمية خاصة، وهو ما إذا كانت التصويبات اللغوية التى يقدمها ابن اللغة الهدف فارقا فى الإنتاج اللغوى للمتعلم؟ والإجابة هى نعم (كارول وسوين ١٩٩٢ ص١٧٣-١٩٨). أجرى الباحثان دراسة ليتبينا ما إذا كانت التصويبات اللغوية تفيد المتعلم البالغ فى أن يصدر تعميمات عقلية على النظام الصرفى فى اللغة الهدف وتحديد أخرى وتأثيراتها فى مستويات تعلم اللغة الهدف إن وجد لها تأثيرات. وكان الغرض الأساسى من الدراسة اختبار فائدة التصويبات فى مساعدة المتعلم لكى يصدر تعميمات صرفية صحيحة فى اللغة الهدف. واشترك فى الدراسة ٧٩ شخصاً بالغاً من أبناء اللغة الإنجليزية الذين يتعلمون الفرنسية.

وكان مستوى ٣٩ شخصًا منهم متوسطًا فى اللغة الهدف، بينما كان الباقون من الطلاب المتقدمين. وقسم الباحثان المشتركان إلى مجموعتين: مجموعة اختبار ومجموعة للمقارنة، وتم تدريب المجموعتين على لاحقتين فقط من لواحق اللغة الفرنسية. تلقى أفراد مجموعة الاختبار تصويبا على إجاباتهم الخاطئة فى جلسة تصويبات خاصة، وبعد ذلك قام الباحثان باختبار الفريقين فى اختبار تخمين فى عناصر صرفية ولواحق لم يسبق لهما التدرب عليها سلفا، وكذلك تم اختبارهم فى اللواحق التى تدربوا عليها فى الجلسة الأولى وتم تصويبهم عليها، أما مجموعة المقارنة فقد سارت على الطريقة نفسها باستثناء جلسة التصويبات.

وكان تحليل نتيجة التدريب الثانى على السمات التى كانت مجموعة الاختبار قد تدربت عليها ورأت لها تصويبات قد أوضح تقدم تلك المجموعة على مجموعة المقارنة. ولكن المقارنة بين المجموعتين فى مهمة التخمين الثانية لم يوضح وجود أى فروق إحصائية تذكر. واستنتج الباحثان من تلك التحليلات أن التصويب قد يساعد المتعلم على إنتاج اللغة الهدف بشكل أفضل، ولكنه غير قادر على مساعدة المتعلم فى إصدار تعميمات لغوية خاصة بقواعد ما، يؤكد هذا غياب الفرق الإحصائى بين المجموعتين فى مهمة التخمين، كما أن نتائج الدراسة أظهرت فائدة جيدة للتصويب فى مجال حفظ الكلمات وخاصة فى المستويات العليا عن المستويات الأقل. واختتم كارول وسوين (١٩٩٢) دراستهما بالقول إنها تدعم فرضية عدم قدرة التصويبات على تغيير نظام القواعد الداخلى عند المتعلم، ولكنها قادرة على معاونة المتعلم فى اكتساب سمات لغوية جديدة فى اللغة الهدف كالمفرجات.

يمكن بناء على كل ما سبق أن نستخلص نتيجتين مهمتين: النتيجة الأولى أن تصويب الأخطاء له أثر موضعى؛ أى له أثر فى حالة إعادة المتعلم إنتاج السمة اللغوية التى تم تصويبها، وقد ينتجها المتعلم بشكل سليم أو أكثر صحة على الأقل. ولكن الفائدة لا يمكن تعميمها على السمات اللغوية المتشابهة أو القريبة والتى لم يتم تصويبها بشكل أساسى. النتيجة الثانية أن كل الدراسات المتاحة فى موضوع تصويب الأخطاء

تقول: إن التصويب مفيد فى المفردات، وليس هذا غريبًا على الإطلاق؛ لأن السبب الوحيد الذى يجمع ابن اللغة الهدف بمتعلم أجنبى فى سياق طبيعى حر غير منظم هو غرض وظيفى توصيلى. يساعد اكتساب المفردات فى سياق تعلم حر غير منظم المتعلم الأجنبى أن يتعلم اللغة الهدف ويتطور فيها بشكل كبير عن طريق توسيع دائرة التواصل. فعندما يتعلم المتعلم الأجنبى مفردات أكثر، فمن المتوقع أن يستطيع التحدث فى مجالات أكثر باستخدام اللغة الهدف، وبالتالى يستطيع استعمال قدراته العقلية وخبراته السابقة والمدخل اللغوى القابل للفهم الذى يقدمه ابن اللغة الهدف فى تعلم سمات لغوية أخرى غير المفردات.

ولكن السؤال هنا هو ما مدلولات الدراسات التى قدمناها سلفا على حالة تعلم العربية بشكل غير منظم وحر فى الأمصار العربية بعد الفتح؟. من الممكن أن نتصور أن المتعلمين غير العرب فى هذا السياق تعرضوا لمدخل لغوى عربى مبسط ومعدل لغويا، ليكون مدخلاً قابلاً للفهم أعده لهم أبناء العربية فى سياقات التواصل الوظيفية. كما أثبتت الدراسات أنه لا يتم تعلم المدخل اللغوى كما هو، بل يعدله المتعلم بطريقة أو بأخرى. ولكن عندما استخدم الأجانب المادة التى تعلموها فى شكل منتج لغوى مغاير نسبيا للمدخل الذى تعلموه، فلم يكن العرب ليصوبوا الانحرافات اللغوية التى أنتجها المتعلمون؛ لأن ابن اللغة الهدف لا يصوب الأخطاء اللغوية بقدر تصويبه أخطاء الحقائق والمحتوى. ولكن إن تم تصويب أى أخطاء لغوية فإن التصويبات تنصب أساسًا على المفردات لأهميتها فى التواصل المعنوى الوظيفى. ولما كانت السمات اللغوية التى ينتجها غير العرب تؤدى الوظيفة التواصلية المرجوة، ولما لم يجد عليها تصويبًا من أبناء العربية؛ فقد تثبتت كسمات أساسية فى اللغة الهدف.

ولما كان تصويب الذات مقدمًا على تصويبات أبناء اللغة الهدف فى سياقات التواصل كما بين شيجلوف (١٩٧٧ ص٣٦١-٣٨٢)، وجاسكيل (١٩٨٠ ص١٢٥-١٣٧)؛ فيجب أن يكون الأجانب قد تعلموا الأشكال الصحيحة للسمات العربية فى مرحلة لاحقة عندما مكنتهم قدراتهم اللغوية من ملاحظة استخدام أبناء العربية لسماتهم

اللغوية بعضهم مع البعض الآخر. وعندما كان الأجانب يلاحظون الفروق بين السمات اللغوية التى يستخدمونها، وتلك التى يستخدمها أبناء العربية بعضهم مع البعض لأداء الوظائف اللغوية نفسها فقد تبنوا سمات أبناء اللغة الهدف باعتبارها الأرقى.

إن كانت استراتيجيات حديث الأجانب عمومية بين كل اللغات نوعا ما، وإن كانت الأخطاء اللغوية لا يتم تصويبها بقدر كامل أو حتى جزئى، فإننى أفترض أن أى فروق بين أنماط العربية المحكية التى كان العرب فى القرن الأول الهجرى يستخدمونها فيما بينهم وبين أنماط العربية الوسيطة التى كان غير العرب يستخدمونها فى الأصوات والصرف والتراكيب أكثر من المعجم، فإننا يمكن أن نبرر المسألة بعاملين اثنين: العامل الأول – مدخل حديث الأجانب الذى قدمه العرب لغير العرب فى سياقات التواصل. والعامل الثانى – طريقة تعامل العرب والأجانب مع تصويب الأخطاء اللغوية التى أنتجها الأجانب فى تعاملهم مع العرب.

سنبين فى القسم الباقى من هذا الفصل أن مدخل حديث الأجانب اللغوى هو المسئولية الوحيدة على عاتق ابن اللغة الهدف، كما أن تعلم هذا المدخل بشكل غير أمين هو دور المتعلم الأجنبى الذى يتوجب عليه أيضا فى مرحلة لاحقة أن يصوب أخطاءه عن طريق ملاحظة المدخل غير المباشر عن طريق محادثات أبناء اللغة الهدف. وعلى ذلك، فإن لنا أن نتعرف على المدخل اللغوى الذى يتعلمه شعب بأكمله فى حالة تحول لغوى عن طريق تعلم لغة ثانية فى سياق حر وغير منظم أنه إيجاد سمات نمط حديث الأجانب الذى يفترض أن يكون قد استخدم فى مرحلة التعلم المبكرة. سأقدم فى القسم التالى بشكل أكثر تفصيلا العلاقة بين أنماط حديث الأجانب وأنماط اللغة الوسط. وأنظر كذلك نيرو (١٩٨٣ ص١٠٩-١١٢).

٥ - حديث الأجانب كمدخل لغوى للتهجين :

فى المراحل المبكرة من تكوين أى هجين لغوى عندما تكون لغة التواصل الجديدة مفهومة نوعًا ما عند أبناء لغة المصدر المعجمى فليس هناك فروق كبيرة بين اللغتين فى مستويات التحليل اللغوى الأعلى على الأقل (توماسون وكوفمان ١٩٨٨ ص١٦٨-١٧١)[٣٩] .

سأناقش فى هذا القسم التشابهات التركيبية بين أنماط حديث الأجانب التى يقدمها أبناء اللغة الهدف للمتعلمين والأنماط المبسطة من تلك اللغة التى ينتجها المتعلمون فى شكل لغة وسط أو تهجين لغوى. تشير تلك التشابهات التركيبية فى رأيى إلى أن أنماط حديث الأجانب هى التى مكنت الأنماط المبسطة من التكون فى الأساس. أفترض هنا أن السمات المعجمية والتركيبية والصرفية الموجودة فى لغة المصدر المعجمى غير متاحة للأجانب دون تدخل ابن لغة المصدر المعجمى فى شكل تبسيطات لغوية. ولما كنت قد افترضت فى الفصلين الثانى والثالث أن العربية فى القرنين الأول والثانى بعد الفتح قد أنتجت أنماطًا مبسطة لتكون لغات تواصل فى الحواضر العربية الجديدة، فإن إثبات تشابهات تركيبية بين أنماط حديث الأجانب والهجن اللغوية سيدعم نظريتى تلك.

(أ) حديث الأجانب كضرورة لقيام تهجين لغوى :

على الرغم من أن الباحثين فى مجال التهجين اللغوى لا يتفقون بخصوص تعريف التهجين الذى هو فى الحقيقة مصطلح سيئ (تود ١٩٩٠ ص١) فمن الممكن أن نقول: إن الهجين اللغوى نمط لغوى يظهر بغرض التواصل العاجل، أى أنه حل لمشكلة آنية

---

(٣٩) تقول توماسون وكوفمان (١٩٨٨ ص١٧٥): إن مراحل تكوين الهجين اللغوى المبكرة تشهد تبسيط لغة المصدر المعجمى من قبل أبنائها أنفسهم، ومن قبل الأطراف الأخرى المشتركة فى سياقات التواصل. ولكن عندما تتحول لغة المصدر المعجمى إلى لغة ثانية ويصبح الأجانب فى حالة تعلم لغة ثانية فإن التبسيط اللغوى يتم من جانب واحد وهو جانب أبناء اللغة الهدف الذين يبسطون المدخل اللغوى، بينما يحاول الأجانب تعلمه كما هو .

(سيبا ١٩٩٧ ص١٧). بما أن الهجين اللغوى يظهر فيما بين مجموعة بشرية من البالغين الذين يملكون لغاتهم الأصلية التى يتكلمون بها مع زملائهم من أبنائها، فإن الهجين له وظيفة محدودة هى العمل وسيطا بين شخصين ليس بينهما لغة تواصل فى سياق محدد ومعين. وهذا هو السبب فى أن الهجن اللغوية فى مراحلها المبكرة تعتبر أنماطًا محدودة للغاية فى الاستخدام اللغوى (أندرسون ١٩٨٣ ص٣). إن كانت الظروف الاجتماعية اللغوية مناسبة لتطور الهجين اللغوى فإنه يتطور ليتعامل مع سياقات تواصل أكثر ويحل مشكلات أكبر، وبذلك تحدث عمليات توسع لهذا النمط وعمليات استقرار لمستوياته التركيبية اللغوية المختلفة[٤٠] . الهجين اللغوى فى هذا السياق ليس فريدا، فكل لغات العالم الطبيعية تعتمد على ضرورة التواصل والحاجة إليه من ناحية، وعلى وجود المثل اللغوى الذى يحتذى من ناحية أخرى (مولهاوزر ١٩٨٦ ص٥١). يحدد هذان العاملان البساطة النسبية للنمط اللغوى محل البحث وإمكانيات تطوره، العامل الثانى فى حقيقة الأمر مبنى على العامل الأول؛ فإن أحس المشتركون فى سياق تواصلى ما أنهم يرغبون فى التواصل بشدة، فيجب عليهم أن يتوصلوا للغة تواصل مشتركة تؤدى وظائف التواصل المرجوة من ناحية، وتكون سهلة الفهم على الأطراف كافة من ناحية أخرى. على ذلك فقد أشار كثير من الباحثين إلى أن نمط حديث الأجانب هو هذا النموذج اللغوى سهل التداول فى المراحل المبكرة من تكوين الهجين اللغوى على الأقل. بل إنه فى بعض الأحيان كان الأوروبيون من فرط حاجتهم للتواصل مع شعوب أخرى يبسطون لغاتهم بشكل عمدى لدرجة كبيرة ليمكنوا بعض الأجانب من تعلم اللغة؛ لكى يقوموا بدور الوسيط المترجم بينهم وبين الشعوب الأخرى. يدعى نيرو (١٩٧٨ ص٣١٤-٣٤٥) أن البرتغاليين بسطوا لغتهم فى القرن السادس عشر بشكل كبير؛ لكى يساعدوا بعض سكان غرب إفريقيا على تعلم اللغة البرتغالية للعمل فى المحطات الساحلية وسطاء ومترجمين فى المسائل التجارية[٤١] . سجل موج الظاهرة اللغوية نفسها فى حالة اللغة الفيجية (١٩٧٨ ص٦٨-٩٨).

(٤٠) انظر توماسون وكوفمان (١٩٨٨ ص١٦٩ و ١٧٠) .

(٤١) لنقد فرضية نيرو انظر توماسون وكوفمان (١٩٨٨ ص١٥٨) .

يقترح كثير من الباحثين أن نمط حديث الأجانب عامل حاسم فى كينونة تهجين لغوى واستمراره كعملية تعلم لغة ثانية. يرجع أساس تلك الفرضية إلى أن هناك عدداً كبيراً من الهجن اللغوية التى ليس لها علاقة تاريخية بعضها مع البعض والتى تنتمى لمصادر معجمية مختلفة طيبولوجيا تتشابه فى امتلاك سمات لغوية أساسية فى أنماط حديث الأجانب. أنا شخصيا أوافق على أن أنماط حديث الأجانب مهم جدا فى مسألة تكوين أى عملية تهجين لغوى، ولكننى فى حقيقة الأمر غير مقتنع بوجود أى علاقة شرطية بين أنماط حديث الأجانب والهجن اللغوية على أساس التشابه بين خصائص عمومية عالمية فى الهجن اللغوية وسمات أنماط حديث الأجانب. لقد مرت الهجن اللغوية الحديثة والهجن الثابتة من أمثال الهجين الصينى الإنجليزى، والبرتغالى الإنجليزى، والإفريقى العربى بمراحل تطور لغوى كثيرة ومعقدة تميزها عمليات إعادة تركيب وتوسيع معقدة جدا، وعلى ذلك فمن الصعب جدا أن نحدد ما إذا كانت سمة لغوية ما فى أى هجين لغوى قد ظهرت نتيجة مباشرة لنمط حديث الأجانب المستخدم فى عمليات التعلم الأولى أو نتيجة لعملية من عمليات إعادة التركيب أو النقل أو تطور اللغة الوسط. وبناء على هذا أعتقد أن تصور مولهاوزر المتحفظ فى محله إذ قال (١٩٨٦ ص١٠٦): إن نمط حديث الأجانب عنصر مهم فى بدايات تكوين التهجين اللغوى دون غيرها من المراحل، وإنه يقوم فقط بدور المحرك الأول للمدخل اللغوى القابل للفهم.

لقد أدرك الباحثون منذ بداية القرن العشرين الدور المهم الذى تقوم به أنماط حديث الأجانب فى تكوين الهجن اللغوية ولو بطريقة غامضة، على الرغم من أن الباحثين فى تلك المرحلة لم يتوصلوا بعد إلى تعريف عملى فاعل لأنماط حديث الأجانب. ففى ١٩٠٩ و١٩١٤ عزى شوتشارد التبسيط الهائل للهجن اللغوية بعمليات التبسيط المتعمدة التى يقوم بها ابن اللغة الهدف فى حالات تواصله مع العبيد فى المستعمرات (رومين ١٩٨٨ ص٧٢). ويدعى شوتشارد أن الشخص الغربى فى مثل هذا السياق التواصلى يحاول أن يجرد لغته الأم من كل السمات الغريبة؛ ليبسطها للمتحدث إليه الذى يفعل الشىء نفسه بلغته. والهدف من عملية التبسيط المتعمدة على الجانبين هو تقديم لغة قابلة للفهم. يصبح الشخص الغربى فى مثل هذا السياق مثل معلم يقدم المدخل اللغوى للشخص غير الغربى الذى يحاول أن يقلده.

ظهر هذا التفسير العنصرى نوعًا ما على خلفية تصور أن الهجين اللغوى نتيجة مباشرة لفشل المتعلم غير الغربى فى تقليد المدخل اللغوى الذى ينتجه المتحدث الغربى مبسطا فعلا. تتكرر تلك الصورة نفسها مرة أخرى عند هيسلينج (١٩٣٣) الذى يلقى بتبعة عمليات إعادة التركيب بكليتها على المتعلم الأجنبى. يشبه هذا التوجه المعنى تجاه نتائج عمليات التواصل والتهجين اللغوى التوجه الذى كان عند النحاة واللغويين العرب فى القرون الأولى بعد الفتح وأيضا بعد العلماء العرب المحدثين، فعندما تصدى الباحثون العرب إلى الفروق بين العربية الفصحى والأنماط العربية الحضرية الجديدة التى ظهرت فى القرنين الأول والثانى سموا تلك الفروق باللحن.

على الرغم من تعليق رومين (١٩٨٨ ص٧٢) على نظرية شوتشارد بأنها متعالية نوعا ما فإن آليات تقديم المدخل اللغوى والتهجين التى قدمها (على الرغم من تبسيطها الساذج) تشبه التصورات السائدة حاليا فى مجال تعلم اللغة الثانية بشكل حر غير منظم فى غير ناحية. لقد قدم بلومفيلد (١٩٣٣ ص٤٧٢) طرحا يجمع التصورين السابقين لعلاقة التهجين اللغوى بأنماط حديث الأجانب التى كان يطلق عليها "حديث الأطفال". فى تصور بلومفيلد لا يستطيع الشخص الأجنبى الذى يتكلم لغة أدنى اجتماعيا أن يخطو خطوات واسعة فى تعلم لغة السيد الذى يتكلم لغة أعلى اجتماعيا فى أثناء المحادثة، مما يضطر ابن اللغة الأعلى لأن يستخدم نمط حديث "الأطفال" معه ليبسط لغته للأجنبى، ونمط حديث "الأطفال" هذا ما هو إلا تقليد للطريقة غير الناجحة التى يستخدم الأجنبى بها اللغة الهدف.

ولما كان من المستحيل على الأجنبى فى مثل هذا السياق بالطبع أن يجد مدخلا لغويا بديلا؛ فإنه يتعلم هذا النمط من حديث "الأطفال"، ونتيجة تلك العمليات من التقليد المشترك هو ظهور نمط أو شفرة ثابتة نوعًا ما أو على الأقل شفرة مصطلح على خطوطها العريضة. المرحلة التالية على ذلك أن يتعلم الأجانب تلك الشفرة اللغوية باعتبارها لغة ثانية، وفى هذه المرحلة تبتعد الشفرة اللغوية الجديدة عن اللغة الهدف خطوة أخرى؛ لأن المتعلم يطوعها بشكل كبير لتتناسب مع قوالبه الصوتية والصرفية والتركيبية التى ورثها من لغته الأم. وعلى ذلك فإن الهجين اللغوى الناتج يكون بعيدًا كل البعد عن

اللغة الهدف فى شكلها الأصلى. ويدعى بلومفيلد أن كل اللغات الأوروبية التى تم استخدامها فى مناطق المستعمرات مرت بمراحل التشفير والتهجين نفسها التى شرحناها توا.

فى ضوء الدراسات التى أجريت على تعلم اللغة الثانية بشكل حر غير منظم وأنماط حديث الأجانب لن تكون معظم جوانب نظرية بلومفيلد التى لخصتها فى الفقرة السابقة ذات أهمية علمية بأى مكان. فنحن نعرف من تلك الدراسات أن ابن اللغة الهدف هو الذى يقدم المدخل اللغوى إلى المتعلم على شكل إنتاج لغوى تواصلى معدل، ويأتى بعد ذلك دور المتعلم الذى يحاول أن يتعلم ما يقدم له أو ما يستطيع فك شفرته مما يقدم له. ولكن الجزء الأخير من نظرية بلومفيلد هو المفيد لنا هنا: فهو يتصور أن المتعلم يحاول أن ينتج ما تعلمه أو يقلد ما سمعه من ابن اللغة الهدف، فى تلك المحاولة يعدل المنتج اللغوى مرة أخرى ليبتعد به خطوة أخرى عن المدخل اللغوى الأصلى. تشبه تلك النتيجة ما توصلت له جاس (١٩٨٧) عندما قالت: إن المتعلم لا يستطيع أن يصل إلى مستوى ابن اللغة الهدف نفسه تمامًا. هناك نقطة أخرى مهمة فى نظرية بلومفيلد؛ وهى نقطة أن الفرق فى المستوى الاجتماعى بين ابن اللغة الهدف والمتعلم، والفرق فى ميزان القوة من أى نوع يؤدى لاختلاف المدخل اللغوى كما وكيفا. يبدو أن بلومفيلد يعتقد أن عنصر فارق القوة يؤدى إلى اختيار لغة الأقوى؛ لتكون لغة التواصل، وهو ما يتفق مع إحدى وظائف أنماط حديث الأجانب التى ذكرتها سلفًا، أى تلك المتعلقة بتحديد المكانة الاجتماعية عن طريق استخدام أنماط لغوية مبسطة تركيبيا. كما أن مولهاوزر (١٩٨٦ ص١٤٤ و ١٤٥) تبين أن الفرق فى القوة بين اللغات فى سياق التواصل وبالتالى الفرق الاجتماعى بين المشتركين فى السياق يحدد مدى تعقيد وكمية المدخل اللغوى المقدم فى شكل لغة المصدر المعجمى فى أى سياق تهجين لغوى.

ظل الباحثون حتى السبعينيات من القرن العشرين يتحدثون عن الأنماط اللغوية المبسطة تركيبيا، أو الأنماط الفاسدة دون تعريف التبسيط اللغوى. لقد كان فيرجسون (١٩٧١) من أوائل الباحثين الذين يربطون بين التهجين اللغوى والمدخل المقدم عن طريق أنماط حديث الأجانب. لقد وضح فيرجسون (١٩٧١ ص١٤٧) أن نمط

حديث الأجانب فى أى لغة من اللغات ما هو إلا تهجين لغوى فى بداياته من الناحية النظرية على الأقل، أى أن المصدر الأساسى للتراكيب فى أى لغة تهجين هو قواعد اللغة الهدف المبسطة بشكل منظم، والتى يمارس تنظيم تبسيطها ابن لغة المدخل المعجمى إن كنا نتحدث فى سياق تهجين لغوى مستمر. وأضاف فيرجسون أن افتراض انطلاق أى عملية تعلم لغوى بشكل حر من مدخل لغوى مبسطة من نمط حديث الأجانب يساعدنا فى تفسير التشابهات الكبيرة بين كل الهجن اللغوية غير المرتبطة تاريخيا أو حتى طيبولوجيا، وتنبع تلك الفرضية من عمومية استراتيجيات أنماط حديث الأجانب بين كل البشر. تتضح عمومية استراتيجيات أنماط حديث الأجانب مثلا فى أن اللغات التى تمتلك فعل كينونة تنزع لحذف هذا الفعل من أنماط حديث الأجانب لديها. مثل آخر على التبسيط العمومى هو نزوع لغات العالم كافة التى تمتلك تصريفًا للأفعال إلى استخدام ضمير واحد وتعميمه على كل الضمائر التصريفية، فتجدها مثلاً تستخدم الغائب للتعبير ليس فقط عن الغائب، بل أيضا عن المتكلم والمخاطب.

الإسهام الحقيقى لفيرجسون فى هذا المجال أنه ربط بين أنماط حديث الأجانب وقواعد الهجن اللغوية، فقد أكد على أن ابن لغة المصدر المعجمى هو الذى يقوم بعملية التبسيط التركيبى. لقد أكد كوردر (١٩٧٥ فى رومين ١٩٨٨ ص٧٦ و ٧٧) النظرية نفسها، حيث وجد كوردر أن الهجن اللغوية، وأنماط اللغة الوسط، وأنماط حديث الأجانب تشترك فى بعض السمات اللغوية الخاصة مثل التبسيط الشديد للأنساق الصرفية، وانخفاض عدد التصاريف فى الأفعال مثلاً انخفاضًا شديداً، وتثبيت ترتيب الكلمات فى الجملة، وقلة عدد الضمائر المتصلة والمنفصلة، والغياب النسبى للأدوات، وغياب فعل الكينونة فى اللغات التى فيها فعل كينونة، وانخفاض عدد أدوات التعريف والتنكير. ويختتم كوردر دراسته بأن يقول: إن عملية تعلم اللغة الثانية مسألة تصاعدية تبدأ من أنماط مبسطة مثل أنماط حديث الأجانب، وتتقدم بعد ذلك فى مستويات مختلفة من اللغة الوسط بحسب عوامل عدة شرحناها سلفًا.

على الرغم من أن العرض السابق قد يربط بين أنماط حديث الأجانب وعمليات التهجين اللغوى والهجن نفسها، فإن السؤال الجوهرى فى هذا السياق هو :

هل يؤدى استخدام أنماط حديث الأجانب دائمًا لقيام هجين لغوى ؟. ليست الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب فى كل الأحوال من الناحية النظرية على الأقل. على الرغم من تشابهات العمليات التواصلية وعمليات التبسيط فإنه فى بعض الحالات لا يؤدى استخدام نمط حديث الأجانب إلى قيام لغة هجين كما هو الحال فى استخدام أنماط حديث الأجانب التى يقدمها الألمان للعمال المهاجرين إلى ألمانيا، والتى درسها هينينكامب (١٩٨٢)، حيث لم يؤد هذا الاستخدام لقيام هجين لغوى ألمانى. لقد أكد هينينكامب (ص١٠) أن الظروف الاجتماعية فى المدن الأوروبية التى يهاجر إليها الأجانب وأنماط العلاقات بينهم وبين الألمان وأنماط التواصل لا تؤدى إلى قيام هجين لغوى فى تلك الأماكن. علاوة على بعض الظروف الاجتماعية اللغوية الفاعلة فى قيام هجين لغوى والتى تغيب عن المدن الأوروبية الحديثة هناك سبب نظرى آخر يقدمه لنا هينينكامب، فهو متحفظ حول أهمية دور أنماط حديث الأجانب فى تعلم اللغة الهدف؛ إذ يتصور أن التراوح الكبير فى أنماط حديث الأجانب لا يمكنه من أن يكون الأساس لعملية التعلم نظريا على الأقل.

تستند نتيجة هينينكامب هذه على حقيقة أن حوالى ربع الأشخاص الذين اشتركوا فى دراسته لأنماط حديث الأجانب؛ فقد قدم الأجانب نمطًا مبسطًا على الإطلاق. وفى تلك الكمية القليلة من المدخل اللغوى هناك تراوح كبير فى السمات اللغوية لهذا النمط. لقد وجد كوردر وكراكوفيان (١٩٧٨) عند رومين (١٩٨٨) التراوح الشديد نفسه فى سمات أنماط حديث الأجانب التى استصدراها من اللغة البولندية.

أكد مولهاوزر (١٩٨٦ ص١٠١) على تلك الظاهرة نفسها إذ قال: إن أنماط حديث الأجانب تتميز بتراوح كبير لا يمكنها من أن تكون نمطًا ثابتًا، كما أضاف أن أنماط حديث الأجانب تعدل سمات تركيبية ولا تعدل أنساقًا كاملة مما يسمح بالتراوح الفردى. وحاول إثبات نظريته تلك بأن استصدر نمط حديث الأجانب من أبناء اللغة الإنجليزية ممن ليس لهم أى خبرة سابقة فى هذا المجال. وفى تلك المحاولة استخدم مولهاوزر الجملة نفسها التى استخدمها فيرجيسون (١٩٧٥) فى استصدار المادة اللغوية نفسها،

وهذه الجملة هى : I haven't seen the man you'r talking about . الردود التى أصدرها المشتركون فى الدراسة عندما طلب الباحث منهم تبسيط لغتهم لشخص أجنبى كانت شديدة التباين، وفيما يلى بعض أمثلة الإنتاج فقط :

١ – I no see this man .

٢ – Me no see the man you talk about .

٣ – No see man .

٤ – No seeum man you say .

كان الرد فى الجملة الثالثة مصحوبا بهزة رأس.

يقول مولهاوزر (١٩٨٦ ص١٠١ و ١٠٢): إنه على الرغم من التراوح الكبير فى مادة نمط حديث الأجانب المستصدرة فإننا نستطيع أن نلاحظ بعض الاستراتيجيات العامة فى هذا المنتج. من بين تلك الاستراتيجيات العامة تجنب جمل الصلة، والجمل الجانبية، وجمل الصفة، وجمل الحال، وغيرها مما يشكل نمطا موازيا للجملة الأساسية، وحذف الأفعال المساعدة، وغياب الزمن الفعلى. ولكن هناك أيضا فى تلك المادة استراتيجيات خاصة بكل لغة من اللغات: فبعض اللغات تبدل كلمة ما بكلمة أخرى كما فى تبديل "رأى" بـ "شاف" مثلا، أو زيادة ضمير مفعول على الفعل كما هو الحال فى المثل الرابع فى القائمة التى قدمتها توا. ويضيف مولهاوزر (١٩٨٦ ص١٠٢) أنه على الرغم من أن أنماط حديث الأجانب تقدم للمتعلم مدخلا لغويا أبسط من أنماط اللغة الهدف المعيارية غير المبسطة فإن هذا النوع من المدخل ليس مثاليا فى التعلم لتراوحه الشديد ولتضمنه سمات ثقافية خاصة مع السمات العمومية معًا فى الوقت نفسه.

أنتجت دراسات أخرى لنمط حديث الأجانب نتائج مختلفة، فقد قدم فيرجسون (١٩٧٥) لطلابه جملة إنجليزية، وطلب منهم أن يحولوها لجملة يستطيع رجل أمى ليست الإنجليزية لغته الأم أن يفهمها. أظهرت الدراسة نتائج استطاع مولهاوزر (١٩٨٦) أن ينتج مثلها، ومرة أخرى استطاعت رومين (١٩٨٨) أن تحصل على النتائج نفسها

من دراسة أجرتها على استصدار أنماط حديث الأجانب من أبناء اللغة الإنجليزية فى جامعة هاواى. وقد أثبتت دراسات أجريت على لغات أخرى تلك النتائج نفسها، فمثلا توصل هينينكامب (١٩٨٢ و١٩٨٣) إلى النتائج نفسها من استصدار مادة حديث الأجانب من اللغتين الألمانية والتركية. جمع هينينكامب مادة حديث الأجانب الألمانية من تسجيلات لمقابلات ومحادثات بين أجانب من الأتراك وأبناء الألمانية. أما مادة حديث الأجانب التركية فقد وردت من تسجيلات لمقابلات باللغة التركية بين سائحين ألمان ومواطنين أتراك. تبين الباحث من المادتين تشابها فى استراتيجيات التبسيط وفى بعض السمات أيضا. من بين أوضح الأمثلة على هذا التشابه فقدان أنماط حديث الأجانب فى اللغتين فعل الكينونة (هينينكامب ١٩٨٣ ص٤)، ومن بين أمثلة التبسيط اللغوى المشتركة بين اللغتين أيضا غياب التصريف الإعرابى، وتثبيت نمط واحد لترتيب الكلمات فى الجملة.

تتشابه نتائج التبسيط اللغوى والعموميات فى هذا المجال والتى أظهرها هينينكامب (١٩٨٢ و ١٩٨٣) مع النتائج التى توصل إليها فيرجسون (١٩٧١ و ١٩٧٥ و ١٩٧٧) ومولهاوزر (١٩٨٦) ونتائج مولهاوزر من التبسيط اللغوى فى الكتابات الألمانية (١٩٨٤ ص٢٧-٥٨). وجد مولهاوزر فى تلك الدراسة الأخيرة أن استراتيجيات التبسيط العمومية مثل التعميم والحذف والتنظيم كلها موجودة فى الأعمال الأدبية التى تحتوى على مشاهد يتقابل فيها شخص ألمانى مع شخص أجنبى ويتحدثان بالألمانية. ولاحظ الباحث وجود تلك الاستراتيجيات نفسها فى كتابات ألمانية ترجع لبداية القرن التاسع عشر، من بين أقدم الكتابات التى تنتمى لهذا النوع كتاب **Pagenstreiche** الذى صدر عام ١٨١٠ للكاتب كوتسيبو.

تتناقض تلك الدراسات مع فرضية التراوح العالى فى أنماط حديث الأجانب التى قدمناها سلفا، ولكن على الرغم من هذه النتيجة فإن حتمية ظهور هجين لغوى من مدخل لغوى من نمط حديث الأجانب، والتى أكدها هينينكامب بقوة مسألة يجب التعامل معها بحذر شديد إن لم يكن بتشكك، فأنا لا أميل إلى تأكيد أى علاقة علية بين مدخل لغوى ما ونمط لغوى ثابت أو حتى قابل للتطور، ولكن من الممكن أن نقول: إن أنماط

حديث الأجانب قد تؤدى إلى تهجين لغوى؛ إن كانت الظروف الاجتماعية التاريخية والسكانية مواتية لتوصيل المدخل اللغوى إلى تهجين. فحتى لو ظهرت بعض عمليات التهجين اللغوى دون وجود ظروف اجتماعية سكانية مواتية للتهجين، فإن ظهور أى هجين لغوى مسألة مستحيلة تقريبًا. ولكن عندما يكون عندنا هجين لغوى فعلا؛ فإنه من المفروض أن يكون قد ظهر من خلال مدخل لغوى من نمط حديث الأجانب قدمه ابن اللغة الهدف عمداً أو عرضًا للمتعلم.

أما فيما يتعلق بفرضية مولهاوزر أن نمط حديث الأجانب لا يمكن أن يقدم نموذجًا مثاليا للمدخل اللغوى القابل للتعلم؛ بسبب التراوح الشديد فإننا يجب أن نقول: إن مسألة التراوح هذه مسألة لها علاقة بالسمات اللغوية المحددة فقط، وليس باستراتيجيات التبسيط أو التعديل اللغوى. فإذا ما تعاملنا مع السمات اللغوية المحددة المتعلقة بجملة واحدة، فإننا نتوقع أن نجد تراوحًا كبيراً بين كل متكلم وآخر، يزيد هذا التراوح قطعا عن التراوح الذى نتوقع أن نجده من مقارنة استراتيجيات التبسيط أو التعديل بين المتكلمين زيادة كبيرة. يتضح هذا الطرح من تشابه الاستراتيجيات التى يستخدمها متحدثون مختلفون فى لغات مختلفة فى فترات متباعدة، وأيضا باستخدام أنماط لغوية مختلفة. فى حالة اللغة العربية ربما يكون التراوح مسألة مهمة يجب وضعها فى الاعتبار ولكن المشكلة النظرية الأساسية أن كل الباحثين مختلفون حول النمط اللغوى الذى تم استخدامه فى تعريب كل إقليم، وبالتالى تم تبسيطه أو تعديله تركيبيا.

يمكن إرجاع التراوح فى المادة المستصدرة فى تصورى الخاص إلى سببين أساسيين: السبب الأول له علاقة بطريقة استصدار المادة فى الدراسات التى استخدمها مولهاوزر، فالدراسة التى أجراها فيرجسون (١٩٧٥) والتجربة التى أجراها مولهاوزر باستخدام جمل فيرجسون نفسها، والتجربة التى أجرتها رومين (١٩٨٨) مع طلاب جامعة هاواى كلها تجارب تعتمد على الاستصدار المصطنع، ولم يقم أى منها على تسجيلات لمحادثات واقعية. فهناك فرصة لأن يستخدم المشتركون أنفسهم فى الدراسات تلك أنماطًا أكثر اتساقًا والتزامًا فى سياقات حرة غير مراقبة أو مستصدرة. لقد رأينا سلفًا أن أنماط حديث الأجانب عبارة عن خط مستمر يمتد من أكثر التعديلات اللغوية

والتبسيطات جنوحًا عن اللغة الهدف إلى أقرب التراكيب تعقيدا وأقربها صحة من اللغة الهدف. ودون قدرة ابن اللغة الهدف على تحديد مستوى المشترك معه فى محادثة من الأجانب، فإنه من المتوقع طبعًا أن يصدر أنماط حديث أجانب غير متسق مع ما قد يصدره شخص آخر أو مع ما قد يصدره هو نفسه فى وقت آخر. علاوة على ذلك، فإن المسائل الاجتماعية النفسية الناتجة عن اختلاف الموقع الاجتماعى بين ابن اللغة الهدف والمتعلم الأجنبى قد تؤدى إلى تغير فى نمط حديث الأجانب المستخدم. يدعم مولهاوزر نفسه هذا التصور إذ يقول (١٩٨٦ ص١٠٥): إن اختلاف ميزان القوة بين طرفى المحادثة يستطيع أن يسهل ظهور سمات أنماط حديث الأجانب العمومية وسماته الخاصة أكثر مما إذا كان طرفا المحادثة على المستوى الاجتماعى نفسه. وفى مواقف الاستصدار تختفى كل العوامل غير اللغوية من تفكير ابن اللغة الهدف.

يتعلق السبب الثانى بنوع المشتركين فى الدراسة والذين تم اختيارهم للاشتراك. يقول مولهاوزر: إن الأشخاص الذين تم اختيارهم للقيام بعملية استصدار المادة ليس عندهم خبرة بهذا النوع من الأنماط اللغوية قبل تلك الدراسة، وكذلك كان الحال مع بعض من اشترك فى دراسة فيرجسون (١٩٧٥) ورومين (١٩٨٨). من أهم العوامل المتعلقة بأنماط حديث الأجانب عامل التقعيد، فإن كان لأى جماعة لغوية خبرة فى استخدام أنماط حديث الأجانب وفى التواصل مع متعلمين فى سياقات حرة كثيرة؛ فإن أنماط حديث الأجانب التى تطورها تلك الجماعات تكون بعد فترة ما مقعدة بشكل أو بآخر (سيبا ١٩٩٧ ص٩١). وفى أمثال تلك الحالات يرفض هذا النمط المقعد التغيير المستمر أو التراوح الهلامى ويثبت. ويمكن اعتبار نمط حديث الأجانب التركى المسمى بـ"ترزنكا" (هينينكامب ١٩٨٤ ص١٥٣-١٦٦) مثلاً طيبًا على نمط حديث أجانب تجذر فى جماعة لغوية لدرجة فقدان التراوح الكبير، ويمكن اعتبار نمط كهذا نموذجًا جيداً لتعلم اللغة الثانية بشكل حر.

وإذا وضعنا فكرة التعود فى اعتبارنا؛ فسنجد أن معظم المشتركين فى استصدار أنماط حديث الأجانب يأتون من جماعات لغوية غير معتادة على مثل هذا النمط من التعديل اللغوى، أما الربع الذى يستخدم أنماط حديث الأجانب لتبسيط الألمانية كما

هو الحال فى دراسة هينينكامب، فإنه ينتمى إلى جماعة لغوية لم يتم فيها بعد التمرس بشكل كبير على التعديل اللغوى أو التعامل مع أجانب. أحب أن أختتم هذا القسم بأن أقول: إن التحفظات النظرية بشأن تراوح أنماط حديث الأجانب ليست ذات أهمية أو ثقل فى بحثنا هنا، وحتى لو كان هناك تراوح فى سمات أنماط حديث الأجانب اللغوية، فإن هناك استراتيجيات تكاد تكون ثابتة، بل وعمومية. بل إن إمكانية أن تثبت السمات اللغوية لأنماط حديث الأجانب ومحاولة تقعيدها مسألة واردة عندما تتمرس الجماعة اللغوية على استخدام هذا النمط، وبذلك ينتج لدينا نموذج مناسب لتعلم اللغة الثانية. يجب أن نتوقع أن تقوم عملية تقعيد نمط حديث الأجانب فى أى سياق تواصلى عام قبل أن تبدأ عمليات التهجين اللغوى. يمكن إثبات ذلك التدرج ولو نظريا عن طريق التشابهات بين أنماط حديث الأجانب والهجن اللغوية من الناحية التركيبية.

(ب) أنماط حديث الأجانب وعمليات التهجين :

من الصعب فى دراسة التشابهات التركيبية بين أنماط حديث الأجانب والهجن اللغوية أن نثبت مراحل من التهجين اللغوى وتطوراً ما فى نمط حديث الأجانب من أجل المقارنة. لقد قلنا سلفًا: إن نمط حديث الأجانب عبارة عن خط يمشى ابن اللغة الهدف عليه بحسب السياق الاجتماعى اللغوى الذى تقع فيه عملية التواصل محل إصدار المدخل اللغوى. علاوة على ذلك يجب التعامل مع الهجن اللغوية على أنها أنماط ديناميكية ونظم متغيرة، ذلك لأن هناك عوامل لغوية وغير لغوية كثيرة تؤثر فى تطور الهجين اللغوى وسرعة هذا التطور ونوعيته. ولكن التعامل مع حديث الأجانب والتهجين اللغوى بهذه الطريقة يسبب مشكلة فى المقارنة اللغوية التركيبية. سأقترح هنا مقارنة استراتيجيات أنماط حديث الأجانب العالمية العامة مع سمات الهجن اللغوية التركيبية التى من الممكن أن تكون قد تكونت بفعل استخدام تلك الاستراتيجيات. وسنركز فى هذا التوجه على المراحل المبكرة لتكون الهجين اللغوى قبل أن يتشكل؛ لأن هذه هى الفترة التى يمكن أن تكون استراتيجيات أنماط حديث الأجانب واضحة فيها، كما أنها هى المرحلة التى تسبق عمليات إعادة التركيب التى تصاحب التهجين اللغوى وتثبيته وتوسيعه.

لقد شرحت سلفًا أن التعديل اللغوى يتم من خلال ثلاث استراتيجيات: هى التبسيط، والتنظيم، والتوسيع. وقلت أيضا: إن التبسيط يكون فى أوضح حالاته فى المراحل المبكرة من التهجين اللغوى، وكثيرا ما تتضمن عمليات التبسيط حذف المورفيمات التركيبية من المفردات المستخدمة فى التواصل. من بين أفضل الأمثلة على عمليات التبسيط ما أورده هاردنج (١٩٨٣ الموجود فى مولهاوزر ١٩٨٦ ص١٣٦) من محادثات بين المهاجرين الآسيويين والمراقبين الصحيين الحكوميين فى بريطانيا. لاحظ الباحث أن المراقبين الصحيين يحذفون الأفعال المساعدة وأفعال الكينونة من حديثهم مع الأجانب، كما أن المراقبين يحذفون تصريف الفعل من استخدامهم. وكل المنطوقات المستخدمة فى تلك المحادثات كانت جملا قصيرة جدا من كلمتين أو ثلاث دون أى أدوات نحوية أو مورفيمات نحوية. يمكن ملاحظة الظاهرة نفسها فى الهجن اللغوية، قدم لنا لابوف مثلا جيدا لمثل تلك المنطوقات؛ فقد وصف حديث شاب فليبينى يتحدث لغة محلية وصفًا كاملا باستخدام التهجين اللغوى الإنجليزى. انظر ما يلى :

In the Filippine, this now... you see, he dies, in three hours... and then he comes back a-live again... three hour die, after three hours come back live... .he—talkes tell the story...

يمكننا أن نلاحظ هنا عمليات حذف مورفيمات الزمن نفسها والعدد من على الفعل. ولكن على الرغم من أن إشارات السياق وترتيب الكلمات فى الجملة يقومان بمهمة تغطية الفاقد نتيجة الحذف، فإن كمية الإشارات الدالة والتى تحمل معلومات لغوية فى المنطوق قليلة بشكل كبير. يأتى التبسيط اللغوى أيضا فى شكل تثبيت ترتيب الكلمات فى المنطوق؛ إذ تجد أن الجملة الاستفهامية، والجملة الشرطية، والجملة التقريرية معا تحمل ترتيب الكلمات نفسه. ويمكن كذلك ملاحظة تثبيت ترتيب الكلمات فى المادة التى استصدرها هاردينج (١٩٨٣)، حيث بدأت المحادثات عادة بسؤال هو "husband work?"، وهو ترتيب عبارة عن الاسم متبوعًا بفعله، ونجد ترتيب الكلمات نفسه موجودا فى الجمل التقريرية التى قدمها لنا ماكس ولابوف (١٩٧١)، وهو المثل الذى أوردناه توا، انظر خاصة الجزء الأخير حيث يقول المتكلم: "he talkes—tell the story" يعطينا داتون (١٩٨٣ ص٩٠)

مثلا من الجمل الشرطية من هجين السماوا الإنجليزى، حيث يقول أحد الأشخاص : "no money, no come"حيث يريد أن يقول: "إن لم تعطنى نقوداً لن أحضر". لقد تسبب غياب الأنساق الصرفية نوعًا وتقليص عمل القواعد التركيبية فى أن يصف بعض العلماء أنماط حديث الأجانب التى تنتج أنماطًا لغوية مثل هذه بأنها غير مقاربة لمعايير الصحة التركيبية. يجب أن نتذكر أن تلك التعديلات الكبيرة وأنماط حديث الأجانب بشكلها المعدل تتناسب مع المراحل الأولية فى التهجين اللغوى؛ لأن الهجن اللغوية فى مراحل تطورها وتوسعها وتثبيتها تطور أنساقها الصرفية الخاصة وقواعدها التركيبية.

أخيراً يمكن أن نعتبر أن تقليص حجم المعجم وسعته من السمات المشتركة بين الهجن اللغوية وأنماط حديث الأجانب. يقول داتون (١٩٨٣ ص٩٤): إن هناك لغتين رآهما مهجنتين لأغراض تجارية وتمتلك اللغتان معا معجما يحتوى على نحو ٢٠٠٠ مدخل معجمى فقط، وهى كافية لأداء المهام التجارية التى قام من أجلها التهجين. فى بعض الأحيان يتم إضافة مجموعة كلمات جديدة حسب الحالة، ولكنها تختفى باختفاء الفرض ولا تبقى عادة فى المعجم الأساسى للتهجين. يتم توسيع وظائف المعجم عن طريق توسيع المساحة الدلالية للكلمات الأساسية واستخدامها فى أكثر من سياق معنوى ونحوى وصرفى. علاوة على ذلك، فإن الاعتماد على السياق يساعد فى توسيع مهام المفردات الأساسية. وفى أنماط حديث الأجانب كذلك بسبب الغرض الوظيفى من قيامها عادة ما يكون المعجم المستخدم قليلاً نسبيا ومعتمداً على السياق.

العنصر الثانى من عناصر التعديل اللغوى هو التنظيم؛ ففى أنماط حديث الأجانب الألمانية مثلا تجد أن مصدر الفعل هو الشكل الفعلى المستخدم مع جميع الضمائر، وعلى ذلك فإن كل التصريفات المختلفة للفعل يتم اختصارها فى شكل واحد فقط. أفضل مثل على استخدام تلك الاستراتيجية كتاب كارل ماى Der Peitschenmuller ، حيث أخذنا المثل التالى :

Ich glauben daran, zehr, zehr. Ich wissen genau, dass wahr sein. Sie sein da oben begraben und spiel in der nacht violin in grab. Nein, es sein wahrheit>.

(أنا أصدق هذا، بل وأعرف أنها الحقيقة كاملة، إنها مدفونة هناك، وهى تعزف على كمانها كل يوم ليلا فى قبرها).

كل الأفعال فى هذه المقطوعة باستثناء فعل واحد فقط فى المصدر. ومن بين عناصر التنظيم فى التهجين أيضا استخدام صورة واحدة للجمع؛ تقدم لنا علامة الجمع فى توك بيزين مثلا ممتازا على هذا العنصر؛ فإذا أردت أن تصوغ الجمع من أى اسم فى هذا الهجين اللغوى؛ فإنك تضع الكلمة pela (وهى كلمة مشتقة من fellow الإنجليزية) على آخر الكلمة التى تود جمعها. ولذلك فكلمة mi (أنا) مثلا تتحول فى الجمع إلى mipela . بالطريقة نفسها فإن هجين السماوا الإنجليزى يضع كلمة ol على آخر كل اسم يود وضعه فى صيغة الجمع. يعنى كل هذا أن الهجين اللغوى ليست فيه مشكلة اختلاف صيغ الجموع كما هو الحال فى الإنجليزية، والجموع الشاذة كما هو الحال فى الفرنسية، وصيغ جموع التكسير كما هو الحال فى العربية. للمزيد من المعلومات عن الأنساق الصرفية فى الهجن اللغوية انظر (سيبا ١٩٩٧ ص٤٣-٤٧).

٦ - الخاتمة :

لقد حاولت من خلال هذا الفصل أن أبين أن تعلم اللغة الثانية يستخدم استراتيجيات تختلف عن تلك التى يستخدمها التعلم فى الفصول، علاوة على ذلك فإن المنتج النهائى من العمليتين مختلف، ويرجع اختلاف النتيجة النهائية للتعلم؛ لاختلاف استراتيجيات التعلم ونوعية المدخل اللغوى، وكميته، والظروف الاجتماعية اللغوية التى تحدث فيها عملية التعلم. من أهم العوامل فى عمليات تعلم اللغة الثانية بشكل حر المدخل اللغوى، وبينت أن حديث الأجانب نمط يستخدمه ابن اللغة الهدف حين الحديث مع شخص أجنبى باستخدام اللغة الهدف، وهو فى الوقت نفسه المدخل اللغوى المتاح لهذا الشخص الأجنبى لتعلم اللغة الهدف. فعندما يستخدم الشخص الأجنبى هذا المدخل المعدل فى التعلم تحدث عمليات لغوية مختلفة ومتداخلة ربما يكون التهجين

اللغوى من بينها فى سياق حر، ولكن تحكمه سياقات تواصلية اجتماعية. ومع ذلك فقيام نمط لغوى مبسط ثابت من عدمه مسألة تحكمها شروط غير لغوية؛ ولذلك فإن أهم عنصر من عناصر المدخل اللغوى هو التعديل الذى يمثله نمط حديث الأجانب. وحاولت كذلك أن أثبت وجود علاقة بين حديث الأجانب والهجن اللغوية عن طريق توضيح التشابهات التركيبية بين النمطين.

وفيما يتعلق بتأثير كل تلك النتائج والاستنتاجات على حالة التحول اللغوى للعربية فى القرون الأولى من الفتح العربى، فإننا نستطيع أن نقول: إنه بما أن القرن الأول الهجرى شهد عمليات اتصال محدودة بين العرب وغير العرب وغياب تعليم منظم، على الرغم من وجود حاجة ماسة للتواصل بين الشعوب - فإن تعلم العربية فى تلك المرحلة قد تم بشكل حر وغير منظم. فى سياق مثل هذا أمد العرب غير العرب بمدخل لغوى معدل قابل للتعلم، واستخدم غير العرب هذا المدخل العربى المعدل للتواصل وظيفيا مع العرب، وربما استخدموه للتعلم أيضا. وبالتالى من المفروض أن يكون غير العرب قد دخلوا مرحلة تهجين لغوى ربما أدى إلى ظهور هجن لغوية محدودة؛ لأنهم كانوا يتعلمون العربية فى ظروف تواصلية واجتماعية غير مواتية. لقد بينت فى الفصول السابقة أن الظروف الاجتماعية السكانية فى القرن الأول كانت مواتية لاستخدام نمط حديث الاجانب مع غير العرب، ولكن تلك الظروف نفسها لم تسمح بقيام هجين لغوى ثابت يمهد لوجود لغة تواصل مشتركة بين العرب وغير العرب. سأقدم فى الفصل التالى مقارنة بين سمات أنماط حديث الأجانب العربية الحديثة وسمات الهجن اللغوية العربية فى إفريقيا. إن فحص الحالة الراهنة سيلقى الضوء على الحالة العربية التى حدثت منذ خمسة عشر قرنا.

الفصل الثامن

أنماط حديث الأجانب في العربية

١ - مقدمة :

إن تعلم اللغة في ظروف مثل التي قدمناها في الفصول السابقة يتم باستخدام مدخل لغوى معدل يكون عادة في شكل نمط حديث الأجانب. ولما كان العرب كأبناء اللغة الهدف الأكثرية السكانية في مناطق التواصل الأولى في الأقاليم المفتوحة؛ فإنهم قد اتخذوا زمام المبادرة بتعديل لغتهم تركيبيا للتواصل، وخاصة أن معظمهم لم تكن لديهم خبرة بتحدث لغة أجنبية. ولكن على الرغم من أن عمليات إعادة التركيب والاقتراض اللغوى قد أثرت في أنماط العربية في إفريقيا وآسيا الوسطى على التوالى فإن نوعية المدخل اللغوى والظروف الاجتماعية التي أدت إلى قيامه أصلا في الأقاليم العربية منعت أمثال تلك التغيرات في حالة اللهجات العربية. فمن غير الممكن بحسب خلاصات الفصل السابق أن يكون ابن اللغة الهدف هو الذى يقوم بعملية إعادة تركيب لغته الأم، حتى لو كان الغرض تعليميا. ولكن عندما تحدث عملية إعادة تركيب للغة الهدف فإن الطبيعة التصاعدية لأنماط حديث الأجانب لا تسمح بترك أى علامة دائمة على إنتاج الأجانب من المتعلمين؛ لأنه يسمح بأن يترقى مستوى تعقيد المدخل اللغوى بحسب ترقى المتعلم في تعلم اللغة الهدف.

إن كان نمط حديث الأجانب عمومًا مطابقا لمعايير الصحة التركيبية، وإن كان للظروف الاجتماعية السكانية والتاريخية التي رسمتها سلفًا مصداقية وواقعية فإن تداخل سمات تلك العنصرين السبب الأساسى في الفروق اللغوية بين العربية

الفصحى باعتبارها أقرب سمة من أنماط العربية القديمة واللهجات العربية الحديثة. هذه الفروق التركيبية أقل من الفروق التركيبية بين الفصحى العربية أنماط التهجين اللغوى العربى فى إفريقيا فى مواضع عدة. وليس من المبالغة أن نقول: إن أنماط حديث الأجانب قد تكون مسئولة عن التشابهات النسبية الكبيرة بين اللهجات العربية الحضرية ولهجات شبه الجزيرة العربية بشكل عام، وتمثل الأخيرة امتدادا للهجات العربية قبل الفتوحات. تشترك لهجات الخليج العربى مع اللهجات العربية الحضرية الجديدة فى بعض سمات الأخيرة الأكثر خصوصية، فتجد أن اللهجة العربية السنية فى الكويت تشترك مع اللهجات الحضرية فى استخدام أداة إضافة تحليلية هى فى الكويت "حق". بالإضافة إلى ذلك تجد أن كثيرا من لهجات الخليج العربى تشترك مع اللهجات العربية الحضرية وخاصة المغربية فى استخدام مثنى تحليلى يتكون من وضع الاسم فى الجمع متبوعًا بالرقم اثنين (هولز ١٩٩٠ ص١٤٩). يعبر هذا الشكل من المثنى عن الوظيفة التى يعبر المثنى الفصيح عنها تماماً. إضافة إلى ذلك، فإن لهجات شرق الجزيرة العربية وخاصة الكويت تشترك مع باقى اللهجات الحضرية فى نظام سوابق على الفعل المضارع، وإن كان هذا النظام فى اللهجات الخليجية أقل تعقيدا منه فى اللهجات السورية مثلا.

على الرغم من أن مادة أنماط حديث الأجانب فى اللغة العربية محدودة فإن المادة المتاحة تبين أن التبسيط غرض استخدام حديث الأجانب (طويسى ١٩٩٠ ص٢٩٦-٣٢٦). تتبين صحة تلك الفكرة من أن نمط حديث الأجانب لا يدخل حيز الاستخدام إلا إذا عبر المتحدث الأجنبى عن صعوبة فى الفهم. نستطيع أن نلاحظ من دراسة طويسى (١٩٩٠) أن أبناء اللهجة العربية الأردنية لا يستخدمون أنماط حديث الأجانب بمجرد أن يلاحظوا أنهم يتحدثون مع شخص أجنبى، ولكنهم يستخدمون أنماط حديث الأجانب حال وجود صعوبة فى التواصل. سنأخذ هنا مثلا واحدا: فقد ادعى الشخص الأجنبى (طويسى ١٩٩٠ ص٣١٣) أنه لا يستطيع أن يفهم كلمة "سمك"، وهنا يشرح ابن اللغة الهدف كلمة "سمك" بغرض توضيحها كما يلى :

الشخص الأجنبى	عفوا السمك شو؟
ابن اللغة الهدف	السمك إللى بنلاقيه فى البحر بنشتريه.

سأقدم فى هذا الفصل استراتيجية أنماط حديث الأجانب العربية ونزعاتها، وأشكال التعديل اللغوى المستخدمة. وسيتضح أن وظيفة الاستراتيجيات التى سأقدمها تبسيط الوظائف التركيبية والصرفية وتوضيحها داخل الجملة وتوضيح العلاقات بين أجزاء الجملة، ويكون ذلك بطريقة لا تتعارض مع قواعد ما هو مقبول فى اللغة الهدف. لكى نحقق هذا الهدف سأستخدم مادة استصدرها طويسى من أبناء اللهجة العربية الأردنية بالإضافة إلى مادة جمعتها أنا من أبناء اللهجة العربية المصرية القاهرية. وسأقارن بينها وبين باقى أنماط العربية؛ لأحاول أن أبين أن التشابهات فيما بينها جميعا دليل على أن أنماط حديث الأجانب استخدمت لتبسيط العربية تاريخيا وتقديمها باعتبارها مدخلا لغويا قابلا للتعلم فى القرون الأولى بعد الفتح.

٢ - استراتيجيات أنماط حديث الأجانب فى العربية :

قبل أن أقدم استراتيجيات تعديل أنماط حديث الأجانب فى العربية من المفيد أن نتعرف على السياق الذى تم فيه جمع المادة والمعلومات الأساسية عن الأشخاص المشتركين فى عملية الجمع.

(أ) جمع المادة :

سأستخدم فى هذا الفصل ثلاثة أنواع من مصادر أنماط حديث الأجانب: هى المادة المستصدرة، والمادة النصية من أفلام عربية، ومادة من تقارير أشخاص أجانب. جمع طويسى (١٩٩٠) مادته بطريقة نصف اصطناعية، حيث يستصدر الشخص الأجنبى المشترك فى الدراسة حديث الأجانب من أبناء اللغة الأردنية عن طريق التعبير عن عدم قدرتهم فهم سمة لغوية ما. وسجلت أنا نوعًا مختلفًا من المادة، مادتى حرة تمامًا ولا يصدرها أى تعبير بعدم الفهم أو تحفيز من أى نوع.

سجل طويسى (١٩٩٠) ستين مكالمة هاتفية تقع فى نحو ساعتين وسبع ثوان من المحادثة الهاتفية؛ كان نصف المحادثات بين أبناء اللهجة العربية الأردنية، بينما

كان النصف الآخر بين أبناء اللهجة العربية الأردنية وأشخاص أجانب. كان أبناء اللغة العربية المشتركون فى الدراسة جميعهم من سكان مدينة عمان، وتم إعلامهم أن الأجانب الذين يجرون معهم محادثات هاتفية طلبة فى جامعة أردنية يجرون مسحا بغرض التعرف على عادات الأكل عند الشعب الأردنى (طويسى ١٩٩٠ ص٣٠١). ولما كان الأجانب قد بينوا لفظًا عدم فهمهم، فإن استصدار تعديلات تركيبية فى نمط حديث الأجانب كان أمرا حتميا.

وجمعت أنا أيضا ساعتين من التسجيل الصوتى لمحادثات حرة تمامًا بين أبناء اللهجة المصرية القاهرية وشخص أجنبى من خلفية أوروبية. ولم تخضع المحادثات المسجلة لأى نوع من أنواع التحكم أو التحفيز. وعلى عكس الطريقة التى استخدمها طويسى وهى الاستبيان، استخدمت أنا طريقة المحادثة الحرة المسترسلة، حيث تركت المتحادثين فى حرية تامة لاختيار مادة المناقشة، وسرعتها، وتحولاتها، وسيرورتها. لقد حمل الشخص الأجنبى الذى كان يتقن اللهجة العربية المصرية إتقانًا كبيرًا جهاز تسجيل صغير فى ملابسه، وكان يشغل الجهاز فى وسط أى محادثة طبيعية تدور بينه وبين أى شخص مصرى بالعامية المصرية. استغرقت فترة جمع المادة اللغوية أسبوعين فى خريف عام ٢٠٠٠، وفى حى عابدين القاهرى الشعبى.

لقد اخترت طريقة فى جمع المادة مختلفة نوعا عن الطريقة التى اختارها طويسى (١٩٩٠) لكى أتفادى أى تأثير للطريقة والمشتركين فى الدراسة على نوعية المادة وكثافتها. لقد أردت أيضا أن أعرف ما إذا كانت الصعوبة فى التواصل هى المحفز الأول وراء ظهور تعديل تركيبى أو تبسيط تركيبى، أو أن التعديل سيحدث بغض النظر عن الصعوبة، ولمجرد أن أحد المشتركين فى المحادثة أجنبى. لقد حاولت أيضا أن أقلص أى دور لطريقة الجمع على نوعية المادة بعدم استخدام أى طريقة فيها شبهة استصدار كما فعل فيرجسون (١٩٧١ و١٩٧٥ وفيرجسون ودبوز ١٩٧٧)، وكما فعل فريد (١٩٨٠)، ومولهاوزر (١٩٨٦)، ورومين (١٩٨٨) فتركت المحادثات تسير كما تسمح لها الظروف.

علاوة على ذلك كان المشتركون في دراستي مختلفين عن المشتركين في دراسة طويسي (١٩٩٠)؛ فبينما كان المشتركون في دراسة طويسي من أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمين، كان المشتركون في دراستي من طبقات دنيا بمهن صغيرة مختلفة، فكان فيهم عمال، وأصحاب حرف يدوية، وتجار صغار، وكانوا كلهم من غير المتعلمين. علاوة على ذلك فقد كان الأشخاص الأجانب في دراسة طويسي في مستوى متوسط من العربية، بينما كان المشترك الأجنبي في دراستي بمستوى مرتفع في العربية وكان متقدمًا في العامية المصرية.

علاوة على المادة التي جمعتها ومادة طويسي، جمعت مادة أخرى من تقارير الأشخاص الأجانب الذين تعلموا العربية في بيئة لغوية عربية، وعاشوا في بلد عربي فترة من الزمن. وقدم المشتركون في الدراسة من الأمريكيين والبريطانيين والألمان خبراتهم في تقارير عن السياقات التي سمعوا فيها أنماط حديث الأجانب، والمراحل التعليمية التي كانوا فيها عندما تعرضوا للتعديلات اللغوية. لقد تلقيت هذه التقارير بعد إرسال إعلان على موقع Arabic-L الإليكتروني، لقد لجأت لاستخدام تلك التقارير لتوسيع دائرة المادة المجموعة من ناحية، وتوسيع سياقات التواصل التي يستخدم فيها حديث الأجانب من ناحية أخرى. سأقدم نتائجي بناء على تحليل المصادر الثلاثة للمادة، وسأوضح مصدر كل مثل أستخدمه أو رقم أتوصل إليه في الفقرات التالية.

كنت أريد أن أتأكد بشأن ما إذا كان أبناء اللهجات العربية المشتركين في الدراسة على وعي بالتعديلات التركيبية التي يخضعون لغتهم لها، ولكي أرى ما إذا كانت هناك نقاط صعوبة واضحة في عقلية أبناء اللغة الأم، بدأت أجمع مادة حديث الأجانب من الأفلام العربية المصرية. وبعد تحليل المادة المجموعة قارنت بينها وبين مادة حديث الأجانب النصية من الأفلام، ولكن يجب أن نحترز هنا أن حديث الأجانب العربي عادة ما يكون نمطيا، فكثيرا ما يحاول الكتاب أن يقلدوا نمطا معينا في تصورهم، وبالتالي تخرج السمات اللغوية واحدة ومتماثلة.

(ب) استراتيجيات حديث الأجانب :

لاحظت استراتيجيتين أساسيتين فى مادة حديث الأجانب المجموعة: الاستراتيجية الأولى شرح المفردات، والثانية النزوع نحو الوضوح التركيبى. تنعكس تلك الاستراتيجيتان على مستويات التركيب اللغوى كافة. وباستخدام مزيد نسبى متغير من هاتين الاستراتيجيتين يستطيع ابن اللغة الهدف أن يوضح مدخله اللغوى بإعادة تركيب لغته أو بدونها.

سأبدأ هنا بالتعديلات اللغوية فى حديث الأجانب العربى؛ لأنها الأقرب لتوجهات هذه الدراسة، وهى كذلك الأفضل فى المقارنة مع باقى أنماط العربية. على الجانب الصوتى، تبين طويسى (١٩٩٠ ص٣٠٥) أن ما يميز حديث الأجانب العربى بطء معدل النطق عن معدله بين أبناء العربية. فقد وجد أن معدل النطق فى أنماط حديث الأجانب العربية قد بلغ ٣,٠٦ مقطعًا فى الثانية الواحدة، بينما معدل النطق فى محادثات أبناء العربية بلغ ٥,٢٧ مقطعًا فى الثانية الواحدة. وفى السياق نفسه يعد معدل النبر الأساسى على الكلمات فى أنماط حديث الأجانب أكثر منه فى محادثات أبناء العربية، فقد وجد طويسى أن هناك ٢,٣١ كلمة منبورة فى كل وحدة زمنية فى حديث الأجانب فى مقابل ١,٣٥ كلمة فى حديث أبناء العربية. وكما هو متوقع وجد طويسى أن أنماط حديث الأجانب العربية تتميز بانخفاض معدلات العمليات الصوتية، وزيادة الوقفات بين الكلمات (طويسى ١٩٩٠ ص٣٠٥).

تبين المادة التى جمعتها أنا أن الكلمات التى تحتوى على أكثر من مورفيم واحد عادة ما تضيف صوت لين زائدًا للفصل بين المورفيمين. تتضح هذه الظاهرة بشكل كبير فى الأفعال فى المثل التالى: يسأل ابن اللهجة العربية المصرية القاهرية المتحدث الأجنبى :

ابن اللغة   بِتِعرَف تِطبُخ؟

ابن اللهجة المصرية هذا نفسه يوجه تعليقا إلى شخص مصرى آخر فى الموقف نفسه فى السياق نفسه التواصلى، حيث يبدى دهشته من قدرة المتعلم على تعلم اللغة العربية والطبخ فى الوقت نفسه، فيقول :

ابن اللغة بيتعلم عربى وبيطبخ

تحتوى كلمة "بتعرف" على ثلاثة مورفيمات: المورفيم الأول سابقة المضارع المستمر فى العامية المصرية، والمورفيم الثانى تصريف الفعل المضارع مع المخاطب المفرد المذكر، أما المورفيم الثالث الكلمة نفسها وهى فعل مضارع. أما الكسرات التى يلاحظها القارئ الكريم هى أصوات لين قصيرة يضعها ابن اللغة الهدف لتقوم بمهمة تحديد مواقع بداية مورفيم ونهاية آخر. وفى سياق آخر يعبر ابن اللهجة المصرية القاهرية عن إعجابه بدورى كرة القدم الإيطالى، وفى منطوقه يبدو أن صوت الكسرة القصيرة يقوم بالمهمة نفسها، انظر :

ابن اللغة بِنِحب الدورى الإيطالى

تشكل كل تلك الطرائق فى توضيح النطق والمقاطع فى تصورى سلسلة متداعية من الإجراءات يستدعى فيها السابق اللاحق؛ ذلك لأن معدل نطق أقل يؤدى بالضرورة إلى نبر أساسى أكبر على الكلمات وإلى وقفات بين الكلمات أكثر وضوحاً. ومن المهم أن نلاحظ أيضا أن الوضوح اللغوى على المستوى الصوتى يحدث باستخدام نطق واضح وغير محور أو معدل لأصوات اللغة الهدف.

من الجدير بالملاحظة أن تلك الأساليب الصوتية لا يبدو لها أثر فى التقارير التى أرسلها متعلمون للعربية عن خبراتهم مع الظاهرة. كما أنها لا تظهر أيضا فى المادة التى جمعتها من الأفلام العربية المصرية. كما أنه من الجدير بالذكر أن التغييرات الصوتية التى تظهر فى مادة الأفلام لا تظهر فى المادة التى جمعتها أنا ولا فى مادة طويسى، فيكثر فى مادة الأفلام المصرية تحويل مكان نطق صوت الحاء للحنك الأعلى؛ مما يؤدى لصوت الخاء. ففى مادة الأفلام تجد الكلمة "حرامى" تذهب لـ"خرامى". كذلك لم تجد المادة المجموعة أمثلة لظاهرة تكررت فى مادة حديث الأجانب النصية من الأفلام،

وهذه الظاهرة تتعلق بصوت العين، فكل أمثلة الأفلام تبين تحويلا من صوت العين لصوت الهمزة، فمثلا كلمة "عماد" كثيرا ما تنقط "إيماد".

من المهم أن نلاحظ أن التعديلات الصوتية التى يقوم بها أبناء اللهجات العربية على لهجاتهم والتى أشرنا إليها توا تساعد المتعلم الأجنبى على تحديد الوحدات الأساسية فى المنطوق، وتفصل بين الكلمات. ومن شأن تلك التعديلات كذلك أن تبطئ عملية النطق مما يعطى المتعلم فرصة للتحليل العقلى. هذه أغراض التعديلات الصوتية نفسها فى لغات أخرى كما حددها هاتش فى مقالين (١٩٨٣ أ و ١٩٨٣ ب). يجب أن نوضح هنا أن التعديلات الصوتية التى ظهرت فى مادة طويسى أو فى مادتى هى مجرد تعديلات نطق فوقية، وليست تعديلات أساسية فى فونيمات العربية أو فى الصور الصوتية لتلك الفونيمات. والتعديلات الصوتية التى تحدث تغييرا فى فونيمات العربية هى التى يمكن أن نجدها فى الأفلام.

أما فى المجال النحوى الصرفى وجد طويسى (١٩٩٠ ص٣١١) أن أبناء اللهجة الأردنية فى دراسته يستخدمون مع المتعلمين الأجانب وحدات زمنية أطول تحتوى على جملة أو أكثر، وتكون أطول من تلك الوحدات التى تحتوى عليها محادثات الأشخاص أنفسهم مع أبناء اللغة الهدف. معدل عدد الكلمات فى الوحدة الزمنية متعددة الجمل هو ما بين ٨، و ٨,٤٦ كلمة، أما فى الوحدات الزمنية الأحادية الجملة، فإن معدل الكلمات يتراوح ما بين ٤,٧٢ و ٤,٥٦ كلمة فى الوحدة. أما على مستوى ترتيب الكلمات فى الجملة الواحدة فلم يجد طويسى أى اختلاف بين أنماط حديث الأجانب ومحادثات أبناء اللغة الهدف.

ولكن طويسى (١٩٩٠ ص٣١٤) وجد أن المنطوقات الأطول فى حال حديث الأجانب تحتوى على أفعال رئيسية أقل من تلك الموجودة فى حديث أبناء اللغة الهدف. وذلك يعنى أن منطوقات حديث الأجانب أبسط من الناحية التركيبية من المنطوقات التى يتبادلها أبناء اللغة الهدف. الظاهرة التى أشير لها الآن موجودة فى كل مصادر المادة التى استخدمناها لإعداد هذا الفصل، فهذا يعنى أنها مسألة مستقرة فى نمط حديث

الأجانب أن تكون المنطوقات أبسط وأقصر، بحيث تبدأ كل جملة باسم أو ضمير مستقل يكون علامة بداية الجملة على الرغم من أنه قد لا يكون مفيدا تركيبيا أو ضروريا. كما أن المادة تعكس ندرة واضحة فى جمل الصلة، وإن وجدت جمل صلة فإنها عادة ما تكون محدودة بالمبتدأ دون غيره من مكونات الجملة.

كما أن مكونات الجملة على حدة تعكس تبسيطا تركيبيا هى الأخرى؛ ففى المادة التى جمعتها من العامية المصرية هناك دائمًا استخدام زائد لضمير منفصل بعد اسم أو حرف جر يحمل ضميرًا متصلاً فعلاً. وقد لاحظ طويسى (١٩٩٠ ص٣١٣) الظاهرة نفسها. وفيما يلى بعض الأمثلة من المادة التى جمعتها :

ابن اللغة — أنا هأعلمك إنت عربى

ابن اللغة — إنت شفته هو؟

يبين المثل الثانى الزيادة التركيبية غير الضرورية على الفعل الذى لا يحتاج فى العربية ولهجاتها لضمير منفصل قبل التصريف، وحيث لا توجد فى المادة المأخوذة من أبناء اللهجات العربية ما يوحى باستخدام الضمير المنفصل لأسباب لغوية غير أسلوبية. وفى مادة حديث الأجانب التى جمعتها كل الأفعال مسبوقة بضمير منفصل يدل على التصريف. انظر المثل التالى :

ابن اللغة — إحنا بنحب الدورى الإيطالى

أشار طويسى لهذا النوع من التعديل اللغوى (١٩٩٠ ص٣١٣)، كما أنه موجود فى المادة التى جمعتها وفى المادة النصية من الأفلام. بل إن الزيادة غير الضرورية على المستوى التركيبى فى أنماط حديث الأجانب تبدو موجودة فى كل اللغات (انظر إليس ١٩٩٦ وجاس ١٩٩٧). ومن المثير للعجب أن الأجانب الذين قدموا تقاريرهم عن أنماط حديث الأجانب لم يشيروا لتلك الظاهرة أبدا فى معرض وصفهم لاستراتيجيات التعديل اللغوى.

من بين الوسائل التى تستخدمها أنماط حديث الأجانب لتركب مورفيمات أقل على الكلمة الواحدة استخدام أداة الإضافة التحليلية بشكل أكبر من استخدام تركيب الإضافة التوليدى العربى. يتكلم ابن اللغة الهدف فى المثل التالى عن الدورى الهولندى لكرة القدم، ويسأل المتحدث الأجنبى عن اسم أحد اللاعبين، فيسأل :

ابن اللغة   مين اللاعيب بتاع الكورة؟

تشير التقارير إلى استخدام أداة الإضافة التحليلية إشارات كثيرة، ومن تلك الإشارات نستخدم المثل التالى، حيث يتناقش صاحب عقار مصرى مع شخص أجنبى حول تسليم الأخير لمفتاح الشقة المفروشة التى يسكنها، والمثل هو :

ابن اللغة   تدى المفتاح للبواب بتاع العمارة

هناك استراتيجية أخرى يستخدمها ابن اللغة الهدف لتوضيح تركيب الكلمات التى يستخدمها وهى تجنب استخدام سمات صرفية نحوية معينة أو حتى تجنب استخدام تراكيب بعينها. من بين حالات التجنب أن لا يستخدم ابن اللغة الهدف مشتقات الأفعال التى ليست على وزن فَعَلَ، مثل فَعَّلَ، ففى أحد الأمثلة يسأل ابن اللهجة المصرية الشاب الأجنبى، لماذا لا يسمرّ على الرغم من قضائه وقتًا طويلاً فى شمس القاهرة الحارقة فى الصيف؟ فى البداية استخدم ابن اللهجة المصرية الفعل "تسمرّ"، ولكنه سرعان ما يعيد تركيب السؤال مستخدمًا تركيباً كاملاً بدلاً من هذا النوع من الفعل. فيما يلى المثل من مادتى المجموعة :

ابن اللغة   أمال ما اسمريتش يعنى؟

المتحدث الأجنبى   ها؟

ابن اللغة   ليه ما بقيتش أسمر؟

هناك سمة من سمات اللهجات العربية المصرية غائبة من مادتى المجموعة، هى الأسماء الموصولة. "إللى" ليست مستخدمة أبدا فى المادة التى جمعتها،

ولكن غياب تلك السمة من مادتى لا يعنى بالضرورة التجنب العمدى لاستخدام تركيب ما؛ بسبب صعوبته التركيبية واستطراده المعجمى أو أنه مجرد صدفة؛ بسبب محدودية المادة. ويتضح غموض تلك النقطة أكثر بسبب غياب أى إشارة فى مادة طويسى (١٩٩٠) لتلك الظاهرة فى اللهجة العربية الأردنية ومحدودية مادته هو الآخر.

إن كان غياب الأسماء الموصولة من المادة نتيجة لتجنب متعمد؛ فإن الهدف من وراء ذلك واضح، ولكن إن كان أبناء اللهجات الهدف لا يعتقدون أن جمل الصلة واستخدام الاسم الموصول تركيب صعب؛ فإن تلك الظاهرة يجب أن يتم تفسيرها. هناك تبرير ربما يكون مناسباً لغياب تلك السمة التركيبية المهمة، وهو أن ابن اللهجة الهدف عندما يتحدث مع شخص أجنبى فإنه يفضل استخدام جمل أبسط تركيبيا، كما أشرنا سلفا بأن يقسم المنطوق لجمل مستقلة تبدأ كل منها باسم أو ضمير ولو كان زائدا كما رأينا سلفا. كما أن جمل الصلة تحتاج لضمير عائد فى كثير من الأحيان ولتقديم ولتصريف على الفعل داخلى وليس واضحا بضمير منفصل.

هناك سمة أخرى غائبة من مادة حديث الأجانب التى جمعتها من اللهجة المصرية القاهرية، وهى علامة التثنية. يتم التعبير عن المثنى فى مادتى المجموعة باستخدام الكلمة الدالة على العدد "إتنين" متبوعة بالاسم المراد تثنيته فى الجمع. ففى سياق الحديث نفسه عن كرة القدم يتكلم ابن اللهجة القاهرية عن لاعبين مصريين يلعبان فى الدورى الألمانى فيقول :

ابن اللغة		فيه اتنين لاعيبة من مصر

مرة أخرى لا أستطيع أن أقطع ما إذا كان تجنب استخدام الاسم المثنى بعلامة تثنية نتيجة لتعمد أم لا، ذلك لأن مادة طويسى لا تشير لتلك المسألة أبداً.

هناك ظاهرة مثيرة وردت فى مادة التقارير، ولكنها لم ترد فى مادتى المجموعة ولا فى مادة طويسى (١٩٩٠)، هى تخفيض نسق تصريف فعل الأمر. كما تدعى التقارير أن فى حالة استخدام الفعل المضارع يتم تجاهل تاء المخاطب، وياء الغائب من

الأفعال التى يستخدمها ابن اللغة الهدف مع الشخص الأجنبى. فتجد أن ابن اللغة الهدف يستخدم شكلاً من الفعل المضارع يتجاهل الياء والتاء كما يلى :

إنتا	اشرب
إنتى	اشربى
هو	اشرب

على الرغم من أن تلك الظاهرة لا تتضح فى مادتى أو مادة طويسى فإنها تحمل مصداقية؛ لأنها تظهر فى جميع التقارير التى وردت عن استخدام حديث الأجانب.

تشير التقارير أيضا بشكل مستمر إلى استخدام شكل واحد من الاسم بعد الأعداد. فكل التقارير على سبيل المثال تشير إلى استخدام أى عدد متبوعا باسم فى المفرد، ولكن تلك الظاهرة لم ترد فى مادتى ولا فى مادة طويسى. وعندما قارنت كل الأمثلة الواردة فى التقارير تبين لى أن الأعداد فوق عشرة تستتبع اسما نكرة، كما هو الحال فى اللهجات العربية، أما فى حالة الأعداد من ثلاثة لعشرة فعلى عكس اللهجات العربية تعكس أنماط حديث الأجانب استخداما لاسم مفرد أيضا[١] .

هناك ظاهرتان لغويتان تظهران فى مادة الأفلام، ولكنهما لا تظهران فى التقارير ولا فى المادة المجموعة: الظاهرة الأولى استخدام ضمير منفصل بعد الاسم، وحرف الجر، والأداة بدلا من استخدام ضمير وصل. انظر الأمثلة التالية :

مرات إنتا

الجوز بتاع إنتا

هو شاف هى

أنا شفت إنتا مع هى

(١) لا تقدم التقارير أمثلة كثيرة ولكن الإشارات للظاهرة بشكل كلامى كثيرة ومتواترة .

الظاهرة الأخرى التى تظهر فى مادة الأفلام فقط هى إعادة تركيب تصريف الأفعال بشكل كبير: فتجد أن المفردة المخاطبة كتصريف تستخدم مع المذكر والمؤنث فى كل من المتكلم والمخاطب والغائب مفردا، ومثنى، وجمعا. انظر المثل التالى حيث يسأل ابن اللغة الهدف شخصا أجنبيا عن شخص آخر:

ابن اللغة إنتى شفتى هو؟

تعتبر مادة حديث الأجانب النصية من الأفلام مهمة لنا هنا؛ لأنها مادة اصطناعية تم كتابتها بشكل واع، ولذلك فمن المثير أن ندرس عمليات إعادة التركيب الموجودة فيها؛ لأنها توضح ما يتصور ابن اللغة الهدف من صعوبات تركيبية فى لهجته الأم. ويتبين من تلك المادة بعكس كل مادة حديث الأجانب فى اللغات الأخرى والدراسات السابقة، أن أبناء اللغة العربية يستطيعون فعلا إعادة تركيب أنماطهم اللغوية إن تبينوا ضعف مستوى المتحدث الأجنبى. تتفق المادة المجموعة والتقارير مع المادة النصية من الأفلام على بعض الاستراتيجيات، على الرغم من أن المادة المجموعة لا تعكس مستوى عال من إعادة التركيب على أى مستوى من مستويات التحليل اللغوى. وتجد أيضا أن أبناء اللهجة الأردنية وأبناء اللهجة القاهرية المصرية يتفقون على السمات اللغوية التى تحتاج إلى تعديل وخاصة على المستوى الصوتى. من الملاحظ أن التعديلات على المستوى الصوتى والمستوى الصرفى التركيبى تبسيطات فعلية تستهدف توضيح الأصوات والتراكيب.

التعديلات التركيبية التى ذكرناها سلفا تصحب تعديلات معجمية مستمرة، تتضمن التعديلات المعجمية فى مادتى وفى مادة طويسى (١٩٩٠ ص٣٠٨) استخدام مفردات أجنبية مقترضة، ولكننا لن نتوقع عند تلك النقطة كثيرا هنا؛ لأن تلك الظاهرة عملية. ولكن المسألة المهمة لنا هنا تعديل الكلمات العربية نفسها.

لاحظ طويسى (١٩٩٠ ص٣١٠) أن أبناء اللهجة الأردنية فى دراسته يستخدمون ما أسماه التكرار السياقى؛ أى أن المتكلم من أبناء اللغة يستخدم كلمات استخدمها فعلا فى السياق قبل ذلك أكثر من استخدامه كلمات جديدة. علاوة على ذلك، فهناك غياب لاستخدام المرادفات والأضداد فى شرح الكلمات التى لم يفهمها الشخص الأجنبى،

ولكن ابن اللغة الهدف يستخدم كلمات أجنبية. وبناء على الكلمات المكررة وغياب المرادفات والأضداد نستطيع أن نتوقع أن هذه استراتيجية مرتبطة بالتبسيطات التركيبية التى تجعل المنطوق فى أنماط حديث الأجانب العربية أبسط وأقصر. والسبب فى ذلك أن ابن اللغة الهدف يتصور أن المتعلم سيجد صعوبة فى الإسهاب واستخدام جمل الصلة مثلا.

(ج) النزعات :

تبين السمات التى رصدناها توا رغبة المتحدث من أبناء اللغة أن يجعل منطوقاته مدخلا لغويا قابلا للفهم. سأحاول هنا أن أجمع تلك السمات اللغوية فى نزعات قد تساعدنا فى فهم الفروق بين اللهجات العربية الحديثة والعربية القديمة بكل أشكالها. وبعد أن أقدم تلك النزعات سأحاول أن أقارن بين اللهجات العربية الحديثة وباقى أنماط العربية المختلفة؛ لأبين أن الفروق بينها نتيجة نزعات أنماط حديث الأجانب تلك.

من ناحية الأصوات تنزع مادة حديث الأجانب للتوضيح اللغوى باستخدام نبر أكثر من العادى، كذلك تستقبل الكلمات أصوات لين قصيرة إضافية للفصل بين المورفيمات المكونة للكلمات، كذلك تعلم مادة حديث الأجانب حدود الكلمات بالوقفات. وكل عمليات التوضيح تلك لا تشمل أى تغيير للفونيمات العربية الأصيلة، وتغيير الصفات الأساسية للفونيمات العربية يحدث فقط فى المادة النصية وليس فى مادة طبيعية.

من أكثر النزعات وضوحًا على المستوى الصرفى التركيبى هو توضيح العلاقات التركيبية للكلمات عن طريق تخفيض الوظائف التركيبية التى تقوم بها أى كلمة منفردة، وعن طريق التعبير عن الوظائف النحوية باستخدام كلمات منفصلة. ومن هنا جاءت المنطوقات الأطول التى تحدث طويسى (١٩٩٠ ص٣١١) عنها. تنعكس تلك الظاهرة فى استخدام تراكيب تحليلية، مثل المثنى التحليلى "اتنين رجالة"، وأدوات الإضافة التحليلية "بتاع"، واستخدام فعل مساعد صفة بدلا من استخدام فعل مشتق كما هو الحال فى "بقيت أسمر" بدلا من "اسمريت"، واستخدام ضمير منفصل مع اسم يحمل ضميرًا متصلاً أو مع فعل مصرف.

هناك نزعة أخرى موجودة فى المادة المجموعة، وهى النزعة لتجنب التراكيب التى يتصور المتكلم صعوبتها ليستخدم تراكيب أخرى بدلا منها تتسم ولو نظريا بالوضوح التركيبى. يمكن رؤية تلك النزعة فى غياب الأفعال المشتقة غير الوزن فَعَلَ، وغياب المثنى بشكله العربى التقليدى، وغياب جمل الصلة. ولكن الحقيقة الواضحة من تلك المادة أن الوضوح التركيبى يتأتى من استخدام تراكيب أكثر تحليلية من غيرها.

علاوة على ذلك، فإذا افترضنا أن التقارير التى أرسلها المتعلمون دالة ومفيدة؛ فسنجد أن هناك نزعة أخرى لتعميم بعض أنساق تصريف الأفعال وأنماط المطابقة. هذا واضح فى تعميم استخدام الغائب المفرد مع المخاطب، والغائب المفرد، والمثنى، والجمع.

هناك نزعة فى حديث الأجانب العربى لإعادة تركيب مدخل ابن اللغة الهدف فى حالة ضعف مستوى المتحدث الأجنبى. على الرغم من أن حديث الأجانب غير المتسق مع معايير الصحة التركيبية يعد غريبا، وغير اعتيادى فى أدبيات حديث الأجانب عموماً فإن هذا النمط موجود فى العربية وفاعل جدا. المصدر الأساسى لإعادة التركيب التقارير، والمادة النصية التى تبين وجود مادة تصريف أفعال مبسطة جدا، ومادة استخدام ضمائر منفصلة بدلا من ضمائر متصلة. وليس من الحكمة أن نفترض أن مادة حديث الأجانب من الأفلام مجرد مادة مصطنعة من وحى خيال الكتاب؛ لأن مادة التقارير تتفق معها فى مسألة تصريف الأفعال على الأقل. لقد كان من الواضح فى مادتى أن أبناء اللهجة المصرية القاهرية لم يكونوا بحاجة لإعادة تركيب مدخلهم اللغوى؛ لأن المتحدث الأجنبى كان متقدماً فى العامية المصرية. أما فى حالة التقارير على الأقل فقد كان المتحدثون الأجانب فى بدايات مراحل تعلمهم للعربية عندما تعرضوا للخبرات التى كتبوا عنها.

لنذهب الآن للبحث فى تأثير تلك التعديلات اللغوية فى عملية تعلم العربية لغة ثانية بشكل حر وغير منظم. فتعديلات الأصوات كلها ترمى لتحديد الصوت وإبراز شكله عن طريق استخدامه بشكل بطىء وواضح دون عمليات صوتية، والنزعة نفسها فى السمات الصرفية النحوية تجعل المتعلم يركز على التعامل مع سمة واحدة فى كلمة واحدة،

وبالتالى يستطيع المتعلم تعلم سمة صرفية أو مورفيم واحد بعد الآخر. مسألة التوضيح التركيبى التى تتجلى فى المجال النحوى بالذات مفيدة فى عملية التعلم؛ لأنها تصعد العلاقات النحوية من مستويات التعبير الداخلى فى الكلمات لمستوى لفظى واضح بطبيعته؛ فنقل علاقة الملكية من تركيب الإضافة التوليدى إلى تركيب إضافة تحليلى يستخدم أداة لفظية مثل جيد على تلك الاستراتيجية التعليمية.

بالإضافة إلى السياق والموضوع محل المناقشة، فإن التعديلات اللغوية التى قدمناها من شأنها أن تساعد المتعلم على تداول المحادثة؛ للتعامل مع المشكلة الوظيفية الآنية، وتمكنه من تحليل المدخل اللغوى القابل فى هذه الحالة للتعلم؛ ليصبح على المدى البعيد قادرا على إنتاجه. ولما لم نجد فى المادة المجموعة ولا فى مادة طويسى أى عمليات إعادة تركيب لأن المتعلمين كانوا فى مستويات متوسطة وعالية فى اللهجات التى وقعت فيها الدراسة، فإنه من الممكن أن نتصور أن حديث أبناء اللغة الهدف غير المعدل تركيبيا قد يصبح فى مرحلة من المراحل مصدراً من مصادر المدخل اللغوى القابل للفهم للمتعلم، حيث ينتقل من مراحل مبكرة يكون المدخل اللغوى فيها قابلا لإعادة التركيب كما هو الحال فى مادة التقارير والمادة النصية؛ ليتصاعد لمدخل معدل دون إعادة تركيب. إن كان الحال كذلك، فإن نمط حديث الأجانب له وظيفة واحدة هى وضع المتعلم على مستوى من اللغة الهدف يمكنه من التعامل مع المدخل اللغوى غير المعدل.

من الممكن أيضا - إن كانت وظيفة حديث الأجانب العربى فى القرن الأول الهجرى هى تقريب غير العرب من المدخل العربى بحيث يكون الأخير قابلا للفهم والتحليل - أن تكون عملية تعلم لغة أجنبية فى مثل تلك الظروف مؤدية لتعلم نمط لغة وسط غير بعيد كثيرا عن أصل المدخل اللغوى الذى تم طرحه للتعلم. السبب الذى يدعونى لإطلاق تلك الفرضية القوية أن ابن اللغة الهدف - العربية فى حالتنا هنا - يستطيع أن يعدل مدخله اللغوى دائمًا ليتناسب مع مستوى المتعلم كما شاهدنا من مصادر المادة المختلفة. لقد قدمنا سلفا أن أبناء العربية فى المناطق الحضرية من الأقاليم المفتوحة كانوا من الكثرة بمكان يسمح باستمرار تقديم المدخل اللغوى وتطويره بحسب المستويات فى أى

لحظة أو سياق تواصل. لقد تضامنت العوامل السكانية واللغوية الداخلية باختصار، ليس فقط من أجل إقامة نمط عربى قابل لفهم شكل المدخل اللغوى ولكن لتقريبه من مستوى تركيب أنماط أبناء اللغة الهدف أيضا.

٣ - أنماط العربية :

إذا كانت الظروف الاجتماعية السكانية فى القرون الأولى هى التى أدت إلى استخدام أنماط حديث الأجانب - وبفرض أن استراتيجيات حديث الأجانب فى اللهجات العربية الحديثة مشابهة لتلك المستخدمة فى القرون الأولى من الفتح العربى - فلا يمكن أن تكون اللهجات العربية الحديثة مختلفة عن لهجات العربية القديمة كما هى فى القرآن والسمات اللغوية المتناثرة فى كتب التراث بشكل كبير. هذا صحيح؛ لأن اللهجات العربية تشترك مع العربية الفصحى فى السمات الصرفية والنحوية الأساسية للاسم مثل التعريف، والتنكير، والإضافة، والمطابقة بين الاسم والصفة وجمل الصلة وبعض السمات الطيبولوجية للجملة (بروستاد ٢٠٠٠ ص١٤ و ٣١١).

وليس من المفيد هنا أن ندخل فى التشابهات بين اللهجات العربية والعربية الفصيحة بشكل أكثر عمقًا، بل يكفى أن نقول: إن هناك تشابهات كثيرة تجبّ الاختلافات مهما كانت تلك الأخيرة واضحة. الفروق بين الفصحى واللهجات فى كثير من الأحيان فروق فى الدرجة، فالفروق بين النمطين فى المركبات الاسمية والفعلية أحيانا تكون نتيجة عمليات تقليص تصنيفات صرفية معينة على الاسم أو الفعل، فإذا نظرنا للمركبات الاسمية مثلا لوجدنا أن اللهجات الحضرية الحديثة تفتقد فى معظمها لجموع المؤنث، وكذلك لا يمكن لكل أصناف الأسماء أن تحمل علامة تثنية، كذلك فقدت أنساق الضمائر فى اللهجات الحديثة المثنى وجموع المؤنث، أما فيما يتعلق بالأفعال فنجد أن أنساق تصريف الأفعال قد تقلصت من ١٣ إلى ٨ فى معظم اللهجات العربية الحضرية الحديثة. وليس هناك تصريف مع المثنى أو جمع المؤنث فى المخاطب أو الغائب. علاوة على ذلك فهناك كمية كبيرة من عمليات التسوية الصرفية، ففى حالة الفعل معتل الآخر مثلا اختفت فئة الفعل الذى ينتهى بواو، كما اختفت فئة الأفعال المضعفة.

ليست كل الاختلافات كما بينا عميقة؛ فهناك اختلافات أكثر عمقا من ذلك بين اللهجات العربية الحديثة والفصحى. فالفصحى تستخدم نظام تصريف إعرابى ولو شكليا فقط، وترتيب الكلمات فى الجملة يتمتع بحرية نسبية أكبر من تلك التى تتمتع بها فى اللهجات الحديثة، كما أن الفصحى تفتقد نظام السوابق المعقد على الفعل المضارع الذى تتميز به اللهجات العربية الحديثة، كما أن اللهجات تمتلك نظام إضافة تحليلية لا تمتلكه الفصحى بشكل صريح، كما أن اللهجات تفتقد لاختلافات جنس الاسم والعدد كما هو فى الفصحى. ومن الممكن أن تكون تلك الاختلافات قد نبعت من التعديلات اللغوية التى نتجت عن أنماط حديث الأجانب التى استخدمت فى توفير المدخل اللغوى، ومن الممكن أيضا أن تكون قد نتجت عن فروق أصيلة فى اللهجات العربية ورثتها أنماط حديث الأجانب وتطوراتها مدخلا لغويا قابلا للتعلم، وبالتالى ورثتها اللهجات العربية الحديثة.

تؤدى خلاصة الفصل السابق إلى القول: إن عمليات تعديل أنماط حديث الأجانب والتبسيط اللغوى تبقى فى غالب الأحيان فى إطار قواعد اللغة الهدف المقبولة، وكذلك تؤدى نتائج مادة حديث الأجانب العربية التى سقتها فى هذا الفصل والتى تصل النتيجة نفسها تقريبا - كل هذا يؤدى بنا إلى أن نتصور أن الفروق الكبيرة الموجودة الآن بين اللهجات العربية والعربية الفصحى لا بد أن تكون موجودة بشكلها هذا أو بشكل قريب منه فى بدايات الفتوحات العربية. وبالإضافة إلى ذلك لا بد أن تكون بعض الفروق فى الأنساق الصرفية وخاصة فى أنساق تصريف الأفعال نابعة من تبسيط أبناء اللغة الهدف لأنماطهم فى محاولة تقديم مدخل لغوى قابل للفهم فى المراحل الأولى من الفتح العربى.

لم تنتج الفتوحات العربية اللهجات العربية الكائنة فعلا من المغرب حتى خوزستان، بل أنتجت أيضا نمطين آخرين من أنماط العربية لا يمكن اعتبارهما لهجتين؛ هذان النمطان هما الهجن اللغوية العربية فى أفريقيا والأنماط العربية المعزولة فى أفغانستان، وأوزبكستان، وتركيا، ومالطا، وقبرص. لقد ظهر النمطان كل منهما فى ظروف مختلفة بعضهما عن البعض الآخر ومختلفة عن اللهجات العربية، كما أنهما غير مفهومين

لمتكلمى اللهجات العربية. أنا أزعم هنا أن الهجن اللغوية العربية فى شرق إفريقيا قد ظهرت؛ لأن العوامل الاجتماعية السكانية التى أدت إلى ظهورها تختلف عن تلك التى أدت إلى ظهور اللهجات العربية الحديثة التى نتكلمها من المحيط للخليج. لقد ولدت الظروف المختلفة فى الحالتين نمطين مختلفين من المدخل اللغوى القابل للتعلم، وكذلك أزعم أن تلك الظروف غير اللغوية نفسها هى التى أدت إلى ظهور دور فاعل للغات التحتية واللغات الجانبية فى حالة الهجن اللغوية والأنماط الهامشية، وهى أيضا التى منعت مثل ذلك الظهور فى حالة اللهجات العربية.

أقدم فى القسم التالى بعض مظاهر الاختلاف بين هذين النوعين من العربية واللهجات العربية، أما القسم الذى يليه فسأقدم فيه وصفًا للظروف الاجتماعية اللغوية فى الحالات الثلاثة والتى أدت لتطورها بشكل مختلف.

(أ) الفروق التركيبية :

هناك ثلاث سمات تركيبية تفصل بين الهجن اللغوية العربية والأنماط الهامشية من ناحية واللهجات العربية والعربية الفصحى من جهة أخرى: السمة الأولى درجة التبسيط بالمقارنة باللغة الأصل، والسمة الثانية إعادة التركيب ووضوح أصل التأثير اللغوى (أونز ٢٠٠١ ص٣٥٢)، والسمة الثالثة الاقتراض اللغوى.

وفيما يتعلق بمسألة التبسيط اللغوى فيجب أن نقول: إن تبسيط الهجن اللغوية تركيبيا بالمقارنة بلغة المصدر المعجمى وهى إحدى لهجات العربية مسألة لا تحتاج لجدل على الإطلاق. سأقصر المناقشة هنا على تقديم بعض الأمثلة من المجالين الصوتى والصرفى فى الهجن اللغوية العربية كنماذج لإعادة التركيب والتبسيط اللغوى الشديد. وسأحصر أمثلتى من هجين الكينوبى العربى الذى يعتبر أحسن الهجن اللغوية العربية دراسة حتى الآن[٢] .

(٢) انظر هينى (١٩٨٢) وفيلينز (٢٠٠٣) .

فى المجال الصوتى فقدت الكينوبى كل الأصوات المفخمة واستخدمت نظيراتها المرققة بديلا صوتيا، بالإضافة إلى ذلك فقدت الكينوبى الأصوات الحلقية كالعين والحاء تمامًا[٣]. كما أن صوت الكاف حل محل صوتى الغين والخاء كما نعرفهما (هينى ١٩٨٢ ص١٨)[٤]. كل الأصوات التى اختفت من الكينوبى موجودة فى اللهجات العربية الحديثة فى شكل فونيمات كاملة، على الرغم من أنه ليس من الضرورى أن نسهب فى شرح تلك الظاهرة، فإن بعض الأمثلة المقارنة هنا تفى بالغرض.

فيما يلى أزواج من الكلمات يؤدى اختلاف الصوت فيها إلى اختلاف المعنى فى اللهجات العربية، وهو دليل كون تلك الأصوات فونيمات كاملة :

هرم	حرم
بعت	بات
كتم	ختم
غرب	كرب

سأركز فى مناقشتى للمستوى الصرفى على الأنساق الصرفية الفعلية كأمثلة. لقد توقفت أوزان الأفعال عن النشاط والإنتاج فى الكينوبى. علاوة على ذلك فقد تم تخفيض أنساق السوابق واللواحق على جسم الفعل فى الكينوبى تخفيضًا كبيرًا (هينى ١٩٨٢ ص١٩). وليس هناك فرق فى الكينوبى بين جسم الفعل فى المضارع والماضى، كما أن فعل الأمر هو الفعل نفسه بالإضافة إلى "كُن" (أونز ١٩٩٦ ص١٤٩). وليس هناك أى سوابق أو لواحق صرفية على الفعل إلا فى حالة البناء للمجهول ووضعية الفعل المستمر والمصدر. وهذه العلامات فى حد ذاتها تمثل تطورًا حديثًا.

---

(٣) قدمت فيلينز (٢٠٠٢ ص٣٦) قائمة بأصوات الكينوبى احتوت على صوت يشبه الخاء، ولكن الطريقة التى قدمت بها الرموز الصوتية لم تمكننى من معرفة ما إذا كان هذا الصوت قريبًا من صوت الخاء العربى، كما هو فى اللهجات العربية الحديثة أم أنه يشترك معه فى سمات معينة فقط .

(٤) انظر فيلينز (٢٠٠٢) لمعرفة المزيد عن أصوات الكينوبى بالتفصيل .

يتضح من تحليل الأنساق الصرفية للهجن اللغوية العربية عموما أنها تفتقر إلى السوابق أو اللواحق الإجبارية على الفعل والتى يمكن ملاحظتها فى الفعل فى اللهجات العربية الحضرية الحديثة. فالكينوبى تعلم الفعل كما قلنا سلفًا فى حالة البناء للمجهول والزمن (أونز ٢٠٠١ ص٣٥٤)، أما اللهجات العربية الحضرية الحديثة واللهجات العربية الهامشية فهى تعلم الاسم فى حالة البناء للمجهول، والزمن، والعدد، والحالة، والجنس (أونز ٢٠٠١ ص٣٥٤).

أمثال تلك التبسيطات اللغوية هى السمة التى تفرق بين الكينوبى خاصة وجميع الهجن اللغوية العربية عامة وبين اللهجات العربية الحديثة. يشترك النمط العربى فى أفغانستان مع اللهجات العربية فى التفرقة بين الفعل الماضى الذى يتم تعليمه باللواحق والفعل المضارع الذى يتم تعليمه بالسوابق، علاوة على ذلك، فإن النمطين يشتركان فى التعليم الإجبارى للزمن، والجنس، والعدد، والمتكلم، والحالة على الفعل. كما أن النمط العربى فى أفغانستان يعتبر محافظًا بالمقارنة بالهجن اللغوية العربية وبالنسبة أيضا لمعظم اللهجات العربية فى بعض السمات الصرفية للفعل، فهى على سبيل المثال تحتفظ بفرق فى الجنس بين جمع الغائبات وجمع الغائبين فى تصريف الفعل (إنجهام ١٩٩٤ ص١١٤ وكيفر ٢٠٠٠ ص١٨٥).

أما اللهجات العربية الحديثة بفرض أنها مرت بمرحلة تعديل لغوى من نمط حديث الأجانب، فهى لا تعكس تبسيطات لغوية ولا إعادة تركيب شاملة مثل التى تعكسها الهجن اللغوية العربية. فلم تفقد أى لهجة عربية الأصوات الحلقية كما أن أى لهجة لم تفقد الفصل بين الأصوات المفخمة ونظيراتها المرققة. أما فيما يخص المجال الصرفى، فكل اللهجات العربية تحتفظ بفرق بين شكل الفعل فى المضارع وشكله فى الماضى، وتعلم المضارع بالسوابق وتعلم الماضى باللواحق. كما أن كل اللهجات العربية التى طورت نظام سوابق على الفعل المضارع معقدة جدا وذات وظائف تركيبية كثيرة، كما هو الحال فى سابقة "بِـ" فى العاميتين المصرية والسورية (انظر بروستاد ٢٠٠٠). ولكن فى حالة اللهجات العربية الهامشية كما هو الحال فى العربية فى أفغانستان، فإن تخفيض عدد

صيغ جموع التكسير يمكن أن تعتبر تبسيطا لغويا طبعا، ولكن هذا التبسيط فى واقع الأمر لم يلغ ظاهرة جموع التكسير، وليست هذه الجموع مقصورة على عدد محدود من الكلمات (كيفر ٢٠٠٠ ص١٨٥).

لم يظهر فى أى مكان من مادتى المجموعة، ولا فى المادة التى جمعها طويسى أن أنماط حديث الأجانب العربية قد ضمت مثل هذا التبسيط الشديد الذى يرقى لإعادة التركيب مثل اختفاء أصوات أو تقليص عدد تصريفات الفعل، بل كان واضحًا من المادة أن عمليات التبسيط كانت ترمى إلى توضيح الأصوات والعلاقات النحوية لغويا.

مدى إعادة التركيب مسألة أخرى تميز اللهجات العربية، فاللهجات العربية الحديثة لا تعكس أى دور لعمليات إعادة تركيب ولو تاريخية بالمقارنة باللهجات العربية الهامشية التى نطلق عليها مصطلح الجزر اللغوية. سأركز حديثى هنا على اللغة العربية المستخدمة فى أفغانستان؛ لأنها مثل جيد على كل أنماط العربية الموجودة فى أواسط آسيا.

فعلى مستوى الجملة، تعكس العربية الأفغانية اختلافا كبيرا فى ترتيب الكلمات عن اللهجات العربية الحديثة. ترتيب الكلمات الأساسى فى تلك الأنماط هو ترتيب يقدم المفعول به على الفعل، وبينما تستخدم اللهجات العربية أنماط الجملة الفعلية وأنماط الجملة الاسمية، لا تستخدم تلك اللهجات أى نمط يقدم المفعول به وجوبا على الفعل (كيفر ٢٠٠٠ ص١٨٦). هناك مثل آخر على عمليات التغيير الكبيرة فى تراكيب أنماط العربية فى وسط آسيا، وهو تعليم ضمير المفعول، فإن كان المفعول به ضميرا متصلا تم وضعه على أداة "إليلو" يكون موقعها سابقًا على فعل الجملة (كيفر ٢٠٠٠ ص١٨٦)، هناك مثل آخر على إعادة التركيب، وهو وضع حروف الجر فى آخر الجملة أو بعد الاسم المجرور: فتجد مثلا عربية أفغانستان تستخدم مثلا مثل"فرج جميع" التى تعنى بالعربية "مع الحصان"، فى هذا التركيب كلمة "جميع" هى حرف جر يعنى بلهجاتنا العربية الحديثة "مع"، وهو بعد الاسم المجرور، وهى ظاهرة لا تحدث فى اللهجات العربية (إنجهام ١٩٩٤ ص١٠٩) كما أنها أيضا لا تحدث فى العربية الفصحى.

تقديم المفعول به على الفعل فى اللهجات العربية ترتيب ليس مقبولا تركيبيا، كما أن ضمير المفعول يلحق بالفعل. كما أن اللهجات العربية كلها تضع حرف الجر قبل الاسم المجرور، وكل تلك الاختلافات بين عربية أفغانستان واللهجات العربية فى الأمثلة السابقة راجعة إلى ظاهرة إقليمية، فكل اللغات التى يستخدمها سكان الأقاليم التى توجد فيها العربية يستخدمون تلك السمات الإقليمية فى لغاتهم المختلفة. فتقديم المفعول به مسألة مشتركة بين الفارسية، والتركية، والأوزبيكية (كيفر ٢٠٠٠ ص١٨٦). كما أن وضع حرف الجر بعد الاسم المجرور مسألة مقتبسة من الفارسية. هذه سمات تأثير لغات جانبية، وهى الفارق الوحيد بين هذه اللهجات العربية الهامشية المحافظة فى معظمها واللهجات العربية الحديثة.

(ب) أسباب اجتماعية سكانية :

السبب الذى جعل الهجن اللغوية العربية لا تتطور إلى تراكيب تشبه اللهجات العربية الحديثة، والسبب الذى جعل اللهجات العربية الهامشية فى أفغانستان ووسط آسيا تعيد تركيب نفسها بطريقة مختلفة عن اللهجات العربية هو أن الظروف الاجتماعية السكانية التى تعرضت لها اللهجات العربية تختلف كثيراً عن الظروف الاجتماعية السكانية التى تعرضت لها الهجن اللغوية والجزر اللغوية العربية فى أطوار التكوين.

إذا ما نظرنا إلى الظروف الاجتماعية السكانية التى ظهرت فيها أنماط الهجن اللغوية العربية؛ سنجد أنها عكس الظروف التى ظهرت فيها اللهجات العربية تماما. فالمستعمرات السكانية العربية التى أنشئت فى جنوب السودان نحو عام ١٨٥٤ والتى خرجت منها هجن عربية، جوبا والكينوبى والتوركو، نشأت فى بيئة سكانية كثيفة بأعراق مختلفة وجماعة لغوية عربية محدودة العدد. كذلك لم يكن العرب الجماعة اللغوية والعرقية الوحيدة التى سكنت داخل تلك المستعمرات، بل إنهم لم يكونوا أغلبية سكانية فى داخل معاقلهم. فلم تكن طريقة انتقال العرب من أماكنهم التقليدية للمناطق الجديدة

فى جنوب السـودان أو فى شرق إفريقيا وأوغندا عـموما مقاربة ولو من بعيـد لطريقة انتقالهم من شبه الجزيرة العربية لمصر، والشام، والعراق مثلا. فلم يبن العرب مدنا عربية خالصة لهم دون غيرهم تمدها هجرات عربية مستمرة فى جنوب السودان.

لقد أجرى أونز (١٩٩٦ ص١٣٨) عملية حسابية صغيرة تبين من خلالها أن عدد سكان منطقة بحر الغزال في العقد السابع من القرن التاسع عشر كانوا نحو ربع مليون نسمة. كان نحو تسعة آلاف نسمة من هذا المجموع الكلى يتكلمون العربية. ولكن ليس من الواضح بالضبط كم فرداً من هذا العدد الصغير كان يتحدث العربية لغة أم. على الرغم من أنه من الصعب أن نتوقع بأى نوع من الدقة معدل العرب بالنسبة لغير العرب فى الجماعة التى أسست للهجين اللغوى العربى، فإنه من الممكن أن نتصور أن نسبة العرب لغير العرب فى حالة توركو ستكون مماثلة أو مقاربة نسبتهم لنسبة غيرهم فى حالة عربية جوبا أو الكينوبى (أونز ١٩٩٣ ص١٨٢)(٥) . إن كان ذلك هو الحال فى بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر؛ فلا بد أن عـدد العـرب بعد عام ١٨٧٨، قد كان أقل من قبل، قدم أونز سببين لهذه الفرضية (١٩٩٦ ص١٣٩) : السبب الأول منع الحكومة المصرية الشماليين من دخول أقاليم جنوب السودان، وتضخم حجم المستعمرات المصرية عن طريق المواليد الداخلية واستعمال السكان المحليين.

وعلى عكس حالة اللهجات العربية، فقد كانت المستعمرات فى جنوب السودان مدنا يسكنها جميع من اتفق وجودهم فى المنطقة أو جميع من يخدمون غرض التجمع، فلم يكن هناك قلب مسكون بالعرب وحلقات محيطة من الأجانب. وكان عدد سكان تلك المستعمرات نحو ستين ألف نسمة تقريباً. وكان نحو ربع هذا العدد من أبناء اللغة العربية بحسب حسابات أونز (١٩٩٦ ص١٣٩). ولم يكن العنصر العربى بمعزل عن غيره، فقد كان لكل شخص عربى خدمه وعبيده الذين يقضون له حاجاته.

---

(٥) للتلخيص انظر أونز (١٩٩٠)، وللمزيد عن الهجن العربية فى شرق إفريقيا انظر كاى وتوسكو (١٩٩٣) .

أما فى حالة اللهجات العربية الهامشية، فقد منعت الظروف الاجتماعية السكانية العرب فى أواسط آسيا مثلا من نشر لغتهم كما حدث مع مناطق اللهجات العربية الحديثة؛ ففى العام ٦٤٣ ميلاديا بدأ العرب يقيمون لأنفسهم مستعمرات صغيرة مكونة من عرب خلص فى وسط جماعات بشرية ولغوية متجانسة فى أواسط آسيا، واستقر العرب مدنيين وعسكريين فى تلك الأماكن لقرون بعد ذلك (كيفر ٢٠٠٠ ص١٨١). ولكنهم لم يؤسسوا مدنا مثل التى أسسها العرب فى مصر، والشام، والعراق، وشمال إفريقيا. علاوة على ذلك لم يشهد التاريخ العربى هجرات مستمرة من الجزيرة العربية لأواسط آسيا بعد مرحلة الفتوحات المبكرة لإيران والمناطق الواقعة شرقها. وبسبب الضغوط الاجتماعية السياسية أصبح العرب فى إيران وأواسط آسيا أقلية سكانية ولغوية، وفقد الكثير من العرب هويتهم. وربما يعكس الاقتراض اللغوى وإعادة التركيب طريقة من طرق العرب فى تلك المناطق فى التعامل مع هذا الضغط.

الخـــاتمـة

قدمت فى هذا الكتاب فرضية أن الاختلافات بين أنماط العربية القديمة وأنماط العربية الجديدة الحضرية فى الأقاليم المفتوحة فى القرنين الأول والثانى من الفتوحات العربية إنما تنبع من عملية تعلم العربية فى تلك المناطق بشكل حر وغير منظم. فى تلك العملية كانت مهمة أبناء العربية تعديل منتجهم اللغوى تركيبيا للتواصل مع الأجانب. تعلم الأجانب المدخل اللغوى المعدل، وأصبح هذا المدخل مصدر التعلم، ونتيجته كانت اللهجات العربية الحضرية التى نعرفها الآن. لم أقدم فى هذا الكتاب تفسيراً لتطور اللهجات العربية البدوية فى شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام، ولا أزعم أيضا أننى أقدم تفسيراً شاملاً لظهور اللهجات العربية بموقعها الذى نراه الآن فى المركب اللغوى العربى.

وكان نوع المدخل اللغوى المستخدم فى عملية التعلم تلك هو نمط حديث الأجانب، ولا يقوم ابن اللغة الهدف فى تعديل لغته الأم بإعادة التركيب بالضرورة. وتثبت المادة التى جمعتها والمادة التى جمعها طويسى هذه الفرضية. ولما كان الحال كذلك؛ فمن الممكن أن نفترض أن المدخل اللغوى الذى تم استخدامه فى عملية التعريب لم يكن مختلفا بشكل كبير عن أنماط العربية القديمة التى استخدمها العرب فى التعديل اللغوى. وفى معرض مناقشتى للوضع اللغوى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ركزت على نقطتين: النقطة الأولى أن السمات اللغوية الموجودة لدينا من تلك المرحلة توحى بوجود تراوح مما يبين وجود لهجات محكية بجانب الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم. النقطة الثانية أن تلك اللهجات كانت فى حالة تطور فى مرحلة ما قبل الفتوحات العربية. وكانت بعض سمات ذلك التطور تشبه سمات اللهجات العربية الحضرية الجديدة، من بين تلك السمات غياب التصريف الإعرابى.

لم تكن اللغة الأم للعرب قبل الفتوحات العربية فى شبه الجزيرة هى لغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم، على الرغم من أنها كانت أقرب للهجات شرق الجزيرة العربية منها للهجات غرب الجزيرة واليمن. لقد بين أن نمط القرآن الكريم والشعر الجاهلى تطور بعد الفتوحات العربية إلى العربية الفصحى، ولم يكن كثير من الناس يتقنون هذا النمط بعد الفتوحات كما لم يتقنه الكثيرون قبلها. وكذلك حاول قليل من الناس استلهام هذا النموذج الرفيع لأسباب مهنية، أو دينية، أو اجتماعية. ولما كان قليل من الناس قد تلقى تعليما رسميا فى هذا النمط الفصيح، ولما لم يكن هذا النمط هو اللغة الأم لأى شخص عربى؛ فقد ظهرت مجموعة من النصوص العربية التى اصطلح على تسميتها بالعربية الوسيطة. وعلى الرغم من أن تلك النصوص كانت ترمى إلى استلهام الفصحى، فإنها كانت تضم مجموعة كبيرة من الأخطاء اللغوية، والاقتراض من العامية، والاقتراض من لغات أجنبية، واستخدام خط أجنبى لكتابة عربية. وتبينت من واقع تحليل نصوص العربية الوسيطة أن الفصحى لم تكن اللغة الأم لأى عربى بعد الفتوحات العربية. وزعمت أيضا أن قليلا من الناس استطاع الدخول لعالم تلك الفصحى، وحتى عند هذه القلة كان دخول بعضها أفضل حالا من دخول بعض.

ولما كانت الوظائف اللغوية للعربية الفصحى قبل الفتوحات العربية وبعدها بالنسبة إلى أبناء العربية محدودة؛ فقد كانت الازدواجية اللغوية مسألة اجتماعية لغوية محدودة بالقلة القليلة من الناس الذين كان لهم نصيب من إتقان الفصحى.

وزعمت أن تحول الأقاليم المفتوحة من اللغات المحلية للعربية بعد الفتوحات يجب أن نتعامل معه على أنه حالة من حالات تعلم اللغة الثانية، وكانت حالة من التعلم الحر غير المنظم. هذا النوع من التعلم عملية تؤدى إلى استخدام استراتيجيات تعلم خاصة وتؤدى إلى نتائج لغوية معينة؛ من بين النتائج الممكنة لتلك العملية التهجين اللغوى، وهى حالة لا أتصور أنها تنطبق على اللغة العربية لعدة أسباب[1]، واقترحت أن ننظر

---

(١) لمناقشة مختلف أوجه الخلاف حول التهجين اللغوى فى الحالة العربية التاريخية انظر مقال فرستيغ (٢٠٠٤ ص٣٤٦ وبعدها) .

فى السياق الاجتماعى السكانى والسياسى اللغوى الذى وجدت فيه اللغة العربية وأبناؤها فى مرحلة ما بعد الفتوحات؛ لكى نستطيع أن نعرف الطريق الذى سارت فيه عملية تعلم العربية بشكلها الحر.

وقدمت بعد ذلك تصورى عن هذا السياق الاجتماعى السكانى فى الأمصار. ووجدت أن هناك ثلاث نقاط مهمة فى ذلك السياق بالنسبة لتعرب المناطق المفتوحة: النقطة الأولى بناء المدن العربية، والثانية الهجرات العربية للأقاليم المفتوحة، والثالثة التواصل بين العرب وغير العرب فى تلك المناطق. وقد أدت تلك الظروف إلى اختيار العربية لغة تواصل بين العرب وغير العرب؛ لأنها كانت لغة الأغلبية السكانية ذات القوة السياسية فى الوقت نفسه. وقد أدت تلك الظروف أيضا إلى أن يعد العرب لغتهم الأم ليستطيعوا التواصل باستخدامها مع غير العرب لأهداف وظيفية.

ثم بينت بعد ذلك أن نمط حديث الأجانب هو النمط الوحيد الذى يجب أن يكون قد أسهم بشكل أساسى فى تقديم مدخل لغوى قابل للفهم فى حالة تعلم لغة بشكل حر غير منظم، كما هو الحال فى الحالة العربية. من بين السمات التركيبية لهذا المدخل اللغوى التعميم، والتوسيع، والوضوح التركيبى، وقدر كبير من المرونة النحوية. وإذا ما وضعنا تلك السمات العامة فى اعتبارنا ووضعنا أيضا فى اعتبارنا أن العرب كانوا الجماعة اللغوية الغالبة فى المراحل المبكرة من التعريب، فإن المدخل القابل للتعلم كان بشكل أو بآخر قريباً من أنماط العربية القديمة على الرغم من التعديل التركيبى النوعى.

بالإضافة إلى ذلك، فإن المتعلمين فى حالة مثل هذه يعدلون المدخل اللغوى الذى يصل إليهم حتى ولو كان معدلاً فعلاً، فهم ينتجون أنماط لغة وسط تختلف ولو قليلاً عن المدخل اللغوى الذى تعلموه. وليس التوغل فى سمات اللغة الوسط ومراحلها من شأننا هنا؛ ولذلك اكتفيت بالإشارة لتلك العمليات.

ولذلك فقد كانت الفروق بين العربية القديمة والعربية الحديثة مسألة راجعة للمدخل اللغوى المعدل من نمط حديث الأجانب. واقترحت فى الفصل الأخير أن تكون استراتيجيات

التعديل التركيبى التى تستخدمها العربية الحديثة مثل الاستراتيجيات التى استخدمتها العربية القديمة فى مسألة التحويل اللغوى. واستراتيجيات حديث الأجانب فى العربية الحديثة تشمل استخدام تراكيب تحليلية، والتعميم، والحذف، والوضوح التركيبى.

تعتبر الظروف الاجتماعية السياسية مسألة مهمة فى تعلم أى لغة بشكل حر غير منظم على نطاق واسع، كما هو الحال بالنسبة إلى انتشار العربية على نطاق واسع بعد الفتوحات. لقد بينت فى النصف الثانى من هذا الكتاب أن تلك الظروف هى التى توجه نمط المدخل اللغوى، وكميته، وكثافته، وطريقة تعلم اللغة. ولكننى هنا أود أن ألفت الانتباه إلى أن النموذج الذى رسمته فى الفصلين السادس والسابع نموذج ينطبق فقط على مصر، وربما أيضا على المدن الأولى فى العراق والشام، ولا ينطبق هذا النموذج على انتشار العربية فى المناطق الصحراوية والبدوية، وعلى انتشار العربية فى عالم ما تحت الصحراء الكبرى فى إفريقيا. ففى كل إقليم يجب أن يجد الباحثون السمات الاجتماعية السكانية الخاصة ويبنوا على أساسها فرضية تخص نمط تعلم اللغة فى هذا الإقليم بعينه. علاوة على ذلك، فلا يمكن فهم تطور اللغة العربية دون تطبيق إجراءات علم اللغة التاريخى وخاصة المنهج المقارن، ولكن مع هذا التطبيق يجب أن يعرف الباحث كيفية التواصل بين العرب وغير العرب فى الإقليم المعنى، فمن دون تلك المعرفة لا يساعدنا المنهج المقارن كثيراً، وحتى مع كل ذلك لا يمكن تعميم النتائج المتوقع صدورها على حالة العربية فى كل إقليم، كما لا يمكن طبعًا تعميمها على كل لغات العالم فى مراحل تطورها.

المراجــع

'Umar, Ahmad Muxtar. 1990. Tarix al-Luga 'al-arabiyya fi Misr wal-Magrib al-'rabiy. Cairo : al-

hay'a al-Misriyya lin-Nasr.

'Ibn 'adul-Hakam. Futuhhu-Misra wa 'axbaruha. Cairo: Maktabat Madbuli.

'Ibn An-Nadim. 1980. Fihrist. Rida Tajaddud ed. Beirut: Dar al-Masira

'Ibn Faris. 1964. As-Sahibi fi fiqh al-luga wa sunan al-'arab fi kalamiha. Moustafa el-Chouomi ed. Cairo: Qusur ath-Thqafa.

'Ibn Manzur. Lisan al-'arab. Cairo: Al-Hai'a al-'ama Lil-Kitab.

'Ibn Qutayba. 'Uyun al-'Axbar. Cairo: Dar al-Ma'arif.

'Ibn Xayyat. 1967. Tarix 'ibn Xayat. an-Najaf: an-Najaf Press.

al-'Ali, Salih. 1953. at-Tanzimat al-'Ijtim 'iyya wal-'Iqtissadiyya fil-Basra. Beirut: Dar at-Tal'a.

al-Baladhuri. Futuhu-l-Buldan. Cairo: dar al-fikr al-'arabiy.

al-Gindi, A. 1983. Al-lahjat al-'arabiyya fit-turath. Beirut: ad-Dar al-'arabiyyah lil-Kitab.

al-Jahiz. 1948. al-Bayan wat-Tabyin. Cairo: al-Matabi' al-'Amiriyya.

al-Kindi.1912. The Governors and Judges of Egypt. R. Guest ed. London.

Allardt, E. 1984. "What constitutes a minority language?" Journal of Multilingual and Multicultural Development 5, 194-205.

al-Maqrizi. al-Mawa'iz wal-i'ibart. Cairo: General Organization for Culture Center.

al-Marzubaniy. Ma'axidhu al-'ulama' 'ala as-su'ara' fi Al-Muwassah. Cairo: (Maktabat an-Nahda.

al-Musawi, M. 1982. al-'awamil at-tarixiyya li-nas 'at wa tataur al-mudun al-'arabiyya al-'islamiyya. Baghdad: Ministry of Culture.

al-Sayyad, N. 1991. Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism. New York: Greenwood Press.

Al-Sharkawi, M. 2002. "Socio-Demographic Parameters of the Arabization of Egypt". al-Lugha 3, 101-131.

al-Ya'qubiy. 1860. kitab al-buldan. Leiden: E. J. Brill.

al-Zubaydiy. tabaqatu-n-nahwiyina wal-lugawiyin. Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim.

ed. Cairo: Dar Al-Ma'arif.

Andersen, R. 1983. "Introduction: A Language Acquisition Interpretation of Pidginization and Creolization". R. Anderson ed. Pidginization and Creolization as Language Acquisition. London: Newbury House.

Anis, Ibraahim. 1952. Fi-llahajat al-'arabiyya. Maktabat al-'anglo: Cairo.

Arthur, B., Weiner, R., Culver, M., Lee, Y., and Thomas D. 1980. "The Register of Impersonal Discourse to Foreigners: Verbal Adjustments to Foreign Accent". D. Larsen-Freeman ed. Discourse Analysis in Second Language Research. Massachusetts: Newbury House, 111-124.

At-Tabari. 1963. tarix ar-rusul wal-muluk. Cairo: Dar al-Ma'arif.

Bagnal, R. 1985. "Agricultural Productivity and Taxation in Later Roman Egypt". TAPA 115, 289-308.

Bagnall, R. 1993. Egypt in Late Antiquity. Princeton: Princeton University Press.

Bardovi-Harling, K. 1987. "Markedness and Salience in Second Language Acquisition". Language Learning, no. 37, 385-407.

Bateson, M. 1970. Structural continuity in Poetry: A Linguistic Study in Five Preislamic Arabic Odes. The Hague: Mounton.

Bayley, R. 1994. "Interlanguage Variation and the Quantitative Paradigm: Past-tense Marking in Chinese English". E. Tarone, S. Gass, and A. Cohen eds. Research Methodology in Second Language Acquisition. New Jersey: Lawrence Erlbaum, 157-181.

Behnstedt, P. and Woidich, M. 1985. Die Ägyptisch-arabischen Dialekte Vol. II Dialektatlas von Ägypten. Weisbaden: Dr. Ludwig Reichert.

Bernards, M. 1992. Establishing a Reputation: The Reception of Sibawayh's Book. Ph. D. dissertation presented to the University of Nijmegen ،Netherlands.

Bickerton, D. 1981. "Two Perspectives on Pidginization as Second Language Acquisition".

A. Andersen ed. New Dimensions in Second Language Acquisition Research. London: Newbury House Publishers.

Bishai, W. 1960. "Notes on the Coptic Substratum in Egyptian Arabic". JAOS 80, 225-229.

Bishai, W. 1959. The Coptic Influence on Egyptian Arabic. A dissertation submitted to the Faculty of Philosophy of the Johns Hopkins University, USA.

Bishai, W. 1961. "Nature and Extent of Coptic Phonological Influence on Egyptian Arabic".

JSS 6, 175-82.

Bishai, W. 1962. "Coptic Grammatical Influence on Egyptian Arabic". JAOS 82, 285-289.

Bishai, W. 1964. "Coptic Lexical Influence on Egyptian Arabic". JNES 23 ،39-47.

Blachere, R. 1952. "Les Savants iraqiens et leurs informateurs bedouins aux IIe-IVe siecles de i'Hegire". Melonges offerts a William Marcais. par l'Institut d'etudes islamiques de l'Universite de Paris. Paris: G. F. Maisonneuve. 37-48.

Blachere, R. 1952. Histoire de la litterature arabe des origines a la fin du XVe siecle des J.-C. Paris: Adrien-Maisonneuve.

Blanc, H. 1964. Communal Dialects in Baghdad. Cambridge MA: Harvard University Press.

Blau, J. 1961. "The Importance of Middle Arabic Dialects for the History of Arabic". U. Heyd ed. Studies in Islamic History and Civilization. Scripta Hierosolymitana IX, Jerusalem: Magnes-Hebrew University. 206-228.

Blau, J. 1965. The Emergence and Linguistic Background of Judaeo-Arabic: A Study of the Origins of Middle Arabic. Oxford: Oxford University Press.

Blau, J. 1966. A Grammar of Christian Arabic: Based Mainly on South-Palestinian texts from the First Millennium. Louvain: Imprimerie Orientaliste.

Blau, J. 1977. "The Beginnings of the Arabic Diglossia: A Study of the Origins of Neoarabic". Monographic Journals of the Near East. Reprint from Afroasiatic Linguistics, 4, 175-202.

Blau, J. 1988. "The Problem of the Synthetic Character of Classical Arabic as Against Judaeo-Arabic (Middle Arabic)". Studies in Middle Arabic and Its Judaeo-Arabic Variety.

Jerusalem: The Magnas Press, 260-269.

Blau, J. 1988. "The Role of the Bedouins as Arbiters in Linguistic Questions and the mas'ala az-Zanbuuriyya". Studies in Middle Arabic and its Judaeo-Arabic Variety. Jerusalem: The Magnas Press. 135-45.

Bloch, A. 1948. Qasida' asiatische Studien. 2. 106-32.

Bloch, A. 1967. "The Vowels of the Imperfect Preformatives in the Old Dialects of Arabia" ZDMG 117, 22-29.

Bloomfield, L. 1933. Language. New York: Henry Holt.

Bowman, A. 1991. "Literacy in the Roman Empire: Mass and Mode". Literacy in the Roman World, JRA ،Suppl. 3, Ann Arbor. 119-131.

Bowman, A. 1992. "Public Buildings in Roman Egypt". JRA 5 ،495-503.

Brock, C.. Crookes, G., Day, R., and Long, M. 1986. "The Differential Effects of Corrective Feedback in Native-Speaker Non-Native Speaker Conversation". R. Day ed. Talking to Learn. London: Newbury House, 229-236.

Brustad, K. 2000. The Syntax of Spoken Arabic: A Comparative Study of Moroccan, Egyptian, Syrian, and Kuwaiti Dialects. Washington D. C: Georgetown University Press.

Campbell, L. 1998. Historical Linguistics: An Introduction. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Carroll, S. Y. Roberge and M. Swain. 1992. "The Role of Feedback in Adult Second Language.

Acquisition: Error Correction and Morphological Generalizations". Applied Psycholinguistics.13, no. 2, 173-198.

Chaudron, C. 1983. "Foreigner Talk in the Classroom- An Aid to Learning?" H. Seliger and M. Long eds. Classroom Oriented Research in Second Language Acquisition. London: Newbury House, 127-143.

Chejne, A. 1969. The Arabic Language: Its Role in History. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Chun, A. ،Day, A., Chenoweth, A., and Luppescu, S. 1982. "Errors, Interaction, and Corrections: A Study of Native-nonnative Conversations". TESOL Quarterly, 16, no. 4. 537-547.

Clements, J. 1992. "Foreigner Talk and the Origin of Pidgin Portuguese". Journal of Pidgin and Creole Languages. 7, no. 1. 75-92.

Clyne, M. 1978. "Some Remarks on Foreigner Talk". N. Dittmar, H. Haberland, T.

Skuttnab-Kangas, and U. Telman eds. Papers from the First Scandinavian - German Symposium on the Language of the Immigrant Workers and their Children. Linguistgruppen, Roskilde Universiteits Center, 155-169.

Cohen, D. 1963. Le dialecte arabe hassaniya de Mouritanie, in Etudes Arabes et Islamiques. Paris: Klincksieck.

Cohen, D. 1970. "Koine, Langues communes et dialectes arabes". David Cohen ed. Etudes de linguistique semitique et arabe. The Hague: Mouton.

Cohen, D. 1975. Le parler arabe des juifs de Tunis, vol. II. Etude Linguistique. The Hague and Paris: Mouton.

Cohen, M. 1912. Le Parler arabe des juifs d'Algers. Paris: Champion.

Corder, S. 1977. "Language Continua and the Interlanguage Hypothesis". S. Corder and E. Roulet eds. The Notions of Simplifications, Interlanguages, and Pidgins and their Relation to Second Language Pedagogy. Geneva: Droz.

Corder, S. 1977. "The Language of Kehaar." RELC Journal, vol. 8,no. 1.

Corriente, F. 1971. "On the Functional Yield of Some Synthetic devices in Arabic and Semitic Morphology". JQR, 62, 20-50.

Corriente, F. 1973. "Again on the Functional Yield of some Synthetic Devices in Arabic and Semitic Morphology". JQR 64, 154-63.

Cowan, William G. 1966. "Two Notes on Arabic Dialectology". Journal of the American Oriental Society. 86.4, 416-18.

Crowley, T. 1992. An Introduction to Historical Linguistics. London: Oxford University Press.

Day, R., Chenoweth, A., Chun, A., and Luppescu, S. 1984. "Corrective Feedback in Native-Nonnative Discourse". Language Learning. vol. 34, no. 2, 19-45.

Diem, W. 1973. "Die Nabataeischen Inschriften und die Frage der Kasusflexion im Altarabischen". ZDMG 123, 227-37.

Diem, W. 1978. "Divergenz und Konvergenz im Arabischen". Ar. 25,128-147.

Diem, W. 1979. "Studien zur Frage des Substrats im Arabischen". Islam 56, 12-80.

Diem, W. 1991. "Vom Altarabischen zum Neuarabischen: Ein neuer Ansatz". in Semitic Studies in Honor of Wolf Leslau. Alan S. Kaye ed. Vol. I, Wiesbaden: O.Harrassowtz, 297-308.

Donner,F. 1981. The Early Islamic Conquests. Princeton: Princeton University Press.

Doughty, C. 1991. "Second Language Instruction Does Make a Difference: Evidence from an Empirical Study of SL Relativization," Studies in Second Language Acquisition, no. 13, 431-469.

Dulay, H. and Burt,M. 1980. "On Acquisition Orders". S. Felix. ed. Second Language Development: Trends and Issues. Tübingen, Gunter Narr.

Dummer, J. 1968. "Angaben der Kirchenvater uber das Koptische". Probleme der koptischen Literatur. Wiss: Beitr. Halle-Wittenberg, 17-55.

Dutton, T. 1983. "The Birds of a Feather: A Pair of Rare Pidgins of the Gulf of Papua". E. Woolford and W. Washabaugh eds. The Social Context of Creolization. Ann Arbor: Karoma.

Eisenstein, M. 1983. "Native Reactions to Non-Native Speech: A Review of Empirical Research". Studies in Second Language Acquisition. 5 no. 2, 160-176.

Ellis, R. 1987. Understanding Second Language Acquisition. Oxford: Oxford University Press.

Ellis, R. 1996. The Study of Second Language Acquisition. Oxford: Oxford University Press.

Fathman, A. 1978. "ESL and EFL Learning: Similar or Dissimilar?" C. Blatchford and J. Schachter eds. TESOL 78 : EFL Policies, Programs, Practices. Washington D. C.: TESOL, 213-223.

Ferguson, C. 1959. "The Arabic Coine". Language 25. 616-30.

Ferguson, C. 1971. "Absence of Copula and the Notion of Simplicity: A Study of Normal Speech, Baby Talk, Foreigner Talk and Pidgins". D. Hymes ed. Pidginization and creolization of Languages. Cambridge: Cambridge University Press, 141-150.

Ferguson, C. 1975. "Towards a Characterization of English Foreigner Talk". Anthropological Linguistics 17, 1-14.

Ferguson, C. 1989. "Grammatical Agreement in Classical Arabic and the Modern Dialects: a response to Versteegh's pidginization hypothesis". Al-'Arabiyya 22, 5-17.

Ferguson, C. and Debose, C. 1977. "Simplified Registers, Broken Languages, and Pidgins". A. Valdman ed. Pidgin and Creole Linguistics. Indiana: Indiana University Press, 99-125.

Fischer, W. 1995. "Zum Verhältnis der neuarabischen Dialekte zum Klassisch-Arabischen". Dialectogia Arabica: A Collection of Articles in Honor of the Sixtieth Birthday of professor Heikki Palva. Helsinki: Finnish Oriental Society. 75-86.

Fleisch, A. 1961 Traite de philologie arabes, vol. I, preliminaires, phonetique, morphologie, nominale, Recherches publiees sous la direction de l'Institut de Letres Orientales de Beyrouth, 16, Beyrut: Imprimerie Catholique.

Fleisch, A. 1964. "Arabe classique et arabe dialectal". Travaux et jouurs, vol. 12 23-62.

Fleisch, H. 1947. Introduction a l'etude des langues semitiques: elements de bibliographie. Initiation a l'Islam, 4. Paris: Adrien- Maisonneuve.

Fleisch, H. 1968. L'Arabe Classique: Esquisse d'une Structure Linguistique. series 2, Langue et Littérature Arabes 5. Beirut: Dar Al-Mashreq.

Flügel, G. 1862. Die grammatischen Schulen der Araber, Erste Abteilung, Die Schulen von Basra und Kufa, und die Gemischte Schule. Leipzig: F. A. Brockhaus.

Freed, B. 1980. "Talking to Foreigners Versus Talking to Children: Similarities and Differences". Scarcella, R. and S. Krashen, eds. Research in Second Language acquisition. Massachusetts: Newbury House, 19-27.

Fück, J. 1980 alarabiyyah: Dirasat fi al-lugah wal-Lahajat wal-'asalib. Ramadan 'Abdut-Tawwab transl. Cairo: Maktabat Al-Xanji.

Fück, J. 1950. 'Arabiya: Untersuchungen zur arabischen Sprach - und Stilgeschichte. Berlin: Akademie-Verlag.

Gaies, S. 1977. "The Nature of Linguistic Input in Formal Language Learning: Linguistic and Communicative Strategies in ESL Teachers' Classroom Language". in H. Brown, C. Yorio, and R. Crymes, eds. Teaching and Learning English as a Second Language: Trends in Research and Practice. Washington D. C: TESOL, 204-212.

Gaies, S. 1979. "Language Transfer and Universal Grammatical Relations". Language Learning 29.

Galtier, E. 1902. "De l'influence du copte sur l'arabe d'Egypte". Bulletin de l' Institut francais d'archéologie Oriental du Caire 2, pp. 212-6.

Gaskill, W. 1980. "Correction in Native Speaker-Nonnative Speaker Conversation". D. Larsen-Freeman ed. Discourse Analysis in Second Language Research. Massachusetts: Newbury House, 125-137.

Gass, S and Varonis, E. 1989. "Incorporated Repairs in NNS Discourse". M. Eisenstein ed. The Dynamic Interlanguage. New York: Plenum, 71-86.

Gass, S. 1987. "The resolution of Conflicts among Competing Systems: A Bi-directional Perspective". Applied Psycholinguistics. 8: 329-350.

Gass, S. 1997. Input, Interaction, and the Second Language Learner. New Jersey: Lawrence Erlbaum.

Gass, S. and U. Lakshmanan. 1991. "Accounting for Interlanguage Subject Pronouns". Second Language Research. no. 7, 181-203.

Gass, S. and L. Selinker 1994. Second Language Acquisition: An Introductory Course. London, Lawrence Erlbaum.

Gass, S. and E. Varonis. 1985. "Variation in Native Speaker Speech Modification to Non-Native Speakers". Studies in Second Language Acquisition, no. 7, 37-57.

Gass, S. and Varonis, E. 1994. "Input, Interaction, and Second Language Production". Studies in Second Longuage Acquisition Research, 16, 283-302.

Geyer, R. 1909. Review of K. Vollers, Volkssprache und Schriftsprache im Alten Arabien. Goettingische gelehrte Anzeigen, 171.

Griffiths, R. 1991. "Psychological Research in an L2 Context: A Rationale and Review of Selected Studies". Applied Linguistics. 12, 345-364.

Hakansson, G. 1986. "Quantitative Studies of Teachor Talk". G. Kasper ed. Learning, Teaching and Communication in the Classroom. Arhus: Arhus University Press.

Harris, W. 1989. Ancient Literacy. Cambridge MA: Harvard University Press.

Hatch, E. 1978. "Discourse Analysis and Second Language Acquisition". E. Hatch ed. Second Language Acquisition. Massachusetts: Newbury House, 402-435.

Hatch, E. 1983. "Simplified Input and Second Language Acquisition". R. Andersen ed. Pidginization and Creolization as Language Acquisition. Massachusetts: Newbury House.

Hatch, E., R. Shapira, and J. Gough. 1978. "Foreigner Talk Discourse". ITL Review of Applied Linguistics. 39-40 ،39-40.

Heath J. and M. Bar-Asher. 1982. "A Judeo-Arabic Dialect of Tafilalt (Southeastern Morcco)". ZAL 9, 32-78.

Heine, B. 1982. The Nubi-Language of Kibera: An Arabic Creole. Berlin: D. Reimer.

Henzl, V. 1973. "Linguistic Register of Foreign Language Instruction". Language Learning. 23, no. 2, 207-227.

Henzl, V. 1979. "Foreigner Talk in the Classroom". International Review of Applied Linguistics. 17, no. 2, 159-167.

Hesseling, D. 1933. "Hoe Onstond de Eigenaardige Vorm van het Kreools?" T. Markey and P. Roberge eds. and trans. On the Origins and Formation of Creoles: A Miscellany of Articles by D. C. Hesseling. Ann Arbor: Karoma.

Hinds, M. 1972. "The Murder of the Caliph 'Uthman". IJMES, 3, 450-69.

Hinnenkamp, V. 1982. Foreigner Talk und Tarzanisch. Hamburg: H. Buske.

Hinnenkamp, V. 1984. "Eye-Witnessing Pidginization? Structural and Sociolinguistic Aspects of German and Turkish Foreigner Talk". M. Sebba and L. Todd eds. Papers from the Work Creole Conference, September 24-27 1983. Work Papers in Linguistics, 2.

Holes, C. 1990. Gulf Arabic. London and New York: Routlage.

Holes, C. 1995. Modem Arabic: Structures, Functions and Varieties. London: Longman.

Hopkins, S. 1984. Studies in the Grammar of Early Arabic. Oriental Series, v. 37, Oxford: Oxford University Press.

Hussleman, E. 1979. Karanis Excavations of the University of Michigan in Egypt 1928-1935. Topography and Architecture. Univ. of Michigan ،Ann Arbor: Kelsey Museum of Archaeology Studies 5.

'Ibn 'Abd Rabbihi al-'Andalusi. 1948-1949. kitab al-'iqd al-Farid. Ahmad Amin ed. Cairo:

lagnat at-ta'lif wat-tarjama wan-nasr.

Ingham, B. 1994. "The Effect of Language Contact on the Arabic Dialect of Afghanistan". Actas del Congreso Internacional Sobre Interferencias Linguisticas Arabe-Romances y Paralelos Extra-Iberos, Zaragoza, 105-119.

Issdorides, D. and Hulstijn, J. 1992. "Comprehension and Grammatically Modified and Non-Modified Sentences by Second Language Learners". Applied Psycholinguistics, 13, 147-172.

Issidorides, D. 1988. "The Discovery of a Miniature Linguistic System: Function Words and Comprehension of an Unfamiliar Language". Journal of Psycholinguistic Research, 17, 317-339.

Jacobi, R. 1971. Studien zur Poetik der altarabischen QaSida. Akad. der Wissenschaften und der Literatur, Veröffentlichungen der orientalischen Kommission, 24, Wiesbaden: Franz Steiner.

Kachru, B. 1989. "Teaching World Englishes". Cross Currents: A Journal of Communication, Language, Cross-Cultural Skills. The Language Institute of Japan, 16. 15-21.

Kaegi, W. 2000. "Egypt on the Eve of the Muslim Conquest". The Cambridge History of Egypt, vol. I, Islamic Egypt, 640-1517. Cambridge: Cambridge University Press. 34-62.

Kahana, H. & Kahana ،R. 1979. "Decline and survival of westem prestige languages". Language 55. 183-198.

Kahle, P. 1948. "The Qur'an and the 'arabiyyah". S. Löwinger S. and J. Somogyi eds. Ignace Goldziher Memorial vol. 1. Budapest. 163-82.

Kahle, P. 1949. "The Arabic Readers of the Koran". Journal of Near Eastern Studies. vol. 8, no. 2, 65-71.

Kahle, P. 1959. The Cairo Geniza. 2nd Edition. Oxford: Blackwell.

Kaimio, J. 1979. "Latin in Roman Egypt". Actes XV Congr. Int. Pap. III 27-33.

Kaye, A. 1989. "The Verb See in Arabic Dialects". Joshua A. Fishman et al. eds. The Fergusonian Impact: Vol. I, From Phonology to Society. The Hague: Mouton, 210-221.

Kaye, A. and Tosco, M. 1993. "Early East African Pidgin Arabic". J. Owens. ed. Arabs and Arabic in the Lake Chad region, Köln: Rüdiger Köppe Verlag, 269-307.

Kennedy, H. 2000. "Egypt as a Province in the Islamic Caliphate, 641-868". The Cambridge History of Egypt, vol. I, Islamic Egypt, 640-1517. Cambridge: Cambridge University Press, 62-68.

Kiefer, C. 2000. "The Arabic Speech of Bactria (Afghanistan)". J. Owens J. ed. Arabic As a Minority Language. Berlin and New York: Mouton de Gruyter, 181-199.

Kleifgen, J. 1985. "Skilled Variation in a Kindergarten Teacher's Use of Foreigner Talk". S. Gass and C. Madden eds. Input in Second Language Acquisition. London: Newbury House, 59-85.

Klein, W. 1986. Second Language Acquisition. Cambridge: Cambridge University Press.

Klein, W. and N. Dittmar. 1978. "The Acquisition of German Syntax by Foreign Migrant Workers: Heidelberger Forschungproject "Pidgin-Deutsch" D. Sancoff ed. Linguistic Variation: Models and Methods. New York: Academic Press.

Klein, W. and N. Dittmar. 1979. Developing Grammars. Berlin: Springer-Verlag.

Krashen, S. 1981. Second Language acquisition and Second Language Learning. Oxford: Pergamon Press.

Krashen, S. 1986. The Input Hypothesis: Issues and Implications. London: Longman.

Krashen, S., et al. 1982. "Age ،Rate ،and Eventual Attainment in Second Language Acquisition". S. Krashen et al. eds. Child-Adult Differences in Second Language Acquisition. Massachusetts: Newbury House.

Kubiak, W. 1987. Al-Fustat: its Foundation and Early Urban Development. Cairo:

Lapidus, I. 1981. "Muslim Settlement Policy during the Early Ummayad and Abbasid Caliphate". The Islamic Middle East. A. Udovitch. ed. Princeton: Darwin Press, 177-208.

Lapidus, I. 1995. A History of Islamic Societies. Cambridge: Cambridge University Press.

Larsen-Freeman, D. and M. Long. 1991. An Introduction to Second Language Acquisition Research. London: Longman.

Lefort, L-Th. 1950. "Greco-Copte". Coptic Studies in Honor of Walter Erwing Crum. Boston, 65-71.

Levin, A. 1998. "Sibawayhi's Attitude to the spoken Language". Arabic Linguistic Thought and Dialectology. A. Levin ed. Tel Aviv: Hebrew University Press.

Lightbown, P. and A. D'Anglejan. 1985. "Some Input Considerations for Word Order in French L1 and L2 acquisition". S. Gass and C. Madden eds. Input in Second Language Acquisition. Massachusetts: Newbury House,

Littmann, E. 1902. "Coptischer Einfluss im Aegyptisch-Arabishcen". ZDMG 56, pp. 681-4.

Long, M. 1981. "Input, Interaction, and Second-Language Acquisition". H. Winitz. ed. Native Language and Foreign Language Acquisition. New York: The New York Academy of Sciences, 379, 259-278.

Long, M. 1983a. "Native Speaker/Non-Native Speaker Conversation and the Negotiation of Comprehensible Input". Applied Linguistics, no. 4, 126-141.

Long, M. 1983b. "Linguistic and Conversational Adjustments to Non-Native Speakers". Studies in Second Language Acquisition, 5, no. 2, 177-193.

Lord, A. 1965. The Singer of Tales. New York: Atheneum. Lukaszewicz, A. 1986. Les edifices publics dans les villes de l'Egypte romaine. Studia Antiqua, warsow.

Lynch, A. 1988. "Speaking up or Talking Down: Foreign Learners' Reaction to Teacher Talk". English Language Teaching Journal, 42, 109-116.

MacCoull, L. 1988. Dioscorus of Aphrodito, His Work and His World. Berkeley: California University Press.

Meisel, J. 1977. "Linguistic Simplification: A Study of Immigrant Workers' Speech and Foreigner Talk". S. Corder. et al. eds. The Notions of Simplifications, Interlanguages, and Pidgins and their Relation to Second Language Pedagogy. Geneva: Droz, 88-113.

Meisel, J. 1980. "Linguistic Simplification: A Study of Immigrant Workers' Speech and Foreigner Talk". S. Felix. ed. Second Language Development: Trends and Issues. Germany: Gunter Narr Verlag, 9-40.

Meisel, J. 1983. "Strategies of second Language acquisition: More than One Kind of Simplification". R. Andersen. ed. Pidginization and Creolization as Language Acquisition. Rowley, Mass: Newbury House, 120-157.

Meskoob, S. 1992. Iranian Nationality and the Persian Language. Washington D C: Mage Publishers.

Miller,. 1986. "The Origin of the Modern Arabic Sedentary Dialects: An Evaluation of Several Theories". al-'Arabiyya, 19 ،47-74.

Moag, R. 1978. "Standardization in Pidgin Fijian: Implications for the Theory of Pidginization".

A. Schütz. ed. Fijian Language Studies: Borrowing and Pidginization. Suva: Bulletin of the Fiji Museum, no. 4.

Monroe, J. 1972. "Oral Composition in Pre-Islamic Poetry". Journal of Arabic Literature, vol. 3, -53.

Mühlhäusler, P. 1984. "Tracing the Roots of Pidgin German". Language and Communication, vol. 4.

Mühlhäusler, P. 1986. Pidgin and Creole Linguistics. Oxford: Basil Blackwell.

Munzel, K. 1950. "Zur Wortstellung der Erganaungsfragen im Arabischen". ZDMG, 566-76.

Nagel, P. 1971. "Die Einwirkung des Griechischen aus die Enstehung der koptischen Literatursprache". Christentum am Roten Meer, hrsg. F. Altheim und R. Stiehl, I., Berlin, 327-355.

Naro, A. 1978. "A Study on the Origins of Pidginization". Language, vol. 54, no. 2, 314-347.

Naro, A. 1983. "Comments on "Simplified Input and Second Language Acquisition". R. Andersen ed. Pidginization and Creolization as Language Acquisition. London: Newbury House,

Nassar, H. 1988. al-Mu'jam al-'arabey: Nas'atuhu wa-tatawuruhu. Cairo: Maktabat Misr.

Newton, B. 1964. "An Arabic-Greek Dialect". Word, 20, 43-52.

Nöldeke, T. 1904. Beitraege zur Semitischen Sprachwissenschaft. Strasbourg: Trübner.

Nöldeke, T. 1910. Neue Beitraege zur Semitischen Sprachwissenschaft. Strasbourg: Trübner.

O'Leary De Lacy. 1934 "Notes on the Coptic Language". Orientalia III, pp. 243-58.

Owens, J. 1996. "Arabic-Based Pidgins and Creoles". S. Thomason ed. Contact Languages: A Wider Perspective. Amsterdam: John Nenjamins Publishing Company, 125-172.

Owens, J. 1998. "Case and proto-Arabic". Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 61:1, 51-73.

Owens, J. 2000. "Introduction". Arabic as a Minority Language. Berlin: Mouton de Gruyter.

Palva, H. 1969. "Notes on the Alleged Coptic Morphological Influence on Egyptian Arabic". Orientalia XVIII, 128-35.

Parker, K. and C. Chaudron. 1987. "The Effect of Linguistic Simplification and Elaborative Modifications on L2 Comprehension". University of Hawaii Working Papers in ESL, 6, 107-135.

Parry, M. 1932. "Studies in the Epic Technique of Oral Verse-Making. II. The Homeric Language as the Language of Oral Poetry". HSCP 42, 1-50.

Parry, M. 1971. The Making of Homeric Verse: The Collected Papers of Milman Parry. A. Parry.ed. Oxford: Clarendon Press.

Petracek, K. 1968. "Quellen und Anfaenge der Arabischen Literatur". AO 36, 381-406.

Pica, T. 1987. "Second Language Acquisition ،Social Interaction, and the Classroom". Applied Linguistics, no. 8, 3-21.

Pica, T. 1988. "Interlanguage Adjustments as an Outcome of NS-NNS Negotiated Interaction". Language Learning, no. 38, 45-73.

Pica, T. and Doughty C. 1985. "Input and Interaction in the Communicative Language Classroom : A Comparison of Teacher-Fronted and Group Activities". S. Gass, S. and C. Madden eds. Input in Second Language Acquisition. New York: Newbury House ،115-132.

Pica, T., Doughty, C., and Young, R. 1986. "Making Input Comprehensible: Do Interactional Modifications Help?" ITL Review of Applied Linguistics, no. 72, 1-25.

Pica, T., Young, R., and Doughty, C. 1987. "The Impact of Interaction on Comprehension". TESOL Quarterly 21. 737-758.

Praetorius, F. 1901. "Coptische Spuren in der aegyptisch-arabischen Grammatic". ZDMG 55, 145-7.

Rabin, C. 1951. Ancient West Arabian. London: Taylor's Foreign Press.

Rabin, C. 1955. "The beginnings of Classical Arabic". SI, 4, 19-37.

Rathbone, D. 1990. "Villages, Land and Population in Graeco-Roman Egypt". PCPS.

Roeder, C. 1959. Hermopolis, 1929-1939 (Pelizaeus-Museum zu Hildesheim.

Wissenschaftliche Veroffentlichung 4. Hildesheim.

Romaine, S. 1988. Pidgin and Creole Languages. London: Longman.

Romaine, S. 1994. Language in Society: An Introduction to Sociolinguistics. Oxford: Oxford University Press.

Rosenthal, F. 1953. "Review of Fück". Orientalia, vol. 22, 307-11.

Rousseu, P. 1985. Pachomius: The Making of a Community in Fourth-Century Egypt. Berkeley.

Rowlandson, J. 1998. Women and society in Greek and Roman Egypt. Cambridge: Cambridge University Press.

Rubenson, S. 1995. The Letters of St. Antony. Minneapolis.

Rubenson, S. 1996. "The Transition from Coptic to Arabic". Egypte Monde Arabe. CEDEJ, 77-91.

salabi, A. 1974. Mawsu'at at-Tarix wal-Hadara al-'islamiyya. Cairo: Maktabat al-Anglo al-Misriyya.

Schegloff, E., G. Jefferson, and H. Sacks. 1977. "The Preference for Self-Correction in the Organization of Repair in Conversation". Language, 53, no. 2, 361-382.

Schinke-Liano, L. 1990. "Can Foreign Language Learning be Like Second Language Acquisition? The Curious Case of Immersion". B. Van Patten. and J. Lee eds. Second Language Acquisition- Foreign Language Learning. Clevedon: Avon.

Schmidt, R. 1983. "Interaction, Acculturation and the Acquisition of Communication Competence". N. Wolfson. and E. Judd, eds. Sociolinguistics and Second Language acquisition. Rowley, Mass: Neybury House, 137-174.

Schmidt, R. 1990. "The Role of Consciousness in Second Language Learning". Applied Linguistics, no. 11, 129-158.

Schuchardt, H. 1909. "Die Lingua Franca". Zeitschrift für Romanische Philologie, vol. 33, 441-461.

Schuchardt, H. 1914 "Die Sprache der Saramakkaneger in Surinam". T. Markey. (1979) ed. and trans. Hugo Schuchardt: The Ethnography of Variation: Selected Writings on Pidgins and Creoles. Ann Arbor: Karoma.

Schumann, J. 1978. The Pidginization Process: A Model for Second Language Acquisition. Rowley MA: Neybury House.

Sebba, M. 1997. Contact Languages: Pidgins and Creoles. London: Macmillan.

Selinker, L. 1972. "Interlanguage". International Review of Applied Linguistics 10,

209-231.

Shahid, I. 1988. Byzantium and the Semitic Orient before the Rise of Islam. London: Variorum Reprints.

Sibawayh. 1982. al-Kitab. 'Abd al-Salam Harun ed. Cairo: maktabat al-Xanji.

Smith, S., N. Scholnick, Crutcher, A. and M. Simeone. 1991. "Foreigner Talk Revisited: Limits to Accommodations to Nonfluent Speakers". J. Blommaert. and J. Verschueren eds. The Pragmatics of Intercultural and International Communication. Amsterdam: John Benjamins, 175-185.

Sobhy, G. 1950. "Common Words in the Spoken Arabic of Egypt, of Greek or Coptic Origin". Cairo: Publications de la Societe d'archeologie Copte.

Spitaler, A. 1953. "Review of Fück". Bibliotheca Orientalis, vol. 10: 144-50.

Spitta-Bey, W. 1880. Grammatic des arabischen Vulgaerdialectes von Aegypten. Leibzig.

Swain, M. 1985. "Communicative Competence: Some Roles of Comprehensible Input and Comprehensive Output in its development". S. Gass. and C. Madden eds. Input in Second Language Acquisition. London: Newbury House, 235-253.

Talmoudi, F. 1984. "Notes on the Syntax of the Arabic Dialect of Susa". Zeitschrift für arabische linguistik 12: 48-85.

Taylor, D. 1980. "Ethnicity and Language: A Social Psychological Perspective". H. Giles et al. eds. Language: Social Psychological Perspectives. Oxford: Pergamon Press.

Tha'lab. 1966. Qawa'id as-si9'r. Ramadan 'Abd al-Tawab ed. Cairo: Dar al-Ma'arif.

Todd, L. 1990. Pidgins and Creoles. London: Routledge.

Varonis, E. and S. Gass. 1985. "Non-Native/-None-Native Conversation: A Model of Negotiation of Meaning". Applied Linguistics, no. 6, 71-90.

Versteegh, K. 1984. Pidginization and Creolization: The Case of Arabic. Amsterdam: John Benjamins.

Versteegh, K. 1993. "Leveling in the Sudan: from Arabic Creole to Arabic Dialect". IJSL 99, 65-79.

Versteegh, K. 1997a. The Arabic Language. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Versteegh, K. 1997b. The Arabic Linguistic Tradition. London: Routledge.

Versteegh, K. 2004. "Pidginization and Creolization Revisited: The Case of

Arabic". Approaches to Arabic Dialects: A Collection of Articles Presented to Manfred Woidich on the Occasion of his Sixtieth Birthday. Leiden and Boston: Brill, 343-359.

Violet, E. 1902. Ein zweisprachiges Psalmfragment aus Damaskus. Berlin.

Vollers, K. 1906. Volkssprache und Schriftsprache im Alten Arabien. Strasbourg: Trübner.

Watt, M. 1970. Bell's Introduction to the Qur'?n. Islamic surveys 8, Edinburgh: Edinburgh University Press.

Wehr, H. 1952. "Review of Fück". Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. vol. 102: 179-86.

Wellens, I. 2003. An Arabic Creole in Africa: The Nubi Language of Uganda. A Ph.D. dissertation presented to the Catholic University Nijmegen, the Netherlands.

Widdowson, H. G. 1977. "Pidgin and Babu". S. Corder et al. eds. The Notions of Simplification, Interlanguages and Pidgins and Their Relation to Second Language Pedagogy. Switzerland.

Wipszycka, E. 1984. "Le degre d'alphebetisation en Egypte byzantine". Revue des Etudes Augustiniennes 30 : 279-96.

Youtie, H. 1971. "Bradeos Graphon : Between Literacy and Illiteracy". GRBS 12: 239-61.

Youtie, H. 1975. "Hypographeus: The Social Impact of Illiteracy in Greco-Roman Egypt". ZPE 17: 201-21.

Zwettler, M. 1978. The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry: Its Character and Implications. Princeton: Princeton University Press.

المؤلف فى سطور :

محمد الشرقاوى

أستاذ مساعد فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

ولد بالقاهرة فى أواخر عام ١٩٧١ .

حصل على ليسانس الآداب من جامعة عين شمس بالقاهرة فى عام ١٩٩٣ . حيث التحق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة للحصول على درجة الماجستير فى علوم اللغة التطبيقية وتعليم العربية للناطقين بغيرها .

حصل على الماجستير عام ١٩٧٧ .

حصل فى عام ١٩٩٩ على جائزة التفوق الأكاديمى، ومنحة من الحكومة الهولندية للحصول على الدكتوراة من جامعة رادبود، حيث حصل على شهادة الدكتوراه عام ٢٠٠٥ .

عمل فى تلك الأثناء فى جامعات عدة منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة وكلية ميدلبرى فى الولايات المتحدة والجامعة الكاثوليكية بينميجن بهولندا وجامعة بيرويت بألمانيا .

للمؤلف خمس ترجمات من الإنجليزية إلى العربية نشرها المجلس الأعلى للثقافة ضمن إصدارات المشروع القومى للترجمة .

كما نشر عدداً من المقالات فى دورية اللغة، ونشر ثلاث مقالات بموسوعة اللغة العربية ، وله مقال واحد فى كتاب تذكارى أصدره معهد اللغة العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

التصحيح اللغوى : علـــى الســـيد
الإشـــراف الفنـى : حـــسن كـــامل